

المقدّمة

الأنبياء من وحي القرآن والسنة

تأليف

أ د عقيل حسين عقيل

القاهرة 2017

## المحتويات

4.....	المقدمة.....
11 .....	آدم: .....
36 .....	النبي إدريس: .....
48 .....	النبي نوح: .....
72 .....	النبي هو: .....
94 .....	النبي صالح: .....
118 .....	النبي لوط: .....
144 .....	النبي إبراهيم: .....
173 .....	النبي إسماعيل: .....
192 .....	النبي إسحاق: .....
214 .....	النبي يعقوب: .....
237 .....	النبي يوسف: .....
261 .....	النبي شعيب: .....
271 .....	النبي أيوب: .....
292 .....	النبي ذو الكفل: .....
306 .....	النبي يونس: .....
330 .....	النبي موسى: .....

355	.....	النبي هارون:
371	.....	النبي إيلياس:
385	.....	النبي اليسع:
409	.....	النبي داوود:
431	.....	النبي سليمان:
459	.....	النبي زكريا:
473	.....	النبي يحيى:
495	.....	النبي عيسى:
526	.....	النبي محمد:

## المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ  
كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا  
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ }<sup>1</sup>

يعد البحث في الرسائل السماوية وما يتعلق بالأنبياء والمرسلين وسيرتهم في الدعوة والتبليغ ومنهجهم في الحياة أمر بالغ الأهمية في العقيدة والسلوك، لأنه يقدم للإنسان الباحث عن مثالية يعيشها وعطاء يأمله كل ما يعينه على تحقيق مبتغاه، وذلك من خلال مجموعة الدروس والعبير التي يمكن أن ينهل منها وهو يبحث في تلك السير الخالدة.

وهذا الأمر لا يتأتى بالوصف المجرد عن التحليل؛ لأن الوصف يعرض الأشياء كما هي بينما التحليل يقدمها كما أريد لها أن تكون، لذلك كان منهجنا هنا وفي كل ما كتبنا التحليل المستند على آيات القرآن الكريم بالدرجة الأساس، ثم أخذنا من السنة النبوية المؤكدة دليلاً وشاهداً.

ولأننا نعتقد جازمين أن القرآن هو كتاب الله الذي أنزل على محمد وفيه مما أنزل على جميع الأنبياء والمرسلين في كل زمان ومكان، لذلك؛ فإننا إذ نطلق من القليل لاشك وجدنا الكثير من الداعم والمفصل لهذا القليل، وهذه دعوة لكل من له رغبة حقيقية في البحث، دعوة لأن تكون آيات القرآن شاملة غير مقصورة ولا محدودة على موضوع واحد، فالقرآن نص واحد من الواحد جلّ وعلا، ولا متغيّر في ثوابته التي جاء بها كل الأنبياء والمرسلين عليهم الصلوة والسلام، وإنما التغيير قد حصل بما

---

<sup>1</sup> البقرة 285.

هو تابع للمتغير (الإنسان) من حيث مراعاة الله عزّ وجلّ لمتطلبات الحياة ورغبات الإنسان وطبيعة سلوكه. ولقد خلق الله تعالى الكون كلّهُ: السماوات والأرض، وما بينهما وما فيهما وما فوق ذلك بالحقّ، وأرسل الله تعالى رسله بالحقّ، وأنزل كتبه بالحقّ.

ولأنّ الحقّ وبالمطلق هو ضد الباطل والضلال، فقد جاء الرُّسل بالحقّ ودعوا إليه، وجاء الشيطان وأتباعه بالباطل والضلال ودعوا إليه، والله تعالى يريد أن يحقّ الحقّ ويبطل الباطل، فاصطرع الحقّ والباطل ولا يزالان كذلك، وفي النهاية يقول الحقّ: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} <sup>2</sup> ولا إجابة إلا: {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} <sup>3</sup>.

لقد خلق الله تعالى الكون كلّهُ، وأرسل رسله مبشّرين ومنذرين، وأنزل كتبه هداية بين العباد.

فقد أفلح من آمن بالله واحد أحد، ولم يشرك به شيئاً، ولم يثنيه ولم يثلثه ولا يعدّده، إنّه الله الذي تتعدّد صفاته الحسنى ولا يتعدّد، وقد فاز من استمسك بما جاء به الأنبياء والرُّسل صلّى الله عليهم وسلّم، فما جاؤوا إلا بالحقّ، وما أمروا إلا بالهداية، وما نحووا إلا عن الضلال والفساد والكفر والشرك والظلم، وما دعوا إلا للمحبّة والتسامح والصفح والعفو والتصالح كما دعوا للعمل الصّالح.

فقد جاءت الرُّسل بالحقّ المنزّل تنزيلاً، وبشّروا به، ودعوا إليه، ونحووا عمّا نهى الله عنه؛ فالحقّ تعالى يريد أن يحقّ الحقّ ويزهق الباطل، فاصطرع أنصار الحقّ مع أنصار الباطل، وهكذا هم يختلفون إلى النهاية التي تقود للإيمان والهداية للحقّ والعمل به.

---

<sup>2</sup> غافر 16.

<sup>3</sup> غافر 16.

إن قضية الصراع بين الحقّ والباطل وبين الخير والشر قضية قديمة بدأت فصولها مع بداية وجود الإنسان على الأرض، وسوف تتواصل هذه الفصول طالما كان هناك إنسان في هذا الوجود، ولقد أرسل الله سبحانه وتعالى أنبياءه ليقودوا صراع الخير ضد الشر، وصراع الحقّ ضد الباطل ممثلاً بجهادهم في سبيل الله بالكلمة والحجّة والمنطق والقول والفعل والعمل والقدوة الحسنة.

إنّ الله سبحانه وتعالى عندما بعث الأنبياء والرُّسل صلّى الله عليهم وسلّم، كان عماد دعوة كلّ واحد منهم الدعوة إلى الله وواحديته، وإخلاص العبادة له، ودحض الشرك والضلال بكلّ أنواعه، ودفع الشبهات وقمع الشهوات التي يرفع لواءها المبطلون والمفسدون، في مقاومة ما جاء به الرُّسل من التوحيد والحقّ اللذين تكون عليهما سعادة البشر في الدنيا والآخرة، وبالأنبياء والرُّسل تكون النجاة.

ولذا، لم تقتصر دعوة الأنبياء والمرسلين صلّى الله عليهم وسلّم على الدّعوة إلى التوحيد، وإتّما دعوة التوحيد عليها مترتبات تفضي إلى إصلاح الأرض وإعمارها بإصلاح الإنسان الذي حاد عن جادة الصواب والعدل.

إنّ من سنن الله الكونية أنّ الله قد أوجب على الإنسان السعي في الأرض وبذل الجهد والتعب من أجل الكسب الحلال الذي لا يظلم فيه أحداً ولا أحدٌ يظلم.

إنّ التمتع بدون تعب وجهد وعطاء وأخذ فهو في الحياة الآخرة، أمّا الحياة الدنيا جعلها الله في قلة الموارد وشحّتها ما لم تبذل الجهود من أجل الحصول عليها وتوفيرها، ولكن عدم توفرها لا يعني الانعدام الكلّي أو عدم إمكانية توفيرها، بل توفيرها يستوجب جهد يبذل، {وَقُلِ اعْمَلُوا

فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ<sup>4</sup> فالندرة والقلة والشححة في الموارد الاقتصادية هي نسبية وليست مطلقة، أي: أنّ الندرة تحدث إذا عطل الإنسان ملكاته وقدراته ولم يعمل على استغلال طاقاته الذهنية والعقلية والبدنية {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}<sup>5</sup>.

إنّ من واجب الإنسان أن يمارس عملية التفكير والاختراع والسعي والعمل على توفير احتياجاته وما يشبع حاجته بالطرق المشروعة التي ترضي العباد بما شرّعه الله تعالى لعباده، فما يصنعه الإنسان أو يكتشفه أو يحصل عليه، إنّما هو من صنع الله وخلقته، ولذا ينبغي فهم قول الله تعالى على هذه الحقيقة: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}<sup>6</sup>.

إنّ ما يتوصل إليه الإنسان من الحصول على الحاجات أو إبداع مخترعات، أو ما يلهمه الله من معرفة للأسرار الكونية، هو ما أذن الله به للناس ممّا أودعه الله تعالى في هذه الأرض من الأقوات، وقد أذن الله تعالى في زمن من الأزمنة لقوم من الأقوام بفتح من الفتوح باكتشاف حاجة من الحاجات التي تلبّي متطلبات ذلك الوقت أو العصر أو الفترة الزمنية، ولم يأذن بها إلا في حينها لتشبع حاجة العصر والمجتمع الذي ظهرت فيه، كما أنّه يأذن سبحانه وتعالى في اكتشاف حاجات أخرى في وقت آخر لأقوام آخرين، كي نقف على حقيقة ثابتة، وهي: أنّ الله تعالى قد تكفّل بتوفير احتياجات الإنسان، وأنّ الموارد المتاحة كفيّلة بتوفير احتياجاته بشرط أن يسعى وفق سنن الله، وضمن نطاق العبودية له سبحانه تعالى، ولهذا فإنّ الانحراف عن هذا المنهج سيكون سببا في

---

<sup>4</sup> التوبة 105.

<sup>5</sup> 30.

<sup>6</sup> الصفات 96.

ندرة الموارد حيث يصبح ذلك أداة لإنزال عقاب الله تعالى على من ينكر  
النعم التي انعمها الله عليه، { وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا }<sup>7</sup>.

وأما من يريد أن يستحوذ على حاجات الآخرين أو ما يشبع  
حاجاتهم بطرق وأساليب ما أنزل الله بها من سلطان ولم يقرّها شارع ولا  
شريعة، ولم تدعُ إليها ملّة الله ولا عقيدته، فقد ابتعد عن المنهج الحقّ  
والطريق القويم وسبيل الرشاد الذي يفضي إلى مرضاة الله تعالى، وبالتالي  
يكون قد ترك حبل النجاة الموصل إلى الآخرة بأمان.

إنّ قضية الصّراع بين الحقّ والباطل والخير والشر قضية قديمة بدأت  
فصولها مع بداية وجود الإنسان على الأرض، وسوف تتواصل هذه  
الفصول طالما كان هناك إنسان في هذا الوجود، ولقد أرسل الله سبحانه  
وتعالى أنبياءه ليقودوا صراع الخير ضد الشر، وصراع الحقّ ضد الباطل  
مثلاً بجهادهم في سبيل الله بالكلمة المعجزة والحجّة والمنطق.

إنّ أفضل الجهاد هو جهاد الأنبياء والرّسل الكرام عليهم الصّلاة  
والسّلام، وهو جهاد المعجزة والحجّة والبرهان في الدعوة إلى الله  
وواحديته، وإخلاص العبادة له، ودحض الشرك والضلال بكلّ أنواعه،  
ودفع الشبهات وقمع الشهوات التي يرفع لواءها المبطلون في مقاومة ما  
جاء به الرّسل من التوحيد والحقّ اللذين تكون عليهما سعادة البشر في  
الدنيا والآخرة، وبالرّسل تكون النجاة ويكون الخلاص من غضب الله وما  
ينشأ من الشقاء والهلاك في الدنيا والآخرة.

ومن هنا أقدم مؤلفنا (موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنة)  
للقرّاء الكرام، جهداً قضيناه بحثاً عبر ثماني سنوات انهيها إنتاجاً بحثياً في  
ليلة القدر من العام الميلادي 2017.

---

<sup>7</sup> النحل 18.



وهنا أقول: (الكمال لله وحده) ما بذلته من جهد بحثي لا يمكن أن يكون كاملاً، ولأنه كذلك نأمل من الباحثين التصحيح والتصويب والنقد البناء، ونأمل أيضاً أن تكون الفرص فسحة أمامنا للإقبال على ذلك.

والتمس عذرا إن وردت أخطأ مطبعية، وبخاصة إن لحقت شيء من آيات القرآن الذي لا مصدر غيره سوى الكتاب الذي لا يأتيه الباطل ابدا. {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} <sup>8</sup>، وقال تعالى: {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} <sup>9</sup>.

وإن وجد من وجد تكرارا لشيء مما كتبنا؛ فكانت الضرورة من وجهة نظرنا تستوجب ذلك.

وقد خصصنا القوسين { } لعرض الآيات القرآنية الكريمة، وخصصنا القوسين ( ) للتفسير والتحليل والشرح، وتابعا ذلك منهجيا وفقا لما نراه كونه لم يكن منزلا.

ولأنّ مصادر ومراجع هذه الموسوعة كثيرة جداً (تكاد أن تكون مجلدا بحاله)؛ فضلنا إبقائها حواشي صفحات وفقا لورودها تسلسلا.

ومع أنّ البعض قد يظن أنّ الرّحلة شاقّة وكانت طويلة، لكننا بحقّ عشناها نزهة مع آيات الخالق جلّ جلاله ومعجزات الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، وكذلك لقد وقفنا على كثير من الخوارق للصالحين والعلماء والحكماء الذين خصّهم الله بما خصّهم به {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} <sup>10</sup>.

---

<sup>8</sup> فصّلت 41، 42.

<sup>9</sup> البروج 21، 22.

<sup>10</sup> الأحزاب 23.

دعا الله سبحانه وتعالى الناس جميعا إلى عبادته، وذلك عن طريق رسله وأنبيائه عليهم الصلّاة والسّلام، هذه الدّعوة ابتدأت بنزول آدم صلّى الله عليه وسلّم؛ ففيها بيان وإيضاح في كيفية عبادة الله تعالى وتوحيده، فالخليقة من بعد آدم عليه السّلام لم تكن كلّها على وتيرة واحدة من التوجه أو المعتقد أو الاعتناق أو حتى السّمة الأخلاقية، فالاختلاف حاصل بينهم في كلّ شيء، إذ كان لكلّ قوم سمة خاصّة مختلفة عن الأقسام الأخرى، فضلا عن ذلك أنّ كثيرا منهم لم يستمر وجدودهم الأرضي، فقد انتهوا ولم تبق لهم باقية كعاد وثمود.

إنّ الاختلاف الحاصل للأقسام صاحبه تعدد الأنبياء، ذلك أنّ كلّ نبي جاء لكي يصحح ما هو حاصل أو يضيف أمرا جديدا، فكان لكلّ قوم نبي يأتي مصلحا وموجها وحاثا، كي يعالج ما يجد عندهم من انحراف عقائدي أو خلقي.

يقتضي البحث في قصص الأنبياء عليهم الصلّاة والسّلام فهم النصّ القرآني وفق معيار روح القرآن الذي يخاطب العقل الإنساني في كلّ زمان ومكان، دون تغييب له أو فرض سلطة عليه تحدّد من دوره في التعاطي مع جوهر الكون والتعامل معه، تأسيسا على أنّ الإنسان خليفة الله في الأرض، الذي عليه أن يتدبّر بعقل وبحكمة وبنطق مصداقا لقوله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} 11.

ومن يتدبّر القرآن بحثا علميا لا شكّ أنّه يصل إلى حقيقة: إنّ الأنبياء منزّهين عن النقائص التي حاول البعض الصاقها بهم جهلا أو كيدا، ومن خلال ما بذلته من جهد موضوعي عرفت أنّ الأنبياء لا فرق بينهم من حيث الدعوة لله وحده، وعرفت أنّ الله يحبّهم وكأهمّ نبيا واحدا، وهنا أقول: لو لم أكن مسلما مؤمنا بالرسالة الخاتمة ورسول الكافّة

محمد عليه الصلّاة والسّلام، وقرأت عن نبي واحد منهم لآمنت به نبيا  
كما هو إيماني الآن بمحمد نبيا عليه الصلّاة والسّلام، {لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ  
أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} <sup>12</sup>.

وعليه، أقول: إنّ الصلّاة والسّلام على محمد هي صلاة وسلام على  
جميع الأنبياء والرّسل الكرام عليهم الصلّاة والسّلام.

وعلى ما تقدّم كان أبو البشر آدم صلّى الله عليه وسلّم مدار بحث،  
وتأمل، ومراجعة، وتصويب. ومن هناك كانت لنا بداية النزهة الجمالية في  
معجزات الخالق مع النبي آدم عليه الصلّاة والسّلام.

آدم:

في ذاكرة الوعي الفردي والجمعي ممّا تحمل من أكداس معرفية عن  
آدم بعضها مصدره كتب اليهود والنصارى التي استطاعت أن تتسلل  
لتمرکز في الخزين المعرفي نقول غير ممنهجة تمّ حشو بعض الكتب بها،  
وعليه فقد تلقّتها عقول العامّة ولا نبالغ إذا قلنا بعض الخاصّة، فاعتقد  
من تلقى هذه الموجات المخلوطة بالإسرائيليات أنّها تعبّر عن الصواب في  
عمومها عن آدم وزوجه وابنيه وهي ليست كذلك.

فهناك تساؤلات تختلج في أعماق النفس تفضي لخلخلة في  
موروثات العقل (الواهم) وقد تكونت عبر خيوط عنكوبية ممّا حيك حول  
آدم بشكل أقرب للخيال الخرافي وبين ما يتّسق ومدخلات العقل  
ومخرجات المنطق ليفضي ذلك إلى الوصول لصورة معقولة عن أبي البشر،  
مقبولة في العقل بانبساط فكري معتدل.

وقد دفعت الرّغبة في التأمّل الجاد إلى تساؤلات منها:

- أ يحتاج هذا المنقول المعرفي إلى إعادة نظر أم لا؟

---

<sup>12</sup> البقرة 285.

- أ يحتاج قبوله كما هو؟

- أم تنقيته؟

- أم تصفيته؟

- أم رفضه؟

- أم إعادة صياغته؟

- أم التحول عنه إلى مصدر موثوق؟

فآثرنا التعويل على مصدر لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فكان القرآن الكريم وسيبقى مصدرنا الأوّل الذي نستقي منه لنروي ظمأ البحث.

والتمييز بين الحقّ والباطل وفق حوار يقبل به الإنسان مع التقدير لخصوصية دينه وجنسه ولغته، بوسيلة أعطها الله لاستبانة السبيل (العقل) وهذه هي سبيل الدّعوة حجّة بحجّة، ورأي برأي ومنطق وموضوعية لا تعصّب ولا إكراه مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} 13.

ولما كان هذا السبيل (الدّعوة ببصيرة) فقد ألزمتنا أنفسنا به.

إنّ نبي الله آدم من خلال ما كتب عنه وحوله قد اتسمت صورته المعرفية لدى عموم النّاس بالغموض أحيانا، وبالاضطراب أحيانا أخرى وبضباية تفسير المواقف التي مرّت بآدم ومرّ آدم بها.

فآدم لم يسم ابنه عبد الحرث.

---

<sup>13</sup> يوسف 108.

وآدم لم تغوه زوجته.

وزوجه لم يغوها إبليس بغرض إغواء آدم.

وآدم ليس المسئول عن خطيئة البشر.

وزوج آدم ليست أقل مرتبة منه في الخلق.

فآدم المجمعول خليفة بالعلم.

آدم المتحدث لغة السماء.

الملائكة منزّهون عن كبر المعصية.

مرتبة الطّاعة رفعت الملائكة.

كبر المعصية أذلّ إبليس

علم آدم فاق علم الجنّ والملائكة.

آدم مسجود له مرتان.

سجود الخلق، وسجود الاستخلاف.

هذا وغيره من قضايا قد تناولناها من خلال القرآن الكريم والعقل  
المستنير الذي يرضى بالحقّ الذي يؤسّس على كتاب الله وسنة نبيه صلّى  
الله عليه وسلّم ويتوافق مع لغة العصر وحوار العقل، لا النقل المشوّه  
والتعصّب الأعمى.

أردنا أن ننظر إلى كلّ ما تقدّم على هذا البحث زمننا لعرض  
شخصية سيدنا آدم وفق صورته القرآنية وما جاء في السنّة الشريفة.

وكذلك زوجه عليها السلام وما قيل عنها ينتقص من حقها وهي المخلوقة على المساواة مع آدم، العاملة بعلمه، الخليفة معه، أم البشر جميعا التي قيل عنها حواء مع أنّها لم تذكر مسمى في القرآن الكريم.

وابنيه (وهما الآخران لم يسميا قاييل وهاييل في القرآن الكريم) وما مرّا به من طاعة ومعصية وما أثير حولهما وما ألصق بهما وهما على السواء منه براء، مع الإقرار بطاعة الطائع ومعصية العاصي.

فكان البحث في شخصية آدم وفق منهج قرآني وهدى نبوي بعقل إنساني يخاطب الإنسان بلغة العقل لا بلغة التعصّب للإكراه على قبول صورة عبر مرآة مهشمة تحت مطرقة العقل الذي لا يقبل بالمشوه بل يقبل بالمستوى ويرضخ له مصداقا لقوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} 14؛ فهل المخلوق في أحسن تقويم يتقبل المشوه في أسوأ تشويه؟

فالآن آن حوار العقل الذي ازدان به الإنسان أن يخاطب بقاعدة نصّ عليها المولى عزّ وجلّ؛ فقال سبحانه وتعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} 15، ونحن قد آمنا بكتاب صفته الهدى، يقول المولى سبحانه عن كتابه: {يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} 16.

فكان هدينا بالله وبكتابه وبسنة نبيه صلى الله عليه وسلم في هذا الكتاب الذي تناول (آدم صلى الله عليه وسلم في السماء والأرض).

خُلِقَ آدم عليه الصلّاة والسلام في الجنّة عندما كانت السماوات والأرضين مرتقة؛ فكان خلقه من طين من صلصال كالفخار، {خَلَقَ

---

<sup>14</sup> التين 4.

<sup>15</sup> البقرة 256.

<sup>16</sup> الجن 2.

الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ}17، والصلصال لم يكن فخارا، بل يشبهه؛ فجاء التشبيه لتقريب المعنى والتعريف بالمشبه (كالفخار)، ومن ثم فقد ارتبط الصلصال بالنوعية الراقية والجودة الرفيعة. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ"18، أي كما جاء في القرآن أنه من صلصال كالفخار. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: "خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ جَمِيعَهَا مِنْ أَسْوَدِهَا وَأَحْمَرِهَا وَأَبْيَضِهَا وَطَيِّبِهَا وَلَيْثِهَا وَعَلِيظِهَا وَسَبَاحِهَا فَكُلُّ ذَلِكَ أَنْتَ رَأَيْ فِي وَادِهِ"19

والتساؤل: كيف يفك اللبس بين مفهوم خلق آدم في الجنة وخطيئته هناك، وبين خلقه من تراب الأرض؟

الأرض التي نشأ آدم وزوجه منها كانت في زمن الرتق مع السماوات قطعة من الجنة، ولذلك؛ فطينة خلق آدم وزوجه هي من طين الجنة قبل أن تنفصل الأرض عنها، وتصبح دُنيا (سفلى)، ولكن بعد أن أهبط بهما وبمن معهما من أزواج، لم تبق الأرض قطعة جنة، ولذا؛ فأدم وزوجه لم يخلقا من الأرض بعد إنفثاقها من ذلك الوجود الأول (سماوات وأرضين)، بل خُلِقَ من الأرض قبل الانفثاق العظيم، {فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى}20. ولا شك أن البقاء في الجنة بقاء في التَّعِيم، أمَّا البقاء في الأرض بعد انفثاقها من السماوات أصبحت دنيا، ولم تعدّ عليا كما كانت جنة.

<sup>17</sup> الرحمن 14.

<sup>18</sup> المسند الموضوعي الجامع للكتب العشرة، 1، 153.

<sup>19</sup> العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني، 5، 1547.

<sup>20</sup> طه 117.

إنَّ الأرض بعد هبوطها والأزواج التي على ظهرها سُلبت من نعيم الجنة، ولم يترك لها إلا شيء من الماء الكفيل بحياة الأزواج المتكاثرة في الحياة الدنيا، {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا} 21. أي: أنَّ السماوات والأرض عندما كانت مُرتقة في وحدة الوجود العظيم كانت قطعة جنة، ولكن بعد أن فُتقت؛ فلم يفتق معها من نعيم الجنة إلا الماء، الذي يحفظ الأحياء على الحياة الدنيا، (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا).

ولأنَّ نشوء الإنس نشوء غير كامل؛ فكانت الخطيئة من الإنسان الأول (أصل السَّلالة البشريَّة)، ولذلك، لو أخذ آدم بأمر النهي، وبقي ممتنعا عن الأكل من تلك الشجرة، لكانت حياته مثل خلقه في النعيم، {فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفَحَا بِخَصْفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى} 22، ولكن التساؤل:

متى بدأت الحياة على الأرض؟

خلق آدم هو الخلق الأول، وهو النبي المرسل للملائكة والجن والإنس جميعا، (قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ). فلما أنبأهم سجد الملائكة إلا إبليسَ (أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ). وإلا هل هناك من يشكُّ في أن الذي سجد الملائكة له، لم يكن على الارتقاء مفضَّلا؟

ومع أنَّ الإنسان الأول خُلق من الأرض؛ لكنَّه لم يُخلق من أرضٍ رمادٍ (عدم)، ولا من الأرض الدنيا، بل خُلق من الأرض العليا التي تراها وطينها وصلصالها جنة. ولذلك؛ فحياة الإنسان الأول كانت حياة عليا، أما الحياة على الأرض الدنيا فهي الحياة السفلى.

<sup>21</sup> الأنبياء 30.

<sup>22</sup> طه 121.



أي: بمقارنة ذلك النعيم مع ما يتوفّر على سطح الأرض الدّنيا؛ فلا مقارنة، وهنا، تكمن سُفلية الحياة الدّنيا، وفي المقابل ترتقي حياة النّعيم وتعلو.

ولذلك، في الأرض العليا (المرتقة مع السّماوات) كان نشوء الحياة فيها من كلّ زوجين اثنين، وقبل الزوجين كان الملائكة والجنّ من خلّاتق الجنّة، ولكن نتيجة الإغواء الذي شبّ بين الإنس والجنّ أهبط بهما والأرض حيث أصبحت أرضاً دُنيا بعد أن كانت أرضاً عليا، وظلّت الملائكة في السّماوات العليا غير مخالفة لأمر الخالق، وهي لا تنزل للأرض إلا لأمرٍ. {تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ} 23، أي: كلما لزم أمر تنزلها تُنزل، {يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ} 24.

فالأرض بعد أن أصبحت دُنيا قلّ شأنها عمّا كانت عليه، وذلك بفقدانها صفات الجنّة التي لم يعدّ منها شيئا، إلا شيء من الماء، {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا} 25؛ فالأرض خُلقت وهيأت للحياة العليا، ثمّ فُتقت بما هيأت به للحياة الدّنيا، فكان الانفتاح العظيم انفتاح أكوان (سماوات وأرضين) وهو النّشوء العظيم، الذي به تمدّد الكون متسارعا في اتساعه، وإنّه لمن الصّعب معرفة أسراره إلا مؤشرات.

ولأنّ الإنسان الأوّل (آدم) قد خُلِق في أحسن تقويم؛ فهو من حميا مسنون، (من مادّة ذات جودة عالية) حيث لا شائبة، ومن ثمّ؛ فلا طين

---

<sup>23</sup> القدر 4.

<sup>24</sup> آل عمران 124.

<sup>25</sup> الأنبياء 30.

يمثلها؛ فالطين الذي حُلق منه الإنسان من صلصال (أرقى أنواع الطين).

فخلق الإنسان مُفضلاً على جميع المخلوقات بما فيها الملائكة والجن. {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 26.

ولأنَّ الإنسان هو المفضل خلقاً؛ فعلمه الله نبأ ما لم يعلمه الملائكة، {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} 27.

ولأنَّ خلق آدم كان أكثر ارتقاء من غيره، سجد الملائكة إليه طاعة لأمر الله، {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا} 28، أي: بأسباب الخلق ارتقاء والنبأ العظيم الذي تلقاه آدم من ربه، سجد الملائكة له طاعة للنبأ الذي أنبأه الله به.

ولأنَّ الجنس الآدمي هو المفضل ارتقاء، كان آدم نبياً للملائكة والجن والإنس جميعاً، (قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ). فلما أنبأهم سجد الملائكة إلا إبليس (أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ). وإلا هل هناك من يشك في أن الذي سجد الملائكة له، لم يكن على الارتقاء مفضلاً؟

<sup>26</sup> البقرة 30.

<sup>27</sup> البقرة 31. 33.

<sup>28</sup> البقرة 34.

أما الخلق الثاني: فهو الخلق المؤسس على النطفة (الماء الدافق) {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ} 29. وهذا الخلق هو الخلق التزاوجي، الذي يختلف عن ذلك الخلق المصلصل، مما جعل السلالة الثانية تختلف عن السلالة الأولى؛ فالسلالة الأولى: من طينٍ لازب، والسلالة الثانية: من ماءٍ دافق ومهين، {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ} 30.

ولأنّ الإنسان خلق على الارتقاء؛ فينبغي أن يكون عليه قمة وكأته كبد الكون، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ} 31، أي: خلق الإنسان على المحبة؛ فينبغي أن يكون عليها كبدًا تتألم مع من يتألم، وتأمل الخير مع من يأمله، وتعمل في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع على تحقيقه، وكذلك ينبغي أن تسعد مع من يسعد، وتسعى استقامة واعتدالا ولا مظالم؛ فتجمع ما تفرق من أجل إعادة قيمة الإنسان وحفظ كرامته، وما يؤدي به إلى الرفعة والارتقاء.

ومع أنّ جميع الأنبياء قد اصطفاهم الله تعالى، ولكن بينهم درجات، قال تعالى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ} 32، إنهم الأنبياء عظيم ومن بعده عظيم، ولهذا فهم متى ما التقوا يلتقون على التقدير والاعتبار؛ فعن الحسن، عن جندب، أو غيره أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لَقِيَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُوسَى، فَقَالَ مُوسَى: يَا آدَمُ، أَنْتَ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَأَسْكَنَكَ جَنَّتَهُ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ، وَأَخْرَجْتَ دُرِّيَّتَكَ مِنَ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ، وَكَلَّمَكَ، وَآتَاكَ التَّوْرَةَ،

---

29 النحل 4.

30 السجدة 8.

31 البلد 4.

32 البقرة 253.

فَأَنَا أَقْدَمُ أَمِ الدِّكْرُ؟ قَالَ: بَلِ الدِّكْرُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَحَاجَّ آدَمُ مُوسَى. "33

فآدم عليه الصلاة والسلام هو أول الخلق الأنسي، ومن هنا فهو المفضل خلقاً أول، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَفْضَلُ أَيَّامِكُمْ يَوْمُ الْجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِيهِ النَّفْحَةُ وَفِيهِ الصَّعَقَةُ فَأَكْثَرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ؛ فَإِنَّ صَلَاتِكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ" 34.

والله سبحانه وتعالى هو الأول الذي يُعَد ولا يتعدد، فيمكن أن يُعَد بقولنا الله واحد أحد الفرد الصمد، وقد وصف الله تعالى نفسه بالأحادية على لسان رسوله الكريم - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حينما سُئِلَ عن الله فقال: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ} 35، وبالمقابل لا يمكن أن يتعدد فلو كان هناك العديد من الآلهة أو كان هناك حتى إلهاً آخراً فما كان هو الأول كما هو، ولتضاربت الأمزجة والقدرات ففسد الكون وأختل نظامه وذهب كل إله بما أراد، قال تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} 36، وهو الأول والأوحد الذي تعددت صفاته وأفعاله فهو القادر على فعل كل شيء في آن واحد فلا يقف الزمان ولا المكان عائقاً أمام إرادته وقدرته عز وجل، قال تعالى: {فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ} 37.

وبما أنّ الله فردٌ صمد لا يتعدد فمن البديهي أن يكون أولاً فليس هناك من يسبقه أو من يليه، فحكمه لا يتوارث بل هو ملكٌ أزلي لا

<sup>33</sup> مسند ابن الجعد، ص، 164.

<sup>34</sup> الأحاد والمتاني لابن أبي عاصم، 3، ص 217.

<sup>35</sup> الإخلاص 1، 2.

<sup>36</sup> الأنبياء 22.

<sup>37</sup> البروج 16.

ينازعه فيه أحد، وليس هناك من يشبهه ولا يُقارن به ومن كان على ذلك فهو الأوّل بلا منافس له ولا منازع.

والأوّل هو الذي لا تأتي الأعداد قبله ولا يتأثر بالإضافة والنقص، فالواحد هو الأوّل الذي يؤثر فيما سواه ولا يتأثر بما سواه، فالعدد واحد عندما نضيفه إلى نفسه أو نكرره مرتين يتكون العدد اثنين وبزيادة واحد إلى الاثنين يتكون العدد ثلاثة وبذلك تكون النتيجة أنّ العدد واحد هو المركّب والمكوّن لكلّ الأعداد التي بعده وهي تتأثر به زيادة فيكون عدداً جديداً أو نقصاً فيكون عدداً سابقاً، فمثلاً العدد ثلاثة عندما نقص منه واحد ينتج العدد اثنين وفي حال زيادة واحد على العدد ثلاثة يتكون العدد الجديد أربعة، وبهذا يكون الواحد هو الجزء الأوّل وبأولويته يكون مؤثراً في تركيب الأعداد، في حين أنّه لا يتأثر بها لأنه غير مركّب، ولو كان العدد واحد مركباً لتغير وتبدل من حال لحال آخر بدخول المؤثرات عليه سلبيّاً وإيجابياً.

ومع أنّ آدم وزوجه أوّل مخلوقين خلقا، وأنّ آدم أوّل نبيّ أرسل للملائكة والجن والإنس، ولكنّه لم يخلق على الكمال؛ فالكمال لله وحده، ولهذا فارتكاب الأخطاء بالنسبة لأبونا آدم صلّى الله عليه وسلّم هو دليل على عدم الكمال، ومع ذلك فأخطاه لم تكن غاية في ذاته، بل لأنّه بشر، ولأنّه بشر فهو مُعرّض لأنّ يصيب ويخطأ، ولا عيب في ذلك، ولكن العيب أن يتمسك الإنسان بما يرتكبه من أخطاء، ولهذا فأبونا آدم عندما اكتشف أخطائه عمل على تصحيح مواقفه من الخطيئة فاستغفر ربّه فتاب عليه وغفر له ذنبه.

وارتكاب الأخطاء لا يكون إلّا دليل على عدم الكمال؛ فالكمال لله وحده، ولأنّ الأمر كذلك؛ فلا بدّ وأن يكون الذي ليس له كمال من أن يخطأ كما أخطأ أبونا آدم صلّى الله عليه وسلّم. والأخطاء هي التي

تأتي من ورائها المفسد في الأرض وقتل النفس بغير حق، ولذا فإن بعض من أبناء آدم ورثوا على غير كمال صفة الإفساد في الأرض وقتل النفس التي حرم الله بغير حق. قال تعالى: {إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ} 38، وامتد ارتكاب الأخطاء إلى بعض من ذريته مصداقا لقوله تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنَّ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا} 39.

الأخطاء انحرافات في الاتجاهات السالبة قيما، ولذلك فالأخطاء تُرتكب من قبل الذين لا يُرشدون في تفكيرهم أو لا يحسنون التدبر، والخطأ الذي لا عمَدَ فيه يُكفَّر عنه فيصح وقد يُغتفر، قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَا وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} 40.

وعليه فالأفعال العمدية لا يُكفَّر عنها ولا تُغتفر إلا أن يشاء الله.

ولأنَّ أبونا آدم بشر فهو معرض للوسوسة التي هي واحدة من أوجه عدم كماله، فالوسوسة خيارات على غير حق، وتزيين لما هو باطل، الغاية من ورائها الإفساد والعصيان ومحاولة التحييد عن الصبغة التي يريدتها الله لما خلق من خلق متميز على حُسن التقويم، ولذا فهي عمل

<sup>38</sup> المائدة 29، 30.

<sup>39</sup> الجن 6، 7.

<sup>40</sup> النساء 92.

من أعمال المكائد التي يقوم بها المكيدين والماكرين والحاسدين والضالين والذين هم برّهم يكفرون، قال تعالى: {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى فَاكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ} 41.

بدون شك هناك علاقة قوية بين الوسوسة والضعف وبين الضعف والطمع وبين الطمع والظلم وإلا لِمَاذَا لم يحمد الإنسان ربّه على ما أعطاه من نعم لا تُحصى، قال تعالى: {وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} 42؛ فكيف لأبونا آدم ألا يطيع الأمر بأن ينتهي عمّا نهاه الله عنه وهو ألا يقرب تلك الشجرة المنهي عنها.

ولأنّ آدم خُلق بشرا وغير كامل فغوى، والإغواء هنا هو: تقديم المغريات بغير حقّ، ومن يقبل بذلك يجد نفسه على غير سبيل الحقّ، ولذا فالإغواء تزيين الباطل بمظاهر الحقّ كتزيين الكذب بمظاهر الصدق ممّا يجعل الإنسان تاركا للنهي الذي فيه خير كثير كما ترك أبونا آدم نهي الله له بان لا يقرب زوجته تلك الشجرة التي قاسمهما إبليس بشأنها حتى أكلَا منها دون أن يلتفتا إلى أمر النهي العظيم (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ).

{وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى} 43. الإغواء لا يتم إلا من الآخر غير المهتدي بالحقّ للحقّ سواء أكان من ذات النوع أم من غيره، وغوى آدم

41 طه 120، 121.

42 الأعراف 19.

43 طه 121.

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءَهُ بِمَسَبِّاتٍ مِنَ الْغَيْرِ (مِنْ إِبْلِيسَ) لَعَنَهُ اللهُ تَعَالَى، وَالْغِي مَفْسَدَةٌ لِلْقِيَمِ وَالْأَخْلَاقِ وَفِيهِ ضَلَالٌ عَنِ الْهُدَايَةِ وَعَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَهُوَ عَدَمُ الْإِنْتِهَاءِ عَنِ الْإِقْتِرَابِ مِنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، وَلِذَا فَهُوَ فِي مَقَابِلِ الْمَعْنَى الدَّلَالِي لِلرُّشْدِ الَّذِي يُمَكِّنُ مِنَ التَّدْبِيرِ وَالِاخْتِيَارِ الصَّائِبِ.

وَالْإِغْوَاءُ انْسِيَاقٌ وَرَاءَ مَا لَا يَجِبُ الْانْسِيَاقُ وَرَائِهِ؛ فَآدَمُ الَّذِي انْسَاقَ وَرَاءَ وَسُوسَةَ الشَّيْطَانِ ضَلَّ السَّبِيلَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ خُلِقَ لِيَكُونَ خَلِيفَةً، وَلِهَذَا كَانَتْ نَتِيجَةُ اتِّبَاعِهِ لِسُوسَةِ الشَّيْطَانِ أَنْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا فَأَخْطَأَ خَطَأً عَظِيمًا.

المستوى الإغوائي: قبل الحديث عن هذا المستوى نقول أن الله سبحانه وتعالى أتم نعمته على آدم فحذره من الخطر الذي يحيق به وبزوجه

وعليه فإنَّ رِقَّةَ الْعِزْمِ جَعَلَتْ أَبُونَا آدَمَ غَيْرَ مُسَيِّطِرٍ عَلَى نَفْسِهِ لِتَكُونَ عَلَى الْأَمْرِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ طَائِعَةً لِخَالِقِهَا، وَمَعَ أَنَّ السَّيْطِرَةَ الْمَطْلُوقَةَ خَصَّ بِهَا اللهُ تَعَالَى نَفْسَهُ الْجَلِيلَةَ إِلَّا أَنَّ فِي دَائِرَةِ النِّسْبَةِ وَالْمُمْكِنِ الْمَتَوَقَّعِ وَغَيْرِ الْمَتَوَقَّعِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ الَّذِي خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ عَلَى دَرَجَةٍ عَالِيَةٍ مِنْ قُوَّةِ الْعِزْمِ دُونَ أَنْ يَسَيِّرَ عَلَى غَيْرِهِ بِغَيْرِ حَقِّ، وَذَلِكَ لِأَنَّ أَمْرَ السَّيْطِرَةِ الْمَطْلُوقَةَ بِيَدِ الْمَسَيِّرِ الْمَطْلُوقِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَفِي مَقَابِلِ ذَلِكَ يَكُونُ التَّنْذِيرُ فِي دَائِرَةِ الْإِرَادَةِ لِلَّذِينَ هُمْ غَافِلُونَ عَمَّا يَجِبُ أَدَاءَهُ أَوْ فَعْلَهُ، قَالَ تَعَالَى: {فَدَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ} 44.

ولأنَّ الأفكارَ هي التي تغذي العواطف، وكلما تكاثرت الأفكارُ في قضية ما اشتدت العاطفة ودفعت الغريزة إلى ممارسة نشاطها، وممارسة

---

44 الغاشية 21. 26.



نشاط الغريزة بدفع من العاطفة انطلاقاً من الفكرة يؤدّي إلى التهيؤ، لذلك فإنّ المتهيئات كامنة في العواطف بتعدد الأفكار؛ فعندما يكون العقل في أوج نشاطه يسيطر على عواطفه ويجعلها في حالة سُبات بحيث لا نشعر بوجودها، وأما إذا اشتدت العواطف فإنها تستدعي معظم أفكار عقلها الخاصة بالحدث بمؤثرات خارجية عن طرق الإدراك الذي ينعكس شعوراً داخلياً يُوجج العاطفة بحيث تصبح أكثر نشاطاً من العقل، ولكن عند أبونا آدم فالأمر غير ذلك، أمره مؤسس على الفعل (كن) فكان على ما هو عليه متهيئاً ليتعلّم من علم العليم المطلق جلّ جلاله، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} 45.

الملائكة الذين لم يهيئوا لِمَا هُيَأَ عليه آدم لم يعلموا ما عَلَّمَهُ آدم من أسرار عظيمة من الخالق الأعظم، ولذا فالملائكة غير مهيين علماً لتقبل أن يكون آدم خليفة الله في أرضه وهم بعلمهم المحدود كانوا يعتقدون أنّهم الأفضل مهياً لهذه المهمة، ولكن الله يعلم أنّهم غير المهيين لذلك، بل المهياً لذلك هو آدم الذي يعلم من علم الله الذي عَلَّمَهُ إِيَّاهُ ما لم يعلمه الملائكة الذين أجابوا قولاً (سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ).

ولأنّه عزّ وجلّ هو العليم الحكيم قال للمتهيئ علما (آدم) أنبئهم؛  
فأنبأهم بما لم يكونوا يعلمون (قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ  
بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا  
تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ).

ولأنّ الملائكة هم المتهيئون لطاعة أمر الله سجدوا لأمر الله طائعين  
إلا إبليس كان متأبياً مستكبراً وهو من الكافرين الذين لم يكونوا متهيئين  
للسجود لآدم طاعة لأمر الله (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا  
إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ).

وعلى المستوى البشري العام فإنّ نشاط العواطف يُضعف من  
نشاط العقل قدرًا يناسب قوّة العواطف، وكذلك العقل يُضعف من  
نشاط العواطف درجة تناسب قوته ونشاطه، وعند صرف النظر عن  
الفكرة المنشطة للعاطفة تتلاشى في العقل وتهدأ العاطفة فيزول التأثير  
على الغريزة التي تدفع التهيؤ للظهور إلى حين ظهور المؤثر الخارجي مرة  
أخرى أو استدعاء الفكرة من الحافظة عن طريق الذاكرة.

ولأنّ أبونا آدم عليه السّلام لم يخلق على الكمال فكان النسيان  
صفتة، ولذا فهو الذي يحمل المعذرة فيه لمن نسي ما نسي، ولأنّه  
النسيان؛ فلا ذنب في ذلك، وبناء على هذه القاعدة؛ فإنّ أبونا وسيدنا  
آدم صلّى الله عليه وسلّم لا يلحقه الذنب العظيم في مخالفته لأمر  
الاجتناب بما أنّه قد نسي، فلو كان عن عمدٍ لكان الذنب عظيم، ولهذا  
كفر الله عنه خطيئة النسيان وتاب عليه وهدى، قال تعالى، ﴿وَلَقَدْ  
عٰهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلمْ نجدْ لَهُ عَزْمًا وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا  
لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا  
يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا  
تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى

شَجَرَةَ الخُلْدِ وَمَلِكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا  
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ  
عَلَيْهِ وَهَدَى {46}.

إذا النسيان فيه من السلبيات كما فيه من الإيجابيات، نسيان الألم  
موجب وعدم أخذ المواعظ منه سالب، نسيان الحق والعدل سالب،  
ونسيان الحقد والكره موجب وهكذا في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع  
تتكون مساحات أو فضاءات من السالب والموجب؛ فمن العيب أن  
ننسى ما وصى به نوح وإبراهيم ولقمان وموسى وعيسى ومحمد عليهم  
الصلاة والسلام، والحمد له تعالى أننا ننسى كل ما يؤدي إلى الأحزان  
عندما يفقد عزيز بأسباب قضاءه وقدره، فلولا نعمة النسيان علينا لبقينا  
الجميع على حالة من الحزن طوال حياتهم بأسباب الموت التي هي حق  
ورحمة، ولأنها كذلك؛ فكان النسيان رحمة.

وهناك محطة أخرى لا ينبغي الاغفال عنها وهي تتمركز في السؤال  
الآتي:

هل زوجه مخلوق من ضلعه؟

عبر الموروث من كتب التفاسير قرأنا: أن زوج آدم المسماة في  
بعض الكتب (حواء) من ضلع آدم.

ونقول: هذا القول لم يقم عليه دليل لا في القرآن ولا في قول النبي  
صلى الله عليه وسلم، أما ما جاء في كتب الصحاح: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ  
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا  
يُؤْذِي جَارَهُ وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ وَإِنَّ أَعْوَجَ

---

46 طه 115 .122.

شَيْءٍ فِي الصَّلَعِ أَعْلَاهُ فَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهُ كَسْرَتَهُ وَإِنْ تَرَكَتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ  
فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا"47.

وبناء على ما سبق نحن نقول:

- لا حواء اسم لزوج آدم.

- ولا ضلع آدم مخلوق منه حواء.

وعليه نقول:

- إنّ آدم نفس واحدة.

- إنّ زوجه نفس واحدة.

مصداقا لقوله تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ  
تَذَكَّرُونَ}48.

- وبما أنّ حواء لم تخلق من ضلع آدم.

- فعيسى لم يخلق من ضلع مريم.

كما أنّ حواء خلقت من نفس آدم.

إذن، عيسى خلق من نفس مريم.

والنفس الواحدة خلقها الله بلا سابقة أبوة ولا أمومة ولا اتصال.

وعليه فلا محال أن يخلق من أي منهما بالكيفية التي يريدتها نفسا

أخرى.

---

<sup>47</sup> صحيح البخاري، ج 16، ص 184.

<sup>48</sup> الذاريات 49.

وهذا ما تجلّت قدرته تعالى به في خلق عيسى، لأن مقومات الجسد في التراب، ولكن مقومات النفس الواحدة فهي عند الله.

ومن الملاحظات الفارقة في خلق النفس:

أنّ الله قال في آيات (خلق) وفي آيات (أنشأ).

فالخلق يكون ابتداءً.

والإنشاء نمواً.

أمّا أمر روح آدم المنفوخة فيه من القضايا التي سكت عنها البعض وتكلّم آخرون، مع التأكيد أنّ هذه الرّوح بداية ليست لآدم مصداقاً لقوله تعالى: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} 49.

لم يقل الخالق جلّ وعلا ونفخت فيه روحه، إنّما قال: (من روحي)، هذه واحدة، والثانية فالتسوية ذات صلة وطيدة بالنفخ لأنّ المرحلتين تكادان تكونان واحدة (سوّيته ونفخت) وكأنّ إن لم يكن حقيقة أنّ التسوية والنفخ مقترنان لأنهما من تمام الخلق، وهذا القول قبل التسوية وقبل النفخ من الروح وهذا يدل على أنّ الحوار ليس مع آدم لأنه لم يخلق بعد بل كان مع الذين خلقوا من قبل كما علمنا من القرآن الكريم مع الجن والملائكة وهذا يدل على أنّ تخلق البشر لا يتم إلاّ بأمرين:

أولاً: التسوية.

ثانياً: نفخ الروح.

وهذا حقّ لأنّ الإنسان مركب من جسد ونفس وروح.

وقوله تعالى: (ونفخت فيه من روحي) يدفع إلى تساؤلات منها:

ما الروح المنفوخة؟

وما نفخت؟

ولماذا استخدم اللفظ نفخ؟

وما دلالة كلمة نفخ؟

وما دلالتها في صيغة الماضي؟

ألا يعني في صيغة الماضي الدليل على حدوث الفعل في المستقبل وهذا من قدرة الخالق جلّ في علاه، ودلالة على حصول ما لم يحصل بعد، وهنا أنزل الله الفعل الماضي بدل المضارع لأنه في زمن الله كل الزمان سواء لأنه سبحانه خالق الزمن.

ثم نتساءل عن نفخت:

وماذا يشير اقترانها بتاء الفاعل؟

أهي تعني امتلاء شيء قابل للامتلاء؟

أهي تعني استعداد لقبول النفخ؟

ألا تعني الإعداد (التسوية) من البدء لقبول النفخ؟

وعلى ماذا يدل (من روحي) وليس (روحي)؟

هل النفخ خروج ودخول؟

وما المنفوخ؟

وما طبيعته؟

هل النفخ حلول الروح واتحادها؟

هل الروح جزء في جزء؟

هل الروح مخلوق من الله ليكون الإنسان حيًا بها؟

أهي خلق مثل آدم؟

أم ماذا تكون؟

من خلال التأمل في مشهد خطاب السجود والاستخلاف بين المخلوقات ذات الصلة الوثيقة بماضي الإنسان في الجنة وحاضره في الأرض ومستقبله بالعودة إلى الجنة منشأه أو إلى النار استنادا إلى نتيجة استخلافه في الأرض.

فقد انقسمت مخلوقات حضرة الخطاب الإلهي بين طائع مستفسر (الملائكة)، وعاص مجادل (إبليس) وخليفة لا يتكلم إلا بإذن ربه (آدم)، وبناءً على ذلك المشهد الخطابي تغيرت اعتبارات المخلوقات الثلاثة من قبل الخطاب وأثناء الخطاب وما بعد الخطاب بحيث رسم مستقبل كل مخلوق من المخلوقات بعد خطاب وتكليف الاستخلاف:

اعتبار الاستخلاف في الخطاب الإلهي إجمالاً:

التساوي التام.

ما أفضى إليه الخطاب الإلهي:

عدم المساواة تأسيساً على موقف كل مخلوق في المخاطبة الإلهية فكان:

استفسار وتسليم وسجود.

ب- خلاف وكفر وامتناع وطرد لرفض السجود للأمر الإلهي.

ج- صمت وطاعة وتكريم.

3 - متربات ما بعد خطاب الاستخلاف وتمثل في:

- اعتبار تفضيلي لآدم.

- هبوط منزلة إبليس وطرده من حضرة الخطاب الإلهي.

4 - اعتبار التساوي من جديد بين آدم وإبليس وذلك بعد:

أ- وسوسة إبليس لآدم وزوجه.

ب- وقوع آدم وزوجه في المعصية.

ج- التساوي في هبوط آدم وزوجه وإبليس من الجنة إلى الأرض.

وهنا تأتي مرحلة ما بعد الهبوط ويترتب عليها:

أ- هبوط واختبار.

ب- صراع وإصرار.

5- وهذا يترتب عليه اعتبار أخير (في الآخرة) تفاضلي ليس فيه

مساواة بل فيه.

أ- المرد للقرار (جنة أو نار)

ب- ضربّ الحجاب.

ج- تكريم وتنعيم.

د- عذاب وجحيم.

الله علّم آدم:



لا شك أنّ العلم لله مطلقا ولآدم التعليم في دائرة النسبية فالعلم الذي يعلمه الله لا يمكن أن يكون آدم قد تعلّمه، كما أنّ الله الكلام ولموسى التكليم، فعلم وكلم بنية واحدة صرفا ووزنا ونقول: دلالة كلتيهما في مجاله الفعلي مختلفة:

- فعلم الله يحيط بتعليم آدم.

- وتعليم آدم لا يحيط بعلم الله.

- وكلام الله يحيط بتكليم موسى.

- وتكليم موسى لا يحيط بكلام الله.

- وبصر الله يحيط بأبصار وبصيرة خلقه.

- وإبصارا وبصيرة خلقه لا يحيطون ببصره.

وعلم الله الواسع رحمة بعباده وتجل من تجلياته الرحمانية ومن تجليات رحمته خلق الإنسان وتعليمه قال الله تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} 50.

وقلنا قبل ذلك في التسوية الكونية أنّ الله تجلّى باسمه الرحمن على خلقه رحمة بهم فالرحمن على العرش استوى.

والرحمن خلق خلقه رحمة بهم لقوله تعالى: {مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ} 51.

والرحمن علم القرآن.

والقرآن رحمة وشفاء.

---

<sup>50</sup> الأعراف 156.

<sup>51</sup> الملك 3.

والرَّحْمَنُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ.

وعلمه البيان.

ووضع الميزان.

فعلم آدم رحمة بآدم ورحمة بالملائكة والجن لأنهم أنبئوا من علم  
الرَّحْمَنُ الَّذِي أَعَدَّهُ لِلْإِنْسَانِ.

وعلم الله المطلق غيب.

ولا يعلم الغيب إلا الله:

أما ما يقال عن علم الملائكة بآدم وأفعاله فهو في مجال الخبر لا في  
مجال علم الغيب الذي يعتقد البعض أن الملائكة تعلمه.

ونقول لا يعلم الغيب إلا الله مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ لَا يَعْلَمُ  
مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} 52.

ولقد أطلع الله على ذلك الغيب للملائكة منه لا كله، فصار العلم  
عندهم خبرا، فهم قالوا ما أطلعهم عليه من علم فصار العلم خبرا لأنه  
بين عالم عليهم وبين من عنده خبر.

فقال الله للملائكة: (إِيَّيَّ جَاعِلٍ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً).

نبوة آدم أول رسالة من السماء إلى الأرض لإقامة الخلافة التي  
اصطفاه الله لها وميزه بها على سائر مخلوقاته في السماء وكرمه على سائر  
مخلوقات الأرض، مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ  
إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} 53.

---

<sup>52</sup> النمل 65.

<sup>53</sup> آل عمران 33.

إذن، نحن بين اصطفاء وتكريم، اصطفاء في السماء وتكريم في الأرض لأدم وذريته مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} 54.

ولسائل أن يتساءل:

ما الفرق بين اصطفاء آدم وبين اصطفاء بقية الرسل؟

نقول:

اصطفاء آدم من بين أنواع عدة في الخلق، أمّا اصطفاء الأنبياء من بين نوع واحد في الخلق.

واصطفاء آدم كان في السماء.

واصطفاء الأنبياء كان على الأرض.

وهذا يدفعنا إلى التكريم:

فتكريم الأنبياء على الأرض من الله.

ولم يكن هذا التكريم كلي من الذين بعثوا فيهم، فقد تبلور تكريمهم

بين ثلاث:

فريق آمن بهم وكرّمهم.

وفريق كفروا بهم وحالوا إلحاق الأذى بهم وفي بعض الأحيان آذوهم

بالفعل.

وفريق لم يسمع بهم فلم يكرّمهم ولم يلحق بهم الأذى.

---

<sup>54</sup> ال إسراء 70.

وهذه المواقف لا تزال شاخصة مع الأنبياء حتى الآن.

أما آدم:

فقد كان اصطفاءؤه مرتبط بتكريمه مرتبط بعلمه مرتبط برسالته؛ فالاصطفاء لآدم كان في مكانين في السماء وفي الأرض. ومن بعدها جاءت الرُّسل اصطفاء واختيارا تقديرا من الله تعالى فهم كانوا من بعد آدم على التوالي:

**النبي إدريس:**

إدريس عليه الصلّاة والسّلام نبيا كريما من الأنبياء الكرام الذين أخبر الله عنهم في كتابه العزيز وباسمه وحّدث عن شخصه؛ فوصفه نبيا صدّيقا ومن الصّابرين، ودعا إلى وحدانية الله وهو من عرف الخط بالقلم وهو كذلك يجيد خياطة الثياب، وهو من نظر في علم النجوم وسيرها.

وقد اختلف العلماء في مولده ونشأته، فقال بعضهم إنّ إدريس ولد ببابل، وقال آخرون إنّّه ولد بمصر، وقال غيرهم أنّه ولد ببابل وهاجر إلى مصر، وقد آتاه الله النبوة فنهي المفسدين من بني آدم عن مخالفتهم شرع الله؛ وهو يدعو النّاس إلى الله وإلى مكارم الأخلاق. وكانت له مواعظ وآداب فقد دعا إلى دين الله، وإلى عبادة الخالق جلّ وعلا، وحرّض على العمل الصّالح، وحض على الزّهد في هذه الدنيا الفانية الزائلة، وأمّره بالصّلاة والصّيام والزّكاة، وغلّظ عليهم في الطهارة من الجنابة، وحرّم المسكر من كلّ شيء وشدد فيه. فأطاعه نفر قليل، وهذه من سنن الحياة حيث، أكثرهم يجهلون ولا يعقلون ومجرمون وضالون.

قال البخاري: ويذكر عن ابن مسعود وابن عباس أنّ إلياس هو إدريس، واستأنسوا في ذلك بما جاء في حديث الزهري عن أنس في الإسراء: أنّه لما مرّ به عليه السّلام قال له مرحبا بالأخ الصّالح والنبي

الصّالح، ولم يقل كما قال آدم وإبراهيم: مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح، قالوا: فلو كان في عمود نسبه لقال له كما قال له "55.

فإدريس نبي من أنبياء الله الكرام مُتمكّن من الطّاعة التامة لله ربّ العالمين حتى وُصف بأنّه صدّيق في معتقده لله واحداً واحداً طائعا لأمره فيما أمر به ومنتهيا وناهيا عمّا نهى عنه.

ولأنّته نبي كريم وصدّيق عزيز فهو: من المكرّمين بالنبوة واليقين اللذين بهما وُصف صدّيقا لكلّ ما أظهره الله عليه من أسرار وآيات عظيمة حيث لا تكذيب ولا ظن في نفسه، ولذا، كان على الرفعة الإيمانية التي بها أخذ المكانة العليا عند الله.

وهناك آراء مختلفة على زمن النبي ادريس عليه الصّلاة والسّلام؛ فهو على احتمالين:

أمّا أن يكون قبل نوح وأمّا أن يكون بعده، فإن كان قبل نوح عليهما الصّلاة والسّلام، وجب ذكره تنصيحا في الاصطفاء كما نص الاصطفاء على آدم ونوح أي أن يقال: إن الله اصطفى آدم وإدريس ونوحا، وهنا يكون القول الفصل وتنتهي القضية.

ولما لم يذكر إدريس نصا في الاصطفاء، فقد دخل الآل المصطفين كونه نبي، ولما كانت الآية على ما هي عليه (إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) دخل اصطفاه في جملة الآل وهذا يعني أنه بعد نوح عليهم الصّلاة والسّلام.

ففي سورة مريم عند ذكر الأنبياء التي وردت، يبدأ الذكر برأس الآل بقوله تعالى: {وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا} 56، وبعد

---

<sup>55</sup> مستخرج أبي عوانة، 1، ص 107.

<sup>56</sup> - مريم 41.

ذلك في الآيات التالية يذكر الله تعالى الوهب الذي وهبه لإبراهيم وهو: إسحاق ثم تلاه يعقوب فموسى فهارون وهذا الفرع الأول من الذرية التي بعضها من بعض التي يدخل بها آل عمران ومريم وعيسى عليهم الصلّاة والسّلام.

فيتوقف عن ذكر ذرية هذه السلسلة عند هارون، ثم ينتقل إلى إسماعيل بقوله تعالى: {وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا} 57.

ومعلوم أنّ إسماعيل عليه الصلّاة والسّلام هو الفرع الموازي للآل عمران من إسحاق، وهو الابن الأكبر لإبراهيم عليهم الصلّاة والسّلام أجمعين، وبعد أن يورد الله تعالى بعض صفات إسماعيل، يأتي على ذكر إدريس بقوله تعالى: {وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا} وهذا الذكر في السلسلة الثانية هو الآل المنحدر من إبراهيم إلى إسماعيل إلى محمّد عليهم الصلّاة والسّلام أجمعين.

وهنا أكثر من تساؤل مثل:

. ذكر إدريس بعد إسماعيل كما ذكر يعقوب بعد إسحاق.

. ذكر إدريس مع إسماعيل يجب أن يكون له ما يبرره.

وعليه: يمكن أن نقول بداية مع التحفظ ريثما نسوق الأدلة، أنّ إسماعيل أسبق من إدريس، كما أنّ إسحاق أسبق من يعقوب.

وهنا فالنبي ادريس عليه السّلام قد اجتباه الله اجتباء؛ أي أنعم الله عزّ وجلّ عليه بالاجتباء نعم كثيرة مصداقا لقوله تعالى: {وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}

اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا {58.

فقوله تعالى: (وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا) تدل على أن اجتناء إدريس هو اجتناء أنبياء لأجل مهام يراه الله خير من يقوم بها إدريس في الأرض التي أجتبي إليها إدريس نبيا.

ولأنّ الاجتناء من الله فهو اجتناء تعظيم لمهمات وأدوار ومسؤوليات جسام ونباً عظيم لا يقدر عليها إلا من يُجتبي إليها اجتناءً.

والاجتناء للأنبياء والرسل هو اجتناء عن غير اخذ رأي من المجتبيين الأكارم، فهم الذين تتوفر فيهم معطيات الفضائل الخيرة في مرضاة الله عز وجل.

ولأنّ الهادي فهو الذي يعلم بالمطلق ما لم يعلمه من يُهدى إلى ما يُهدى إليه، ويعلم بصلاحه قبل بلوغه منه، وبعد الهداية إليه وبلوغه تكون الهداية حقّ بالفعل الحقّ قوّة وقدرة.

{وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا {59.

يُفهم من الآيات الكريمة السابقة أن إدريس من الذين هداهم الهادي المطلق بوسع هدايته وفضله، (وَمِمَّنْ هَدَيْنَا) أي من الذين تم توجيههم بالحقّ إلى الحقّ فهم على الرشاد الذي به يُميزون بين المفضل والأكثر تفضيلاً وبين الخير والأكثر خيراً وبين الموجب والأكثر وجوباً

58 - مريم 56.58.

59 - مريم 56.58.

وهم الفاعلون للخيرات الحسان وهم المؤمنون حقًا الذين على الدرجات  
العلا وهم الوارثين في الدارين فأولئك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وعلينا أن نُمَيِّز بين المهدي وبين المهتدي:

المهدي هو من كان على الهداية من الهادي المطلق، أي وكأنه  
مخلوق على الهداية خلقًا بأسباب مشيئة شاءها الله لعبده من عباده  
ليكون على الهداية قولًا وفعلاً وسلوكًا وعملاً.

أمّا المهتدي فهو من عرف وتبيّن حتى أدرك الحقّ من الباطل فتخلى  
عن الباطل وتمسك بالحقّ واسترشد به سبيله فكانت له الهداية بالحقّ من  
أجل الحقّ وإحقاقه، قال تعالى: {فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا  
هُمْ يَحْزَنُونَ} 60.

ولذا؛ فالفرق كبير بين من كان على الهداية أصلاً، وبين من اهتدى  
بعد ضلال أو انحراف أو غفلة أو جهل أو كفر وشرك.

ولهذا؛ فإدريس كان على الهداية أصلاً فهو لم يكفر ولم يُشرك ولم  
يضل السبيل الحقّ، بل كان على الهداية التي جنّته كلّ ذلك حتى وصفه  
الله بأنّه على الهداية بقوله تعالى: (وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ إِنَّهُ كَانَ  
صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ  
مَنْ ذُرِّيَّةَ آدَمَ وَمَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمَنْ ذُرِّيَّةَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمَنْ هَدَيْنَا).

وعليه فالهادي هو مغير الأحوال من حال إلى حال أفضل، وهو  
على كلّ شيء قدير، والهادي هو الخالق الذي خلق المهتدين، {وَمَنْ  
يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ} 61 وهو منزل نصوص وحكم وكلم الهداية إليهم

---

60 - البقرة 38.

61 - الإسراء 97.



حتى لا يضلون وإن ضل بعضهم فإنّ الهداية من ورائه تلاحقه بالفعل  
وتسابقه بالقول حتى بلوغها ومن ضل بعد ذلك كان من الضالين.

والهداية تكون على معنيين:

. أحدهما بمعنى الإيضاح والإرشاد يقال: أهديت فلانا الطريق أي  
أرشدته إليه.

. والآخر بمعنى التوفيق قال الله عزّ وجلّ: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ  
أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} 62 أي أنك  
لا تستطيع أن توفق للهداية من أحببت، ولكن الله يوفق من يشاء ولا  
يجوز أن يريد به هاهنا الإرشاد والإيضاح؛ لأنّه لا خلاف بين المسلمين  
أنّ النبي أرشد وبين وأوضح وبلّغ من يحب ومن لا يحب، فبيّن بذلك  
هدي الرسالات السماوية التي قبله، والرسالة التي جاء بها، إذ لا خلاف  
أنّ الدين عند الله الإسلام، وجميع الرسالات السماوية كلّها مصدرها  
الهادي وهنا نستطيع أن نقول أنّ هدي النبي عليه الصّلاة والسّلام هدي  
تكليف، وأمّا بالنسبة للمبلّغين فهديهم هدي اختيار لما دلت عليه الآية  
الكريمة، فالرسول هو الخليفة الهادي بالإضافة، ولأنّ الهادي هادي  
الطريق، والهدى واحد من الطرق التي تؤدّي إلى النجاة، فكان الخليفة  
يأخذ بالمهتدين به إلى نجاتهم وفوزهم، وأمّا الفتنة فمعناها الامتحان  
والاختبار إلا أنّها مستعملة في عرف التخاطب بمعنى الخذلان، يقال: فُتن  
فلان إذا أخذل وضل، ويدلّ على صحة هذا التأويل أنه قال الهادي  
بمعنى الموفق فمعناه والله أعلم أنه الموفق بفضلته، والخاذل لمن شاء بعدله  
لا إله إلا هو الفعال لما يريد.

ولأنّهُ لولا الهداية التي من وراءها هادي ما كان المهتدين جاء هادي الهادي لنبية إدريس ليكون على الهداية التي يُريدها الله تعالى لعباده الصالحين ورُسله الكرام صلّى الله عليهم وسلّم.

ولأنّ الأنبياء والرّسل هم أنبياء ورُسل هداية بعث الله أنبياءه ورُسله إلى شعوبهم وأقوامهم وعشائرتهم ولقراهم ولأممهم وللکافة فكان من بين هؤلاء الأنبياء العظام إدريس مهدي على الحقّ بالحقّ. وفي مقابل الهداية كان الضلال وأهله الذين استحبوا العمى على الهدى. قال الله تعالى: {فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} 63 وحب العمى على الهدى انصراف بالکلیة عن طريق الرشاد إلى طريق الفساد لا محالة ومن طريق الخلافة إلى طريق الغواية، أي من طريق الهداية إلى طريق الضلال فكان الابتعاد عن نعمة الله التي أوجبها على نفسه في هداية خلقه إلى ما فيه خيرهم وبقائهم.

وللهداية أربعة أنواع:

1- هداية دلالة.

2- هداية معونة:

3- هداية تسديد:

4- هداية تأييد:

الأنبياء والرّسل الذين أعدهم الله إعدادا (صالحين) للنبا العظيم والرسالات الخالدة، ممّا جعلهم في رحمته داخلين وهم من الصالحين،

مصدقا لقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ  
وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ} 64.

فقوله تعالى: (وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ) تدل هذه  
الآية الكريمة على أن دخول إدريس وغيره من الأنبياء والرسل في رحمة الله  
كان بأسباب أنهم كانوا صالحين (نافعين غير ضارين) إنهم المصلحون غير  
المفسدين؛ فهم على هذه الدلالة لو لم يكونوا مُعدّين على الصلاح ما  
كانوا في رحمته من الداخلين.

ولأنّ بلوغ أمر الصلاح ليس بالهين؛ فالله تعالى يُعد من يشاء لأنبأه  
ورسالاته من يُعدّ إعدادا، ولهذا كان إدريس نبيا مُعدّا على الصلاح وكان  
من الداخلين في رحمة الله الرحمن الرحيم (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ  
كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ).

ومع أنّ الله يُعدّ من يشاء من نبيّ ورسولٍ على الصلاح إلا أن باب  
الصلاح مفتوح أمام عباد الرحمن، فمن عمل صالحا وأصلح ما أفسده  
المفسدون في الأرض وأمر بما أمر الله ونهى عمّا نهى عنه سيكون من  
الصالحين طاعة وهداية وهو مولي أمره لله تعالى: {إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ  
الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} 65.

الصلاح وفاء على التمام من عند الله إعدادا، أو بلوغا بالقول  
والعمل الصالحين، قال تعالى: {قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ  
هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ  
أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} 66؛ فقوله تعالى:  
(سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) مع أنّ هذه الآية الكريمة جاءت في

64- الأنبياء 85، 86.

65- الأعراف 196.

66- القصص 27.

الماضي بالنسبة لزماننا نحن إلا أنّها تدل على المستقبل في زمن نبي الله شعيب، (سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) أي بعد أن تُتِمَّ الثمانية حُجج أو توفِّي على العشرة ستجني يا موسى وافيا معك غير مخلٍ بما أقوله لك في الزمن (الآن) هذا الوعد هو وعد الصالحين الذين أخصهم الله بما أخصهم به من نبأ عظيم ورسالات خالدة.

وفي اللغة الصلاح من الصلح و"الصلح ضد الفساد ويقال رجل صالح في نفسه من قوم صلحاء ومُصلِح في أعماله وأمره وقد أصلحه الله"67.

ولأنّ إدريس من الصالحين إعدادا من عند الله تعالى؛ فهو من المستخلفين في الأرض والمصلحين فيها، وهو كغيره من الأنبياء والرسل يدعو للتي هي أحسن وأقوم، ولذا فمن يتقي الله ويقول قولا سديدا ويعمل صالحا يُصلح الله له من أعماله مصداقا لقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصَلِّحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ }68.

ولأنّ ادريس نبيا مجتبي؛ فلا يمكن أن يكون عجولا، أنّه النبي الصبور، وهذه على اختلاف مع الطبيعة البشرية العجولة: ذلك لأنّ الإنسان بطبيعته عجول لا يجب الانتظار ولا يطيق أن يطول به الوقت عند عزمه لقضاء أمرٍ ما، وبطبيعته أيضا أنّه مخلوق لا يهدأ ولا يستكين بسهولة ولا تنقطع متطلباته في الدنيا، فلا يقنع بأيّ شيء ولا يرضى بأي حال، قال تعالى: { إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا }69، لكنّ المؤمن الحق لا تكون من صفاته الخوف

67- لسان العرب، ج 2، ص 516.

68- الأحزاب 70، 71.

69 المعرج 19 . 21.

والجزع واليأس بل يهبه الله تعالى الصبر والرضا ويملاً فؤاده بالطمأنينة التي يبحث عنها ملايين الناس الذين يتعدون عن خالقهم فيبتعد هو بالتالي عنهم، فلا يأتي الشعور بالأمن والطمأنينة من إنسان مشغول قلق كلّ همهم جمع ما يرغب في الدنيا متناسياً أنها زائلة وفانية، فيتملكه اليأس والجزع لضياح ما كان له وكأنه تناسى أنه من عند الله الخالق القادر على كلّ شيء.

وللصبر ثلاثة أنواع هي:

أولاً: صبر على ممارسة الطاعات والعبادات:

قد يتبادر على ذهن المؤمن أن في المداومة على القيام بالعبادات اليومية كالصلاة والاستغفار وقيام الليل والحمد والصيام هو أمر هيّن على كلّ النفوس المسلمة ولكن هذا غير صحيح لأن من شأن هذه العبادات والطاعات أن تجعل من بعض المسلمين في ضيق وملل منها، فنرى البعض يهملها أحياناً أو يقوم بها وكأنها عادة يومية أو غرض عليه الخلاص منه، فتكون صلاته عبارة عن عبارات وحركات يؤدّيها في اليوم ويكررها، ولكن في الوقت نفسه نجد هناك من المؤمنين من يقوم بها بكلّ صبر وحب في نيل رضا الله تعالى عليه، فيسارع إلى القيام بكلّ ما عليه من فروض وواجبات دينية ويتعدها إلى النوافل بل ويداوم عليها حبا في الله ورسوله الكريم - - فلا يؤخره هطول المطر عن الخروج لصلاة الفجر ولا يتكاسل عن قيام الليل بحجّة النعاس أو التعب أو البرد الشديد، وهذه الأعمال تحتاج إلى الصبر الطيب للمداومة عليه وعدم قطعها.

ثانياً: الصبر عن الخطيئة:

حياة البشر في الدنيا مليئة بالإغراءات التي من شأنها أن تؤدّي بالإنسان إلى الهلاك، وخاصة أنه مخلوق ضعيف أمام الشهوات والأهواء

لوجود الشيطان الذي يزين له هذه الأمور ويجبها لنفسه، قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} 70، فمن النَّاس من يسيطر عليه حب المال فلا يملك الصبر لفراقه أو الإنقاص منه، يفوق حبه في قلب صاحبه عن كلِّ حب، وأحيانا نجد من يضعف أمام النساء فلا يملك نفسه أمام إحداهن فيقع في الرذيلة، قال تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} 71، مع أنه لو صبر وثبت لكان الله أثابه ووهب له الخير الكثير، وتارة نجد من يعشق اكتناز الذهب والفضة وكأن حياته موقوفة على ذلك، فلا يبحث عن الأمان والهدوء إلا في ظل وجودها، لذلك فقد كانت حياة المؤمن تعدد وتكرار لامتحانات وابتلاءات عليه تجاوزها بالصبر والجلد عليها، فيكون الإنسان في جهة ورغبته في جهة أخرى يعارضها ويقف أحيانا ضدها إذا أمرته بالسوء والفساد، ولا يسيطر المؤمن عليها إلا إذا كان متعادا على الصبر ومتمرس على الجلد والثبات في وجه كلِّ مفسدة ولا يدعم هذا الموقف الثابت إلا حب المؤمن لخالقه وسعيه لطلب رضاه ومغفرته.

ثالثا: صبر على القضاء والقدر:

70 آل عمران 14.

71 النساء 25، 26.

القضاء والقدر أمر من الله يقع على الإنسان، ولكل إنسان قدره وقضاؤه يقدره الله عليه حسب علمه المسبق وحكمته المطلقة في خلقه، لذلك لا يجب على المؤمن أن يوقع نفسه في مقارنة بينه وبين أي مؤمن آخر أعطاه الله ومنحه من نعمه الكثير الكثير، فلا بد أن يكون الإنسان المؤمن على يقين بأن الله تعالى عادل في توزيع نعمه وعطاياه على خلقه، سواء كانت صحة أو مال أو جمال أو قوة أو سلطان أو غيرها، فالصبر على القضاء والقدر يُخلق في نفس المؤمن ويكون من دعائم ثبات الإيمان واليقين بحب الله ورحمته بنا، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ} وَأُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} 72، فيكون الرضا هنا نابع من طاعتهم لله وإيمانهم بحبه لهم، أملين في نيل رضاه وجنته، ونستطيع أن نرى تجسيد هذا النوع من الصبر في أسرى المسلمين الذين يقبعون في سجون الأعداء يلاقون أشد أنواع التنكيل والعذاب، لا ذنب لهم إلا أنهم يدافعون عن الحق ويتمسكون به، فنراهم أكثر صموداً من غيرهم وأشد صبراً على البلاء، فلا يضيق صدرهم ولا يتنازلون عما آمنوا به، بل نلاحظ أن إيمانهم يزداد ويكبر في ظل هذه الظروف فيزدادوا شدة وصبراً وقوة منبعها أن هذا هو قدرهم الذي كتبه الله عليهم.

والنصوص القرآنية لم تذكر كثيراً عن دعوة إدريس ونبوته، ولكنها بيّنت عديداً من صفاته الأمر الذي جعلنا نركّز الحديث عن صفات هذا النبي الكريم، وكانت صفات حقيقة بالائتساء، فهو صديق نبي مرفوع المكانة، ومجتبى منعم عليه ساجد باك طاعة لله وصفات أخرى ستجدها في أثناء القراءة.

72 البقرة 155 . 157.

ومن هنا نستبصر غايتنا التي نأمل فيها أن يكون هذا البحث دعوة لبحوث أخرى لا تقتصر على الوصف والتكرار لما هو موجود في كتب السير التي يشك العقل في أخبارها لاسيما تلك التي تستقي أخبارها من الإسرائيليات، بل تذهب إلى التحليل المستند على الحجّة والمرتكز على المنطق للإتيان بالجديد، وهذا ليس له وجه مبالغة لا من قريب ولا من بعيد فهذا القرآن لا تنفذ موارد فهو كَلِمَاتِ رَبِّي تنفذ البحار ومثلها ولا تنفذ كَلِمَاتِ رَبِّي مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} 73.

هذه الكَلِمَاتِ ما هي إلا بمثابة المصادر الغنّاء لكَلِمَاتِ توحى بها هذه الكَلِمَاتِ وتدل عليها، ولذلك؛ فالقرآن لا تنقضي عجائبه وفيه خبر ما قبلنا وخبرنا وخبر ما بعدنا، ولذلك؛ فهو لا ينفد، ولا تنفذ كَلِمَاتِهِ.

### النبى نوح:

إنّ البحث في مجالات الرّسل الكرام من القرآن والسنة هو بحث موسوعي وهنا جاء البحث في مجال النبي "نوح عليه الصلّاة والسّلام"، ضمن طائفة من المباحث ووفق رؤية ودلالات استشرفت مفاهيم جديدة، وأوضحت أبعادا كانت غامضة، وأظهرت مقاصد كانت خافية على البعض، كان الفضل فيها لمن سبقنا بما مهدوا لنا من وعورة مسالكها.

وقد يُجَيِّل إلى كثير من النّاس، أنّ هذا الوجه من البحث سهل ميسر، وأنّ طريقه آمنة معبّدة، وأنّ الإقدام عليه لا تزلُّ به قدم، ذلك أنّ



علماءنا رحمهم الله مهّدوه كلّ ممهّد، وما تركوا لنا ولأمثالنا ما نزيد، ومع ذلك لكل عصر لغة ومفهوم والكمال دائما لله وحده.

إنّ هذه النظرة المبنية على مثل هذه الآراء، كان لها الفضل أيضا في توخي الدقّة فيما نقول، والغوص في أعماق المعاني وظلالها التي منحتنا دلالات أوصلتنا إلى مفاهيم تدعمها الحجّة والبراهين في المنهج التحليلي الذي اتخذناه عمادا لنا.

لقد كان التعامل مع موضوعات البحث قائما على فلسفة الفكرة بنقد دقيق متوازن، بالمعنى الذي يقوم على توضيح أبعاد القضايا بكيفية انبثاق الجزئيات من كلياتها، وعلاقة هذه الكليات بجزئياتها وما يتجزأ منهما، وما يربط بينها وصولا إلى غاية هذا الترابط الذي يبين أنّ الإنسان جزء من الكون، والكون مسخر للإنسان عندما جعله الله تعالى خليفة فيه.

ولذا؛ فقد كان الاهتمام منصبا على الجوهر قبل العرّض، والمعنى قبل المبنى، والعقل والحسّ قبل المحاكاة والتقليد.

فلم يكن من السهل خوض هذا الغمار على كثرة ما كتب فيه، دون أن نوضّح القضايا الشائكة، والمسائل الخلافية في الفكر والرأي، والأوليات والمرتبات عليها بعد ذلك.

إنّ الإرث الثقافي العظيم لهذه الأمة من الكم والكيف في النوعية والمادة العلمية، يترتب عليه مسؤوليات جسام، فكلّما كان الإرث ثقيلا، وجب على الوارث أن يبذل جهدا مضاعفا ومكافحة عظيمة، لأنّه ينهل من ذلك الإرث بما يوائم الحاضر خدمة للمستقبل وفق رؤيته الآنية انطلاقا من عقيدة يؤمن بها. ولذا توخينا الدقّة في إدلاء الرأي والحرص

على آراء الآخرين ما استطعنا إلى ذلك سبيلا بما لا يقدر ما قيل، ولا يمدح ما نقول.

فمن الموضوعات التي عالجها بحثنا هذا، قضية الأبوة الثانية لبني البشر والخوض في خصمّ هذا الموضوع بالأدلة النقلية التي وصلنا من خلالها إلى النتائج التي سيقف عليها القارئ في ثنايا البحث مثل:

. هل أنّ نوح هو الأب الثاني للبشر؟

. هل أنّ التسمية دلالة على الحدث؟

. هل أنّها دلالة حقيقة؟

. أم أنّها دلالة مجازية؟

. أم لأنّ نوح أعظم الرّسل بعد آدم (قيل هو الأب الثاني للبشر)؟

إنّ مجمل هذه الاحتمالات التي أثارها هذه التساؤلات واردة، غير أنّ واحدا منها يكون له الترجيح على بقية الاحتمالات عندما تتوافر الأدلة التي تعززه وتمنحه الأرجحية على ما سواه من احتمالات سابقة.

إنّ كلّ هذه المعطيات كانت حاضرة أمامنا في تناول القضايا التي عرضت لنا في قصّة نوح عليه الصّلاة والسّلام، منها على سبيل المثال لا الحصر:

. العقيدة.

. التكليف.

. العاطفة.

. الدّعوة.

. الأسلوب .

وقد كان لنوح عليه الصلّاة والسّلام معجزات ولكن على رأسها كانت السفينة المعجزة، التي لم يخلق مثيلا لها، وهي لم تعدّ للمقارنة، من حيث الحجم أو السرعة، بل من حيث تحدي الصّعب التي لا تطيقها الجبال الراسيات، وهي التي أصبحت مضربّ مثلا للصّمود والمكانة الرّفيعة؛ فعن حنّش الكِنَازِيّ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا ذَرٍّ يَقُولُ: "أَنَا أَبُو ذَرٍّ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ: «أَلَا إِنَّ مَثَلَ أَهْلِ بَيْتِي فِيكُمْ مَثَلُ سَفِينَةِ نُوحٍ، مَنْ رَكِبَهَا نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ»74.

ويقال أنّ سفينة نوح عليه الصلّاة والسّلام قد طافت بالكعبة أسبوعا، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: "كَانَ بَيْنَ دَعْوَةِ نُوحٍ وَبَيْنَ هَلَاكِ قَوْمِ نُوحٍ ثَلَاثُ مِائَةِ سَنَةٍ، وَكَانَ فَارَ التَّنُورِ بِالْهِنْدِ، وَطَافَتْ سَفِينَةُ نُوحٍ بِالْبَيْتِ أُسْبُوعًا"75.

ويقال أنّ سفينة نوح قد استوت على الجودي يوم عاشوراء، عن الزّارِيّ، قال: "تَابَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي عَشْرِ مِنْ الْمُحَرَّمِ، وَهُوَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، وَفِيهِ اسْتَوَتْ سَفِينَةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْجُودِيِّ، وَفِيهِ عَبَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْبَحْرَ، وَفِيهِ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى، وَفِيهِ تَابَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى قَوْمِ يُونُسَ، وَفِيهِ أَخْرَجَ اللَّهُ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ بَطْنِ الْحُوتِ، وَفِيهِ أَخْرَجَ اللَّهُ تَعَالَى يُوسُفَ مِنَ الْجُبِّ، فَمَنْ صَامَ ذَلِكَ الْيَوْمَ، كَانَ كَمَنْ صَامَ سِتِينَ سَنَةً"7776. وقال قال قتادة: "أَبْقَى اللَّهُ سَفِينَةَ نُوحٍ حَتَّى أَدْرَكَهَا أَوَائِلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ"78. أمّا معمر فقال: "وَبَلَّغَنِي

74 فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل 2، ص 785.

75 المستدرک علی الصحیحین للحاکم، 2، ص 514.

76 ترتيب الأمالي الخميسية للشجري، 2، ص 120.

77 المختصر النصح في تهذيب الكتاب الجامع الصحيح، 4، 330.

78 المسند الموضوعي الجامع للكتب العشرة، 8، 464.

أَنَّ سَفِينَةَ نُوحٍ طَافَتْ بِالْبَيْتِ سَبْعًا حَتَّى إِذْ أَعْرَقَ اللَّهُ قَوْمَ نُوحٍ رَفَعَهُ،  
وَبَقِيَ أَسَاسُهُ، فَبَوَّأَهُ لِإِبْرَاهِيمَ فَبَنَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ 79، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ: {وَإِذْ  
بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ} 80.

حملت السفينة المعجزة على ظهرها من كل زوجين اثنين، {حَتَّى إِذَا  
جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ  
سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ  
اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ  
وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ  
الْكَافِرِينَ} 81.

ويقال أُنْهَا حَمَلَتْ عَلَى ظَهْرِهَا ثَمَانُونَ رَجُلًا وَأَهْلُوهُمْ، وَقَدْ أَقَامُوا  
عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ مِائَةَ وَخَمْسُونَ يَوْمًا، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: "كَانَ مَعَ  
نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ ثَمَانُونَ رَجُلًا مَعَهُمْ أَهْلُوهُمْ، وَأَكْثَرُهُمْ كَانُوا أَقَامُوا فِي السَّفِينَةِ  
مِائَةَ وَخَمْسِينَ يَوْمًا، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَجَّهَ السَّفِينَةَ إِلَى مَكَّةَ، فَدَارَتْ بِالْبَيْتِ  
أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ وَجَّهَهَا اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْجُودِيِّ" قَالَ: فَاسْتَقَرَّتْ عَلَيْهِ  
فَبَعَثَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْعُرَابَ، لِيَأْتِيَهُ بِخَبْرِ الْأَرْضِ، فَذَهَبَ فَوَقَعَ عَلَى  
الْحَيْفِ، وَأَبْطَأَ عَنْهُ، فَبَعَثَ الْحَمَامَةَ فَآتَتْهُ بِوَرَقِ الزَّيْتُونِ، وَلَطَّخَتْ رِجْلَيْهَا  
بِالطِّينِ، فَعَرَفَ نُوحٌ أَنَّ الْمَاءَ قَدْ نَضَبَ، فَهَبَطَ إِلَى أَسْفَلِ الْجُودِيِّ، فَابْتَنَى  
قَرْيَةً، وَسَمَّاها ثَمَانِينَ، فَأَصْبَحُوا ذَاتَ يَوْمٍ، وَقَدْ تَبَلَّبَتْ أَلْسِنَتُهُمْ عَلَى  
ثَمَانِينَ لُغَةً، إِحْدَاهَا الْعَرَبِيَّةُ، قَالَ: فَكَانَ لَا يَفْقَهُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، وَكَانَ  
نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُعَبِّرُ عَنْهُمْ" 82.

79 مصنف عبد الرزاق الصنعاني، 5، 94.

80 الحج 26.

81 هود 40 . 42.

82 أخبار مكة للأزرقي، 1، 52.

نعم أنّ نوح مبدع سفينة النجاة، ولهذا فالإبداع صفة من صفاته، ذلك لأنّه استمد صفة الإبداع من المبدع المطلق جلّ جلاله، الذي أبداع كلّ شيء وهو يبدع كونه الخلاق، أنّه المبدع بالأمر لا بالعمل؛ فالعمل يتمّ على أيدي المخلوقين، أمّا الخالق إذا أراد شيء يقول له كن فيكون، {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} 83.

ولأنّه البديع، فالإبداع صفته، ولأنّ نوح نبي مرسل من عند الله ليكون خليفة ويخزّض على الاستخلاف في الأرض؛ فكان خير خليفة يعمل ويبدع بيديه حتى أبداع تلك السفينة الآية (سفينة النجاة) ولهذا فهو مبدع كونه استمدّ هذه الصفة من خالقه المبدع المطلق جلّ جلاله.

ولهذا ليس بغريب على المؤمنين به وموحيه أن تكون عقيدتهم إن الله جلت قدرته بديع لعيسى عليه الصلّاة والسلام من غير أب، وليس بغريب على من يريد تحقيق الخلافة في ملك الله ويبدع فيها لمصلحة خلق الله، ويكون خلاقا في الأرض ليستخرج خيرا ولا يفسد فيها بدعة سوء سواء أكانت بدعة قولية أم فعلية، والخليفة المتخلق بالاسم البديع يصلح الأرض بإبداع الجديد المفيد وهذا تخلقا بصفة البديع المطلق فيصبح بديعا بالإضافة.

والبديع المطلق هو الذي لا مثيل له، وهو المنشئ المبدئ لكل شيء على غير مثال، وهو الواحد الأحد المستحقّ للعبادة، وهو الواحد الذي يستحيل في حقه الولد لأنّ ذلك تبعيض وتجزئ، وهذه ليست من صفات الله تعالى.

والبديع بالإضافة هو الذي يقبل أن يكون له مثل إذا سار على المنهج الصحيح وهو المنشئ للجديد بالاستفادة من خلق الله وإبداعه في

الأرض، وهو الواحد القابل للكثرة لأنه بإبداع المجموعة تتحقق الخلافة الجماعية فتكون الخلافة خلافة أمة لا خلافة فرد مع جواز أن يكون الفرد محفز للجماعة بريادته وقيادته لها، وهو الموحد لله الذي لا يرى أن الله قد اتخذ صاحبة ولا ولدا لأن هذا ينتفي في حقه تعالى.

وعشاق الفساد ومخربو العمار الروحي ومفسدو الإصلاح الجمعي وحملة راية الظلام (جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ) وهو سبحانه وتعالى: (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

يخبر الله تعالى أنه مع إحسانه لعباده وتودده إليهم، بآياته البينة، وحججه الواضحة فإن المشركين به بدءا من مشركي قريش وغيرهم، جعلوا له شركاء من الجن والملائكة يدعونهم ويعبدونهم، والجن والملائكة خلق من خلق الله، ليس فيهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، فجعلوهم شركاء، لله الخالق الأمر الناهي، وهو المنعم المتفضل بجميع أنواع النعم، الدافع لجميع النقم، وكذلك خرق المشركون فكذبوا وافتروا على الله، بأن له بنين وبنات بغير علم منهم، ومن أظلم ممن قال على الله بلا علم، وافترى عليه النقص، والله منزه عن قولهم. ولهذا نزه نفسه عما افتراه عليه المشركون فقال: (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ) فإنه تعالى الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل نقص، فهو (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) خالقهما، ومتقن صنعتهما، على غير مثال سبق، بأحسن خلق، ونظام وبهاء، لا تقترح عقول أولي الأبواب مثله، وليس له في خلقهما مشارك. (أَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً): كيف يكون لله الولد، وهو الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا صاحبة ولا زوجة له، وهو الغني عن مخلوقاته، وكلهم في حاجة إليه في جميع أحوالهم، والولد لا بد أن

يكون من جنس والده؛ والله خالق كل شيء وليس شيء من المخلوقات مشابهاً لله بوجه من الوجوه.

والبديع عند العلماء مُوجِد العين لا على مثل، وعند أهل الإشارة الذي ليس له شيء مثله. فهذا الاسم يشير إلى نفي المثل عن ذاته، ونفي المثل عن أفعاله، فهو الأحد الذي لا عدد يجمعه، إنه الله الدائم جلّ جلاله، وهو العدل الذي جعل الصراط المستقيم معياراً للتقويم، والحقّ الذي لا يزول، والباقي الذي لا يتغير، حكمه نافذ ولا مرد له سبحانه جلّ جلاله.

و(بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أي مبدعهما، والابداع اختراع الشيء لا عن مادة ولا في زمان، ويستعمل ذلك في إيجاده تعالى للمبادئ، وهو غير الصنع إذ هو تركيب الصورة بالعنصر؛ ويستعمل في إيجاد الأجسام، وغير التكوين فإنه ما يكون بتغير وفي زمان غالباً، وإذا أريد من السماوات والأرض جميع ما سواه تعالى من المبدعات والمصنوعات والمكونات لاحتوائها على عالم الملك والملكوت فبعد اعتبار التغليب يصح إطلاق كل من الثلاثة إلا أنّ لفظ الابداع أنسب لأنه يدل على كمال قدرته تعالى، والقول بتعين حمل الابداع على التكوين من مادة أو أجزاء لأن إيجاد السماوات من شيء كما يشير إليه قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ} 84 ناشئ والآية حجة أنه تعالى مبدع لكل ما سواه فاعل على الإطلاق، ولا شيء من الوالد كذلك ضرورة انفعاله بانفصال مادة الولد عنه فالله تعالى ليس بوالد<sup>85</sup>.

---

<sup>84</sup> فصلت، 11

<sup>85</sup> تفسير الألويسي، ج 1، ص 482

قال الشاطبي: أصل مادة (بدع) الاختراع على غير مثال سابق ومنه قول الله تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} 86، أي أنه بديع الشيء وخالق الأشياء منه.

ونحن نقول: الابداع شيء والاختراع شيء آخر ولنوضح ذلك:

الابداع إيجاد دون سابق، دون محاولة للخطأ والصواب، إنه الخلق السليم بالكامل.

والاختراع، لا يحدث إلا بتصور مسبق، مع احتمال الوقوع في الخطأ، وهذه لا تكون من صفة المبدع المطلق جلّ جلاله.

وعليه فالمبدع بالمطلق هو الله، وهذه الصفة لا مشاركة فيها، إما الاختراع (صفة) قد تسري على ما يجده المخلوق من مصنوع على مثال، ولهذا الابداع يوجد من غير مثال، والمخترع لا يكون إلا على مثال.

والخليفة هو الذي يبدع في استيعاب ما أبدعه الله يقينا لا شك فيه، مع إدراكه مسلمات وحجة مطلقة بأنه الحق. والمبدع بالإضافة هو الذي يعلم أنّ ما يجده من جديد هو إضافة من مبدع بالمطلق. ولهذا فالمبدع بالإضافة هو من يدرك ما أبدعه الله ويقف دونه، تأملا واستقراء واستنباطا حتى يدرك اليقين من ورائه من خلال إدراكه للكيفية التي عليها خلق وبهذا يتمكن عقله من الإدراك الذي يمدّه بروح الابداع في تقوى الله فيتمكن من أدراك المجرد الذي يكمن ورأي كل علة أو سبب حتى يضيف الجديد المفيد والنافع الذي يسهم في إصلاح الأرض وإعمارها.



إذا نقول: الابداع إيجاد عن غير مثال سابق، والبدع هو مبدع الموجودات بلا مادة فهو واجدها ومخرجها بالهيئة التي تكون عليها هي كما هي.

وخليفة البدع المطلق هو الذي يبدع الحلول لمصلحة الجماعة الإنسانية لتوفير سبل الراحة لتعمير الأرض لا لإفسادها، وهنا من حقّ المتشدد أن يقول لنا إنّ البدعة من الابداع والابداع ضلالة والضلالة في النار، وقبل أن نرد عليه نطلب منه قليل من الصبر حتى تتضح لنا ما معالم البدعة الضالة المضلة؟ التي تهوي بصاحبها إلى النار، ولنرى الابداع المفيد النافع الذي يرقى بصاحبه وبجماعته إلى أعلى رتب السعادة في الدنيا وأعلى الجنان في الآخرة فينال خير كل الخير.

البدعة:

البدعة مأخوذة من بدع الشيء يبدعه بدعا وابتدعه أنشأه وبدأه، وهي عمل ما ليس بمألوف، وقد تكون خروج عن مألوف أو متعارف عليه، وهذه البدعة قد تواجهها المعارضة وقد يواجهها التأيد كل حسب استدلالاته عليها.

"فَعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ الْقَارِيِّ أَنَّهُ قَالَ خَرَجْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي رَمَضَانَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَإِذَا النَّاسُ أَوْزَاعٌ مُتَفَرِّقُونَ يُصَلِّي الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ وَيُصَلِّي الرَّجُلُ فَيُصَلِّي بِصَلَاتِهِ الرَّهْطُ فَقَالَ عُمَرُ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَانِي لَوْ جَمَعْتُ هَؤُلَاءِ عَلَى قَارِيٍّ وَاحِدٍ لَكَانَ أَمْثَلُ فَجَمَعَهُمْ عَلَى أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُ لَيْلَةً أُخْرَى وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلَاةِ قَارِيهِمْ فَقَالَ عُمَرُ نِعِمَّتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ وَالَّتِي تَنَامُونَ عَنْهَا أَفْضَلُ مِنَ الَّتِي تَقُومُونَ بِهَا يَغْنِي آخِرَ اللَّيْلِ وَكَانَ النَّاسُ يَقُومُونَ أَوَّلَهُ" 87.

87 موطأ مالك، ج 1، ص 340

والبدعة بِدْعَتَانِ: (بدعة هُدَى) وكذلك (بدعة ضلال):

فما كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله عليه الصلّاة والسّلام فهو في حَيِّزِ الذم والإنكار، وما كان واقعا تحت عُموم ما ندب الله إليه وحَضَّ عليه الله أو رسوله فهو في حيز المدح وما لم يكن له مثال موجود كنوع من الجُود والسخاء وفعل المعروف فهو من الأفعال المحمودة ولا يجوز أن يكون ذلك في خلاف ما وردَ الشرع به لأن النبي عليه الصلّاة والسّلام قد جعل له في ذلك ثوابا فقال: "(من سنَّ سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها) وقال في ضده: (ومن سنَّ سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها)، والحديث كما ورد في الصحيح: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "مَنْ سَنَّ سُنَّةً خَيْرٍ فَاتَّبَعَ عَلَيْهَا فَلَهُ أَجْرُهَا وَمِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ غَيْرَ مَنْقُوصٍ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً شَرًّا فَاتَّبَعَ عَلَيْهَا كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهَا وَمِثْلُ أُوزَارِ مَنْ اتَّبَعَهُ غَيْرَ مَنْقُوصٍ مِنْ أُوزَارِهِمْ شَيْئًا"<sup>88</sup>، وذلك إذا كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله عليه الصلّاة والسّلام، ومن هذا النوع قولُ عمر رضي الله عنه: نَعَمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ. لما كانت من أفعال الخير وداخلة في حيز المدح سماها بدعة ومدحها لأن النبي عليه الصلّاة والسّلام لم يسنّها لهم وإنما صلاحها ليالي ثم تركها ولم يحافظ عليها ولا جمع الناس لها ولا كانت في زمن أبي بكر وإنما عمر رضي الله عنه جمع الناس عليها وندبهم إليها فهذا سماها بدعة وهي على الحقيقة سنة لقوله عليه الصلّاة والسّلام: عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ: "وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْعَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً دَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجَلَّتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ فَقَالَ رَجُلٌ إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةٌ مُودِعٌ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا

<sup>88</sup> سنن الترمذي، ج 9، ص 285

وَأَيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي  
وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ" 89.

وعلى هذا فيحمل الحديث (كل مُحَدَّثَةٌ بدعة) إنما يريد ما خالف  
أصول الشريعة، وأكثر ما يُستعمل المُبتدع عرفاً في الذمّ والبدعة الحَدَث  
وما ابتدع من الدين بعد الإكمال.

فالمبتدع الذي يأتي أمراً على شبه لم يكن ابتداءً سابقه، وبدع في  
هذا الأمر كان الأول فيه ولم يَسْبِقْهُ فيه أحد.

وعليه فالخليفة هو مبدع أعمال الخير وأفعاله، وهو المجتهد في غير  
معصية، وهو المضيف لما يحقق موجبات ويترتب عليه حسنات، ويلاقي  
قبولا من الآخرين، وبه يتم العمار والإصلاح في الأرض.

وعليه فالبدع هو ما أحدث واخترع، وإن كان نافعا ومفيدا فهو  
مدوح وإن كان غير ذلك فهو مذموم.

ومع أنّ نوح نبيا هاديا للحق، ولكن وكما بيّنا في هذا البحث  
الموسوعي فابن نوح وكأنته لم يكن ابن نبيا، ولهذا لم تكن جميع ذرية نوح  
وإبراهيم أنبياء أو مهتدين، بل كان أكثرهم فاسقين وكافرين ومشركين  
فقوله تعالى: (فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ) جاءت تبعية لتدل على أنّ البعض الآخر  
غير مهتدين وأولئك هم الكثرة مصداقا لقوله تعالى: (وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ  
فَاسِقُونَ).

وبناء على ما سبق فإنّ الاستغفار يُعد ضرورة للمؤمنين المسلمين  
وجوهم لله رب العالمين من حيث:

---

<sup>89</sup> سنن الترمذي، ج 9، ص 287

أ . لأنَّ من أسمائه الحسنی الغفور الذي يتولى غفران الخطايا لمن استيقظ من غفلته وانتهى عما سلف من ارتكاب الخطايا والسيئات وتوجَّه بطلبه وتضرعه للغفور، ولذلك أصبح الاستغفار رحمة للعباد وكان الغفور رحمن بهم.

ب . لأنَّ الإنسان بطبعه لم يُخلق على الكمال حيث لا كمال إلا لله تعالى، فالبشر مكثرون من ارتكاب الخطايا والسيئات، ولهذا بعث الله الأنبياء الرُّسل فيهم لأجل الهداية للتي هي أحسن وأقوم، ولأسباب التكرارات في ارتكاب السيئات عبر الزمن من جيل إلى جيل كان الغفور جلَّ جلاله باعنا للرسول في كل فترة حتى الرسالة الخاتمة والرسول الكافة محمد عليه الصلّاة والسّلام، قال تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةً رُسُوهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} 90.

ولأسباب كثرة الأخطاء والسيئات البشرية كان أكثرهم لا يؤمنون، وأكثرهم لا يعلمون، وأكثرهم يجهلون، ولا تجد أكثرهم شاكرين، وأكثرهم فاسقون، وأكثرهم يتبعون الظن، وأكثرهم لا يعقلون، وأكثرهم مشركون، وأكثرهم معرضون لا يسمعون، فمن يعرف أمثال هؤلاء الكثر ليس له بدُّ إلا أن يستغفر ثلاثة مرات:

مرة بأسباب أخطائه أي كلما عرف أنه على خطأ استغفر ربّه تعالى وعاد إلى صوابه ورشده.

ومرة كلما رأى ما يرتكبه الكثرة من عيوب وخطايا وسيئات استغفر ربّه ممّا يرتكبون فهذه تدل على استمرار الصلّة بالغفور المطلق جلَّ جلاله.

ومرة تدل على الاستغفار لهم كما جاء في قوله تعالى لرسول الله  
محمّد عليه الصلّاة والسّلام: {فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي  
الْأَمْرِ} 91 أمر بالاستغفار لهم فيما الله عليهم من تبعّة.

ولوجود هذه الأسباب والعلل كان نوح عليه الصلّاة والسّلام على  
رأس المستغفرين قال تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ  
لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} 92، استغفار نوح لم  
يكن بأسباب ارتكابه سيئة من السيئات، فقد استغفر الله ولم يرتكب  
سيئة - بل كان بأسباب العاطفة التي تربّطه مع ابنه كما كان يظن، ولذا  
فهو لم يعلم بالحقيقة التي عليها ابنه الذي اتضح أنه عمل غير صالح  
مصادقا لقوله تعالى: {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ  
صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ  
الْجَاهِلِينَ} 93، ولجورد أنّ نوح عليه الصلّاة والسّلام قد عرف أنّه لم يعلم  
بحقيقة الأمر استغفر ربّه على ما كان لم يعلم.

وعليه فإنّ طلب المغفرة من الله تعالى على ما يتهيأ للمؤمن من  
أفكار أو فيما كان يظن، أو لما صدر منه من قول، أو لما قام به من  
عمل لا يليق بمن آمن بالله تعالى، أو لما ارتكبه من ذنب ثم استدرك  
نفسه بالالتجاء والعودة إلى الله بدلا من الاستمرار أو البقاء على ما  
يُحَيِّدُهُ عن إيمانه به تعالى 94.

قال تعالى: {وَإِنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا  
إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ

---

91 - آل عمران 159.

92 - هود 47.

93 - هود 46.

94 - عقيل حسين عقيل، موسوعة أسماء الله الحسنی وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض،

المج لد الثاني، 2009، ص 227.

عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ {95 في هذه الآية الكريمة جاء الاستغفار سابقا على التوبة وهكذا دائما التوبة تلاحق الاستغفار وهو يرتبط بها.

وعليه نوح عليه الصلّاة والسّلام لم يئس ولم يقنط فقال لهم (أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيتَ عَلَيْكُمْ) لقد أظهر نوح استغرابه الجدلي مع قومه الذين أظهر لهم البيّنة ومع ذلك عُمِّيت عقولهم عنها، ولهذا لا يمكن له إلزامهم وإكراههم على الطاعة، حيث لا إكراه في الدين وهذه قاعدة مفروضة اتبعها جميع الأنبياء والمرسلين في التبشير بدعواتهم لله ربّ العالمين، ولهذا قال: (أَنْزَلْنَاهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ).

جدل نوح بلا اشتراطات إنّه جدل من أجل الإيمان بالله تعالى فهو لم يطلب شيئا لخصومه فلا يُريد مالا ولا مركزا اجتماعيا بل يُريد مكانة عند الله مع المستخلفين في الدارين (وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ).

وبالمنطق الجدلي من يأتي إلى نوح عليه الصلّاة والسّلام بإرادة، مؤمنا مسلما لا يمكن له أن يطرده، فإن طرده خالف قواعد المنطق الذي به يحتاج وكذلك سيجد نفسه مخالفا للعرف بين الناس العادلين في الأرض، لذلك قال: (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ).

وصل نوح إلى نتيجة وهي:

إنّ الجهل كان مغالبا لقومه على اتباع الحقّ، وإلا كيف يطلبون منه أن يطرد الذين آمنوا معه بإرادة ورغبة في طاعة الله تعالى؟ وكيف له أن يقبل بأخذ رأي الكفرة الفجرة ويخالف قول الله الذي اصطفاه نبيا ورسولا يهدي للتي هي أقوم؟ لذلك كانت إجابته لقومه: (وَلِكَيْيَ أَرَأَكُمْ

قَوْمًا تَجْهَلُونَ) أي أنكم بلا معرفة، فلو كانت لكم معرفة لجادلتم في الحق بالحق، ولأنكم لم تفعلوا ذلك فأنتم تجهلون.

ويتساءل نوح في جدله المنطقي قائلاً: {وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} {96، نوح عليه الصلاة والسلام رسولا نبيا يعلم مالا يعلمون فهو يعلم أنهم يريدونه أن يكون وحيدا فطلبوا منه أن يطرد الذين آمنوا منهم فيكون بلا أنصار، وحين ذاك يعمه الضعف والوهن، ولجلههم لا يعرفون قول الحق: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبَثْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} {97، يفهم من هذه الآيات الكريمة أن جميع الرسل قد نصرهم الله وأيدهم بجنود من عنده فهو على كل شيء قدير، ولذلك أظهرت هذه الآيات الكريمة العلاقات المؤسسة على الفضائل بين جميع الرسل والأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم.

وعود على بدء لتساؤل نوح عليه الصلاة والسلام كما جاء في الآية الكريمة: (وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) فمن بين مقاصده القولية أنه لن يطرد أنصاره، ولذلك قال لقومه (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) بمعنى (على لسان نوح) عبر التاريخ لا يمكن لأحد أن يفترط في أحبائه

96 هود 30.

97 - الحج 40 . 46.

ومؤيديه ومناصريه فما بالكم أيها القوم بمن يناصربي على الحق، فإن  
تريدون مني طردهم فوالله لن أطرحهم.

نوح عليه الصلّاة والسّلام يجادل بالحجّة، أي يجادل بالحقّ على  
إحقاقه ولم يجادل بباطل مصداقا لقوله تعالى: (وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي  
خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ) فهو يخاف الله ربّ  
العالمين، ولذلك في جدله لم يدّع شيئا لم يكن عليه فهو لم يقل لهم أنه  
يمتلك خزائن الملك لعلمه أن الملك لله تعالى، ولم يقل لهم أعلم الغيب،  
لعلمه أن الله هو علّام الغيوب، ولم يدّع بأنّه ملك يريد أن يحكمهم في  
غير طاعة الله عزّ وجلّ، وكذلك لم يقل أن الله لن يؤتي خيرا للذين آمنوا  
معه، (وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي  
أَنْفُسِهِمْ) فنوح عليه الصلّاة والسّلام يدرك أنّ هذا الأمر لا يعلمه إلا  
علّام الغيوب جلّ جلاله فهو يعلم ما في أنفسهم فإن كانوا في باطنهم  
على الحقّ وبالحقّ مؤمنين فإنّ الله لا يضيع لهم أجرا ولا حسنات، وإن  
كانوا كما أنتم تدعون فالله ليس بغافل، ولكن بالنسبة لي (نوح) فأنا  
أحكم بما أعلنوه وما أظهره من إيمان وطاعة واتباع ولذا فالله دائما أعلم  
بما تكنه الصدور.

وعليه يُراد بقوله تعالى: (وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ  
اللَّهُ خَيْرًا) بمعنى لا أقول للذين تنظرون إليهم باستحقّار وتقليل شأن أنهم  
سيكونون من المحرومين وسيظلون هكذا في حياتهم وممّاتهم أراذل كما  
ادعيتهم أيها القوم، وكذلك لم أقل أنّهم لن يفوزوا بالجنّة، فالأعمال بالنيات  
ولكل ما نوى.

بهذا الجدل لم يكن نوح من الظالمين في شيء، فلو قال غير ذلك  
لكان منهم (إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ) ولأنّه لم يقل إلا الحقّ فهو صديق من



الصادقين الذين اصطفاهم الله مبشرين ومبينين ومنذرين ومحرضين على أفعال الخيرات الحسان.

حلاوة الجدل تزداد في كل مرة بقوة حجة نوح وبوهن حُجج قومه الجاهلين، الذين قالوا كما جاء في القرآن الكريم: {قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} 98. اعترافهم بجدل نوح هو اعترافهم بقوة الحجّة فيه، ومع ذلك فقد أنكروا الحق فكانوا من الضالين، وكأنّ قوم نوح يقولون، مع كل ما قلته يا نوح من منطق إلا أننا لن نؤمن بما جئت به ولن نتبعك، ولهذا طلبوا من نوح أن يأتيهم بما أوعدهم به من عذاب إن لم يؤمنوا.

فقولهم كما جاء في الكتاب الحكيم: (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) أي انزل علينا العذاب الذي تعتقد أنه لاحق بنا إن كنت من الصادقين، وهنا أقول: كلما اتضحت لديهم حجة نوح اتضح لدى نوح جهلهم بالحق وكفرهم وشركهم بالله تعالى، فلو كانوا يعلمون لعرفوا أنّ ما قاله نوح لهم ليس بيده أي لم يدعيه بالمطلق، ولذا؛ فهم في جهلهم ماكنون.

ولأنّ نوحا عليه الصلّاة والسّلام من الصادقين المصدّقين قال: (قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) جدل الرّسل جدل يقين حيث لا يدعون إلا ما أمرهم الله به أو آتاهم الله إياه، ولذلك فهم مؤمنون بمشيئة الله التي متى ما أرادها كانت ومتى ما يُريدها تكون، ولكل أجل كتاب، ولذا فمشيئة الله لا يعجزها أحد ولا مفر لكم من حكمه وقضاه أنتم وما تمتلكون في ملكه وبين يديه، فإن تسلموا ولن تكفروا وسعة رحمته كل شيء وإن كفرتم وأشركتم فعذابه شديد لن يتغير وجهنم ستكون عليكم خير شهيد ويومها لن ينفع النادمون ندمهم والحمد لله

رب العالمين الذي كتب النار على المشركين والكفرة وكتب الجنة للذين آمنوا ولم يشركوا ولم يفسدوا في الأرض ولم يسفكوا الدماء فيها بغير حق.

ولأنّ نوح عليه الصّلاة وسلام نبيا ورسولا كريما يُظهر الإيمان في جدله في كل حين مصداقا لقوله تعالى: (وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) ولهذا فبإيمانه يُقر أن نصحه لقومه سيكون نافعا مفيدا إن أَراده الله تعالى، ولن يكون نافعا ولا مفيدا أن لم يُرده الله تعالى، ولهذا، إن أراد الله أن يهلككم (يُغْوِيَكُمْ) فلا راد لقضاه وحكمه الحقّ.

ولأنّ نوح عليه الصّلاة والسّلام واثقا من قوله ومتيقنا من حُجّته؛ فهو يعلم أنّه على الحقّ وإنّ وصفه قومه بالكذب والافتراء فلا ذنب يلحقه منهم، {أَمْ يَقُولُونَ افْتِرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يُجْرِمُونَ} 99، ومع ذلك ولتطمئن قلوب قومه قال: (إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي) أي، أتحمّل وزره، ثم قال: (وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يُجْرِمُونَ) أي أنّ نوح قد أقرّ لقومه أنّ ما قاله لهم هو الحقّ يقينا، وأنّ ما قالوه له هو بهتاننا يقينا.

وعليه أقول:

ثلاث عناصر في منطق الحوار، من يلمّ بها ويعرفها، يعرف معنى الجدل، ومن لم يعرفها، لن يعرف معنى الجدل. عندما تكون هناك قضية دينية وإنسانية، أو قضية اجتماعية ووطنية، يكون هناك موضوع للحوار، وقبل أي اعتداء أو اقتتال ينبغي أن يكون اللقاء الذي تُعرض فيه الحجج المنطقية، دون إعلان عدا من طرف لآخر، وإذا لم يتم ذلك مباشرة لا عيب في تدخل وسطاء المنطق، لا وسطاء اللغة، وسطاء الحكمة لا وسطاء السياسة، وعلى الجميع توخي الحذر، (جادلهم بالتي هي أحسن)

---

<sup>99</sup> هود 35.

قال تعالى: جادلهم ولم يقل حاورهم، فالمجادلة فيها مكابدة ودرجة عالية من التحمُّل، وعدم الإسراع في الخروج من الموضوع، إلى أن تتحقّق القناعات بعد مكاشفات وحجج دامغة، ليس فيها تزوير أو تحرّب من إحقاق الحقّ، وعلى المحاور أن لا يُستفز من قبل المحاور الآخر، فالاستفزاز قد يُنهي زمن المجادلة التي لا ينبغي أن تُهزم بالاستفزازات غير المسؤولة من قبل الآخر وهكذا كان جدل نوح عليه الصلّاة والسّلام مع قومه.

ولذا نقول: في المجادلة إصرار وتمسك بالحقيّة، وعدم إعطاء الفرصة لمن يريد أن ينهي الجدل قبل الوصول إلى نتائج مقنعة، وفيها التحذير والإنذار، وفيها التواعد إذا لم يتم الاتفاق، وفيها معرفة العواقب. ولذلك فالفرق كبير بين المجادلة والمحاورة فالمجادلة كما سبق تبيانه، أمّا المحاورة فقد لا تكون فيها مكابدة وعناء، بل فيها يتم الاعتماد على الأقوال والبراهين التي لا تستوجب الوعيد والتهديد وكذلك يكون الاعتماد فيها على التلاعب بالألفاظ والأقوال، ولذا، قد لا يكون فيها بيان يهدي للتي هي أحسن وأقوم.

ومع أنّ نوح نبيا كريما ولكنّه لا شكّ أنّه إنسان، فنوح عليه الصلّاة والسّلام إنسان امتلك عاطفة الأبوة، ولم يستطع إخفائها بالرغم من الظروف التي هو فيها رسولا من الله تعالى للعباد، ولما بقي ابنه في عداد الكفّار ونوح عليه الصلّاة والسّلام يعلم أنّ ابنه من المغرّقين، لأنّه أدرك أنّه لن يهتدي في مرحلة الدعوة قبل الطوفان، ولذلك نادى ابنه من أجل نجاته ليحمله معه في الفلك المشحون، على أمل الركوب معه وهو على كفره، ثمّ يأتي الإيمان بعد وقوع البرهان، ولكن ابنه لم يستجب لندائه لما سبق عليه من القول، إذ لو ركب مع الركابين لكان مخالفا للمشيئة، حيث قال تعالى: { اِحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ

عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} 100 فالله تعالى أعلم نوح بما هو واقع من الأمر قبل وقوعه، ومع هذا نجد عاطفة الأبوة عند نوح عليه الصلّاة والسّلام في لحظة من اللحظات قد غلبت عليه وهو ينظر إلى الغرق كيف يلاحق ابنه، ولذا، عاتبه الله تعالى في ذلك بقوله تعالى: {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلِنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} 101. حيث أنّ البحث استنبط كثيرا من موضوعاته من هذا القبيل، وكان منصبا على مثل هذه القضايا.

وقد تعرض البحث أيضا لأسلوب دعوة نوح عليه الصلّاة السلام لقومه من خلال ترغيبهم بالخير حال استجابتهم لأمر الله تعالى، التي كانت أبرز سماتها، الأسلوب العاطفي بما يحمل من الرحمة لهم والشفقة عليهم والدعة بهم قريتهم وبعيدهم على حدّ سواء من:

. الكفار.

. المؤمنين.

. الأهل.

هذه الأمور وأمثالها من سمات النبوة وخصائصها التي عاجلتها موضوعات البحث، وأجرت بعض الموازنات بين الأقارب والأباعد في مسألة الإيمان والكفر، مثل صلة القرى ونبوة الأب، لكن ذلك لم يكن ليغني عن ابن نوح من الله شيئا.

حيث أنّه في دائرة الممكن المتوقع أنّ صلاح الأبوين يكون إرثا طيبا للأبناء يرسم لهم منهجا يكون قدوة في الاتباع.

---

100 - هود 40

101 هود 46

ومن هنا، نفذنا إلى قضايا كبرى ومهمة في خلق الإنسان وحياته وحرية واختياره، بحيث تناولنا جزءا من هذه القضايا مبثوثة في ثنايا البحث مثل:

. الحرية.

. الجبر.

. الاختيار.

فابن نوح حكمت عليه حرته بالغرق عندما رفض دعوة أبيه للصعود معه إلى السفينة لينجو من الطوفان. ولكي لا يفهم من كلامنا أننا نقول بحرية الإنسان المطلقة، وهذا ما لا يقول به عاقل، فقد أوضحنا بعض الأمور التي يكون الإنسان مخيرا فيها، وأمور أخرى لا يملك حياها شيئا إلا أن ينصاع لها، وأمور ثالثة هو منصاع لها أصلا، فالإنسان لا يولد ولا يموت باختياره، كما أنه لا يختار أبويه بمشيئته، والأشياء التي لا يتحكم بها كثيرة. ولذا؛ فإن القضايا التي عاجل البحث بعضها منها، تدخل في مجال الاختيار وتحمل المسؤولية التي يترتب عليها الحساب.

ومن القضايا التي انكبّ البحث عليها بالاهتمام، إنقاذ الأنواع من الهلاك على يد نوح عليه الصّلاة والسّلام بأمر من الله تعالى، وكذلك المراحل التي عاشها عليه الصّلاة والسّلام، فقد رأينا أنّها ثلاث مراحل تختلف الحياة في كل منها عن الأخرى:

المرحلة الأولى: ما قبل الطوفان: كان فيها صابرا على أذى قومه له بالسخرية منه، والتكذيب له، وحامدا لله وشاكرا له على فضله عليه بالاصطفاء والاستجابة لدعائه كلما دعاه لينجيّه ويحفظه من مكر قومه وكيدهم له، إنّها مرحلة الآلام والمواجه من كفر قومه وشركهم بالله تعالى، حيث لم يؤمن معه إلا من قد آمن، وكانت النتيجة الغرق للقوم الضالين

الطَّاعِينَ فِي عَهْدِ نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قَالَ تَعَالَى: {وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ  
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} 102.

المرحلة الثانية: هي مرحلة الانتقاء الزوجي، وركوب الأهل في الفلک الذي صنعه نوح، فكان آية عظيمة في زمن الطوفان مصداقا لقوله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ وَقَالَ ازْكُبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ حُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ} 103 وكانت النجاة هي النتيجة المتحققة على يد صانعه عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قَالَ تَعَالَى: {فَكَذَّبُوهُ فَانجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ} 104.

المرحلة الثالثة: بقاء الأنواع الزوجية وبقاء الأهل المؤمنين، ولا وجود في هذه الفترة من زمن نوح لكافرٍ أو مشركٍ أو ساخرٍ أو مُكذِّبٍ، إنَّها مرحلة النقاء الإيماني وانعدام الألم؛ فكانت النتيجة طاعة الله تعالى ورسوله الكريم نوح عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وبقاء المستخلفين في الأرض مصداقا لقوله تعالى: {وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ} 105.

ومن القضايا العقلية والمسائل الفكرية التي أهتم بها البحث، هي قضايا الجدل والحوار بين نوح وقومه وما كانوا يطرحونه من أسئلة أو استفسارات، وإجابات نوح عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من حيث:

. الأسلوب.

. الطريقة.

---

102 يونس 73.

103 هود 40 . 42.

104 يونس 73.

105 يونس 73.

. الحجّة.

. البرهان.

. الدليل.

وبهذا، نعتقد أننا أتينا على معظم الجدل الذي دار بين نوح عليه الصلّاة والسّلام وبين قومه الذين رفضوا رسالته، وبالتالي رفضوا الإيمان بالله تعالى والتسليم لواحديته عزّ وجلّ، وقد وقفنا على هذا الجدل من خلال كل آية على حدة على التوالي، وبيننا الحجج والبراهين، وتناولنا أسلوب نوح بإظهار ما فيه من لطف ورقة ودعة، في استناده إلى الحجّة العقلية والمنطق السليم، وعلى جدل قومه وما يحمل من ضعف في دحض حجّة نوح، ممّا ألجأهم إلى فظاظة الرّد عندما عجزوا عن مجاراة المنطق السليم.

وقد ضربنا بعض الأمثلة لهذا المنطق الذي يقوم على الاختيار السليم الذي يقود بالتالي إلى النجاة رحمة بهم وشفقة عليهم، مثل قوله لهم: (إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) فبهذه العبارة من جدله، قد حدّر فيها، وأنذر، وأشفق، ورحم.

وقد بيّنا جميع أبعاد هذه القضية من الجدل، حيث كان التحذير واجبا من أجل أن يتركوا ما هم فيه من الغواية والضلال، والتحذير نفسه يحمل بين طياته الإنذار من وقوع العذاب إذا استمروا على ما هم فيه من كفر وشرك، بينما يتمثل الإشفاق في خوفه عليهم من العذاب المترتب على التحذير إن لم يأخذوا به.

وأما الرحمة في قلبه لهم؛ فكانت أظهر ما تكون عندما جعل العذاب يتعداهم إلى اليوم (عذاب يوم أليم)

وقد أوضحنا أنّ اليوم في حقيقته ليس أليماً، وإّما هو مؤلم لهم، ولكن عدّى العذاب عنهم وجعله لليوم رحمة بهم، وشفقة عليهم، لأنّه يرجو ألا يصيبهم، ويأمل منهم أن يتبعوا الحقّ وسبيل الرشاد، حتى يكونوا من الناجين.

لقد تناولنا في بحثنا هذا موضوعات كثيرة غير التي قدمناها على سبيل المثال، وقد انصب اهتمام كبير من الجهد المبذول في هذا البحث على مسائل عقلية وفكرية من القضايا العقديّة.

### النبي هو:

لقد قصّ القرآن علينا أبناء عاد قوم هود صلّى الله عليه وسلّم؛ سكنوا هذه الأرض وعمروها، وحرثوها وزرعوها، وكانوا أوّلي بأس وقوّة وشدة، فكذبوا المرسلين غرورا بما لديهم من قوّة، وما عندهم من علم، فأخذهم الجبّار أخذ عزيز مقتدر، فأصبحوا أثرا بعد عين وعبرة للعالمين، قال الله تعالى: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ} {106}.

كان منهم عاد قوم هود صلّى الله عليه وسلّم، وكانوا يسكنون الأحقّاف ما بين عمان وحضرموت، قال تعالى: {وَإِذْ كُرِّ أحمًا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} {107}.

فقوم هود صلّى الله عليه وسلّم خلفاء وراثّة لقوم نوح صلّى الله عليه وسلّم وليسوا خلفاء استخلاف، وأنهم جاؤوا من بعدهم وساروا على

---

106 - غافر 21، 22.

107 - الأحقّاف 21.



منهجهم في الشرك، ولذا لم يكن هناك اختلاف في دعوة هود عن دعوة نوح صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ليس من قبل العقيدة والتوحيد، ذلك أن عقيدة التوحيد هي واحدة لجميع الأنبياء والرُّسل، وإنما في القضية التي بعث هود عليه الصَّلَاة والسَّلَام من أجلها في قومه وهي عبادة الله وحده ما لهم من إله غيره، حيث قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ {108}.

فنبى الله تعالى هود صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يختلف في دعوته لقومه ومنهجه فيهم عمّا جاء به نوح صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقومه.

ويبدو لنا أنّ هذا الأمر في اقتراب دعوة نوح وهود صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يصلان حدّ التطابق، لأنّه لم يعالج كلّ منهما سواء مسألة الشرك والدعوة إلى التوحيد.

إنّ جميع الرُّسل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجمعين الذين بعثهم الله تعالى إلى أممهم وأقوامهم نستطيع أن نقول أنّهم على قسمين:

الأوّل: يحمل قضية كلىة هي دعوة التوحيد كنوح وهود.

الثاني: يحمل قضية كلىة هي دعوة التوحيد وجزئيات أخرى كشعيب وموسى.

فالأنبيا والرسل صلى الله عليهم وسلّم مكلفون في المبدأ بالدعوة إلى توحيد الله تعالى، وعدم الشرك به، فذلك هو المنهج الأساس للرسول في دعوتهم الأمم الأقبوام التي يبعثون فيها ويرسلون إليها.

وقد كان نبي الله هود صلى الله عليه وسلّم منهجه الأساس من تكليفه في دعوة قومه إلى توحيد الله وحده ونبذ عبادة الأصنام، وكان يندبهم بأس الله ويضرب لهم المثل بقوم نوح، ويذكرهم بنعم الله تعالى عليهم حيث زادهم في الخلق بسطة وجعلهم خلفاء في الأرض من بعد قوم نوح، وبوأهم أرضا مثمرة تدرّ عليهم الخير الكثير، وتنبت لهم الزرع الذي يعيشون به، والكلأ الذي تعيش به أنعامهم وماشيتهم، فأخبرهم بواجب الشكر تجاه هذه النعم التي أصبحوا بها أولي قوّة، وهنا يكون الواجب عليهم أن يستعملوا هذه القوّة التي خوّلهم الله إياها في طاعة الله، ولم يعطها لأحد سواهم، وأن يستعملوا عقولهم التي هي إحدى نعم الله عليهم، بأن يفكروا بها ليتبينوا أن ما يعبدونه من دون الله لا يملك لهم ضرا ولا نفعا، وأن الذي ينفع ويضر هو الله وحده الذي خلقهم وأعطاهم القوّة التي يفتخرون بها، وهو الذي بيده إحيائهم وإماتتهم، وأنهم إذا تابوا إليه ممّا سلف من الكفر تاب الله عليهم وأغدق عليهم نعمه ظاهرة وباطنة وأمدهم بقوّة إلى قوتهم وزيادتهم عزا إلى عزهم، وهو لا يطلب منهم جزاء ولا أجرا، وإنّما أجره على الله، ولا يطلب منهم حمدا ولا شكورا، وإنّما الحمد والشكر منهم لله تعالى الذي خوّلهم ما هم فيه، وهذه سنن النبوة والرسالات أنّ الأنبياء والرسل صلى الله عليهم وسلّم لا يطلبون أجرا ولا مالا ولا زعامة، وإنّما دعواهم خالصة لله والدار الآخرة، ولكنهم سفهوه وكذبوه وتجاهلوا الحجج التي جاء بها من الله تعالى والبراهين القاطعة التي أقامها على صدق ما يدعوهم إليه، فكانت

إجابتهم: {قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهِنَا عَنْ قَوْلِكَ  
وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ} 109.

دع هود قومه إلى توحيد الله وترك عبادة الأصنام، وقد ذكّر هود قومه بنعم الله عليهم ليوصلهم إلى وجوب شكر المنعم بتوحيده، ومن هذه النعم استخلافهم بعد قوم نوح وزيادة أجسامهم بسطة في الطول والقوّة وإرسال المطر وغيرها من النعم، ولكن كل هذا التذكير بنعم الله عليهم ويقوم نوح من قبلهم الذين دمرهم الله بشركهم وكلّ التخويف من بأس الله لم يزدهم إلا استكبارًا وعنادًا للحقّ {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً} 110. ومن هنا كانت السفاهة فيهم حتى أنّهم قد وصفوا هودًا عليه السّلام بالسفاهة وأنّ بعض آهتهم أصابته بسوء، وأنّهم لن يتحوّلوا عن دين آبائهم.

ويبين لهم هود عليه السّلام أنّ هذه الأصنام ليست إلا مجرد أسماء ولا حقيقة لمسمياتها وليس لها صفة الألوهية؛ لأنّها من اختراع آبائهم فيقول لهم: {أَلْحَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} 111. ومع ذلك أزداد قومه عنادًا واستكبارًا عن الحقّ؛ فتحذّاهم هود عليه السّلام وتحذّي أصنامهم معلّنًا براءته منها؛ لأنّه متوكّل على الله المتفرّد بالألوهية: {قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} 112. وهكذا أستمّر قوم هود على عنادهم وفرارهم من التوحيد متمسّكين بأصنامهم إلى أن أنزل الله بهم العذاب بالريح العاتية

---

109 - هود 53.

110 فصلت 15.

111 الأعراف 7.

112 هود 54، 55.

الشديد بردها وصوتها وهبوبها: قال تعالى: { إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ خُلٍ مُنْقَعِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي } 113. وهكذا كانت النهاية رحمة للمؤمنين، وهلاك للكافرين 114.

وعليه:

أرسل الله عزّ وجلّ نبيّه ورسوله هودا عليه الصّلاة والسّلام إلى قومه عاد وكانوا يسكنون الأحقّاف. قال ابن عباس رضي الله عنهما: "وادٍ بين عُمان وأرض مَهْرَه". وقال ابن إسحاق: "الأحقّاف رمال فيما بين عُمان إلى حضرموت". وقال قتادة: "الأحقّاف رمال مشرفة على البحر بالشحر من أرض اليمن". ولا خلاف بين هذه الأقوال، فهي تدلّ على مكان واحد جنوب الجزيرة وقرب حضرموت. وقد ظهر فيهم الشرك بالله تعالى وكانوا أوّل من أظهره وعبد الأصنام بعد هلاك قوم نوح عليه السّلام بالطوفان، فأرسل الله تعالى إليهم رسوله هودا عليه السّلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وينهاهم عن عبادة غيره" 115.

ومن هنا فهود عليه السّلام مفطورا، أي أنشأه الله على الفطرة نشوءا، والفطرة هي ما يُجعل عليه المخلوق جعلًا؛ فالذي فطر هود صلّى الله عليه وسلّم هو الله تعالى الذي بيده أمر المشيئة للشيء إن شاءه فلن يكون إلا كما شاءه جلّ جلاله، ولهذا كان هود على المشيئة رسول كريم.

---

113 القمر 19 . 21.

114 عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، ص، ص 211.

115 حماية الرسول صلّى الله عليه وسلّم حمى التوحيد، ص، 65.

قال تعالى: { يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ } 116.

وهنا وقفة لا بدّ منها في قوله (على الذي فطرنى).

فلم يقل إنّ أجري إلا على الذي خلقني علما أنّ الذي فطره هو الذي خلقه.

قال هود صلّى الله عليه وسلّم: (الذي فطرنى) وهو أول نبي من الأنبياء والرّسل يذكر فطرة الله تعالى التي فطر عليها خلقه، والفطرة لها معانٍ منها:

المعنى اللغوي:

فقد جاء في كتاب العين: "وفطر الله الخلق، أي خلقهم، وابتدأ صنعة الأشياء، وهو فاطر السماوات والأرض، والفطرة التي طبعت عليها الخليقة من الدين، فطرهم الله على معرفته برّبوبيته، وانفطر الثوب وتفطر أي انشق، وتفطرت الجبال والأرض انصدعت" 117.

وقال الجوهري في الصحاح: "والفطرة بالكسر: الخلقة. وقد فطره يفطره بالضم فطرا، أي خلقه. والفطر أيضا: الشق. يقال: فطرته فانفطر. ومنه فطر ناب البعير: طلع، فهو بعير فاطر. وتفطر الشيء: تشقق. وسيف فطار، أي فيه تشقق. قال عنتره:

وسيفي كالعقيقة فهو كمعي... سلاحي لا أفل ولا فطارا

والفطر: الابتداء والاختراع. قال ابن عباس رضي الله عنه: كنت لا أدري ما فاطر السماوات حتى أتاني أعريّان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتهما، أي أنا ابتدأتهما"118.

ولذا كان هدف رسالة هود صلّى الله عليه وسلّم أن ينتشل قومه من براثن الكفر والشرك، وأن يضعهم على جادة الصراط المستقيم بالهداية والرشاد وصولاً إلى التوحيد.

إن الله سبحانه وتعالى بعث الأنبياء والمرسلين لهداية الناس، وكلّ نبي أو رسول يكون له مهمة إمّا:

. في الخصوص.

. وإمّا في العموم.

. وإمّا للكافة.

ولما كان هود صلّى الله عليه وسلّم رسول في قوم عاد فإنّه من رسل الخصوص لهداية قومه إلى الحقّ في التوحيد والعقيدة، وفي كلّ ما يتصل بها أو يتفرع عنها من القيم والمبادئ، وفي كلّ ما يتعلق بتنظيم الحياة الإنسانية، بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والخالق عزّ وجلّ، ثمّ تخليص هذه الحياة من كلّ مسببات الفساد والإفساد، ومظاهر الانحراف أيّاً كان نوعها أو حجمها أو امتدادها في مجالات الحياة.

إن دعوة هود صلّى الله عليه وسلّم، وإن كان عمقها يتمثل في الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده، إلا أننا لم نقف من خلال قصة هود صلّى الله عليه وسلّم على شريعة كان يحملها لقومه على غرار

الشرائع التي أتى بها الأنبياء من بعده، كإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين.

ومع هذا فإن دعوة التوحيد لهُود صلى الله عليه وسلم وإن لم تحمل شريعة من الأمر،

غير أنّ جميع الرُّسُل أرسلهم الله تعالى بمبدأ واحد لا اختلاف فيه من حيث الزمان أو المكان أو الأقوام والأمم التي أرسلت إليها الرُّسُل، حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ} 119.

فعبادة الله تعالى هو جانب الخير الذي تحمله جميع الرسالات وأمرت باتباعه، واجتناب الطاغوت هو جانب الشر الذي أمرت جميع الرسالات بتجنبه والابتعاد عنه.

وعليه: قوم هود صلى الله عليه وسلم قد غرّتهم قوتهم، وبطروا نعمتهم، فرانت على قلوبهم الغفلة، واستحکم فيهم الطغيان، فعميت أبصارهم عن رؤية الآيات، وصمت آذانهم عن سماع دعوة نبيهم ووعيتها، فلم يتعظوا بما كانوا يوعظون، بل استكبروا واستهزئوا وجاهروا بالعصيان وكذبوا هودا صلى الله عليه وسلم، ولم يخافوا نعمة الله مما كانوا به سادرين فقالوا لهُود صلى الله عليه وسلم: {سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنْ الْوَاعِظِينَ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ} 120.

فقد بلغت جرأتهم على الله تعالى مبلغا شنيعا ما سبقهم به من أحد حين قالوا: {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ

مِنْهُمْ قُوَّةٌ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ  
مُحَسَّنَاتٍ لِنُدِيقَهُمْ عَذَابَ الْحَزَنِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَحْزَى  
وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ {121}.

وكان عذرهم في عدم استجابتهم للحق أقبح من ذنبهم؛ إذ تذرعو  
باقتفاء آثار السالفين الضالين من آباءهم، وعدم التخلي عن سبيلهم  
الذي اختطوه، ودينهم الذي ارتضوه ولو كان ضلالا وشركا: {قَالُوا  
أَحِثَّنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَدْرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ  
مِنَ الصَّادِقِينَ} 122.

واتهموا هودا صلى الله عليه وسلم بالجنون كما هو دأب المكذبين  
مع أنبيائهم، والمفسدين مع مصلحيهم، بأن يرموهم بكل نقيصة وباطل  
لصرف الناس عن الحق.

ثم زعمت عاد أن جنونا أصاب هودا صلى الله عليه وسلم بسبب  
العزوف عن عبادة أصنامهم: {قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ  
بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ  
آهْتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِيَّيَّ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَيُّ بَرِيءٍ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ  
فَكَيِّدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ} 123.

كان لهود منهجا واضحا وأسلوبا ميسرا سلكه في دعوة قومه،  
حيث كان يضرب لهم المثل بما أصاب قوم نوح من قبلهم، وما وقع منهم  
من عناد ومكابرة، وإصرار على الزيغ والضلال، وكيف دمر الله عليهم  
سعادتهم حينما بغوا وتجبروا، وأصرروا على الباطل والاستكبار، مذكرا  
بآبائهم بنعم الله عليهم، إذ زادهم في الخلق بسطة، وجعلهم خلفاء من بعد

---

121 - فصلت 15، 16.

122 - الأعراف 70.

123 - هود 53-55.



قوم نوح مصداقا لقوله تعالى: {وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} 124، وذكّرهم بنعم الله تعالى عليهم محاولا إقناعهم بالرجوع إلى طريق الحق، مبيّنا لهم أنّ الله تعالى جعلهم وارثين للأرض من بعد قوم نوح، الذين أهلّكهم الله بذنوبهم، وزادهم قوّة في السلطان وفي الأجسام، وذكّرهم بإعطائهم الخيرات الجليلة من الأنعام والبنين، والحدائق والمياه، وخوفهم من العذاب الأليم، وانقلاب النعمة إلى نقمة إذا لم يؤمنوا بالله وحده.

ومن منهجه عليه السّلام القول اللين، والخطاب الجميل، وعدم مقابلة الأذى بمثله، ويتضح ذلك عندما رماه قومه بالسّفه والكذب، حيث ردّ عليهم قائلاً: (يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ).

وقد استعمل معهم أسلوب الجدل عندما أصر زعمائهم على عبادة الأوثان، وقالوا للنبي هود عليه السّلام أنّه لم يأتمم بيّنة واضحة على صحّة ما يدعو إليه، وقالوا له: إنهم غير تاركين آلهتهم، ولن يؤمنوا به، وزعموا أنّ آلهتهم قد مسته بضرّ، فصار يتكلّم بأقوال باطلة، فأجابهم هود عليه السّلام بأنّه يشهد الله، ويشهدهم بأنّه بريء من الشرك الذي هم فيه" 125، فقالوا له: {إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} 126، ولما ضجرت عاد من نبيها هود عليه السّلام،

124 الأعراف 69.

125 منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، 1، ص 181.

126 هود 53. 57.

تحذوه أن يقع فيهم إنذاره ووعيده، عند ذلك قال لهم هود عليه السّلام لا بدّ أن يقع عليكم غضب من الله تعالى فانتظروا عذاب الله، وإني معكم من المنتظرين. قال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رَجْسٌ وَعَظْبٌ ۝۱۲۷﴾.

وعليه فالمنهج هو نتاج التدبّر الفكري والعقلي الذي به يتمّ الاسترشاد بما يجب إلى ما يجب، ومن هنا ترك النبي هود منهجا عقليا وفكريا فيه من الحوارات والمجادلات ما يكفي لمن أراد أن يتجنّب الوقوع في الأخطاء أو المخالفات أو الجرائم والمعاصي والمنكرات إذا أراد أن يبني له مستقبلا يمكنه من بلوغ الغايات ونيل المأمولات.

ومن ثمّ فبالمنهج تتضح الرّؤية، عمّا هو كائن وعمّا يجب أن يكون، مع تقديم بدائل وفقا لكل أولوية ولكل تداخل وتتابع في الفكرة والكلمة والجملة والنصّ أو الخطاب.

فالمنهج لا يستقل عن النصّ بأيّ حالة من الأحوال، ولهذا لا يمكن كتابة المنهج فالمنهج لا يُكتب ولكن يكتب عنه. مثلما نعمل الآن نكتب عن المنهج لتُعرّف به الآخرين مثلما عرفنا نحن ممّا ترك النبي هود عليه السّلام.

ولهذا؛ فالمنهج لا يمكن أن يستقل بذاته عن غيره رسالة أو نبأ أو نظرية أو نصّ أو خطاب، ولذا مع أنّ المنهج لا يُكتب، إلا أنّه يُكتب عنه.

به تُستبين المسارات الفكرية والاتجاهات المحمّولة فيها، وبهذا فهو الكيفية التي بها تتم صياغة الموضوع وكيفية تقديمه للقراء والمستمعين أو

المتعلمين حتى يتمكنوا من استنباطه ومعرفته عن كتب، وهكذا يتم إدراك المنهج استقراء واستنباطا بما يُكتب به وبما يُكتب عنه.

ويكون المنهج متينا بقوة رسالته وترابط أفكاره وبناء قواعده، ويكون ضعيفا بتفكك أفكاره وبنيان قواعده، فالمنهج هو الذي يمدّ المفكرين والباحثين بما يُمكنهم من استقراء الفكرة وما تدل عليه وما تحمله من متوقّع وغير متوقّع سواء أكان سالبا أم موجبا، ويمدّهم بكيفية التمسك بما هو موجب والحياذ عمّا هو سالب.

إنّه ناظم المعلومة في الفكرة وناظم الفكرة بالمعلومة، وناقلها بها إلى الطريقة المترجمة له في كل خطوة من خطواتها في الحجّة والفعل والسلوك.

وهنا؛ فالمنهج هو الكيفية التي بها يتمّ توليد الفكرة من الفكرة، وتوليد الحجّة من الحجّة، من أجل رؤية المستقبل والتطلّع له قبل وصوله، كما كان يجادل النبي هود من أجل حياة آمنة وعادلة ومستقبل كلّه جنة، وهكذا يكون المنهج من أجل التطوّر والتقدم إلى ما هو أفضل وأجود وأنفع.

وبما أنّ المنهج هو الذي به تُفكك المعلومة وتُرَكَّب. إذن فهو الذي به يتم الانتقال من الكلّ إلى الجزء ومن بعده يتم الانتقال إلى المتجزئ. وبناء على هذه القاعدة كان جدل هود عليه السّلام من أجل معرفة الحقيقة الكامنة في الكلّ والحقيقة الكامنة في الجزء والحقيقة الكامنة في المتجزئ. وعليه أصبح الباحث يمتدون في تقصيصهم المعرفي من كلّ إلى جزء إلى متجزئ منه، وحسب خصوصية كل موضوع وكذلك منهم من يمتد في بحثه بداية من المتجزئ إلى الجزء ومن ثم إلى الكل.

والمنهاج هو الذي يُعلّمنا:

. كيف نفكّر؟

. كيف نتعلم؟

. كيف نشاهد ونتابع عن وع؟

. كيف نلاحظ ونستقرأ الفعل وردود الفعل؟

. كيف نربط علاقة بين متغيرين أو أكثر، أو كيف نكشفها

للآخرين ونيسرها لهم؟

ولهذا؛ فالمنهج لم يعد كما يظن البعض قالبا ثابتا لصهر الأفكار مثل القوالب التي تُصهر فيها المعادن تحت درجات حرارة عالية، بل أصبح المنهج اليوم قواعد معيارية يُمكن أن تقاس به الأقوال والأفعال والسلوكيات، وتحدد على ضوءه الاتجاهات وتستقرا نتائجها المستقبلية مما يجعل البحوث يرسمون لها الخطط في دائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع). ولهذا فالمناهج التي تنتظر أن يصاب المجتمع بالمشاكل والأمراض لكي تجد مواضيع لتبحث فيها، هذه المناهج اجترارية، فهي كمن يُلْكُ العلكة أكثر من مرّ ثم يرى غيره ليلكّها من بعده، فهذه المناج لا تُمكِّن الباحث من توليد الفكرة من الفكرة، والمعلومة من المعلومة، والأحدث من الحديث، والأجدد من الجديد، والأنتفع من النافع. فالمناهج التي تُمكن من كل هذا هي التي تجعل المجتمع بأسره في حالة حركة متجددة، وفي حالة تسابق ومنافسة وتطلّع من أجل بلوغ أمانيه وغاياته بكلّ رغبة مع أخذ الحيطة والحذر من كلّ انتكاسة.

ومع أنّ لقوم هود حضارة وقد تميّزت في التاريخ وتصدّرت الحضارات، ولكنّهم كانوا لا يرون شيء يقدّس إلاّ المادة، وهناك انشغلوا فيها وكانوا يظنون أنّهم يمتلكون القوّة التي لا تقهر، حتى أنّ الناظر إلى مدينة الأحقّاف بعد اكتشافها، يرى أنّ هذه المدينة بما فيها من بيوت وقماثيل من الفيلة والأعمدة وتيجانها والنقوش والزخارف وغيرها، لا نقول

أثما قدّدت من الصخر، وإثما قدّ الصخر عنها حتى بدت على هذه الصورة والشكل من البناء وال عمران، وهذا ما يميّز حضارة عاد عن غيرها من الحضارات الإنسانية، ولنا أن نقول، أنّ الحضارات القديمة في بلاد الرافدين ومصر والإغريق والرومان والحضارة الهندية وسواها إنّما كانت تأتي بالصخور والأحجار لتصنع منها ما تريد من الأشكال.

فالذي يميّز حضارة عاد قوم هود صلّى الله عليه وسلّم، أثما على العكس من تلك الحضارات، بأثما كانت تأتي إلى الجبل فتزيل الصخور التي لا تريدها، لتخرج الأشكال التي تريدها، وهي من هذا الجانب مدرسة الحضارات الإنسانية، ومع ذلك ما كان هذا ليغني عنهم من الله شيئاً، ولم يجاريهم في هذا الأمر غير ثمود الذين ربّما أخذوا ذلك عنهم قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لِبَالِمٍ صَادٍ} 128.

وقد شهد الله لهم بأنّ إرم لم يخلق مثلها في البلاد.

ومن هنا كانت قوّة عاد وجبروتهم مشهورة حتى أنّهم لما جاءهم هود صلّى الله عليه وسلّم بالإنذار استهانوا به واستكبروا عليه: {فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً} 129.

وأنّ نبيّهم صلّى الله عليه وسلّم وصفهم بأنّهم عتاة متجبرين بقوله: {وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ} 130.

---

128 - الفج ر 6-14.

129 - فصلت 15.

130 - الشعراء 130.

لقد بلغ من قوتهم وشدة بأسهم أنهم بنوا في طرق أسفارهم أعلاما  
ومنارات تدل على الطريق كيلا يضل السائرون في تلك الرمال المتقلبة  
التي تمحو الآثار، واحترفوا الآبار وشيدوا مصانع للمياه أشبه ما تكون  
بالسدود تجمع ماء المطر في الشتاء ليشرب منها المسافرون وينتفع بها  
الحاضرون في زمن شحة الأمطار، ثم أنهم بنوا حصونا وقصورا على  
أشرف ومرتفعات من الأرض، وإشارة إلى هذا قال لهم هود صلى الله  
عليه وسلم: { أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ  
تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا } 131.

وعليه؛ فلا قوة إلا لله تعالى، وما دونه مهما قوي وتجبر فلا يستطيع  
أن يخلق مستحيلا ولا يخلق معجزا، ولذا فالقوي هو "الكامل القدرة على  
الشيء تقول هو قادر على حمله فإذا زدته وصفا قلت هو قوي على  
حمله وقد وصف نفسه بالقوة فقال عز قائلا إن الله هو الرزاق ذو القوة  
المتين" 132.

القوي اسم من أسماء الله الحسنى والقوة صفة لازمة للذات الإلهية  
وهي صفة أزلية أبدية مطلقة اختص بها الله سبحانه وتعالى وهي من  
متممات القدرة القاهرة التي يسير بها الكون وما فيه من أجرام وكواكب  
سيارة وما في السماوات والأرض من مخلوقات صامتة وصائتة.  
فالمخلوقات الصامتة كالجبال والبحار والرياح والسحاب والأرض وما  
أقلت والسماوات وما أظلت وما بينهما من أمطار وعواصف وأعاصير وهذه  
الكوكب ومداراتها والنجوم ومساراتها وتقلب الليل والنهار إن هي إلا  
مُسَيَّرَةٌ بقدرة القوي الذي أنزل في الكتاب العزيز قوله: { إِنَّ فِي خَلْقِ  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ

---

131 - الشعراء 128 - 131.

132 تفسير أسماء الله الحسنى، ج 1، ص 54.

بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ {133} وأما المخلوقات الصائتة فالإنسان والحيوان والطير وما دبَّ على الأرض وما طرَّ في السماء وما انساب في الماء بإذن ربِّه فهي قوَّة نسبية سخرها الله لمخلوقاته لقضاء حوائجهم وإعمار الأرض وإقامة الدين سواء أكانت قوَّة مادية تتجلى في الجهد والسعي والعمل أم قوَّة معنوية كالعقل والفكر والتأمل التي تدرك بها قوَّة الله المطلقة وعظمته وبقيه صفاته جلَّ شأنه حتى يعلم الإنسان أنّ الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. فهو جلَّ شأنه ليس كمثله شيء لا في العلم ولا في السمع ولا في الإبصار ولا في القوَّة بل ولا في جميع صفاته التي يكون العلم بها عن طرق ثلاثة هي الحس والعقل والخبر.

1. الحس: وهو الشعور بالحرارة والبرودة وسير الرياح وشدتها.

2. العقل: الذي يدل على أنّ وجود الموجود لا بدّ له من واجد.

3. الخبر: وهو النبوءات التي جاء بها الأنبياء عليهم الصلّاة والسلام، وهذه أدلة قطعية على إدراك القوَّة المطلقة لله تعالى، سواء أدرك البشر ذلك أم لم يدركوا لأن صفات الله تعالى ثابتة لا تتوقف على العلم بها ومن هنا نستطيع القول أن العقل ليس أصلا لإثبات صفة من صفات الذات الإلهية، ولا معطيا لها صفة لم تكن، ولا مفيدا لها صفة كمال، وهذا يعني أنّ صفة القوَّة مطابقة للمعلوم المستغنى عن العلم به تابعة له ليست مؤثرة فيه، ولهذا فإنّ علم الله صفة لازمة غير مؤثرة على عكس القوي التي هي صفة لازمة مؤثرة مدركة وإن جحدها الجاحدون

أو لم يعلموا بها؛ ذلك أن عدم العلم ليس علما بالعدم وإنما هو جهل بالعلم.

فالله سبحانه وتعالى دلت على وجوده وقوته بآياته التي خلقها للناس من أجل التفكير والتدبر للوصول إلى حقيقة الوجود الإلهي أولاً ومن ثم إدراك قوة الله تعالى من خلال هذه الآيات قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ} 134.

ومن هنا فمظاهر القوة الإلهية متعددة وتظهر في الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ الَّتِي بَئْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} يدل على السموات والأرض وما هما عليه من إبداع مع ما فيهما من أعاجيب العبر وبدائع الصنع تعجز عن فهمها عقول البشر وهي دلالة أيضا على قوة الله وقدرته في إبداع خلقه، لاسيما إذا علمنا أن الإبداع هو الخلق على غير مثال يحتذى، فهو لا ينقل عن سابق ولا يقلد مثالا ولا يشاور عاقلا ولا يستنير برأي، وإنما يبدعه فيكمل خلقه على أحسن صورة لهذا الخلق المراد، لأن أي تعديل أو تغيير أو تحوير أو تطوير أو تجميل فإنه سوف يكون ناقصا لا محالة.

إن مجتمع عاد قوم هود صلى الله عليه وسلم، بنى حضارة عظيمة من حيث البناء والعمران، وقد أتاهم الله تعالى من الغنى والثراء والشدة ما جعلهم مجتمعاً حضارياً.



وأىّ مجتمع يكون فيه العامل الاجتماعي هو الأساس المكون للعامل الحضاري من طريقة التنظيم الاجتماعي التي تختلف من مجتمع لآخر ومن بيئة لأخرى، يؤثر في ذلك المحيط الخارجي بحيث تكون هناك دوائر متعددة للحضارات، فلا توجد دائرة واحدة تستوعب شخصية الإنسان في كليتها، ولكن هناك دوائر متعددة تستوعب الشخصيات الإنسانية. بمعنى أنّ المواهب التي تتمتع بها الإنسانية لا يمكن أن تجتمع في إنسان، وإنما هي في الإنسان نفسه كنوع، ولذلك يكون انبثاق المكونات الحضارية من إنسان المجتمع المتعدد المواهب الذي يكون الحضارة من مفردات كثيرة منها:

. الفكر والثقافة.

. العلوم والفنون.

. الشعر والموسيقى.

. الآداب.

. النحت.

. العمران والبناء.

. الإدارة والتنظيم.

. النتاج الحضاري.

فالفكر والثقافة ينبثق عنهما كلّ المعطيات التي تؤدّي إلى النتاج الحضاري الذي يسعى إليه الإنسان.

وعلى ما تقدم فالإنسان يجد نفسه عضوا متداخلا في عدّة دوائر غير متداخلة، بمعنى أنّه يمكن أن يكون الإنسان نحاتا وإداريا، وشاعرا

وبناءً، فهذا الذي يجعله متداخلاً في دوائر مستقلة غير متداخلة، لذلك يشعر بولاءات مختلفة مع بقاء الدائرة على ما هي عليه من الاستقلال.

ومن خلال الولاء للموهبة أو الفن أو المهنة للإنسان في داخل المجتمع، تتعدّد الولاءات لديه، أو أنّها تكون منفصلة عن بعضها البعض، فيكون ولاؤه الاجتماعي منفصلاً عن ولائه العقدي كما هو حال قوم هود.

إذ أنّ هذا الانفصال لديهم أدى إلى زيادة الوعي بالذات المادّية التي أغفلت الجانب الرّوحي الذي تمثله العقيدة بما تحمل من فضائل تحكم القيم التي يقوم عليها الجانب الحضاري، ذلك أنّ الفضائل العقدية تمثل سلطة واحدة تهيمن على الشخصية بضابط الأخلاق، وعلى هذا لا تكون دعوة هود صلّى الله عليه وسلّم لهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ {135}، هي دعوة إلى العبادة المحضة، بمعنى التوحيد والصلاة فقط، وإنما العبادة في أوجهها المتعددة بما تحمل من الخير للذات وللآخرين، بحيث تضمن حقّ الذات وتمنع ظلم الآخر، وما لم يأخذ الإنسان بجميع الأسباب التي توصله إلى العبادة التي يريدّها الله تعالى فهو بعيد عنها وإن صلّى وصام.

إنّ العبادة التي دعا إليه هود صلّى الله عليه وسلّم قومه إليها، وكذلك جميع الأنبياء الذين دعوا أقوامهم، يترتب عليها أعمال كثيرة من أجل الوصول إلى عبادة الله تعالى، أو أن يقبل الله تعالى هذا الإنسان أن يكون له عبداً.

فمن أجل أن يكون الإنسان عبداً لله تعالى، وجب عليه أن يأخذ بمستلزمات العبادة التي تمثل الفضائل الحضارية التي تحكم القيم الحضارية منها:

. الأمر بالمعروف .

. النهي عن المنكر .

. الإحسان للآخرين .

. عدم الاستكبار .

. العدل وعدم الظلم .

. إحقاق الحق .

. عدم سفك الدماء بغير حقها .

فالحقّ والعدل والمعروف والإحسان وما إلى ذلك من فضائل أتت بها العقيدة، من الله تعالى الذي خلق هذا الإنسان ويعلم ما يصلحه، هذه الفضائل هي الضوابط الأخلاقية التي تحكم القيم الحضارية، من أجل إنشاء حضارة إنسانية، وإذا ما تخلى المجتمع عن هذه الفضائل أو رفضها كما رفضها قوم هود صلى الله عليه وسلّم، فإنّ هذه الحضارة ستكون وبالاً على أهلها كما كانت حضارة عاد التي لم يخلق مثلها في البلاد.

ولذا؛ فإنّ عاد قوم هود صلى الله عليه وسلّم عندما رفضوا الجانب الرّوحي الذي تحمله العقيدة التي تمثل الفضائل، هيمن عليهم الجانب المادّي وطغى على شخصية الكيان الاجتماعي فقالوا: {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قوّة} 136.

الأمر الذي ترك حيزاً كبيراً من الحرية المنفلتة من الطبيعي أن يتجاوزوا بها على حرية الآخرين بما امتلكوا من القوّة والسلطان، ممّا جعل حضارتهم حضارة دنيئة، وليست متدنية.

فالإنسان الذي يريد أن يصل إلى الحضارة الإنسانية، يكون ذلك من خلال استيعاب القيم الحضارية التي يحملها والقيم التي تحيط به، شرط أن يحكم تلك القيم فضائل لا يختلف عليها اثنان، وهذه الفضائل التي لا تكون محل خلاف، لا يمكن أن يكون مصدرها الإنسان بوجه من الوجوه، بحث تكون هذه الفضائل للنتاج الحضاري أيضا.

إنّ الوصول إلى الحضارة وانقيادها للإنسان، يؤدّي إلى كمّ كبير من القيم المعنوية وتراكم مادي، فالقيم المعنوية تتمثل في الجانب الأخلاقي الذي تعكسه الحضارة على التصرف والسلوك والتعامل، والتراكم المادي الذي يكون فائض الحاجة يجعل المجتمع مترفا، فإذا كانت القيم المادية التي يمثلها السلوك والتصرف النابعان من الأخلاق، غير محكومة بفضائل تقيدها وتضعها بما على الجادة مثل:

. الحلال والحرام.

. الحقّ والعدل.

. الأمر والنهي.

. الأخذ والمنع.

فإنّ الانفلات الحضاري يسود المجتمع من تضافر التراكم المادي الذي يؤدّي إلى الترف مع التسبب الأخلاقي الذي لم يأخذ بالفضائل أو تخلى عنها.

ولما كان حال عاد قوم هود صلّى الله عليه وسلّم وصلوا إلى درجة من الحضارة والعمران اللذين أديا إلى الغنى الفاحش والقوّة المفرطة، ولم تحكم هذه الحضارة الضوابط الأخلاقية التي تجمعها الفضائل المنبثقة عن

العقيدة، طغت حريتهم على حرية الآخرين حد الاستعباد، ومن هنا قال لهم هود صلى الله عليه وسلم: {وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ} 137.

فهذا الجبروت الذي وصفهم به، أو الذي هو صفتهم على الحقيقة، هو استخدام تراث الحضارة الذي صنعه أيديهم، بشكّل غير حضاري، وهذا حال أي مجتمع عندما لا يحسن التصرف الحضاري، وليس البناء الحضاري، لأن كثيرا من المجتمعات تحسن البناء الحضاري، ولكن قلة منها تجيد التصرف الحضاري.

نخلص من هذا إلى القوّة المادّية التي تتولّد عنها حضارة لا تحكمها فضائل، يجد الإنسان نفسه فيها يواجه بشكّل مستمرّ عالما من الأشياء الحضارية المتنوّعة والمتعددة والمتجددة، التي يجب عليه أن يستوعبها في التعامل، ولكنّه يفشل في ذلك نظرا لتنوّعها وتعددتها وتجددها رغم أنّها نتاجه ومن صنع يديه، فلما ينفلت صاحب الحضارة أو من ينتمي إليها من طوق العبادة التي تمثل أعلى درجات الفضائل بما تحمل من ضوابط في تقنين التعامل مع هذه الحضارة ومع الآخر، هنا يميل إلى البطش والطغيان، ولذا فإنّها تصبح بعد قليل غريبة عنه ومصدر خطر على هويته، بل على كينونته الإنسانية. ولذا، تكتسب هذه الحضارة المنفلتة سمة الغرابة وتواجه الإنسان (الذي صنعها) باعتبارها هي الآخر، وتصبح المواجهة بينه وبينها حتى يصل حدّ السأم الحضاري لوجود الفراغ الروحي.

إنّ حضارة هذا شأن بانيتها، يجد الإنسان نفسه فيها، أنه يزداد قوّة وتقدما وهيمنة لا يحسن معها التصرف الحضاري، وبهذا يجد نفسه محاطا بعالم من الأشياء التي تقهره وتهيمن عليه على حاجاته ورغباته لأنه لا

يمكنه استيعابها ولا السيطرة على تراكمها، في الوجه الذي يجب أن توجه به بما استخلفه الله فيه، فيلجأ ساعتئذٍ للبطش.

ذلك أنّ تلك الحضارة التي ابتعدت عن جادة الصواب بعدم الأخذ بالعبادة التي تؤدّي إلى التوازن في المعادلة الحضارية بين:

. الأنا والآخر.

. المادي والمعنوي.

. الروحي والبدني.

. التجريدي والواقعي.

فعند فقدان التوازن الحضاري على الرّغم من وجود الحضارة، فإنّ هذه الحضارة تولّد لدى المجتمع:

. معرفة لا ضرورة لها.

. معرفة لا قيمة لها أحياناً.

. معرفة لا فائدة منها.

ولذا، قال هود صلّى الله عليه وسلّم لقومه: { أَتَبْتُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ } {138}.

### النبي صالح:

النبي صالح عليه الصّلاة والسّلام يعو نسبه إلى قبيلة ثمود وهي من القبائل العربيّة البائدة، ظهرت هذه القبيلة بعد أن بادت قبائل عادٍ في وادي الأحقاف. ذلك الوادي الذي تميّز أهله بالزراعية وهم قوم ينجحون

بيوتهم في قلب الجبال؛ فكان عليهم أن يؤمنوا بالله ويشكروه على نعمه عليهم، ولكنهم كفروا؛ فعبدوا الأوثان من دون الله.

وفي تلك الظروف أصطفى الله تعالى صالح عليه السلام نبيا لبني ثمود؛ فأعلن دعوته وبشّر برسالته، ومن هنا بدأ الصراع. فانقسمت القبيلة بين مؤمنين وكافرين، وكان على رأس قبيلة ثمود تسعة رجال أقوياء، وكان جميعهم من المفسدين.

كانت القبيلة تعبد آربابا من دون الله، وعلى رأس ما يعبدون حجرة ضخمة سموها: (الصخرة المقدسة) والذبائح عليها ومن حولها تذبح عبادة من دون الله. فقال لهم صالح عليه السلام: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} 139

ثم قال لهم: {أَلَا تَتَّقُونَ إِيَّيَّ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتُزَكُّونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ} 140. قال صالح عليه السلام: لقد أرسلني الله إليكم لتعبدوه، وأنا لا أطلب على ذلك أجرا من أحدٍ ولا أعبد أحدا إلا الله الذي خلقني؛ فقالوا: إذا كنت حقا رسولا من الله تستطيع أن تخرج لنا من قلب هذه الصخرة الصماء ناقة عشاء.

إنه الحوار والجدال بين رسول لطيف كريم له رسالة بها يدعو ويبشّر وينذر ويحرض على توحيد الله ولا شريك له، وبين كفرة سفهاء لا يقدرّون أصحاب المكانة الرفيعة من عند الله تعالى.

فصالح عليه السلام هو: "نبي الله ورَسُوله وهو ابن عبيد بن آسف بن ماشج بن عبيد بن جادر بن ثمود، بعثه الله تعالى إلى ثمود وهي قبيلة مشهورة باسم جدهم ثمود أخي جديس، وهو من العرب العاربة يسكنون الحجر بين الحجاز وتبوك، وكانوا يعبدون الأصنام فدعاهم نبيهم صالح إلى عبادة الله وحده فأمنت طائفة وكفرت طائفة وهو ما زال ينصح لهم فأذوه بالمقال والفعل وهموا بقتله، ثم إنهم طلبوا منه أن يخرجهم من قلب الجبل ناقة كي يصدقوه فسأل الله ذلك فاستجاب، ولكنهم عقروا الناقة فأنزله الله عليهم الصيحة فأهلكتهم ونجى صالحا ومن معه" 141.

كانت ثمود من الأقوام المفرطة في اللذات من مطعم ومشرب ومسكن، وبلغوا في ذلك الترف مبلغا أوقعهم في السرف والعصيان والتمرد على كل دعوة حق لظنهم أن ما هم فيه دائم لا يزول، فعاثوا في الأرض فسادا وسخروا من صالح عليه السلام ودعوته ومن آمن معه، وناصرهم العداة وأعرضوا عن الصراط المستقيم الذي جاء به. قال الله عز وجل: {كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرينى إلا على رب العالمين أتتركون في ما هاهنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنجثون من الجبال بيوتا فارهين فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون} 142.

ومع تطفه في دعوته طمعا في هدايتهم، وتذكيره لهم بنعمة الله تعالى عليهم، ومكانته المعروفة لديهم واشتهاره بينهم بالصدق والأمانة وحسن الخلق فيهم، مع ذلك كله اتهموه بالسحر، والسفه، وسخروا منه

141 نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله

عز وجل من التوحيد، 1، ص 293.

الشعراء 141. 152142



ومن دعوته، مع أنّ لهم فيه رجاء وطمع قبل أن يظهر عليهم بهذه الدعوة الجديدة.

وقد حافظ صالح عليه السّلام على صفته التي استمدّها من اللطيف تعالى مع تحدّدٍ لا رجعة عن الدعوة لتوحيد الله الواحد الأحد. ومن هنا أيضا كانت صفة صالح عليه السّلام (الخليفة في الأرض) عدم التخلّي عن تلطّفه في دعوتهم بغرض الهداية.

وبالرّغم من قبول التحدّي، ولكن صالح اللطيف عليه السّلام بقي لطيفا، ومتوكّلا على اللطيف الأعلى. وهذا الاسم يستحقّه "من يعلم دقائق المصالح وغوامضها وما دقّ منها وما لطف ثم يسلك في إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العنف فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في الإدراك تمّ معنى اللطف ولا يتصور كمال ذلك في العلم والفعل إلا لله سبحانه وتعالى؛ فأما إحاطته بالدقائق والخفايا فلا يمكن تفصيل ذلك، بل الخفي مكشوف في علمه كالجلي من غير فرق، وأما رفقّه في الأفعال ولطفه فيها فلا يدخل أيضا تحت الحصر إذ لا يعرف اللطف في الفعل إلا من عرف تفاصيل أفعاله وعرف دقائق الرّفق فيها وبقدر اتساع المعرفة فيها تتسع المعرفة لمعنى اسم اللطيف"143.

واللطيف من أسماء الله الحسنى الدالة على اللين والمقارّبة من المخلوق بالعمو والتسامح والتواد، ولذا فاللطيف هو من يملك القوّة المطلقة ويملك العفو والرّحمة ويفعل ذلك متى ما يريد وهو العليم الخبير. وهو مالك العذاب والحساب والعقاب لمن يشاء وفقا لما تقدّمه الأيدي وهو المسامح بالعمو والمغفرة والرّحمة والعطاء، قال تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ

---

143 المقصد الأسنى، ج 1، ص 101.

وَاللَّهُ سَبِغَ عَلَيْهِمْ أَلَمٌ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ  
 الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ  
 وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ  
 تَعْمَلُونَ وَأَخْرَجُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ  
 حَكِيمٌ {144}.

وهنا اللطيف هو الذي بيده كل شيء ويعفوا عن كثير ويتجاوز عن  
 الأخطاء استجابة لمن دعاه طاعة وإخلاصا، ولأنه يعلم السراء والضراء،  
 ولا تُخفى عليه خافية، فهو لا يستجيب إلا عند الوجوب، وفي ذلك  
 لطفًا بالعباد الذين لو أدركوا العاقبة لكانت الطاعة مع الصبر من أجل  
 المستقبل الأفضل الذي لا يعلمه إلا هو، ولذلك قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ  
 تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ  
 وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ {145}. الأنفس متعددة الطباع، تضعف وتقوى حسب  
 درجة الإيمان ومستوى الخلافة، فعندما تضعف تهوى في غير محل وعندما  
 تقوى تصبر حتى تنال أجرا، ولذا فاللطف بالعباد في الأقوال والأفعال  
 التي يقدمون عليها وهم لا يدركون العاقبة، فيتيح لهم الله لطفًا يحول بينهم  
 وبين العاقبة غير المحمودة.

وعليه فاللطيف بعباده كما قال ابن عباس: "حفي بهم. وقال  
 عكرمة: بارّ بهم. وقال السدي: رفيق بهم. وقال مقاتل: لطف بالبرّ  
 والفاجر. وقال القرظي: لطيف بهم في العرض والمحاسبة" {146}.

فاللطيف اسم إنما يستحقه من يعلم دقائق المصالح وغوامضها وما  
 دقّ منها وما لطف، ثم يسلك في إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون

144 التوبة 103 . 106.

145 البقرة، 216.

146 القرظي، مصدر سابق، الجزء السادس عشر، ص 19.

العنف فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللفظ في الإدراك تمّ معنى اللطف ولا يتصور كمال ذلك في العلم والفعل إلا لله سبحانه وتعالى.

واللّطيفُ: هو الَّذِي اجْتَمَعَ لَهُ الرَّفْقُ فِي الْفَعْلِ، وَالْعُلْمُ بِدَقَائِقِ الْمَصَالِحِ، وَإِبْصَالِهَا إِلَى مَنْ قَدَّرَهَا لَهُ مِنْ خَلْقِهِ. وَاللُّطْفُ الْمَطْلُوقُ لَا يَجْمَعُ لِأَنَّهُ وَاحِدٌ، أَمَّا الْأَلْطَفُ: الْأَحَبُّ، جَمْعُ الْأَلْطَفِ أَفْعَلَ مِنَ اللَّطْفِ بِمَعْنَى الرَّفْقِ. وَهَذِهِ مِنْ صِفَاتِ الْمَسْتَخْلَفِينَ فِي الْأَرْضِ، الَّذِينَ مَيَّزَهُمُ اللَّهُ بِالْقِيَمِ وَالْفَضَائِلِ الَّتِي بِهَا تُدْرِكُ الْأُمُورُ وَيَتِمُّ التَّوْفِيقُ فِيهَا بِلُطْفٍ"147. وَمِنْ هُنَا اسْتَمَدَ النَّبِيُّ صَالِحُ صِفَةِ لُطْفِهِ.

ومن معجزات النبي صالح يقال إنّ الناقة كانت معجزة لأنّ صخرة بالجبل انشقت يوماً وخرجت منها الناقة، وقد ولدت من غير الطريق المعروف للولادة. وكانت تشرب المياه الموجودة في الآبار في يوم؛ فلا تقترب بقية الحيوانات من المياه في ذلك اليوم، وقيل إنّها كانت معجزة لأنّها كانت تدر لبنا يكفي لشرب الناس جميعا في ذات اليوم الذي تشرب فيه الماء، والذي عندما تشربه؛ فلا يبقى شيء للناس. وقد وصفها الله سبحانه وتعالى بقوله: (نَاقَةٌ لِلَّهِ) أَضَافَهَا لِنَفْسِهِ سَبْحَانَهُ بِمَعْنَى أَنَّهَا لَيْسَتْ نَاقَةً عَادِيَةً وَإِنَّمَا هِيَ مَعْجِزَةٌ مِنَ اللَّهِ. { هَذِهِ نَاقَةٌ لِلَّهِ لَكُمْ آيَةٌ }148، وَأَصْدَرَ اللَّهُ أَمْرَهُ إِلَى صَالِحٍ أَنْ يَأْمُرَ قَوْمَهُ بِعَدَمِ الْمَسَاسِ بِهَا أَوْ إِذْئَاتِهَا أَوْ قَتْلِهَا، أَمْرَهُمْ أَنْ يَتْرَكُوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ، وَأَلَّا يَمْسُوهَا بِسُوءٍ، وَحَذَرَهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا مَدُّوا أَيْدِيَهُمْ بِالْأَذَى لِلنَّاقَةِ فَسَوْفَ يَأْخُذُهُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ.

في البداية تعاضمت دهشة ثمود حين ولدت الناقة من صخور الجبل؛ فكان واضحا إنّها ليست مجرد ناقة عادية، وإنّما هي آية من آيات

---

147 تاج العروس، ج 1، ص 6120.

الأعراف 148.73

الله. عاشت الناقة بين قوم صالح، حيث آمن منهم من آمن وبقي أغلبهم على العناد والكفر. وذلك لأنّ الكفار عندما يطلبون من نبيهم آية، ليس لأنهم يريدون التأكد من صدقه والإيمان به، وإنما لتحديه وإظهار عجزه أمامهم. ولكنّ الله دائماً يؤيّد أنبياءه بمعجزات من عنده.

إنّ الناقة المعجزة هي نتاج تحدي قوم ثمود لنبيه صالح عليه السّلام؛ فهم عندما طلبوا منه أن تلد الحجارة ناقة، هم واثقون أنّ الحجارة لا تلد شيء، فما بالك أنّهم قد حدّدوا رغبتهم في أن تلد لهم ناقة، ونسوا أنّ تحدي الأنبياء هو تحدّي مرسلهم. ولهذا قال لهم نبيهم صالح عليه السّلام: أرايتم إن أحببتكم إلى ما سألتكم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئت به، وتصدقوني بما أرسلت به؟

قالوا: نعم، فأخذ عهودهم وموآثيقهم على ذلك، ثمّ قام إلى مصلاه فصلّى لله عزّ وجلّ، ثمّ دعا ربّه تعالى أن يجيب دعاؤه؛ فكانت الإجابة آية حيث فأمر الله عزّ وجلّ تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه الذي طلبوا، أو على الصّفة التي نعتوا. فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً، ومنظراً هائلاً، وقدرة باهرة، ودليلاً قاطعاً، وبرهاناً ساطعاً، فأمن من آمن منهم، واستمرّ أكثرهم على كفرهم 149

ولما خرجت الناقة قال صالح عليه السّلام: {هذه ناقة لها شربٌ ولكم شربٌ يوم معلوم} 150، فمكثت الناقة ومعها سقيها في أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء وكانت ترد الماء سبتاً فإذا كان يومها وضعت رأسها في بئر من الحجر يقال لها بئر الناقة فما ترفعها حتّى

---

الموسوعة العقدية، الدرر السنية، 4، ص 44، بتقييم الشاملة آليا 149.

الشعراء 150.155

تشرّب كلّ ما فيها من ماء. ومع ذلك فقد عتوا الكفرة من قوم ثمود عن أمر ربّهم وحملهم ذلك على عقر الناقة فأجمعوا على عقرها 151.

قتلت الناقة على أيدي الكفرة من قوم ثمود، ويقال لما قتلت الناقة هربّ الفصيل بنفسه فانفتح له الحجر؛ فدخل فيه، ثم انطبق عليه، فهو فيه إلى وقت خروجه 152. وبعد أن قتلوا الناقة حقّ عليهم العذاب فأرسل الله عليهم صيحة من السماء أزهدت أرواحهم جميعاً ونجى الله القلة المؤمنة بتوحيدها لله وتوكلها عليه 153، قال تعالى: {فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرٍ مَّكْدُوبٍ، فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ، وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ، كَأَنَّ لَمْ يَغنُوا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ} 154

والناقة المذكورة قد وصفت بناقة الله وهذا يعني أنّها معجزة ربّانية ظهرت على يد نبي ثمود جواباً على تحديهم. وقد تكرر ذكرها في مواضع عديدة من القرآن المكي. والمفسرون يذكرون استناداً إلى الروايات أن الناقة خرجت من بطن صخرة، كما يذكرون بيانات كثيرة عن جسمها وكيفية شربها وحلبها ومقامها ورغائها والمؤامرة على عقرها ونهاية أمرها 155

قال تعالى: {فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ

---

تفسير الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 4، 253 151.

أشراط الساعة، ص، 149 152 .

عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، ص، 215 153.

هود 65 . 68 . 154

التفسير الحديث، 2، ص 141 155.

وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ {156، هذه الآيات الكريمة يتبين من خلالها تحقق العذاب على قوم صالح عليه الصلاة والسلام، وكان سيدنا صالح قال ذلك ليتذكروا كيف أبلغهم رسالات الله ومنهجه ونصح لهم وتحن عليهم أن يلتزموا بمنهج الله، لكنهم لم يستمعوا للنصح. ولم يحبوا الناصحين؛ لأنَّ الناصح يريد أن يُخرج المنصوح عما أَلْفه من الشر، وعندما ينصحه أحد يغضب عليه157.

والنصح: تحري: فعل أو قول فيه صلاح صاحبه. قال تعالى: {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ {158، وقال تعالى: {وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِِنَ النَّاصِحِينَ {159، أما النصح فكان مع النبي صالح عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ {160.

فكان ناصحا لامته وكلّ نبي هو ناصح لامته، ذلك أنّ النبي يرى ما لا يراه غيره من الناس، فإدراكهم العقلي لا يتجاوز في كثير من الأحيان خطوات أقدامهم، وعند الحديث عن النصح نجدهم يقولون وهو من قولهم: نصحت له الود. أي: أخلصته، وناصح العسل: خاصله، أو من قولهم: نصحت الجلد: خطته، والناصح: الخياط، والناصح: الخيط، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ

---

156 الأعراف 77-79.

157 تفسير الشعراوي، ج 1، ص 2944.

158 الأعراف 77-79.

159 الأعراف 21.

160 الأعراف 79.

رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {161؛ فمن أحد هذين؛ أما الإخلاص؛ وأما الأحكام، ويقال: نصوح ونصاح نحو ذهاب وذهاب162.

ولقد اتصف النبي صالح عليه السلام بالأمانة (أنه أمين)، والأمين هو من يؤتمن جانبه، وهو الذي يتقي الله ويخشاه في كل أمر يقدم عليه، إنَّه المؤمن بالحقِّ قولاً وعملاً خالصاً لله وحده، وهو الموثوق فيه من قبل الآخرين الذين تربطه بهم علاقات موضوعية.

والأمين هو محل الأمانة وأمين تعني ممَّا تعني:

. الحريص.

. المتقي لله تعالى.

. المتمكن من حُسن الأداء.

. الآمن.

ولذا؛ فكلّ هذه المعاني جاءت في الآية الكريمة السابقة الله عليه وسلّم، فهو الحريص، والمتقي لله تعالى.

الأمين الذي يؤتمن جانبه ويوثق في قوله وفعله وعمله وسلوكه، وهو المخلص لمن ائتمنه، فلا يخالف ولا يخون ولا يزور الكلم عن مواضعه والحقائق عن حُججها، وهو الذي إن عاهد وفي.

الأمين هو الصادق والمصدق الذي تودع لديه الأمانات وتسلم على يديه بالمحافظة عليها فلا تضيع ولا تُزور ولا يزيد ولا ينقص منها شيئاً.

---

161 التحريم 8.

162 مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ج 3، ص 461.

والأمانة قد تكون من الله تعالى كما هو حال الأنبياء والرسل الذين اصطفاهم الله عزّ وجلّ وجعل بين أيديهم أمانات منه للعباد تستوجب الإيمان والطاعة والتبشير والإنذار والتحريض والأخذ بما جاء فيها قولاً وعملاً، والانتهاة عمّا نهت عنه وتجنب ما أنكرته وتحريم ما حرّمته.

ولأنّ كلّ أمانة تستوجب أن يكون أحد أمينها عليها، والرسالات السماوية أمانات فقد اصطفى الله تعالى لها الصديقين رُسُلًا حافظين ومبشرين ومنذرين وفاعلين بها بين العباد الخيرات الحسان، قال تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ قَالُوا نَتُومِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ} 163.

وعليه كان النبي صالح عليه السلام مصراً على أن يترك قومه ما يعبدون من دون الله، فطلب منهم أن يتخلّوا عن عبادة الزائل ويعبدوا الباقي الذي لا يزول؛ ذلك لأنّ قبيلته كانت تعبد أرباباً من دون الله، وعلى رأس ما يعبدون حجرة ضخمة سموها: (الصخرة المقدّسة)؛ فقال لهم صالح عليه السلام: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} 164 أي أعبدوا الباقي الذي لا يزول ولا يفني ولا يبید ولا ينتهي، هو الأول والآخر وهو على كل شيء قدير.

الباقي "هو الله تعالى المستأثر بالبقاء وكتب على خلقه الفناء وهو خالق الفناء والبقاء" 165.

---

163 الشعراء 105 . 111.

الأعراف 59 . 164

165 تفسير أسماء الله الحسنى، ج 1، ص 64.



الباقي "الدائم الموجد لم يزل، الموصوف بالبقاء، الذي لا يستولي عليه الفناء" 166.

الباقي هو الموجود لا عن حدوث في حال وصفه بذلك، أي إذ ذكر الباقي فصفة الوجود كامنة في الذات لا في الحدث، فالله سبحانه موجود لا محدث، وهو موجود قبل الوجود، وموجود بمعنى العلم المجرد إذ كان الله تعالى مُنَزَّهاً عن الوصف بالجوارح والآلات، فهو الذي أوجد الوجود، فقد أوجد السماء والأرض، {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} 167، وقد أريد بالرتق حالة العدم إذ ليس فيه ذوات متميزة فكأن السماوات والأرض أمر واحد متصل متشابه وأريد بالفتق وأصله الفصل في قوله تعالى: (فتقناهما) الإيجاد لحصول التمييز وانفصال بعض الحقائق عن بعضها، ومعنى الآية ألم يعلموا أن السماوات والأرض كانتا على حالتين من التهيؤ، فأظهرناهما بالأمر (كن).

ثم أوجد ما في الأرض وما في السماء، {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} 168، ثم أوجد عليهما من يقوم بأمره، فأوجد الخليفة في الأرض ليعمرها ويأمر بالحق ويمنع سفك الدماء والفساد، {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 169، وأوجد الملائكة في السماء ليسبحوا باسمه، {وَتَرَىٰ

<sup>166</sup> الأسماء والصفات للبيهقي، ج 1، ص 44.

<sup>167</sup> الأنبياء 30.

<sup>168</sup> البقرة 29.

<sup>169</sup> البقرة 30.

الْمَلَائِكَةَ حَاقِبِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ  
بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {170.

وليقوموا بأمره فيها، { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا  
وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا  
أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } {171.

والباقي هو الدائم الذي دام وجوده، فالبقاء له صفة قائمة  
بذاته 172، وهو الباقي بجلاله وعرشه ومملكه وكماله على الدوام دون  
تأثر أو تغيير؛ لأن الحي من البشر قد يوصف بالسمع لكن سمعه يتأثر  
بمرور الوقت فيضعف سمعه، وربما يحتاج إلى ما يعينه كسماعة الأذن لتعينه  
على تلافي النقص الحاصل جراء التغيير الطارئ عليه، وقد يكون بصيرا  
لكنه يتأثر بعد مدة فيضع عدسة يستعين بها على الإبصار، والإنسان قد  
يكون متصفا بالصفات لكنه يتأثر بالسنة والنوم والغفلة، ولو كان قائما  
دائما لكملت حياته وبقيت صفاته، أما الباقي فهو الذي لا تأخذه سنة  
ولا نوم لأنه كامل الصفات، { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ  
سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ  
إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا  
بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ  
الْعَظِيمُ } {173، وهو الذي لا يغفل، { وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ  
الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ } {174، وعلى الخليفة  
أن يكون بقدر ما يستطيع على الصفات الحسنى، فلا يغفل عن أداء

---

170 الزمر 75.

171 التحريم 6.

172 الاعتقاد للبيهقي، ج 1، ص 66.

173 البقرة 255.

174 إبراهيم 42.

واجبه تجاه الله سبحانه وتعالى ولا تجاه العباد، فالغفلة صفة يجب على الخليفة تجنبها بالمطلق لأن الله سبحانه وتعالى ذكرها في موضع التحذير والتنبيه على تجنبها، فوصف الغافلين بالكفر فقال جل شأنه: {إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَاؤُهُم النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} {175}، ووصفهم في موضع آخر بالجهل، {وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ أُولَئِكَ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ} {176}، وهذه صفات الأولى بالخليفة أن يتجنبها بالمطلق وأن يتحلى بنقيضاتها، فيكون له أذن قادرة على السماع المميز بين الخير والشر، {لَتَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أُذُنٌ وَّاعِيَةٌ} {177}، وتكون له بصيرة وليس مجرد عين ينظر بها، فإذا قال قائل؛ كيف يمتلك الخليفة البصيرة وهي من أسرار مواهب الله، أما من وهبه الله البصيرة فقد ملكها، وأما من لم ينل ذلك فعليه بكلام الله يعيه ويعمل به لأنه هو بصيرة الخليفة المؤمن، {هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} {178}، وعلى الخليفة أن يجارِبَ الغفلة بالذكر، وأن يتمثل حال الخليفة الحق في الانتباه بعد الغفلة فيتذكر انتباه سليمان عليه الصلوة والسلام بعد أن غفل عن ذكر الله، {وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِبَادُ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ} {179}.

175 يونس 7، 8.

176 الروم 6، 8.

177 الحاقة 12.

178 الجاثية 20.

179 ص، 30، 33.

والباقي دائم في أمره، فأمر الله دوام إرادته، في الثوابت والمتغيرات، أما في الثوابت فمثاله أمر الباقي للجبال أن تقوم بدور إرساء الأرض وهي تقوم بهذا الدور إلى الوقت المعلوم عنده وحده سبحانه، {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} 180، وعندما يحين الوقت المعلوم المحدد بأمر الباقي سبحانه تكون بغير هيئتها التي كانت عليه، يقول الباقي جل شأنه عن حركتها: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُعَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} 181، ثم يصف نسفها فيقول: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا} 182، أما المتغيرات فمثاله حركة الأفلاك التي ينتج عنها تحديد الزمن والمواقيت وهنا أمر الله باقٍ دوام إرادته، ولا يتغير لا لطاعة العباد ولا لمعصيتهم لأنها حاجات عامة لكل المخلوقات، وشاء الباقي سبحانه أن يبقى أمره فيها إلى أن يشاء، ثم تكون وبأمره في ساعة يعلمها هو سبحانه وتعالى عما يصفون بغير حالها، {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ هَآذَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} 183، ونفهم من هذه الآيات أن ما من باقٍ غير الله، وما نراه من بقاء هذه المخلوقات إنما هو بقاء جزئي وأن البقاء المطلق هو الله سبحانه وتعالى.

وأمره جلّ وعلا لا تنطبق عليه حدود الزمن، فلا ماضي ولا حاضر ولا مستقبل، إذ الماضي من أمره هو ماضي وحاضر ومستقبل، وحاضره هو ماضي ومستقبل، ومستقبله هو ماضي وحاضر وكل ذلك على سبيل

180 النحل 15.

181 الكهف 47.

182 طه 105، 107.

183 يس 38، 40.

الإثبات أو النفي، أما على سبيل الإثبات فأمثله كثيرة منها قوله تعالى  
 :{فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا}184، ف  
 (كان) هنا في الآية فعل فاعله الباقي فهو مستمر غير منقطع، بمعنى أنه  
 كان عفوا ولم يزل يعفو وسيعفو، فلا حدّ لزمن الفعل، ولو كان الفاعل  
 غير الباقي سبحانه وتعالى لكان الماضي منقطع لا محالة، وأمثلة هذا  
 النمط كثير منها قوله تعالى: {قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ  
 كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ  
 خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}185، فقد كتبها في الماضي وهي  
 مستمرة في الحاضر وستبقى في المستقبل. وكذلك حاضره، {تِلْكَ الرُّسُلُ  
 فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَأَتَيْنَا  
 عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ  
 مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ  
 وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}186،  
 فالفعل المضارع دال على الحاضر لكن فاعله الباقي سبحانه فانتهى عنه  
 حد الزمن ليصبح فعلا دالا على الماضي والحاضر والمستقبل معا وهو ما  
 يتجلى في الكثير من الآيات الكريمة ومنها قوله عز من قائل: {وَمَنْ كَانَ  
 مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ  
 الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ  
 تَشْكُرُونَ}187، وكذلك الأمر في المستقبل من أوامره حيث يسقط  
 عنها حد الزمن وانظر إلى قوله سبحانه: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}188، فهل  
 يمكن أن يكون وجوب هذا القول للمستقبل فقط وهو الله أحد من

184 النساء 99.

185 الأنعام 12.

186 البقرة 253.

187 البقرة 185.

188 الإخلاص 1.

الماضي إلى الحاضر وسيبقى في المستقبل باقيا أحدا صمدا!، كذلك يقول عزّ وجلّ: {لِخُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} 189، ففعل الأمر في القاعدة يدل على المستقبل لكنه إذا صدر من الباقي فإنه باقٍ كذلك فهو للماضي والحاضر والمستقبل. وكل ما ذكر كان على وجه الإثبات، ومثله وجه النفي فهو الآخر لا ينطبق عليه حد الزمن لأن الزمن مخصص للمتغير أما الثابت الباقي فلا ينطبق عليه حد الزمن أو مقياسه، يقول الباقي سبحانه: {وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} 190، بمعنى أنه ما كان معذبهم وهم يستغفرون ولم يزل يفعل وسيفعل، فزمن الماضي غائب تماما في مساحة الدلالة للآية، ومثله المضارع المنفي، يقول سبحانه وتعالى: {يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} 191، فهو باقٍ على عدم الرضا عن هؤلاء المتصفين بهذه الصفة التي جعلتهم من الفاسقين، أو أنهم سيكونون منهم في المستقبل.

وعليه يدعو النبي صالح عليه الصلّاة والسّلام قومه إلى توحيد الله واحد أحد لا شريك له، وبنّيه قومه لأهميّة الاستغفار كونه فرصة وهبة من الله لمن تدارك أمره، ولهذا نصح صالح قومه بأن يأخذوا صفة الله الغفور فليستغفروه وليتوبوا إليه.

ذلك لأنّ صالح يعلم أنّ من صفات الله المغفرة لمن استغفر عن ذنبه، وهو يعلم أنّ المغفرة تحوي في ثناياها معاني الرّحمة والودّ والقيومية وتمنح العبد المؤمن بالله عزّ وجلّ الذي قصّر في حقّ ربّه بارتكاب بعض الذنوب أو تركه لبعض الواجبات، فهذا الاسم يكون بمثابة فسحات متكررة من الأمل تطرد من قلب هذا المؤمن شبح اليأس ذلك لقوله تعالى

189 الأعراف 199.

190 الأنفال 31.

191 التوبة 96.

مطمئنا عباده القانطين: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} 192.

والغفور يدلّ على استمرارية المغفرة أو الغفران بدون أيّ عوائق أو موانع، بل بيسر وانسياب، وقد جاءت صفة (غفور) في القرآن الكريم بدون أيّ شرط أو قيد أو صعوبة في مواضع عدة منها قوله تعالى: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ} 193، وكذلك قوله عزّ وجلّ: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} 194، وأيضا قوله سبحانه وتعالى: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِّنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ثُمَّ أَفِيضُوا مِمَّنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} 195، والكثير من الآيات القرآنية تُشعرنا بيسر عملية الغفران وقرّبها منا وإمكانية الوصول إلى استحقاق مغفرة الغفور عزّ وجلّ.

وهناك أيضا ارتباط للمغفرة بالرحمة في آيات كثيرة من القرآن الكريم وهذا يدلّ على أن المغفرة الميسرة للعباد نوع من أنواع اللين والرحمة من الخالق لعباده التائبين، فمن رحمة الله تعالى تيسير المغفرة للبشر الخطّائين وفي هذا أيضا استشعار ليسر والسهولة في اسم الله (الغفور).

فالله عزّ وجلّ يغفر الذنوب لمن أراد بقوّته وإرادته ولا يغفرها خوفا أو طمعا بل رحمةً بعباده ولطفا بهم.

---

192 الزمر 53.

193 البقرة 225.

194 آل عمران 31.

195 البقرة 198، 199.

وأصل الغفر في اللغة التغطية والستر فكلّ شيء سترته فقد غفرتة  
والمغفرة التغطية على الذنوب.

واسم الغفور ورد في أحد عشر موضعا من القرآن الكريم مطلقا  
ومنونا مراد به العلمية ودالا على كمال الوصفية كما في قوله تعالى في  
كتابه الكريم: {نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} 196 وقوله تعالى  
أيضا: {وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ  
بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا} 197، وورد في صفة غفور اثنين  
وسبعين موضعا من القرآن مثل ما جاء في قوله تعالى: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ  
الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَحَلْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا  
عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} 198، وقوله أيضا: {وَلَا جُنَاحَ  
عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ  
أَنْتُمْ سَتَدْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا  
تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابَ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي  
أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} 199.

ومن خلال القرآن الكريم وما ورد فيه من قصة خلق الإنسان وجدنا  
أنّ الخطيئة لم تكن موجودة قبل خلقه، فقد كانت الملائكة تسبح لله  
وتحمده وتطيعه وحتى الشيطان نفسه كان في طاعة الله لا يخرج عنها  
لمعصية إلا بعد أن خلق الله تعالى آدم وأمر الملائكة بالسجود له، هنا  
ظهرت أول معصية وبدأ البغض والحقد وظهر الغرور والتكبر من جانب  
الشيطان الذي توعد بنشر الفساد والضلال بين البشر الذين سيتبعونه،  
كما جاء في قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا

---

196 الحجر 49.

197 الكهف 58.

198 البقرة 173.

199 البقرة 235.



إِنلِيسَ قَالَ أَسْجُدْ لِمَن خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَخْتِنِكَ ذُرِّيَّتُهُ إِلَّا قَلِيلًا قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا وَاسْتَفْزِرْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا {200}.

كانت الحكمة من إرسال الرسل الكرام صلى الله عليهم وسلم هي تحقيق مصلحة خلقه في أرضه في مرضاته تعالى فهو بهم رءوف رحيم ورزاق كريم عظيم،

ومن الحكمة في إرسال الرسل الكرام صلى الله عليهم وسلم للخصوص والعموم والكافة هو للهداية والرشاد للحق أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وإصلاح وإعمار في الأرض، ولذلك كان إرساله لرسله تترى بحيث كلما ابتعد الناس أو بعضا منهم عن الجادة بعث فيهم ولهم رسولا مبشرا وداعيا وهاديا لإتباع الحق ومنذرا من أجل مستقبل أفضل، وساعيا في الخيرات قولا وعملا وفعلا، قال تعالى: { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرِّسَالِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ {201}.

تعرض النبي صالح عليه الصلاة والسلام الى التكذيب من قبل قومه وهذا الأمر ليس بغريب فكل الأنبياء تعرضوا لذلك ولكن الله دائما معهم وهم الفائزون، قال تعالى: { قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فَعَقَرُوا

200 الإسراء 61 . 65.

201 - المائة 19.

النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ  
الْمُرْسَلِينَ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا  
قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ  
النَّاصِحِينَ {202}.

هذا التأكيد والصد لا يعود أثره السالب إلا على فاعليها مما  
يجعل المصلحين هم دائما مصلحون.

إذا المصلح هو من يكون مؤفقا في حياته ومماته ويوم بعثه فيكون  
لمن بعده أسوة حسنة لمن يريد اتعاظا.

العمل الصالح هو الذي يكون في مرضاة الله تعالى، والعمل غير  
الصالح هو العمل الفاسد الذي لا يُرضي الله عزّ وجلّ، فعقر الناقة كان  
إيذانا بالخروج عن مر الله تعالى، فهذا الفعل هو عمل غير صالح يترتب  
عليه بعد ذلك العقوبة، يقول تعالى: {فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ  
وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ  
فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} {203}.

والصلاح ما ليس بفساد وهو لا يكون إلا على الهداية والطاعة  
التامة لله ربّ العالمين. والمصلح هو المصلح في ذاته من ذات الله تعالى،  
فهو الذي خلق في أحسن تقويم وكان من المستخلفين في الأرض ليعمل  
صالحا يرضاه الخالق، فالمصلح هو من يصلح للحياتين ويرث فيهما خيرا  
كثير، قال تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ  
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا

---

202 - الأعراف 75 - 79.

203 - الأعراف 77، 78.

مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَاهِبًا وَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا  
خَالِدُونَ {204.

ولأنَّ صالح من الأنبياء والمرسلين الكرام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ فهو  
بدون شك من الصالحين الذين هم رفيعي الدرجات في مرضاة الله  
وطاعته وحسن خلقه وحلقه، قال تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ  
عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ  
وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ  
وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَرَكَرِيًّا وَيَحْيَى  
وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا  
فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ {205.

ولأنَّ كلَّ الأنبياء من الصالحين (كلَّ مِنَ الصَّالِحِينَ) فنحن لا نميّز  
بين احدٍ من رُسُلِهِ وقالوا سمعنا وأطعنا، إنهم الأنبياء والرسل الصابرين  
الطائعين الصالحين الذين أدخلهم الله في واسع رحمته مصداقا لقوله  
تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي  
رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ  
عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ  
الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُجِي الْمُؤْمِنِينَ {206.

المصلح هو من يسهم في إصلاح لمفاسد الآخرين، والمصلح هو من  
لا يؤمن إلا بما هو خير وفي مرضاة الله وهو الذي لا يؤمن أن يكون على  
غير ذلك قولاً وعملاً، ولهذا يتوجّه بالعمل الصالح للآخرين ليسهم في  
إصلاح أحوالهم لأنه في ذاته مصلحاً والله تعالى جعله على الصلاح،

204- البقرة 25.

205- الأنعام 83 . 86.

206- الأنبياء 85 . 88.

ولهذا، لم يكن هدفه من إصلاح الآخرين أو الإصلاح من أجلهم ليكون صالحاً، فالصلاح بالنسبة له لا يعد مطلباً يرجوه بل الصلاح هو صفة له ويتصف به قولاً وعملاً وفعلاً وسلوكاً، ولذا؛ فهو لا يعمل إلا صالحاً، قال تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} 207، وعندما يكون أهل الأرض (سكانها) يصلحون أحوالهم ولا يفسدون فيها ولا يسفكون الدماء بغير حق يتصفون بصفة الإصلاح الذي هو من الإعمار والبناء وسيادة الفضائل الخيرة والقيم الحميدة بين أهلها وسكانها.

وعليه فالمصلح هو الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والأمر هو من بيده امتلاك الأمر واستصداره والقدرة على تنفيذه ومعاقبة من لم يستمع أو ينتهي أو يجتنب أو يتوقف ويمتنع أو يقدم دون تردد.

نصح النبي صالح صلى الله عليه وسلم قومه، بما نصح به هود ونوح قومهما من قبله، فقد أمرهم بتقوى الله وصارحهم بصدقه معهم، وتغففه عن تعاطي الأجر على نصحه لهم. فهو مرسل من الله لقومه بما فيه الخير والسعادة، حفيظ على هذه الرسالة كما تلقاها عن الله.

والأمين هو من يؤتمن جانبه، وهو الذي يتقي الله ويخشاه في كل أمر يقدم عليه، إنه المؤمن بالحق قولاً وعملاً خالصاً لله وحده، وهو الموثوق فيه من قبل الآخرين الذين تربطه بهم علاقات موضوعية.

والأمين هو محل الأمانة وأمين تعني ممّا تعني:

. الحريص.

. المتقي لله تعالى.

. المتمكن من حُسن الأداء.

. الآمن.

ولذا؛ فكلّ هذه المعاني جاءت في الآية الكريمة السابقة الله عليه وسلّم، فهو الحريص، والمتقي لله تعالى.

الأمين الذي يؤتمن جانبه ويوثق في قوله وفعله وعمله وسلوكه، وهو المخلص لمن ائتمنه، فلا يخالف ولا يخون ولا يزور الكلم عن مواضعه والحقائق عن حُججها، وهو الذي إن عاهد وفي.

الأمين هو الصادق والمصدق الذي تودع لديه الأمانات وتسلم على يديه بالمحافظة عليها فلا تضيع ولا تُزور ولا يزيد ولا ينقص منها شيئاً.

والأمانة قد تكون من الله تعالى كما هو حال الأنبياء والرسل الذين اصطفاهم الله عزّ وجلّ وجعل بين أيديهم أمانات منه للعباد تستوجب الإيمان والطاعة والتبشير والإنذار والتحريض والأخذ بما جاء فيها قولاً وعملاً، والانتهاز عمّا نُهت عنه وتجنب ما أنكرته وتحريم ما حرّمته.

وعليه النبي صالح اسم ومسمى (اسم وصفة) أي أنّ النبي صالح هو الصالح خلقاً، ثمّ الصّالح خلقاً، فهو مثل محمّد بالتمام الذي خُلق على الحمد خلقاً، هكذا هو صالح قد خُلق على الصّلاح خلقاً. وهنا فالصالح هو من توفرت فيه معطيات الصّلاح ليكون نافعاً ومفيداً لما يقدر عليه من عمل، وهو من يُصلح أحوال المفسدين وفسادهم في الأرض دون كُلل ولا ملل، ولذا لا مُصلح بالمطلق إلا الله تعالى أمّا المستخلفين فيها فهم في دائرة الممكن هم المصلحون فيها بالإضافة، قال تعالى: {يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ

فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا  
جَهُولًا {208}.

وعليه لقد انطبق اسم صالح مع صفة الإصلاح؛ فهو صالح في اسمه وهو صالح في صفاته وهو صالح في أفعاله، ولذا فهو غير منقوص من حيث ما فيه إصلاح، ولهذا بُعث صالح ليصلح أحوال قومه ليكونوا مصلحين في الأرض كما يشاء الله أن يكون بني آدم مستخلفين فيها بالإصلاح. والحمد لله رب العالمين.

### النبي لوط:

آمن النبي لوط برسالة إبراهيم عليهما الصلوة والسلام، ودعا قومه إلى طاعة الله والبُعد عن الفواحش حيث كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء.

أرسله الله ليهدي قومه ويدعوهم إلى عبادة الله، وكانوا قوما ظالمين يأتون الفواحش ويعتدون على الغرباء وكانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء فلما دعاهم لوط لترك المنكرات أرادوا أن يخرجوه هو ومن آمن به.

لوط ابن أخ إبراهيم عليهما السلام، وكان مقيما معه في أرض العراق وآمن برسالة عمه ودعوته، وقد هاجر معه من العراق إلى فلسطين، وهناك بقي إبراهيم ولوط عليهما السلام واستوطنا تلك المنطقة. ثم ذهب لوط شرق نهر الأردن حيث توجد هناك قرى سدوم وعمورة وهناك بدأت قصة لوط عليه السلام مع قومه حيث اختصه الله بالنبوة وآتاه العلم والحكمة لتبليغ قومه ونصيحتهم. قال تعالى: {وَلُوطًا

آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ  
كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسْقِينَ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ {209}.

بدء لوط دعوة قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن ارتكاب الأفعال السيئات والفواحش، ولكن دعوته اصطدمت بقلوب قاسية وأهواء ورفض متكرر. وحكموا على لوط وأهله بالطرد من القرية. فقد كان القوم الذين بعث إليهم لوط يرتكبون عددا كبيرا من الجرائم البشعة. كانوا يقطعون الطريق، ويتواصلون بالإثم، ولا يتناهون عن منكر، وقد كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء؛ فصار الرجال أهدافا مرغوبة بدلا من النساء، وصار النقاء والطهر جريمة تستوجب الطرد.

لوط عليه السلام هو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام، آمن به وأزره وهاجر معه حين أذوه قومه إلى أرض الشام، قال عز وجل عن إبراهيم عليه السلام: {فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {210}؛ فلما قدم لوط مع إبراهيم عليهما السلام إلى أرض الشام بعثه الله عز وجل إلى أهل قرية "سدوم" وما حولها من القرى يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر والمآثم والمحارم والفواحش التي لم يسبقهم بها أحد من بني آدم كما بيّنا ذلك.

أرسل الله عز وجل ملائكته الكرام إلى إبراهيم ولوط عليهما السلام؛ فجاءوا إلى إبراهيم مبشرين، وإلى لوط منقدين. {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ

---

209 الأنبياء 74، 75.

210 العنكبوت 26.

عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ {211} أي أنّ إبراهيم قد حاول مجادلتهم في قوم لوط، وهو لا يدر أنه لا سبيل إلى هدايتهم؛ فقد استحبوا العمى على الهدى ورضوا بأسافل الأخلاق وأراذل الأفعال، وصار يُجادل الملائكة في ذلك قائلاً: {إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهٗ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} {212}؛ فطمأنته الملائكة: (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهٗ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)، عند ذلك سكنت نفس إبراهيم عليه السّلام وسكن روعه، ثمّ حسمت المجادلة والمناقشة بقول الملائكة: {يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ} {213} أي: دعك من هذا الجدل وأعرض عنه وتكلم في غيره فإنّه قد جاء أمر ربّك بإهلاكهم فلا رادّ لأمره ولا معقب لحكمه ففوّض الأمر إليه؛ فهو سبحانه يعلم الظاهر والباطن.

قد صدّق لوط بدعوة إبراهيم عليهما الصّلاة والسّلام واهتدى بهديه وهاجر معه، قال الله تعالى: {فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {214}، وهذه هجرتهما من العراق إلى فلسطين والأردن حيث بعثت لوط لأهل سدوم قرب البحر الميت. نزل لوط إلى سدوم من بلاد الأردن، التي اتصف أهلها بالزّائل حتى أنّهم يأتون الرّجال شهوة من دون النساء ولما دعاهم إلى ترك الرّذائل عصوا رسولهم فنزل بهم العذاب {215}.

أنّه رسول مرسل: قال تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ

---

211 هود 74، 76.

212 العنكبوت 32.

213 هود 76.

214 العنكبوت 26.

215 المعلم بفوائد مسلم، 1، ص 550.



وَأَطِيعُونِ {216، هذه الآية الكريمة تبين أن لوطا عليه الصلّاة والسّلام رسول من رسل الله تبارك تعالى.

والرسول في اللغة: هو الذي أمره المرسل بأداء الرّسالة بالتسليم أو بالقبض. وفي الشريعة: إنسان بعثه الله إلى الخلق لتبليغ الأحكام.

ومن الحكمة في إرسال الرّسل الكرام صلّى الله عليهم وسلم للخصوص والعموم والكافة هو للهداية والرشاد للحقّ أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وإصلاح وإعمار في الأرض، ولذلك كان إرساله لرسله تترى بحيث كلّما ابتعد النّاس أو بعضا منهم عن الجادة بعث فيهم ولهم رسولا مبشرا وداعيا وهاديا لإتباع الحقّ ومنذرا من أجل مستقبل أفضل، وساعيا في الخيرات قولا وعملا وفعلا، قال تعالى: { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ } 217.

والإرسال في اللغة التوجيه، فإذا بعثت شخصا في مهمة فهو رسولك، قال تعالى حاكيا قول ملكة سبأ: { وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاطِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ } 218، وقد يريدون بالرسول ذلك الشخص الذي يتابع أخبار الذي بعثه، أخذنا من قول العرب: "جاءت الإبل رسلا" أي: متتابعة.

وعلى ذلك فالرسول إنّما سموا بذلك لأنهم وُجّهوا من قبل الله تعالى: { ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَى كُلِّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رُسُوهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ

---

216 - الشعراء 160 - 163.

217 - المائدة 19.

218 - النمل 35.

بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} 219، وهم مبعوثون برسالة معينة مُكَلَّفون بحملها وتبليغها ومتابعتها 220.

إنَّ إرسال الرُّسُلِ يمثل مظهرًا مهمًا من مظاهر تملك الملك لله تبارك وتعالى، وتمثل الإرسال في القرآن الكريم من خلال لفظة (أرسلنا) التي شغلت حيزًا كبيرًا في خطاب الله تعالى للكافرين والمكذابين، إذ يقول تعالى: { كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ } 221، وقوله تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا } 222. النصُّ القرآني هنا يحمل في طياته كثيرًا من الأمور التي تنم عن جوانب مهمة تمثل ما يملكه الله تعالى إلى جانب امتلاكه إرسال الرُّسُلِ وكلِّ ما يملك ممَّا نعلم وما لا نعلم، ومنها الرأفة والرحمة والغفران والعفو، ومالك الملك تجلَّى في هذا الأمر الذي تشكل فيه مظهران:

المظهر الأول: إنَّ إرسال الرُّسُلِ لا يكون إلا من الله تعالى فهو يملك هذا الأمر ولا يملكه غيره.

أمَّا المظهر الثاني: فإنَّ إرسال الرُّسُلِ يتضمن أمورًا لا يمتلكها إلا الله تعالى في محاسبته لعباده وهي الرحمة والعفو والغفران، فهو ملك داخل ملك، ولا يملكهما إلا الله تبارك وتعالى.

وإرسال الرُّسُلِ شمل الأقسام التي كفرت بالله تعالى، أو التي انحرفت عن الخلق القويم مثل قوم لوط صلَّى الله عليه وسلَّم، إذ يقول تعالى:

---

219 - المؤمنون 44.

220 - الرُّسُلِ والرسالات، ج 1، ص 1.

221 - البقرة 151

222 - النساء 64

{ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا } 223،

وصف الله تعالى لوط بالعبد الصالح؛ والصالح هو من يكون موفقاً في حياته ومآته ويوم بعثه فيكون لمن بعده أسوة حسنة لمن يريد اتعاضاً.

العمل الصالح هو الذي يكون في مرضاة الله تعالى، والعمل غير الصالح هو العمل الفاسد الذي لا يُرضي الله عزّ وجلّ، ويترتب على كلاً الأمرين الثواب والعقاب.

والصلاح ما ليس بفساد وهو لا يكون إلا على الهداية والطاعة التامة لله ربّ العالمين.

والصالح هو المصلح في ذاته من ذات الله تعالى، فهو الذي خُلق في أحسن تقويم وكان من المستخلفين في الأرض ليعمل صالحاً يرضاه الخالق، فالصالح هو من يصلح للحياتين ويرث فيهما خيراً كثيراً، قال تعالى: { وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَهُمْ فِيهَا أزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } 224.

ولأنّ لوط من الأنبياء والمرسلين الكرام صلّى الله عليهم وسلم فهو بدون شكّ من الصالحين الذين هم رفيعي الدرجات في مرضاة الله وطاعته وحسن خلقه وحلقه، قال تعالى: { وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كَلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَرَكَرِيًّا وَيَجِي }

وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلِّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَحُوطًا وَكَوَلًا  
فَضَّلْنَا عَلَىٰ الْعَالَمِينَ {225}.

ولأنَّ كلَّ الأنبياء من الصالحين (كلَّ مِنَ الصَّالِحِينَ) فنحن لا نميِّز  
بين احدٍ من رُسُلِهِ وقالوا سمعنا وأطعنا، إنهم الأنبياء والرُّسُل الصابرين  
الطائعين الصالحين الذين أدخلهم الله في واسع رحمته مصداقا لقوله  
تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلِّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي  
رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ  
عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ  
الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ {226}.

الصالح هو من يُسهم في إصلاح مفاصد الآخرين، والصالح هو من  
لا يؤمن إلا بما هو خير وفي مرضاة الله وهو الذي لا يؤمن أن يكون على  
غير ذلك قولاً وعملاً، ولهذا يتوجّه بالعمل الصالح للآخرين لِيُسهم في  
إصلاح أحوالهم لأنه في ذاته مصلحا والله تعالى جعله على الصلاح،  
ولهذا، لم يكن هدفه من إصلاح الآخرين أو الإصلاح من أجلهم ليكون  
صالحا، فالصلاح بالنسبة له لا يعد مطلباً يرجوه بل الصلاح هو صفة له  
ويتصف به قولاً وعملاً وفعلاً وسلوكاً، ولذا فهو لا يعمل إلا صالحاً، قال  
تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ} {227}،  
وعندما يكون أهل الأرض (سكانها) يصلحون أحوالهم ولا يفسدون فيها  
ولا يسفكون الدماء بغير حق يتصفون بصفة الإصلاح الذي هو من  
الإعمار والبناء وسيادة الفضائل الحَيِّرة والقيم الحميدة بين أهلها  
وسكانها.

---

225 الأنعام 83 . 86.

226 الأنبياء 85 . 88.

227 هود 117.

بدأ لوط عليه الصلّاة والسّلام مع قومه بما بدأ به نوح وهود وصالح يستنكر استهتارهم؛ ويستجيش في قلوبهم وجدان التقوى، ويدعوهم إلى الإيمان والطاعة، ويطمئنهم إلى أنّه لن يفجعهم في شيء من أموالهم مقابل الهدى. ثم يواجههم باستنكار خطيئتهم الشاذة التي عرفوا بها في التاريخ:

(أتأتون الذّكران من العالمين؟ وتذرون ما خلق لكم ربّكم من أزواجكم؟ بل أنتم قوم عادون).

والخطيئة المنكرة التي عرف بها قوم لوط (وقد كانوا يسكنون عدّة قرى في وادي الأردن) هي الشذوذ الجنسي بإتيان الذّكور، وترك النساء. وهو انحراف في الفطرة شنيع. فقد برأ الله الذّكر والأنثى؛ وفطر كلّاً منهما على الميل إلى الآخر لتحقيق حكمته ومشيبته في امتداد الحياة عن طريق النسل، الذي يتمّ باجتماع الذّكر والأنثى، فكان هذا الميل طرفاً من الناموس الكوني العام، الذي يجعل كلّ من في الكون وكلّ ما في الكون في حالة تناسق وتعاون على إنفاذ المشيئة المدبرة لهذا الوجود. فأما إتيان الذّكور فلا يرمي إلى هدف، ولا يحقّق غاية، ولا يتمشى مع فطرة هذا الكون وقانونه إلا اختلالاً أو شذوذاً.

وعجيب أن يجد فيه أحد لذة. والمتعة والمودة التي يجدها الذّكر والأنثى في التقائهما إن هي إلا وسيلة الفطرة لتحقيق المشيئة. فالانحراف عن ناموس الكون واضح في فعل قوم لوط صلّى الله عليه وسلّم، ومن ثم لم يكن بدّ أن يرجعوا عن هذا الانحراف أو أن يهلكوا، لخروجهم من ركب الحياة، ومن موكب الفطرة، ولتعريضهم من حكمة وجودهم، وهي امتداد الحياة بهم عن طريق التزاوج والتوالد، فلما دعاهم لوط إلى ترك هذا الشذوذ، واستنكر ما هم فيه من ترك ما خلق لهم ربّهم من أزواجهم،

والعدوان على الفطرة وتجاوز الحكمة المكنونة فيها.. تبين أنهم غير مستعدين للعودة إلى ركب الحياة، وإلى سنة الفطرة 228.

لم يستفيق قوم لوط من سباتهم الفكري المنزوي في زاوية مظلمة من زوايا الرذيلة التي دأبت ألا تنقاد إلا للخارجين عن طاعة الله تعالى، وهذا الانزواء لم يكن فكرياً فقط بل كان مكانياً، فمكان الهلاك كان محددًا فلم يشمل كلَّ من على الأرض ضمن شكلٍ مترامي الأطراف دون حدود له، إذ يقول تعالى: {قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِبْ أَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ} 229،

ومن هنا؛ فإنَّ النَّاصر قد ناصر لوط عليه الصَّلَاة والسَّلَام، ذلك لأنَّ لوط ناصر لله تعالى، {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذَا نِعْمٍ} وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذَا نِعْمٍ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيُنصِرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ} 230.

ولأنَّ الله هو النَّاصر فقد نصر لوط عليه الصَّلَاة والسَّلَام، ومن هنا؛ فالنَّاصر ومن ينصر مُحمِّي الحقِّ بدون سبب، وذلك لأنَّه الحقُّ ذاته، ولذا فمن ينصرن الله ينصره مصداقاً لقوله تعالى: {وَلَيُنصِرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} 231.

---

228 - في ظلال القرآن، ج 5، ص 360.

229 - هود 81.

230 الحج 40 . 43.

231 الحج 40.

ومع أنّ الله تعالى ينصرنّ من ينصره إلا أنّه لم يكن في حاجة للمناصرة في ذاته فهو مالك الملك وهو الكريم المتعال بل الناس دون استثناء هم الذين في حاجة لنصره تعالى، ولهذا فمن عباده المسلمين من هم في حاجة فيتوجهون إليه بالطلب والدعاء فيكون لهم خير ناصر، أي عندما يقاتل المسلم في سبيل إحقاق الحقّ لابدّ وأن يكون له الناصر قريب سميع مجيب فيتحقق النصر بأسباب الإخلاص في المقاتلة في سبيله (في سبيل إحقاق الحقّ) ولهذا فالناصر ينصرنّ من ينصره.

والنصر: هو المترتب على ما يُقدّم من جهد في سبيل تحقيقه، وهو لا يتحقق إلا بامتلاك القوّة والقدرة ولا يكون على المستوى البشري إلا على يد من يمتلك الإرادة مع الاستطاعة

وقد كان لوكا عبدا مفضلا، قال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَحُوطًا وَكَالًا فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ {232}، إنّ درجات الفضائل أربع، وهي التي ذكرها الله بقوله: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ {233}؛ فيكون لوط عليه الصلّاة والسلام من المفضّلين {234}.

والمفضّل هو الذي تميّز بما تميّز به عن غيره في المقارنة فكان الخيار عليه من دونهم، ولهذا كان سيدنا لوط من المفضّلين على العالمين مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَحُوطًا وَكَالًا فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ {235}.

---

232 - الأنعام 86.

233 - النساء 69.

234 - تفسير السعدي، ج 1، ص 263.

235 الأنعام 86 . 88.

وفي اللغة الفُضْل والفضيلة "معروف ضدُّ النَّقْص والنَّقِيصَة والجمع فُضُول، وفاضَلَنِي فَفَضَلْتُهُ أَفْضَلُهُ فَضْلاً غلبته بالفُضْل وكنت أَفْضَلُ منه وَتَفَضَّلَ عليه تَمَيَّزَ، والتفضيل تقديم لمن هو على الفضيلة على غيره من الذين لا فضيلة لهم، وَتَفَضَّلَ بمعنى أَناله من فضله وأحسن إليه والإفضال الإحسان، ورجل مِفْضال كثير الفُضْل والخير والمعروف" 236.

والفضل يؤتي من الله إيتاء لمن يشاء من عباده الصالحين، لذا، كان تفضيل لوط عليه الصلّاة والسّلام مؤسس على الفضل المؤتى إيتاء، {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكَلَّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} 237، هذا التفضيل لم تكن بدايته من لوط بل أمر التفضيل كان من آباءهم من قبلهم (وَكَأَلَّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ) واستمر من بعدهم أيضا في أبناءهم وإخوانهم الذين تم اجتنابهم رُسل كرام، قال تعالى: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} 238. قوله (سَابِقُوا) جاءت للجمع غير المحدد أي سارعوا أيها الناس (إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) توجب لكم نيل المغفرة منه وتحقق لكم الفوز بالجنة التي أعدت للذين آمنوا بالله ورُسُله عليهم الصلّاة والسّلام (وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ)، وهذه المغفرة والجنة فضل يؤتيه الله من يشاء من عباده والله ذو الفضل العظيم (وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) أي أن المغفرة والفوز بالجنة هما الفضل من ذو الفضل العظيم يؤتيه لمن يشاء ولهذا الجنة لا يلقاها إلا ذو

---

236 لسان العرب، ج 11، ص 254.

237 - الأنعام 86 - 87.

238 الحديد 21.



حظ عظيم، { وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ } 239.

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِيَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } 240.

الذين آمنوا هم من أهل الكتاب الذين يُراد لهم أن يتقوا الله ويؤمنوا بمحمد كما آمنوا من قبله بموسى وعيسى صلى الله عليهم وسلم، فإن آمنوا يضاعف لهم الثواب (يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ) الكفل الأول بسبب إيمانكم بموسى وعيسى والكفل الثاني بسبب إيمانكم بمحمد صلى الله عليهما وسلم وكذلك يدل معنى الكفلين من بين ما يدل عليه هو فوزكم في الدارين حيث طاعة الله واتباع الرسل دون تفريق بينهم في الحياة الدنيا ثم الفوز بالجنة في الدار الآخرة.

وقوله تعالى: (وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ) وهذا النور هو من فضله تعالى الذي يؤتیه لمن يشاء متى ما شاء وكيفما شاء، إنه نور الهداية واليقين والطاعة واتباع الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أنه النور الذي يُمكن المؤمن من دخول الجنة ليزداد المؤمن نورا على نور، وهذا النور كان بأسباب الإيمان والطاعة والمغفرة (وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)، إي؛ يغفر لكم من بيده أمر المغفرة فهو على كل شيء قدير.

وقوله تعالى: (لِيَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ) بطبيعة الحال الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء متى ما يشاء كيفما يشاء ولا أحد غيره يقدر على ذلك ولذا فهو ذو الفضل العظيم،

وليعلم أهل الكتاب أنّ الله الذي انزل عليهم التوراة والإنجيل هو الذي أنزل القرآن على محمد وأمته لتكون الرسالة خاتمة وللناس كافة، وليعلموا أن في ذلك فضل عظيم فلا يضلوا ولا يشركوا بل عليهم أن يتبعوا السبيل الحق الذي جاء به محمد نبيا ورسولا.

وقوله تعالى: {وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} 241. كلّ مسلم بالحق لا يشكّ في أنّ الفضل بيد الله ولهذا يتوجّه إليه بالطاعة وطلب الرحمة وكلّ مؤمن على الحق يعلم أن الله يؤتي فضله لمن يشاء كيفما يشاء ويعلم أن الله هو ذو الفضل العظيم سبحانه لا إله إلا هو.

قال تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} 242.

من فضل الله على عباده بعث محمد عليه الصلّاة والسّلام في الأميين رسولا منهم، ومن فضله تعالى أن محمد عليه الصلّاة والسّلام يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة نقول بحق أن هذا هو الفضل العظيم فالذين كانوا في الضلال أصبحوا على الهداية مؤمنين بالله ورُسُله وكتبه، قال تعالى: {أَمَرَ الرَّسُولَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} 243، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا

---

241 الحديد 29.

242 الجمعة 1. 4.

243 البقرة 2.

الَّذِينَ آمَنُوا آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ  
الَّذِي أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ  
فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا {244}.

وعليه: كل ما تقدم هو من فضل الله على عباده الذين أخصهم  
بالعناية والهداية (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ).

الله الذي بيده الأمر يؤتي ما يشاء لمن يشاء كيفما يشاء، ومن آتاه  
الله رزقا فليتصدق ويتزكى وينفق كل حسب استطاعته وما يملك من  
رزق، ولأن الرزاق الله فهو المؤتي للرزق لمن يشاء، وهنا وجب الإنفاق من  
الرزق الذي هو مؤتى من فضل الرزاق المطلق تعالى، ولذا فالمؤتى هو الله  
تعالى والمينفق هو المؤتى من عند الله فليتق الإنسان ربه ولينفق مما آتاه من  
رزقه، قال تعالى: {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ  
مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ} {245}.

ولذلك، علاقة قوية في المفهوم بين الفضل والرزق والعزة فهي كلها  
تؤتى من ذي الفضل إيتاء، ولذا فالعزة فضل ورفعة لا تُستمد إلا من  
رفيع يمتلك القوة الساندة والداعمة، والقوة مدد تمتد من مصدر انبعاثها  
إلى حيث تكون وتترك أثرا موجبا على من يستغيث بمالكها بتقويته  
ومناصرته فيما هو حق، وتفاجئ الخصم بإضعافه حيثما أصابته.

وخاطب الله الناس بقوته وعزته ليبيّن لهم أنه ذو الفضل، ولا  
متصف بالقوة والعزة بالمطلق غيره فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ  
فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ  
وَإِنْ يَسئَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا

---

244 النساء 136.

245 الطلاق 7.

قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ {246} فالقوي العزيز هو الذي لم يكن ضعيفا وهو القادر على كلِّ فعل، فإذا أراد أمرا يقول له كن فيكون فالأمر عليه يسير، إنَّه المالك للقوة والعزة والفضل، والمؤمن هو المدرك الذي لا يعبد ضعيفا، فالأصنام لا تسمع ولا تجيب الدعاء إن دأب دعاها، وهي ضعيفة معرضة للزوال، ولهذا لا يعتقد في الضعيف إلا ضعيفا، ولا يعتقد في القوي إلا قويا.

وبما أنَّ الله ذو الفضل فهو بفضله جعل الإنسان خليفة في أرضه الذي قال: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} 247.

إذا الخليفة قوي عزيز بالإضافة، ولذا فالمستخلف من الشيء يستمد صفاته من صفات مستخلفه، والصفات قوّة ترتبط الصفة بالموصوف كما ترتبط الخليفة بمستخلفه؛ فالله القوي العزيز استخلف الإنسان في الأرض لا ليقوم مقامه، بل ليقوم بدوره من أجل نفسه، وأجل الآخرين الذين ترتبطه بهم علاقات دم ومصاهرة ومحبة وألفة وعلاقات جيرة ووطن وعقيدة وعلاقات ضمير، ليكون خليفة مُصلحا في الأرض. ومن يفسد فيها من بني الإنسان يعد مخرجا بشروط استخلافه فيها، مصداقا لقوله تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} 248 لقد خلف داود من سبقه من الأنبياء والصالحين وملكه الله من ملكه ليحكم بالحق. والحكم بالحق، هو: الحكم بالبينّة، أي بالدليل الواضح الذي لا لبس ولا غموض فيه، ولا ميل وانحياز، والحكم بالحق الحكم بما أمر الله تعالى، لا بالمزاج والعاطفة الشخصية، بل بالعدل الحق، ومن

246 الحج 74.

247 البقرة 30.

248 ص 26.

يحكم بما أنزل الله لا يمكن أن يكون مثل أولئك المفسدين في الأرض؛ فأولئك لن يكونوا الخلائف فيها مصداقا لقوله تعالى: {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} 249 لا يمكن المساواة فالمصلحون في الأرض لا يتساوون مع الذين يفسدون فيها، وهكذا لا يمكن مساواة المتقين الذين آمنوا بالله ورسوله مع أولئك الكفرة الفجرة. المساواة في هذه الحالة ظلم كبير، لا يرتضيه الله ولا يرتضيه العباد، {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} 250.

وعليه: جاء الرسول لوط عليه الصلوة والسلام برسالة الله إلى قومه ليواجه الانحراف الأخلاقي الذي استشرى بينهم، إذ يقول تعالى: {وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ إِنَّكُمْ لَأَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ} 251 أراد لوط عليه الصلوة والسلام أن يعالج المسألة الأخلاقية لديهم من خلال المسألة العقيدية الروحية التي يرتبط الإنسان فيها بالله ليطل على تفاصيل الحياة ومفرداتها العملية من هذا الموقع الثابت في الفكر والإحساس والواقع، الأمر الذي يوحي إلينا أن الانحراف العملي لا يُعالج بالطريقة المباشرة التي تخاطب مفرداته وخصوصياته بشكل مباشر، بل بالطريقة الفكرية التي تمتد إلى جذور العقيدة والروح والإحساس وتتحرك في مفردات الحياة كلها، لأن ذلك هو الذي يخلق الحوافز العميقة التي تدفع إلى الطاعة في أوامر الله ونواهيه. فإذا كان الإنسان لا يعيش روح التقوى لله، فكيف يمكن أن تقنعه . بشكل أساسي . أن يترك ما هو عليه من رذيلة وانحراف عن سنة الله تعالى في خلقه.

249 ص 29.

250 البقرة 134.

251 - الأعراف 80 - 81.

كذب قوم لوط ما جاءهم به لوط عليه الصلّاة والسّلام مثل ما  
كذب السابقون، فحين شاعت بينهم الفعلة القبيحة والديانة الذميمة  
الشيعة إلى حيث يباهون بها ولا يخفونها من غضب الله تبارك وتعالى،  
كان مساق دعوته عليه الصلّاة والسّلام يسير في جوانب عدة منها:

اتقوا الله الغالب الغيور واحذروا من سخطه

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِهِ أَمِينٌ يُؤْمِنُكُمْ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ وَحُلُولِ غَضَبِهِ  
وعذابه لو قبلتم مني قولي

فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَأَطِيعُوا فِي عَمُومٍ مَا جِئْتُ لَكُمْ مِنْ عِنْدِهِ،  
وهذا باب التذكير الذي هو بوابة دعوة لوط صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

بين لهم إنّ التبليغ والنصح ليس من وراءه من اجر، إن الأجر إلا  
على ربّ العالمين فانه المتكفل لأجور عباده حسب أعمالهم ونياتهم فيها.  
بيان عظمة الإثم في هذه الفعلة القبيحة الشيعة، وتركهم ما خلق  
الله تعالى لهم من أزواج ونساء التي يترتب عليها حكمة التناسل وإبقاء  
النوع.

هذا الطرح كان أمّامهم وفق سياق الدعوة التي جاء بها لوط صَلَّى  
الله عليه وسلم، فصنيعهم قبيح وفيه تجاوز على حدود الله تعالى وحكمه  
وحكمته والخطيئة المنكرة التي عرف بها قوم لوط (وقد كانوا يسكنون  
عدة قرى في وادي الأردن) هي الشذوذ الجنسي بإتيان الذكور، وترك  
النساء. وهو انحراف في الفطرة شنيع. فقد برأ الله الذكر والأنثى؛ وفطر  
كلّاً منهما على الميل إلى صاحبه لتحقيق حكمته ومشئته في امتداد  
الحياة عن طريق النسل، الذي يتم باجتماع الذكر والأنثى. فكان هذا  
الميل طرفاً من الناموس الكوني العام، الذي يجعل كلّ من في الكون وكلّ  
ما في الكون في حالة تناسق وتعاون على إنفاذ المشيئة المدبرة لهذا

الوجود. فأما إتيان الذكور فلا يرمي إلى هدف، ولا يحقق غاية، ولا يتمشى مع فطرة هذا الكون وقانونه. وعجيب أن يجد فيه أحد لذة. واللذة التي يجدها الذكر والأنثى في التقائهما إن هي إلا وسيلة الفطرة لتحقيق المشيئة. فالانحراف عن ناموس الكون واضح في فعل قوم لوط. ومن ثم لم يكن بد أن يرجعوا عن هذا الانحراف أو أن يهلكوا، لخروجهم من ركب الحياة، ومن موكب الفطرة، ولتعريضهم من حكمة وجودهم، وهي امتداد الحياة بهم عن طريق التزاوج والتوالد<sup>252</sup>.

لم يكن جوابهم فيه أي تراجع عن فعلتهم الشنيعة بل كان الإصرار هو العنوان الأبرز في سياق كلامهم مع لوط صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ يقول تعالى: {قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ} <sup>253</sup>.

وبعد ما سمع لوط عليه الصلوة والسلام منهم ما سمع من الغلظة والتشديد في التهديد، قال مستوحشا منهم مستنكرا عليهم (إِنِّي لِعَمَلِكُمْ هَذَا مِنَ الْغَالِينَ) المبغضين غاية البغض بحيث أكره مساكنكم وجواركم مطلقا وأريد الخروج من بينكم ولا أبالي من تهديدكم على بالإخراج والإجلاء.

إن خطاب لوط عليه الصلوة والسلام لهم فيه سمة التحديد، فقد كان خطابه منصبا على أفعالهم دون أن يبين أي عداوة لهم أي إنني لا أعاديكم بأشخاصكم، بل أعادي أعمالكم المخزية، فلو ابتعدتم عن هذا العمل الشنيع فأنا محب لكم وغير قال لكم.

لم تؤثر مواعظ لوط عليه الصلوة والسلام ونصائحه في قومه، فبدل الفساد مجتمعهم كله إلى مستنقع تسبح فيه الرذيلة وتمت الحجّة عليهم بمقدار كاف، وبلغت رسالة لوط مرحلتها النهائية... فعليه أن يغادر هذه

---

252 - النبوة والأنبياء في القرآن والسنة، ج 1، ص 57.

253 - الشعراء 167.

المنطقة الفاسدة، وأن ينجّي من معه من استجاب دعوته، لينزل عذاب الله على القوم الفاسقين فيهلكهم، فسأل لوط ربه أن يخلصه من قومه، يقول تعالى: { رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } 254.

قوله تعالى: (إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِّنَ الْقَالِينَ) القلي البغض الشديد، كأنه بغض يقلي الفؤاد والكبد، وقوله: (مِّنَ الْقَالِينَ) أبلغ من أن يقول إني لعملكم قال، كما يقال فلان من العلماء فهو أبلغ من قولك فلان عالم، ويجوز أن يراد من الكاملين في قلاكم 255. وفرق بين كوني لا أعمل العمل، وكوني أكره من يعمله، فالمعنى: أنا لا أعمل هذا العمل، إنما أيضا أكره من يعمله، وهذا مبالغة في إنكاره عليهم.

هلاك قوم لوط:

عندما بلغ الضيق ذروته، وقال النبي لوط كلمته، تحرك ضيوفه ونهضوا فجأة، وأفهموه أنه يأوي إلى ركن شديد (ركن الله) فقالوا له: لا تجزع يا لوط ولا تخف، نحن ملائكة، ولن يصل إليك هؤلاء القوم، (قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِبْ أَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)، أي: التفتت الملائكة إلى لوط وأصدروا إليه أمرهم أن يصحب أهله أثناء الليل ويخرج، وسيرى ماذا يحدث بهم، ولا يلتفت

---

254 - الشعراء 169 - 175.

255 - تفسير الرازي، ج 11، ص 498.



منهم أحد كي لا يصيبه ما يصيب القوم. ثم أفهموه أنّ امرأته كانت من الغابرين؛ فهي مثلهم وستلتفت خلفها ليصيبها ما أصابهم.

سأل لوط الملائكة: أينزل الله العذاب بهم الآن؟ فأنبئوه أنّ موعدهم مع العذاب هو الصبح؟ {إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ} 256 ومن ثمّ فقد انتهى قوم لوط تماما ومحيت مدنهم. ويقال إنّ البحيرة الحالية التي تعرف باسم (البحر الميت) هي مدن قوم لوط السابقة. هكذا دائما الفساد يربو ربّاء حتى ينتهي الماء، وهكذا تطوى صفحات الفساد، ولكن يا ليت الناس يتعظون ويعتبرون.

قال تعالى: {وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} 257، وفسّر المؤتفكات بقوله: اتفكت انقلبت بها الأرض وهم قوم لوط، وفي التفسير: والمؤتفكات قرى قوم لوط، عليه السلام، وكانوا يسكنون في مدن وأمها سدوم وأهلكهم الله عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطا عليه السلام، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين، وأصله من أفكه يأفكه أفكا إذا صرفه عن الشيء. وقلبه، وأفك فهو مأفوك والآفكة العذاب الذي أرسله الله على قوم لوط فقلب بها ديارهم، والبلدة مؤتفكة وتجمع على مؤتفكات 258.

هكذا جاء قوله: (أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ) لإثارة النخوة إن كانت في أحدٍ منهم، ولكن لا قدوة بينهم، وهنا تكمن علّة.

وقد أحسّ لوط أمامهم بضعفه كونه غريب بين القوم، نازح إليهم من بعيد بغير عشيرة تحميه، ولا أولاد ذكور يدافعون عنه، ومع ذلك

---

256 هود 81.

257 التوبة 70.

258 عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 18، ص 255.

دخل لوط غاضبا وأغلق باب بيته، وفي المقابل كان الغرباء الذين استضافهم يجلسون هادئين صامتين؛ فدهش لوط من أمرهم، وهناك ازدادت ضربات القوم على الباب؛ فصرخ لوط في لحظة يأس خانق: {قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ} 259 أي: تمتنى أن تكون له قُوَّة تصدّهم عن ضيفه وتقفهم عند حدّهم، وتمنى لو كان له ركن شديد يحمي فيه ويأوي إليه، ولكن كان ركن الله أعظم من أيّ ركن ومهما اشتد. انه الشديد الذي جعل الشدّة تنزل على القوم جميعا: فهم ومهما كانوا اشداء فلا شدّة لهم أمام شدّة الله عليهم، ولهذا التجاء شعيب الى الشديد الأعظم الذي سمع نداءه بقوله: (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ)؛ فأنزل الشديد المنتقم انتقامه بهم؛ أي أراد شعيب أن ينتقم الله منهم بما عملت أيديهم وبما تعمل وما هم عازمون عليه من الأعمال السيئات، وبمعنى آخر: كان قول شعيب فيهم بمثابة النداء؛ فهو ينادي العون لأنّه لم يمتلك القوّة الرادعة للمفسدين من قومه؛ فجاءه العون انتقاما منهم من المنتقم.

وهنا فالمنتقم "هو الذي يقصم ظهور العتاة وينكل بالجناة ويشدد العقاب على الطغاة وذلك بعد الإعذار والإنذار وبعد التمكين والإمهال وهو أشدّ للانتقام من المعالجة بالعقوبة فإنه إذا عوجل بالعقوبة لم يمعن في المعصية فلم يستوجب غاية النكال في العقوبة" 260.

المنتقم هو محقّ الحقّ ومزهق الباطل؛ ولذا فهو لا ينتقم إلاّ لحقّ وبحقّ وهو لا يظلم أحدا. والمنتقم لا ينتقم من أحد إلاّ لأجله، فالانتقام من الظالمين حقّ لهم وحقّ عليهم: من حيث كونه حقّ لهم لأجل أن يتذكروا لعلّ الذكرى تنفعهم فيكفّرون عن سيئاتهم، ومن حيث كونه حقّ عليهم

259 هود 80.

260 المقصد الأسنى، ج 1، ص 139.

ليزداد المتقون تقوى، ويزدادوا تمسكا بالحقّ وثباتا عليه. وبهذا الأمر يقتدي المنتقم له والمنتقم منه بأن الحقّ لا بدّ له وأن يحقّ.

وعليه فنحن نجزم بأنّ اسم المنتقم من أسماء الله تعالى كما سيتضح لاحقاً.

يتساءل البعض عن جواز أن تكون من صفات الله عزّ وجلّ الانتقام الذي يدل على اسمه (المنتقم)! وللإجابة عن ذلك علينا أن نعرف من هو المنتقم، ثم نحصي ممن انتقم ولماذا، وكيف.

المنتقم هو الذي بيده مقاليد القوّة والقدرة الممكّنة من الانتقام، والانتقام فعل قوي في مواجهة فعل أو أفعال سابقة العمل بغير حقّ، فيها من المظالم ما لا يرضي العباد وخالق العباد، والانتقام نتيجة لأسباب وعلل مفسدة لما يجب أن يكون صالحاً، فالمنتقم الحقّ هو من ينتقم من المنتقمين (الذين هم على الباطل)، ولذا فهو الحقّ، أي صفة حميدة ومحبة لأجل أفعال الصفات الحسان.

إذا المنتقم الحقّ هو فاعل الحقّ، أي أنّه محقّ الحقّ ومزهق الباطل، ولذا فهو الله، وفي هذا الأمر يكون التطابق والتماثل في آيات الله المؤكدة على ترسيخ الصفات الحسان. كقوله تعالى: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} 261، وقوله تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا} 262، وقوله تعالى: {إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ} 263، وقوله تعالى: {يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ} 264.

---

261 الأنفال 30.

262 الطارق 15، 16.

263 السجدة 22.

264 الدخان 16.

ولأنّ المنتقم هو محقّ الحقّ ومزهق للباطل، إذا الانتقام لم تكن أسبابه ظالمة، ولم يكن بذلك ظلماً، بل إنه عدل لا يحقّه باطل. وعليه فالانتقام من الباطل عدل في سبيل الإصلاح والفلاح والإعمار، والخليفة هو الذي ينتقم من الظلم والظالمين لأجل إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل.

الْمُنْتَقِمُ هو العادل في العقوبة لمن يشاء<sup>265</sup>. غير أنه قد ورد في جامع الرسائل لابن تيمية الآتي: "في أسماء الله تعالى (الْمُنْتَقِم) هو المبالغ في العقوبة لمن يشاء" وليس في أسماء الله الحسنى اسم يتضمن الشر وإنما يذكر الشر في مفعولاته كقوله {نَبِيٌّ عَبْدِي أَيِّي أَنَا الْعَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ} 266، وقوله {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ} 267 وقوله {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} 268، وقوله {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ وَهُوَ الْعَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ} 269 فبين سبحانه أن بطشه شديد، وأنه هو الغفور الودود<sup>270</sup>. فالمنتقم أفعاله الانتقامية نتائجها لا تعود عليه مباشرة، بل تعود بشكل مباشر على من ظلموا ولم يستطيعوا ردع الظلم والظالمين، ولا يستطيعون إحقاق الحقّ، ومن يتوب بعد ظلم ويصلح ما أفسد فإنّ الله غفور رحيم، قال تعالى: {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ} 271.

---

265 النهاية في غريب الأثر - ج 5، ص 231 ولسان العرب - ج 12، ص 590

266 الحجر 49، 50.

267 الأعراف 167.

268 المائدة 98.

269 البروج 12 - 20.

270 جامع الرسائل - ج 1 - ص 356

271 المائدة 39.

إما أولئك الذين لا يتوبون فإنّ الله شديد العقاب، ولهذا فجزاء السيئة سيئة مثلها ومن عفا وأصلح فأجره على الله وما رتّبك بظلام للعبيد، قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَنِ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ الْأُمُورِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأُوا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ {272}. إنّ قوله تعالى: (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) ولمن انتصر بعد ظلمه، أي بعد أن انتقم من الظالم أو الظالمين، وهم لن يستطيعوا بعد ذلك ارتكاب مظالم فلا سبيل للانتقام منهم بغير حقّ، لقد تم الانتقام الذي هو إحقاق للحقّ وإزهاق للباطل، وسيظل السبيل مفتوحاً أمام المنتقم للحقّ إذا استمر الظالم في ظلمه وهو يبغى الإفساد في الأرض التي جعل الله فيها الإنسان خليفة، ولذا فالعذاب سيظل لأولئك الظالمين حقّ في الدارين وهذا الانتقام لا ظلم فيه وذلك لأنه حقّ في مرضاة الله تعالى، (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

المنتقم: يعلم بالمظلمة وبالظالم الذي اقترف ظلماً، وهو رافض لكل مظلمة، وهو قادر على إحقاق الحقّ، وقادر على تمكين المظلوم من بلوغ الانتصار والفوز المؤزر، وهو الذي لا يتأخر عن ذلك كلما شاء.

المنتقم المطلق هو الله القادر العادل القوي الجبار المهيمن الحفيظ سبحانه الذي ينتقم من المجرمين مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ

ذُكِرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ {273}.  
 والمجرمون هم الذين ذُكِرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرُوا بِهَا وَأَشْرَكُوا وَظَلَمُوا النَّاسَ،  
 هؤلاء منهم الله تعالى منتقم، وانتقام الله من الكفرة إدخالهم جهنم. قال  
 تعالى: {وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ أَفَأَنْتَ  
 تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ  
 فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنتَقِمُونَ أَوْ نُزَيِّنَكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ  
 فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {274}.

والمنتقم بالإضافة هو المهتدي إلى صراط الحق المستقيم فلا يظلم  
 أحدا، ولا يتأخر عن مناصرة المظلومين، يثار للحق حتى يُرهق باطل  
 القول والفعل والعمل، ويُقدِّم على أداء فعل الخيرات، وهو الذي ينتقم  
 من الذين يظلمون، وهو الذي يكيد كيد الكائدين ويمكر بمكر الماكرين  
 مصلحا ومُعَمِّرا ومفلحا في الأرض التي استخلفه الله فيها.

المنتقم: هو الذي يقصم ظهور العتاة وينكل بالجناة والجبارين  
 ويشدد العقاب على الطغاة وذلك بعد الإعذار والإنذار وبعد التمكين  
 والإمهال وهو أشد للانتقام من المعالجة بالعقوبة.

المنتقم هو الذي يُغلب ولا يُغلب، وذلك بأسباب امتلاكه لمعطيات  
 الحق، أمَّا الذي يُغلب فهو ضعيف القول والحجة، وضعيف القدرة  
 والقوة، ولهذا من يستند على الحق استند على القوة والقدرة، ومن استند  
 على باطل استند على ضعف ووهن.

ومن أهم المشاهد من حياة لوط:

1 - إيمانه برسالة إبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

273 السجدة 22.

274 الزخرف 39 . 43.

2. نبي رسول.
3. متطهر، (وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ).
4. هاجر مع إبراهيم من العراق إلى فلسطين.
5. اصطفائه نبيا ورسولا لأهل سدوم وعمورة بالأردن.
6. دعوته لقومه ونصحه لهم بالحياد عمّا هم فيه من كفر.
7. كفر قومه برسالته.
8. كان منذرا لقومه.
9. نبي لا عصابة له كونه لم يكن من أهل سدوم وعمورة.
10. القوم الذي بعث لهم أهل شنوذ جنسي.
11. قومه عصاة.
12. قومه بلا قدوة؛ فلا يتعظون ولا يعتبرون (أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ).
13. قومه قطاع طرق؛ فلا يدعون مسافرا أو تاجرا يمر في طريقهم إلاّ آذوه، واعتدوا عليه وسلبوه ماله.
14. أرسل الله إليه الملائكة ضيوفا مكرّمين (مبشرين ومنقذين).
15. هجم القوم عليه رغبة في ضيوفه المكرّمين.
16. أخبره الملائكة بحقيقتهم وبمهمتهم التي جاءوا من أجلها، وبأنّ القوم لن يصلوا إليهم.
17. أمر لوط بالخروج ومن آمن معه من القرية التي فسد أهلها.

18 . نَقَذَ أَمْرَ الْخُرُوجِ لَيْلًا .

19 . أَنْزَلَ الْعَذَابَ وَالْعِقَابَ بِهِمْ صَبَاحًا .

20 . أَمْطَرْنَا الْقَرْيَةَ حَتَّى انْتَهَتْ مِنَ الْوُجُودِ ، { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا  
فَأَنْظُرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } 275 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

### النبي إبراهيم:

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ فِي وَقْتٍ كَانَتْ فِيهِ  
الْبَشَرِيَّةُ كُلُّهَا تَتَخَبَطُ فِي ظُلُمَاتٍ حَالِكَةٍ مَطْبُوقَةٍ مِنَ الْجَهْلِ وَالشَّرْكِ وَالْكَفْرِ  
وَالضَّلَالِ وَالظُّلْمِ، فَكَانَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ أُمَّةً فِي الْهُدَى،  
هُدَى اللَّهِ بِهِ أُمَّةٌ كَثِيرَةٌ يَتَنَقَّلُهُ فِي فَجَاجِ الْأَرْضِ زَارِعًا النَّبُوَّةَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ فِيهَا  
لِيَمْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا .

لَقَدْ تَنَقَّلَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ مِنْ أَرْضِ  
إِلَى أَرْضٍ وَمِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ وَفَقَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَإِرَادَتَهُ كَيْ يُوَسِّسَ  
لِلْإِيمَانِ وَيُنْشُرَ الْهُدَى فِي مَوَاضِعٍ وَمَوَاطِنٍ تَكُونُ مَرَكَزَ إِشْعَاعٍ إِنْ صَحَّ  
التَّعْبِيرُ كَيْ يَغْطِيَ أَكْبَرَ رُقْعَةٍ جُغْرَافِيَّةٍ لِدَعْوَةِ التَّوْحِيدِ حَيْثُ:

انطلق من العراق

دخل مصر وتزوج فيها

انتقل من مصر بصحبة زوجته

أسكن من ذريته بوادٍ غير ذي زرع

رفع قواعد البيت في الوادي نفسه

انتقل بعد رفع القاعد إلى الأرض المباركة



أقام مع بعض ذريته في الأرض المباركة

لوط على مقربة منه

كان يشكّل مرجعية للوط

لقد هدى الله تعالى تلك الأمم التي أناط الله تعالى بإبراهيم هدايتها، فأخرجها من الظلمات إلى النور، واستضاءت بنور التوحيد وتفيأت ظلاله، بعد أن رَضِيَتْ:

بِالله رَبًّا

وَبِالإِسْلَامِ دِينًا

وَبِإِبْرَاهِيمَ رَسُولًا

وَاتَّبَاعَهُ مِلَّةً

فأقبل كثير من تلك الأمم على تعاليم الإسلام وتوجيهاته بما أوحى الله تعالى لنبيه إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام في دعوته التي كان لها قلبا حافظا ووعاء واعيا وتطبيقا صادقا في مجال العقيدة والعبادة والأمانة في التبليغ ليصل بالبشرية إلى قمة السعادة في الدنيا والآخرة، بما دعا إليه من العدالة والأخوة والمحبة الصادقة في الله، والإيثار في جنب الله، والمساواة في الحقوق والواجبات بين جميع الأمم التي انضوت تحت لواء دعوته مباشرة، أو عن طريق ذريته من إسماعيل وإسحاق وصولا إلى محمّد عليه الصلّاة والسّلام.

لم يكن حصر النبوة في إبراهيم وذريته من قبيل تكريم الله تعالى لخليله عليه الصلّاة والسّلام، وإن كان ذلك كذلك، إلا أن هناك أمرا أهم من هذا لعلم الله تعالى بما سيقول المبطلون في حقّ الله تعالى وفي حقّ دعوة الأنبياء من بعد إبراهيم.

فإن كانت دعوة إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام هي دعوة الإسلام القائمة على التوحيد وهو رأس ذرية هذا الأصل من النبوة، ودعوة محمّد عليه الصلّاة والسّلام مصداقا لدعوة إبراهيم كونه مأمورا باتباعها خاتما لهذه النبوة، فما بال ما انحصر بين الدعوتين في ادعاءاتهم، ببحودهم ما قاله يعقوب عندما حضره الموت: {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} 276.

ولد إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام في أور الكلدانيين في العراق، وكان قومه الذين ولد فيهم يعبدون الكواكب السيّارة والأصنام، حتى كاد أن يكون لكلّ منهم صنم خاصّ به؛ فعن أنس بن مالك قال "جاء رجلٌ إلى رسول الله عليه الصلّاة والسّلام؛ فقال: يا خير البرية، فقال رسول الله عليه الصلّاة والسّلام: ذاك إبراهيم" 277.

بعث الله تعالى رسوله إمام الحنفاء، وأبا الأنبياء، وأساس الملة الخالصة، إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام خليل الرحمن في أرض بابل وهو:

إبراهيم بن آزر وهو تاريخ بن ناحور بن شاروخ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح بن ملك بن متوشلح بن خنوخ وهو إدريس بن يارد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم، خليل الرحمن يكنى أبا الضيفان 278.

الذي أزال الله به تلك الشرور والأباطيل، وأبطل به ذلك الشرك والضلال، فإن الله سبحانه آتاه رشده في صغره، وابتعثه رسولا، واتخذ

---

276 - البقرة 133

277 رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل باب من فضائل إبراهيم رقم: 150.

278 قصص الأنبياء ج1، ص 197، تاريخ دمشق ج 6، ص 164.

خليلًا في كبره، وجعل النبوة في ذريته خُلعةً سنيةً لا تضاهي؛ تكرما له من رب العالمين عز وجل.

إنه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام الذي نهي أبيه آزر عن عبادة الأصنام مع فائق التقدير والتأدب، {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}.

وللعلماء والمفسرين أقوال كثيرة حول حقيقة أبوة آزر لنبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام فمنهم من قال: إن أبا إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو تارح، ومنهم من ضبطه بالخاء المعجمة

وقيل: آزر هو اسمٌ كان ينادي به إبراهيم عليه الصلاة والسلام أباه، بمعنى يا شيخ أو يا مُحَرِّف، وإن اسم أبي إبراهيم هو تارح. 279

ومثل هذا القول لا يخفى علينا عدم صوابه فليس من أخلاق الناس العقلاء مثل هذا الفعل بأن يلقب الرجل والده بالحرِّف، فما بالك بالأنبياء والرسل الذين يصطفاهم الله لتبليغ رسالاته، مصداقا لقوله تعالى: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} 280

أيجوز ذلك في حقهم؟

وهل يجوز ذلك في حق أبيهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام خصوصا؟

وهو الذي قال عنه ربّه تعالى: {وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ} 281 أي بطهارته وكماله وترفعه عن النقائص من الأفعال والأقوال.

<sup>279</sup> المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام: 6، 430.

<sup>280</sup> الأنعام 124.

<sup>281</sup> الأنبياء 51.

وقيل أنّ نبي الله إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام ولد يتيماً، ومات أبوه تارح وهو في بطن أمّه، ثم عاش في بيت عمّه آزر وهو المشار إليه في الآية الكرّمة السابقة.

ولأنّ عمه آزر قد ربّاه أطلق عليه إنّه أبوه، وإلّا فهو عمه، حيث لا يكون المشرك عابد الصنم أباً للنبي.

وهنا أتساءل:

أيكون آزر بشركه بالله تعالى من المصطفين المطهرين؟

أيكون آزر بإصراره على الشرك بالله تعالى من المرحومين المباركين؟

وعليه:

فهل يعقل أن يكون آزر من الآل الذي يرجع إليه إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام؟

وهل يعقل أن يكون آزر من أهل بيت إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام؟

أم إنّه لا هذا ولا ذاك؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات نقول:

لمعرفة كيفية الانتساب إلى الآل والأهل، لابدّ من معرفة الفرق بين كلمتي: (آل)، (أهل)

فقلنا:

آل: يؤل أولاً، وآل الشيء للشيء رجع إليه.

والآل الأصل الذي يؤل الدم إليه.

ولذا يُنسب الأبناء لأبائهم من حيث ثبات ونقاء الأصل، مصداقاً لقوله تعالى: {ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} 282.

وعليه فإن:

. "آل الرجل: كل من يشاركه في النسب إلى أقصى أب له في الإسلام" 283.

بدليل قوله تعالى: {ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَٰ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِنِي وَيَرِثُ مِنِّي آلٌ يَعْشُونَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا} 284.

هذا دعاء مستجاب بإنجاب الولد الذي هو من صلبه ليرثه دماً وعلماً ونبوة، فكانت الاستجابة وفقاً للطلب؛ وهو طلب الذكر وليس الأنثى (ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيعاً).

وهذا ما نرى صوابه، حيث إن قاعدة الاصطفاء تقتضي التنزيه.

ومن التنزيه:

282 الأحزاب 5، 6.

283 معجم لغة الفقهاء، ج 1، ص 36.

284 مريم 2. 6.

1 . أن لا يكون النبي أو الرسول من الكافرين بالله قبل تكليفه النبوة والرسالة.

وهذا متحقق في جميع الأنبياء والرسل فكلهم كانوا على هداية وإيمان، ولم يكونوا يوماً ما كافرين، بدليل سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام، الذي أنطقه الله تعالى في مرحلة ليس من المؤلف أن يحصل فيها النطق من الإنسان، فتكلم في المهدي إيماناً، بما ينم عن إيمانه المسبق، مصداقاً لقوله تعالى: { فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنَّي عَبْدُ اللَّهِ أَتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَمَا يَجْعَلُنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ } 285.

وعرف ذلك منه لأن الله تعالى أنطقه فصرح بذلك على رؤوس الأشهاد، ولو أنطق الله تعالى باقي الأنبياء والرسل في مهدهم لقالوا إيماناً.

2 . أن لا يكون النبي أو الرسول من صلب كافر بالله أو مُصِرِّ على الكفر.

مصداقاً لقوله تعالى: { وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ } 286

ولذا فإن نسب رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام يتقلب في الساجدين، من آدم عليه الصلاة والسلام، وصولاً إليه عليه الصلاة والسلام.

<sup>285</sup> مريم 29-34.

<sup>286</sup> الشعراء 217-219.

وهذا ينطبق على إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام، فهو من آباء سيدنا محمّد عليه الصلّاة والسّلام.

وعليه فلا يكون أبو أحد من الأنبياء كافراً؛ وذلك لأن الكفر بالله والإشراك به من عمل الشيطان، ونقيصة ونجس مصداقاً لقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَفْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا } 287

وهنا أتساءل:

لماذا هم نجس؟

وهل النجس هنا مادّي أم معنوي؟

وما الفرق بين الذين آمنوا والمشرّكين؟

ومع أنّ النبي إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام فرداً ولكنّ الله قد وصفه بالأمة، والأمة هي القوم الذي لهم آمال وآلام مشتركة وينتمون إلى ما يمكنهم من الذات العامّة، ولهذا كان إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام أمة كون شعوره الفردي هو شعور الأمة، وآلامه من آلام الأمة وجهل الأمة وعلم الأمة كلّها يتجسّد فيه حتى أصبح وكأنّه الأمة بكاملها؛ فكان إبراهيم أمة في أخلاقه، إذ تجمّعت فيه خصال الخير فكان أمة في إخلاصه وحبّه وعبادته لله تعالى، وهذا يستوجب دوام الطّاعة المتمثلة في القنوت لله تعالى. فإبراهيم أمة في الفضل والسّمو والنبيل والخير. وقد ذكرت له مزايا وفضائل كثيرة في القرآن الكريم منها:

أنّ الله تعالى اتّخذه خليلاً ذلك لأنّه أمة.

جعل له للناس إماماً لأنّه أمة.

اجتباها واصطفاه نبيا للأمة.

آتاه رُشدُه أمة

جعل النبوة في ذريته أمة.

أمر باتخاذ مقامه مصلى أمة

إضافة إلى اتصافه بالحلم والإنابة والصدّيقية والشكر والقنوت وسلامة القلب والكرم والوفاء؛ فعن ابن عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَمَ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} 288، قَالَ: كَانَ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ وَهُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَمَ يَكُنْ فِي زَمَانِهِ فِي قَوْمِهِ أَحَدٌ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ غَيْرُهُ، فَلِذَلِكَ كَانَ مُطِيعًا. " قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: وَمِنْ أَعْظَمِ حُجَجِ الْمُرْجئةِ الَّتِي يَقُولُونَ بِهَا عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ: اللُّغَةُ، وَذَلِكَ إِنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يُعْرَفُ فِي اللُّغَةِ إِلَّا بِالتَّصْدِيقِ، وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ التَّصْدِيقَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْقَلْبِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ 289

لقد ارتبط جميع الأنبياء من بعد إبراهيم عليهم الصلّاة والسّلام بإبراهيم آلا ونسبا، وارتبطت الكتب السماوية بصحف إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام توحيدا وعقيدة، وكانت دعواتهم لا تغادر ما دعا إليه أبوهم إبراهيم عليهم الصّلاة والسّلام أجمعين، حيث أسس للإسلام الذي ارتضاه الله دينا لعباده بما كان عليه إبراهيم حنيفا مسلما إذ إنّه:

نفر من بيت في وادٍ كلّه زرع (العراق)

وبشر بقواعد بيت في وادٍ ذي زرع (مصر)

ورفع القواعد من البيت في وادٍ غير زرع (مكة)

288 النحل 120.

289 تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي، 2، ص 716.



وأرسي قواعد بيت في وادٍ ذي زرع (بيت المقدس)

على هذا جاءت دعوة إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام بدين الله تعالى  
الذي:

نفر فيه من بيت

وبشر فيه في بيت

ورفع قواعد البيت

وأرسي قواعد بيت

فأهدى إلى أهل التوحيد:

الأمة

والملة

والخلة

ولذا كانت كلّ دعوة نبي بعده، لا تخرج عن أبوتها في النسب، ولا  
عن التوحيد في الانتماء من فرعيها إسماعيل وإسحاق عليهما الصلّاة  
والسّلام، قال تعالى: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} 290.

وكذلك قوله تعالى: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا  
كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} 291.

وهكذا كانت دعوة إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام هي دعوة التوحيد  
التي تمثل واسطة العقد بين من سبقه من الأنبياء، ومن كان منهم من

---

290 - آل عمران 68

291 - النحل 123

ذريته فيما بعد، وهذا الارتباط واضح في كلّ دين جاء به الأنبياء، إذ حمل إليهم دعوة الإيمان بمن سبقهم، ويحمل لأجياهم بشرى بمن يأتي بعدهم فيما انحصر في ذرية إبراهيم من الأنبياء ولقد ذكرت التوراة والإنجيل كلاهما هذه العلاقة وسجلتها تسجيلًا: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ} 292.

ولقد أبان عيسى عليه الصلّاة والسّلام هذا الارتباط وهذه العلاقة: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ} 293.

كلّ هذا يعطي مفهوما واضحا هو المسؤولية الكاملة النهائية لكلّ ميراث النبوة والرّسالة، والارتباط بين أنبياء الله ورسله على كلمة التوحيد يسلمها كلّ منهم إلى من بعده حتى تبلغ الرّسالة الكافة.

قامت دعوة إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام على التوحيد الخالص وجاء في القرآن الكريم أربعة مواقف له في بداية الدعوة:

موقف مع أبيه

موقف مع عبدة الأصنام

موقف مع عبدة الكواكب

موقف مع الذي حاجّه

1 . دعوته لأبيه: لقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: {وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا

292 - الفتح 29

293 - الصف 6

يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُعْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا} 294. إلى أن يردّ عليه والده بغلظة وجفوة ويهدده بالرجم، إلا أن حلم إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ما زاد على قوله: سلام عليك سأستغفر لك ربّي.

2. دعوته لعبدة الأصنام: فقد بدأها بالحوار ليمهد به للمرحلة التي تليها وهي تكسير تلك الأصنام، قال تعالى: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} 295.

ويظهر جدل إبراهيم بالحجّة المقنعة دون التعرض إلى القوم، وإنما يتعرض للأصنام ويصفها بأنّها عدوة له والله الذي خلقه ليثير لديهم تساؤلا كبيرا حول الخلق والخالق، وما هو الفرق بين الخالق والمخلوق دون أن يتعرض لهم بأنفسهم، وإنما طرح تساؤلات تستدعي أن يفكر بها عقلاء القوم وإن لم يُظهروا ذلك له، فمثل هذه الموضوعات هي التي انصب عليها اهتمام البحث.

3. دعوته لعبدة الكواكب: لقد بدأ دعوته لعبدة الكواكب بطريقة تظهر للمتتبع إن لم يكن متأملا، بأن إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام في موقف الريبة والشك والحيرة، إلا أن هذا الأسلوب في الجدل والحوار بأن

294 - مريم 41 - 45

295 - الأنبياء 56

تسلم لخصمك بما يقول من أجل تفنيد حجته من خلال قناعته وهي طريقة ناجحة، في موافقة الخصم في الظاهر من أجل إلزامه الحجّة وإفحامه فيما يقول، وهذا واضح بين في قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لم يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} 296.

فإبراهيم عليه الصلّاة والسّلام لم يعتقد قط برّبوية الكوكب، كما فهم بعض النّاس من ظاهر السياق القرآني، وذلك لعدة أسباب منها:

أن القول برّبوية الكوكب كفر بالإجماع

الكفر لا يجوز على الأنبياء، حتى قبل النبوّة

أنّ هذه الواقعة كانت بعد أن أراه الله ملكوت السماوات والأرض

وبعد أن وصل إلى درجة اليقين بدليل فاء التعقيب في قوله: (فلما جنّ عليه الليل) إضافة إلى التعقيب على الحادثة من الله تعالى بقوله: (وتلك حُجَّتنا آتيناها إبراهيم على قومه) ولم يقل: على نفسه!

4 . محاجة إبراهيم:

لقد أوتي إبراهيم من العقل والحلم ما هو أهل له، وقد أفضنا البحث في هذا الجانب غير أننا لا نستطيع أن نحيط به نحن ولا غيرنا، وقد يجلى لنا شيء من هذا القبيل في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ

إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ  
قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ  
فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
الظَّالِمِينَ {297}.

لقد عمي الذي حاج إبراهيم في ربه عن أدلة الإيمان وجادل خليل  
الله في ألوهية ربه ووحدانيته، وكيف أخرجه غروره بملكه . الذي وهبه ربه .  
من نور الفطرة إلى ظلام الكفر فعندما قال له إبراهيم: إنّ الله يحيي  
ويميت، بنفخ الروح في الجسم وإخراجها منه قال: أنا أحيي وأميت بالعفو  
والقتل، فقال إبراهيم ليقطع مجادلته: إنّ الله يأتي بالشمس من المشرق  
فأت بها من المغرب إن كنت إلها كما تدعى، فتحير وانقطع جدله من  
قوة الحجّة التي كشفت عجزه وأبانت ضعفه.

وقد تناولنا أيضا ما استطعنا من تناوله من الفضائل التي أكرم بها  
الله تعالى نبيه إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام.

فإبراهيم أُمَّةٌ في الفضل والسمو والنبيل والخير. وقد ذكرت له مزايا  
وفضائل كثيرة في القرآن الكريم منها:

أنّ الله تعالى اتخذه خليلا

جعل له للناس إمامًا

اجتباه واصطفاه

آتاه رُشده

جعل النبوة في ذريته

أمر باتخاذ مقامه مصلى

إضافة إلى اتصافه بالحلم والإنابة والصدّيقية والشكر والقنوت وسلامة القلب والكرم والوفاء ممّا سيقف عليه القارئ في ثنايا هذا البحث.

. آل إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام مصطفون ومطهرون.

. أهل بيت إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام عليهم رحمة الله تعالى وبركاته.

وعليه فذكر الله تعالى لكرامة خليله إبراهيم في الدارين، بأن كان في الدنيا من صفوته، وفي الآخرة من المشهود له بالاستقامة في الخير، يقتضي على كلّ عاقل ألا يعدل عن ملته، مصداقا لقوله تعالى: (وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ).

واصطفاء الأنبياء يكون من نفخ الروح فيهم، بدليل قوله تعالى:  
{وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ} 298

(ومن قبل) هنا حسب اعتقادنا إنّها تعني من بداية خلقه وذلك وفقا لتحليلنا أن الرشد الذي آتاه الله تعالى لإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام هو التهيؤ العقلي والنفسي والعقدي لحمل ما سيكلفه الله تعالى به من النبوة والرّسالة والذي به تحققت له العصمة من الوقوع فيما يقع فيه غيره من أخطاء وآثام وفق قاعدة الاصطفاء.

ومن ثمّ؛ فالنبوة والرّسالة محض فضل من الله يختص به من شاء من عباده، وهو سبحانه أعلم بمواقع فضله، ومحال رضاه، وأعلم بمن يصلح لهذا الشأن، فهو سبحانه صاحب الخلق والتدبير، والاختيار والاصطفاء، مصداقا لقوله تعالى: {وَرَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ

سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ {299، ولقوله تعالى: {وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} 300.

فإنَّه تعالى يختار للنبوَّة مع إنَّها هبة إلهية يهبها لمن يشاء وفقا لقاعدة الاصطفاء لعباد خصهم وميزهم بخصائص ومميزات ليست موجودة في سائر البشر.

فالأنبياء والرُّسل:

أكمل البشر خلقًا وخلقًا

وأرجحهم عقلا

وأوفرهم ذكاء

وأكثرهم إيمانا

طاعة

صفاء

نقاء

صبرا

وهذا هو شأن الأنبياء والرُّسل أجمعين.

ورسول الله إبراهيم عليه الصلوة والسلام اصطفاه الله لمهمة النبوة والرِّسالة، وخصه بخصائص ليست موجودة في غيره، وهياها تهيئة خاصة لتناسب هذه المهمة الجليلة.

---

<sup>299</sup> القصص 68.

<sup>300</sup> الأنعام 124.

ومن المهم ألا نغفل عن مخاطبة إبراهيم لآزر: وابتدأها بلفظة (يا  
أَبَتِ) كلمة تعبق بالحنان واللين، والمحبة والطاعة، مع إنه ليس أباه، إلا  
إنه لم يناده باسمه؛ لما في ذلك من الجفوة والوحشة وعدم الاحترام عندما  
يكون الخطاب من الابن إلى الأب.

\* لم يقدم إبراهيم عليه الصلوة والسلام دعوته لمن هو في مكانة أبيه  
على صورة الأمر، بل كان في مقام الناصح موضحاً له سبب اعتراضه  
على عبادته لغير الله تعالى بقوله: (لَمْ تَعْبُدْ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا  
يُعْنِي عَنكَ شَيْئًا).

هذا دليل عقلي يقبله كل عاقل، وحنة تدحض كل عبادة لغير الله  
تعالى، ما لا ينفع ولا يضر، ولا يملك حتى أن يرد الضرر عن نفسه.

\* حوار سيدنا إبراهيم عليه الصلوة والسلام مع آزر، يُظهرُ صفة  
من صفات كل الأنبياء والمستخلفين في الأرض ألا هي التواضع مع  
الغير.

ويتجلى ذلك من قول إبراهيم عليه الصلوة والسلام (يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ  
جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا) وفيها يظهر  
أدب رفيع من الابن مع من هو في مقام الوالد.

فلم يقل له: أنا أعلم منك.

ولم يقل له إنك جاهل.

بل قال له: جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ.

وهذا القول يحمل في طياته ضمناً صفة العلم لآزر، ولكن شتان بين  
علمه، وما جاء إبراهيم عليه الصلوة والسلام من العلم، بدليل قوله:  
(فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا).



فعلم آزر لم يهده إلى الصراط المستقيم، فهو علم لا يستند إلى حق ولا يؤدّي إليه. وعلم إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام يهدي إلى الصراط المستقيم؛ لأنّه من علم العليم المطلق مصداقا لقوله تعالى: ﴿لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ {301}.

\* تصريح إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام بالنهي لآزر عن عبادة الشيطان، المتمثلة في عبادة ما دون الله تعالى لم يكن خاليا من مصاحبة الأسباب والدوافع لهذا النهي، والتي تتمحور في دائرة المحبة، والخوف عليه من أن يحل به غضب الله تعالى.

ويتضح ذلك من قوله عليه الصلّاة والسّلام: (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا).

فأي تودد في هذا الحوار، وأي حب مشبع بلفيف من المشاعر، والرأفة والخوف عليه من الأذى، الذي يؤدّي إليه الطريق الذي يسير فيه آزر وقومه.

فماذا كان مقابل هذه الدعوة من الطرف الآخر؟

هل كان هناك تقبل منه لدعوة الطرف الأوّل؟

هل وجد عنده الاحترام لرأي ودعوة الطرف الأوّل؟

أكان من آزر احترام لحرية الرأي والفعل لدى الطرف الآخر؟

وكذلك فقد استوفى البحث في إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام بعض ما ابتلي به.

فقد ابتلي أبو الأنبياء عليه وعليهم الصلّاة والسّلام بأعظم أنواع  
البلاء، فصبر وظفر. ومن أهم ابتلاءاته عليه الصلّاة والسّلام التي تناولها  
البحث:

إلقاؤه في النّار.

الابتلاء في الكلّمات اللاتي أتمهن.

أمر الله إياه بذبح ولده إسماعيل.

هذا بعض من الابتلاءات التي حاول البحث أن يقف عند أسبابها  
ومسبباتها وصولاً إلى أهدافها والغاية منها.

إنّ ابتلاء الله العباد ليس ليعلم أحوالهم بالابتلاء، لأنّه عالم بهم،  
ولكن ليعلم العباد أحوالهم حتى يعرف بعضهم بعضاً. 302

وهنا أتساءل:

لماذا ابتلى الله تعالى إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام؟

وبماذا ابتلاه؟

وما نتيجة الابتلاء؟

ألا يكون الابتلاء خيراً؟

"والابتلاء هو استخراج ما عند المبتلي وتعرف حاله في الطاعة  
والمعصية بتحميله المشقة وليس هو من التكلّيف في شيء" 303

والابتلاء يتخذ أشكالاً ودرجات متباينة، ومن أشكال الابتلاء ما  
يلي:

---

<sup>302</sup> تفسير البغوي ج 1، ص 145.

<sup>303</sup> الفروق اللغوية ج 1، ص 139.

أولاً: ابتلاء ظاهره موجب وباطنه سالب:

فقد يكون الابتلاء والاختبار بلون من ألوان النعم كمنح الله تعالى هذا الإنسان الرزق الوفير والجاه وأسباب القوة، فيحدث هذا الابتلاء ردة فعل سالبة في نفس هذا الإنسان تتمثل في تباهيه وتفاخره واستحقاقه لهذه النعم وثقته باستحالة زوالها، قال تعالى: { فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ } 304

فظاهر هذا الابتلاء موجب أما تأثيره على نفس المبتلى فهو سالب، كما جاء أيضا في قوله تعالى: { وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا كَلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَاهُمَا نُحْرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأُجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا } 305.

فنتيجة الابتلاء تحددها درجة الإيمان لدى الإنسان، والتي قد تتناسب طرديا مع شدة الابتلاء.

ثانيا: ابتلاء ظاهره سالب وباطنه سالب:

قال تعالى: { وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ } 306، فهنا يقف الإنسان من فقره (الابتلاء السالب) موقفا سالبا يتمثل في التضجر والتأفف وعدم الرضا بقضاء الله تعالى، وهذا دليل واضح على قصور نظر المبتلى وانطماس بصيرته وضعف إيمانه.

<sup>304</sup> الفجر 15.

<sup>305</sup> الكهف 32، 36.

<sup>306</sup> الكهف 16.

ثالثا: ابتلاء ظاهره سالب وباطنه موجب

كابتلاء الإنسان بمرضٍ أو نقصٍ في الرزق بأنواعه، كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} 307.

رابعا: ابتلاء ظاهره موجب وباطنه موجب:

كأن يكون الابتلاء بوهب النعم المختلفة من مال وأولاد وقوة وجاه وحسن خلق وغيرها فيزداد تواضعا وخشية من الله تعالى الواهب لهذه النعم، وثقة بأنها زائلة لا محالة.

وعليه فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يكن على ملة اليهود، ولا على ملة النصارى، ولم يكن مشركا، بل كان على ملة الحق التي عليها كل الأنبياء والمرسلين، مصداقا لقوله تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} 308

وقال تعالى أيضا: {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} 309 ففي الآية الكريمة أمر من المولى عز وجل باتباع ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام،

فتساءل:

ما سبب هذا الأمر بالرغم من اتباع محمد عليه الصلاة والسلام لها؟

---

<sup>307</sup> البقرة 155، 157.

<sup>308</sup> آل عمران 67.

<sup>309</sup> آل عمران 95.

ألا يدل ذلك على أنّ ملة إبراهيم هي الملة المنجية لمتبعيها؟

ومن المعروف أنّ ملة إبراهيم هي التي سمّت كلّ المؤمنين بالله المسلمين، مصداقا لقوله تعالى: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} 310

والدعوة إلى الإيمان بملة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، إيضاح لأن جوهر الإيمان لا يحتمل الخلاف، فموكب الإيمان والرّسل والأنبياء موكب واحد، وكلمة (اتبعوا) تعني أن هناك متبوعا كما أن هناك تابعا.

المتبوع هو الملة الحقّ، الهادية، المنجية، الموضحة للدين الحقّ.

والتابع هو كلّ من أراد أن يكون مهديا ناجيا من عذاب الله تعالى، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} 311، وإلى جانب ذلك كان إبراهيم إماما.

ولمتسائل أن يتساءل:

ماهي الإمامة؟

وكيف كان إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام إماما؟

ولماذا كان إماما؟

ولمن هو إمام؟

---

<sup>310</sup> الحج 78.

<sup>311</sup> النساء 125.

للإجابة على هذه التساؤلات نقف على بعض المعاجم اللغوية التي تناولت مفهوم الإمام بشيء من الإيضاح

قيل: الأُمُّ بالفتح القَصْد، أُمَّةٌ يُوْمُهُ أَمَّا إِذَا قَصَدَهُ، والأُمُّ: العَلَمُ الذي يَتَّبَعُهُ الجَيْشُ، والإِمَّةُ والأُمَّةُ: السُّنَّةُ، وتَأَمَّمْ بهِ وَأَتَمَّ: جعله أُمَّةً، وَأَمَّ القَوْمَ وَأَمَّ بِهِمْ: تقدَّمهم، وهي الإِمَامَةُ.

والإِمَامُ كُلٌّ منِ اثْنَمَ بهِ قَوْمٌ سواءَ كانوا على الصراطِ المستقيمِ، أو كانوا ضالِّينَ. مصداقا لقوله عزَّ وجلَّ: {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ} قالت طائفة: بكتابهم، وقال آخرون: بنبئهم وشرعهم، وقيل: بكتابه الذي أحصى فيه عمَّله. 312

ومن ذلك نقول:

إن الإمامة تقدُّمٌ واتباعٌ:

تقدم وتميُّز لمن كان إماما فيما أتبع فيه من أفعال وأقوال وأعمال.

واتباع ممن سار على خطوات الإمام مقلدا له فيما تمييز به عنهم من أفعال وأقوال وأعمال.

فلا يكون الإمام إماما إن لم يتبعه جمع، فيما تفرد متقدما به عنهم، ولا يكون المأموم مأموما إن لم يكن مُتَّبِعًا لمن هو متقدم عنه فيما اتبعه فيه.

وعليه فالإمامة على وجوه منها:

. إمامة في الهدى مصداقا لقوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ

بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} 313

<sup>312</sup> لسان العرب 12، 22.

<sup>313</sup> السجدة 24.

وقوله تعالى: { وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ  
الْحَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ } 314

ولذا كان سيدنا محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام إماماً أئمة،  
وعليهم جميعاً الائتتمام بسنته التي مضى عليها، وكذلك كل نبي لأئمة.

. إمامة في الضلال (إمامة الباطل) مصداقاً لقوله تعالى: { وَجَعَلْنَاهُمْ  
أُئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى التَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ } 315

وقوله تعالى: { وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ  
فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ } 316

وعليه:

فالإمام هو ما ائتم به، والجمع أئمة، وإمام كل شيء: قِيَمُهُ  
والمصليح له. 317

فالقراء إمام للمسلمين؛ مصداقاً لقوله تعالى: { إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي  
الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ  
مُبِينٍ } 318؛ لأنه يُقَوِّمُ أخلاقهم، ويُصْلِحُ أحوالهم، وسيدنا محمد عليه  
الصلاة والسلام إمام الأئمة، والخليفة إمام باستخلافه في الأرض.

ولمتسائل أن يتساءل:

ما سبب اتخاذ الله إبراهيم خليلاً؟

---

314 الأنبياء 73.

315 القصص 41.

316 التوبة 12.

317 لسان العرب 12، 22.

318 يس 12.

وهل تنتفي بهذه الخلة عبودية إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام لله  
تعالى؟

وما الذي يمكن أن نستفيد من هذا الخبر الإلهي؟

قبل الإجابة عن هذه التساؤلات علينا أن نقف على معنى الخليل  
في اللغة.

قيل:

الخلُّ: الوُدُّ والصّدِيقُ، وقولك: إنّه لكريم الخليل والخلة كلاهما بالكسر  
أي كريم المصادقة والمواودة والإخاء<sup>319</sup>  
ولنا هنا أن نسأل:

أيعني ذلك أنّ الخلة هي الصداقة الناشئة عن الوُد والأخوة؟

جاءت الإجابة عن هذا السؤال في معجم الفروق اللغوية ببيان  
الفرق بين الصداقة والخلة فقال:

الصداقة: اتفاق الضمائر على المودة، فإذا أضرمت كل واحد من  
الرجلين مودة صاحبه، فصار باطنه فيها كظاهره سُمياً صديقين؛ ولهذا لا  
يقال الله صديق المؤمن في حين إنّه وليه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى  
النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ  
الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>320</sup>

أمّا الخلة: فهي الاختصاص بالتكريم؛ ولهذا قيل إبراهيم خليل الله  
لاختصاص الله إياه بالرسالة، وفيها تكريم له، ولا يجوز أن يقال: الله  
خليل إبراهيم لأن إبراهيم لا يجوز أن يخص الله بتكريم.

<sup>319</sup> لسان العرب 11، 211.

<sup>320</sup> آل عمران 68.



وقال البعض: إنه يطلق على المؤمن إنه خليل الله.

وقال البعض: لا يقال ذلك إلا لني؛ لأن الله عز وجل يختصه  
بوحيه، ولا يختص به غيره فالأنبياء كلهم أخلاء الله تعالى. 321

ونحن نقول:

إن مفهوم الخلّة مع الله تعالى مغاير تماما لمفهومها على المستوى  
البشري

فالخلّة مع الله تعالى تنتفي فيها عدة أشياء منها:

\* الحاجة. قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ

الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ } 322

\* النديّة. قال تعالى: { فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ  
أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ  
السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } 323

\* التكامل. قال تعالى: { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } 324

ونقول أيضا:

إن الخلّة مرتبة أعلى من مرتبة الصداقة وهذا على المستوى البشري،  
فقد يكون للشخص كثير من الأصدقاء وليس بالضرورة أن يكونوا هم

---

<sup>321</sup> معجم الفروق اللغوية 1، 214.

<sup>322</sup> فاطر 15.

<sup>323</sup> الشورى 11.

<sup>324</sup> سورة الإخلاص.

أخلاءه، بل يمكن أن يكون البعض منهم الذين حصل بينهم وبينه التوافق التام والانسجام.

وهنا لا يفوتني طرح قضية الحنيفية:

ولقائل إنَّ يقول: إنَّ كلَّ من اتبع ديننا من الأديان السماوية، أو غيرها يكون حنيفاً وفق منظوره باعتباره على الدين القيم.

نقول:

لا يكون على حنيفية إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام إلا من كان على ما كان عليه إبراهيم من توحيد وعبادة ودين.

ونحن نعلم يقينا أن إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام لم يكن مشركاً بل كان موحداً لله تعالى لا شريك له، مصداقاً لقوله تعالى: {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} 325

ومصداقاً لقوله تعالى: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} 326

فمن هذا القول حكايةً على لسان إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام يظهر لنا الآتي:

1. إبراهيم مؤمن بالله تعالى، بدليل قوله: (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) وما يفيد الوجدانية هنا في قوله هذا، اسم الموصول (الذي) المستعمل للدلالة على الفردية، فهو لم يقل (اللدان) الدال على المثنى أو (الذين) الدال على الجمع.

فالذي فطر السماوات والأرض واحد أحد (الله)

---

<sup>325</sup> البقرة 131.

<sup>326</sup> الأنعام 79.

والذي وَجَّهَ إليه إبراهيم عليه الصَّلَاة والسَّلَام وجهه مؤمنا عابدا،  
واحد أحد (الله)

2. إبراهيم عليه الصَّلَاة والسَّلَام موحد، بدليل قوله (حَنِيفًا)، وقد  
قلنا إنّ الحنيف هو القادر على الوصول إلى الله تعالى بدون نبي أو رسول  
أو داعية.

وهذا ما حصل مع سيدنا إبراهيم عليه الصَّلَاة والسَّلَام بعد أن  
تأمل في ملكوت السماوات والأرض محاجا قومه بما برعوا فيه من جدل  
وحجج عقلية ومنطقية، حتى توصل بهم إلى معرفة الله تعالى المعبود بحق  
(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

فهو لا يعبد إلا الله تعالى وحده، ولا يشرك معه شيئا في العبادة،  
ولذا ما كان من المشركين.

3. إبراهيم عليه الصَّلَاة والسَّلَام ليس مشركا، بدليل قوله: (وَمَا أَنَا  
مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

ولو سألت سائل:

لماذا نفى إبراهيم عليه الصَّلَاة والسَّلَام الشرك، ولم ينفي عن نفسه  
اليهودية والنصرانية؟

وهل في عدم نفيه ذلك ما يدل على أنّه يهوديا أو نصرانيا كما  
يدعون؟

نقول:

إنّ السبب الذي لأجله نفى إبراهيم عليه الصَّلَاة والسَّلَام عن نفسه  
الشرك، ولم ينف اليهودية والنصرانية هو:

أَنَّ الشَّرْكَ بِاللَّهِ كَانَ مَوْجُودًا فِي عَهْدِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ  
وَالسَّلَامُ، فَقَوْمُهُ كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَصْنَامًا وَتَمَاثِيلَ مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ  
تَعَالَى: {إِذْ قَالَ لِأَيُّبِهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا  
وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ  
مُبِينٍ} 327 وقوله تعالى: {وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَيُّبِهِ وَقَوْمِهِ مَا  
تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُّ لَهَا عَاكِفِينَ} 328

ولم ينف إبراهيم عليه الصَّلَاة والسلام عن نفسه اليهودية ولا  
النصرانية لأتھما لم يكونا في عھده، وما كانا إلا من بعده مصداقا لقوله  
تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ  
إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} 329

فقد ادعى كل من اليهود والنصارى أن إبراهيم عليه الصَّلَاة والسلام  
كان منهم، فاليهود كانوا يقولون: إن إبراهيم عليه الصَّلَاة والسلام كان  
على دينهم، والنصارى كذلك كانوا يقولون: إن إبراهيم عليه الصَّلَاة  
والسلام على دينهم، وفي هذا جادلوا رسول الله عليه الصَّلَاة والسلام  
والمؤمنين بغير علم مصداقا لقوله تعالى: {هَآ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا  
لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا  
تَعْلَمُونَ} 330

وهنا لنا أن نتساءل:

هل ينتسب الأبناء إلى الآباء وينتمون إليهم أم العكس؟

---

<sup>327</sup> الأنبياء 52، 54.

<sup>328</sup> الشعراء 69، 71.

<sup>329</sup> آل عمران 65.

<sup>330</sup> آل عمران 66.

ونحن لا نقول أننا استطعنا أن نفي هذا البحث حقه من الدراسة  
ولن نستطيع، ولكنها محاولة في الوقوف على المقاصد الإلهية من خلال  
رسالة إبراهيم:

في جعله أمة

رأس ملة

للرحمن خليلا

جعل النبوة في ذريته.

### النبي إسماعيل:

إسماعيل عليه الصلوة والسلام نبي من أنبياء الله تعالى، وهو ابن  
إبراهيم الخليل عليهما الصلوة والسلام، ولد إسماعيل بعد دعاء مجاب من  
المجيب العظيم جلّ جلاله. وأمه السيدة هاجر.

إسماعيل صلى الله عليه وسلم هبة الله لإبراهيم صلى الله عليه وسلم،  
هبة محمودة، جاءت بعد اشتداد حاجة الأب إلى وريث ومعين في ساعة  
الكبر مصداقا لقوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ  
إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدَّعَاءِ} 331.

هبة بعد دعاء مخلص لله عزّ وجلّ، يقول الحقّ مخبراً عن دعاء  
إبراهيم: {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ  
فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} 332.

فإسماعيل هبة، والهبة في الاصطلاح عطاء من غير مقابل 333،  
وقد وهب الله إسماعيل لإبراهيم من غير مقابل، وهنا مهم أن نقول إنّ

---

331 - إبراهيم 39.

332 - الصافات 99-101.

هبات الله لخلقه لا تُنتظر بعد عمل أو إنفاق أو أيّ عبادة، بل الله يهب ما يشاء لمن يشاء بغير حساب.

والوهب نتيجة الدّعاء كان إجابة، وهنا يعدّ إسماعيل عليه السّلام إجابة ربّانية لعبدٍ مخلص العبادة لله وحده.

ولكن من الذي يُسأل؛ فيجيب؟

الذي يُسأل هو الذي بيده أمر الإجابة، والذي يجيب: هو الذي يعطي ويهب ويزق ولا ينقص من عطائه شيء؛ وهو الذي يسمع الدّعاء ويعلم بالحاجة وما يشبعها بشرى وطمأنة.

ولهذا؛ فالجيب "هو الذي يقال مسألة السائلين بالإسعاف ودعاء الدّاعين بالإجابة وضرورة المضطرين بالكفاية، بل ينعم قبل النداء، ويتفضل قبل الدّعاء، وليس ذلك إلا لله عزّ وعلا؛ فإنّه يعلم حاجة المحتاجين قبل سؤالهم، وقد علمها في الأزل فدبّر أسباب كفاية الحاجات بخلق الأطعمة والأقوات وتيسير الأسباب والآلات الموصلة إلى جميع المهمات"334.

والجيب "من أسمائه تعالى (الجيب) لدعوة الداعين وسؤال السائلين وعبادة المستجيبين"335.

وهو الذي يسأل فيجيب دون منّة، ولا مجيب بالمطلق إلا مالك الملك المطلق. والجيب هو السميع الذي يدرك الأمر وما يتعلق به من حاجة فيستجيب إليها، والجيب هو السريع في الإجابة مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ

333 - معجم لغة الفقهاء ج 1، ص 492.

334 المقصد الأسنى، ج 1، ص 118.

335 شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج 1، ص 62.

فَلَيْسَتْ حَيُّوِيَا لِي وَلِيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ {336} فالفعل قريب يتعهد الإجابة الفورية لمن استجاب لله دون سواه.

أما الاستجابة؛ فهي في حقّ العبد الذي لم يعرف الحقيقة بعد فيمر بزمن الانتظار المشروط بالاستجابة التي لما يصل إليها يدعو الله، حينها يكون الله هو المجيب وليس المستجيب، مصداقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} {337} ولأنه العليم بالشيء وأسبابه والحاجة ومشبعاتها من ملكه، قال تعالى: {وَكَايِنٍ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {338}. الدابة البرية ترعى فيما استجاب إليها الله به فهي لا تملك أن تنتج ولا تزرع ولا تمتلك بذور الزرع ولا تخرج الماء من بطن الأرض كما يفعل الذي خلقه تعالى في أحسن تقويم، ومع ذلك المجيب يرزقها بما يشبع حاجتها للماء والطعام سبحانه جلّ جلاله.

وقال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} {339}.

وقد هاجر إبراهيم من العراق إلى الأرض المقدسة فلسطين، وفي الطريق استقر لوط في سدوم ليدعو قومها إلى عبادة الله تعالى، واستقر إبراهيم ومن معه في مدينة الخليل بفلسطين. وبعد مولد إسماعيل من هاجر، جاء الأمر الإلهي للنبي إبراهيم بأن يأخذ هاجر والمولود إسماعيل إلى الأرض المقدسة، فسار بهما تجاه الجزيرة العربية، حتى وصلوا إلى أرض

---

336 البقرة 186.

337 آل عمران 172، 173.

338 العنكبوت 60.

339 هود 6.

قاحلة، فجاء الأمر الإلهي بأن هذه الأرض هي الأرض المقدسة، وأن  
المستقر هنا، فاستودع إبراهيم زوجته وابنه الله الذي لا تضع الودائع  
عنده، { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ  
رَبَّنَا لِتُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ  
الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ } 340.

ترك إبراهيم وزوجه وابنه ومعهم شيء من الماء والزداد، ولا راعي لهما  
إلا الله، ومن هنا المعجزات تنزل، ومن ثم بدأت القصة المشهورة وهي  
سعي هاجر بين الصفا والمروة سعياً وبحناً عن الماء، حتى أكرمها الله تعالى  
بأن فجر الماء عند مرقد الطفل إسماعيل وأمه، فكانت زمزم بئر يزم ماء،  
وبدأت القوافل تنزل عندهم، ويقال أن قبيلة جرهم اليمانية أول نازل  
عندهم، التي أكرمت هاجر وإسماعيل، ومن هناك تعلم إسماعيل اللسان  
اليماني العربي.

وقد هاجر إبراهيم من العراق إلى الأرض المقدسة فلسطين، وفي  
الطريق استقر لوط في سدوم ليدعو قومها إلى عبادة الله تعالى، واستقر  
إبراهيم ومن معه في مدينة الخليل بفلسطين. وبعد مولد إسماعيل من  
هاجر، جاء الأمر الإلهي للنبي إبراهيم بأن يأخذ هاجر والمولود إسماعيل  
إلى الأرض المقدسة، فسار بهما تجاه الجزيرة العربية، حتى وصلوا إلى أرض  
قاحلة، فجاء الأمر الإلهي بأن هذه الأرض هي الأرض المقدسة، وأن  
المستقر هنا، فاستودع إبراهيم زوجته وابنه الله الذي لا تضع الودائع  
عنده، { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ  
رَبَّنَا لِتُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ  
الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ } 341.

---

340 إبراهيم 37.

341 إبراهيم 37.



مع أنّ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام قد أظهر دعاؤه لربّه، ولكن ذلك الدّعاء كان نتاج باطن (إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)، ولهذا كان إسماعيل هبة ظاهرة من دعاء باطن، أي أنّ باطن إبراهيم صفة له من الباطن عزّ وجلّ.

ولهذا عندما يكون باطن الإنسان على علاقة مباشر بالباطن الأعظم، يصبح باطنه ظاهرا كما ظهر إجابة لإبراهيم بابنه إسماعيل عليهما الصّلاة والسّلام، الذي كان أثرا ظاهرا من باطن الدّعاء وباطن الإيمان بالباطن الذي يرانا ولا نحن نراه، إنّ الله الظاهر الباطن جلّ جلاله.

ولذلك فالْبَاطِنُ هو: "الَّذِي لَا يُحَسُّ، وَإِنَّمَا يُدْرِكُ بِأَثَرِهِ وَأَفْعَالِهِ" 342.

وهو الذي "احتجب عن أبصار الناظرين لجلاله وحكمته وكمال عزته وعظمته" 343

والمجيب الذي جعل إسماعيل عليه السّلام إجابة هو دائم الإجابة؛ فلا يملّ ولا يبخل كرما، ذلك لأنّ إجابته مطلقة نصّ عليها سبحانه مشروطة بالدّعاء ظاهرا كان أم خفيا: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} 344، وفي هذه الآية الكريمة نشعر بكرمه سبحانه إذ جعل الإطلاق صفتها الأساسية، فليس هناك تحديد للدّعاء، فأنت تستطيع أن تدعو المجيب بكلّ ما تريد وما تشتهي نفسك، وإذا سأل السائل عن دعوة تخالف

---

342 الأسماء والصفات للبيهقي، ج 1، ص 98.

343 أسماء الله الحسنى، ج 32، ص 43.

344 غافر 60.

مرضاة الله؟ فالإجابة تكون بقوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} {345}، أما الكلام غير الصالح فانه لا يرقى إلى ملكوته عز وجل، والذين يمحرون السيئات لا يغفل عنهم فلهم العذاب الشديد فهؤلاء يمحرون ويمكر الله والله خير الماكرين {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} {346}.

ذكر الله في كتابه الكريم، ثلاث مشاهد من حياة إسماعيل عليه السلام. وأول هذه المشاهد هو أمر الله سبحانه وتعالى لإبراهيم بترك إسماعيل وأمه في واد غير ذي زرع، لا ماء فيه ولا طعام.

الثاني: كبر إسماعيل، وتعلق به قلب إبراهيم وابتلى الله تعالى إبراهيم بلاء عظيمًا؛ فقد رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يذبح ابنه الوحيد إسماعيل. وكانت من إسماعيل الطاعة.

الثالث: بناء بيت الله تعالى.

ويخبر المولى عز وجل عن إسماعيل وعدد من الأنبياء والرسل تفضيلهم على العالمين: {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ} {347}.

احتج القائلون بأن الأنبياء عليهم السلام أفضل من الملائكة بقوله تعالى بعد ذكر هؤلاء عليهم السلام: (وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ) وذلك

345 فاطر 10، 11.

346 الأنفال 30.

347 - الأنعام 86.

لأنّ العالم اسم لكل موجود سوى الله تعالى، فيدخل في لفظ العالم الملائكة، فقله تعالى: (وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ) يقتضي كونهم أفضل من كل العالمين. وذلك يقتضي كونهم أفضل من الملائكة، ومن الأحكام المستنبطة من هذه الآية: أنّ الأنبياء عليهم السلام يجب أن يكونوا أفضل من كل الأولياء، لأنّ عموم قوله تعالى: (وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ) يوجب ذلك 348.

ولأنّ إسماعيل آية من آيات الخالق فقد كان مطيعاً لأمر الذّبح وعتقته أنّه يعلم أنّ أمر الذّبح آية، ولهذا فإسماعيل كان مرضياً عند الله عزّ وجلّ وهذا لا خلاف حول من أطاع أمر ذبحه ابتغاء مرضاة الله عزّ وجلّ لا بدّ أن يكون على درجة من الإيمان الخالص ممّا يؤهله إلى درجة الرضا الإلهي وهذا ليس مقصورياً على إسماعيل بل على كل يجعل الإيمان شعاره وديارته فإن الرضا يحصل برّحة من الله العزيز القدير الذي يقول محبراً عن رضي عنهم: { قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } 349.

وهو عند الله مرضي في الأقوال والأفعال والأحوال، مرضي من الناس أي تتقبله النفوس فلا تنكره ولا تنفر عنه 350.

والحقّ أنّ من كانت صفاته كهذه الصّفات التي ذكرها الله له ونبحث نحن فيها لا بدّ أن يكن مرضياً عند الناس لأنّ الرّسل غايتهم خير ورسالتهم خير يستهدفون بها إصلاح أحوال الناس ممّن يقصدون بلاغهم

---

348 - تفسير الرازي، ج 6، ص 361.

349 - المائة 119.

350 الفائق في غريب الحديث، ج 1، ص 11.

فيخرجوهم من الظلمات إلى النور هذا يؤدّي بالتالي إلى رضا الناس على هؤلاء الرّسل صلوات الله وسلامه عليهم.

ومن الابن الذي ينقاد إلى مكان ذبحه راضيا طاعات مقبلا غير مدبّر إلا مصطفى مختار مثل إسماعيل صلّى الله عليه وسلّم مصداقا لقوله تعالى: { وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ } 351.

هذه الآيات فيها توضيح لكيفية مواجهة إبراهيم لبلائه وقد اشرنا إلى ذلك فيما سبق، ونريد الآن الحديث عن صبر إسماعيل على بلاءه، حيث واجه ذلك بقوة العقيدة ويدل عليها عدة أمور منها.

- طاعة مطلقة من إسماعيل لأمر الله عزّ وجلّ.

- صبر على البلاء.

- البرّ الخالص من الابن للأب.

- صدق خالص.

- شجاعة في الحقّ ورباط عليه.

والواضح من الآيات أنّ إسماعيل استمع إلى حديث يدور عن رؤيا في منام { يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ } 352، والمسألة تتطلب افتراضات هي:

- أن يكون إسماعيل يعلم أن رؤيا الأنبياء حقّ فقط.

- أن يكون لا يعلم ذلك.

- أو أن يكون إبراهيم أخبر ابنه بتفاصيل دقيقة عن كل هذا البلاء.

قال الفاكهي: "وقد قال الناس في الذبيح ما قالوا؛ فقالت العرب: هو إسماعيل، وقالت طائفة من المسلمين وأهل الكتاب جميعاً: إنه إسحاق فإن أقوال العرب في ذلك أثبت، واستدل الفاكهي على ذلك بما معناه أن الله تعالى عبّر عن قصة إسماعيل بقوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾، وأخبر عن قصة إسحاق بقوله: ﴿وَبَشِّرْهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وإن ذكر قصة إسحاق بعد القصة التي قبلها دليل على أن إسحاق غير الذبيح، وأن ذلك يتأيد بكون سارة بشرت بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب 353.

إسماعيل ابن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام هو الذي شارك أبيه بناء الكعبة (بيت الله) وهو أول بيت بني لعبادة الواحد الأحد جلّ جلاله، ويقال أن آدم هو أول من بنى البيت الحرام، ولهذا جاء إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام لرفع القواعد كونها سابقة عليهما، أي: أنّها قد تأثرت بفعل الطوفان في زمن نوح عليه السلام، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ

352 الصافات 102.

353 أخبار مكة للفاكهي، 5، 80.

الْعَلِيمِ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمَنْ ذُرِّيَّتَنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَمَنْ يَرْعُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} 354.

تعدّ الكعبة الشريفة أول بيت وضعه الله تعالى لعبادة الله، في حين كانت الكثير من الشعوب والأمم القديمة بينون البيوت لعبادة التماثيل والأصنام، فقد قال تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} 355.

وقد اشتهر إسماعيل بترويض الخيل، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ أَبَاكُمْ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلُ مَنْ دُلِّلَتْ لَهُ الْخَيْلُ الْعَرَابُ؛ فَأَعْتَقَهَا وَأَوْرَثَكُمْ حُبَّهَا؛ وَذَلِكَ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَرَجَ حَتَّى أَتَى أَجْيَادًا، فَأَلْهَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى الدُّعَابَةَ بِالْحَيْلِ، فَدَعَا فَلَمْ يَبْقَ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ عَلَيْهَا فَرَسٌ إِلَّا أَتَاهُ، وَذَلِكَ اللَّهُ لَهُ وَأَمْكَنُهُ مِنْ نَوَاصِيهَا" 356، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ وَأَوَّلُ مَنْ نَصَبَ ذَلِكَ الْحَيْلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِدَلَالَةِ جِبْرِيلَ لَهُ ثُمَّ قَصِي بن كلاب وَقِيلَ نَصَبَهَا إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ أَبِيهِ الْحَيْلِ ثُمَّ قَصِي" 357.

354 البقرة 127 . 132.

355 آل عمران 96، 97.

356 أخبار مكة للفاكهي، 4، 167.

357 أخبار مكة للفاكهي، 5، ص 207.

وهناك من يرى أنّ إسماعيل عليه الصّلاة والسّلام أوّل من روّض الخيل؛ فهي من قبله كانت وحشية، قال الدميري: أوّل من ركب الخيل إسماعيل عليه السّلام، ولذلك سميت بالعراب، وكانت قبل ذلك وحشية كسائر الوحوش؛ فلمّا أذن الله تعالى لإبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام برفع القواعد من البيت قال الله عزّ وجلّ: إنيّ معطيكما كنزاً دخرته لكما، ثمّ أوحى الله إلى إسماعيل: أن اخرج فادع بذلك الكنز؛ فخرج إلى أجياد، وكان لا يدري ما الدّعاء والكنز! فألهمه الله تعالى الدّعاء، فلم يبق على وجه الأرض فرس بأرض العرب إلا أجابته، فأمكنته من نواصيها وتذلت له؛ ولذلك قال نبينا عليه الصّلاة والسّلام: "اركبوا الخيل؛ فإنّها ميراث أبيكم إسماعيل"358.

وروى الثعلبي بإسناده عن النبي عليه الصّلاة والسّلام أنّه قال: (ما من فرس إلا ويؤذن له عند كلّ فجر بدعوة يدعو بها: اللهم من خولتني من بني آدم وجعلتني له؛ فاجعلني أحب أهله وماله إليه"359).

وعليه؛ فإنّ لغة الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام حجة، ورؤاهم عين اليقين، ودعاؤهم مستجاب، وإيمانهم جبال لا تهتز إلاّ تسبيحاً لله تعالى، ولذلك فلا غرابة أن يفدى إسماعيل بذبح عظيم؛ فعن منصور، وابن أبي نجيح، عن مجاهد، {وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ}360، قال: "مُتَقَبَّلٌ، إنّه إسماعيل عليه السّلام"361

ومن هذا الأحاديث صفات لإسماعيل عليه الصّلاة والسّلام:

## 1. ذبيح الحقّ.

358 أخرجه أبو حاتم الرازي في الزهد (99) موقوفاً على ابن عباس، وإسناده ضعيف.

359 حياة الحيوان الكبرى، 1، 435.

360 الصافات 107.

361 معجم ابن المقرئ، ص 188.

2 . عظيم المثوبة.

3 . طائع لأمر الله، حيث قال: (ليفعل ما أمره الله به).

4 . متحدّي، (فَقَالَ: أَيُّهَا الْعُلَامَ هَلْ تَدْرِي أَيْنَ يَذْهَبُ بَكَ أَبُوكَ؟  
قَالَ: نَحْتَطِبُ لِأَهْلِنَا، قَالَ: لَا وَاللَّهِ مَا يُرِيدُ إِلَّا أَنْ يَذْبَحَكَ؛ قَالَ: وَلِمَ؟  
قَالَ: يُزْعَمُ أَنَّ رَبَّهُ أَمَرَهُ بِذَلِكَ؛ قَالَ: فَلْيَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ بِهِ رَبُّهُ سَمْعًا وَطَاعَةً)  
وقال: (يَا أَبَتَ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ).

5 . صبور مطيع، (يَا أَبَتَاهُ إِذَا أَرَدْتَ ذَبْحِي فَأَشَدِّدْ رَبَّاطِي لَا  
يَصِيبُكَ مِنْ دَمِي فَيَنْقُصُ أَجْرِي؛ فَإِنَّ الْمَوْتَ شَدِيدٌ، وَلَا أَمِنُ أَنْ  
اضْطَرَبَ عِنْدَهُ إِذَا وَجَدْتَ مَسَّهُ، وَاشْحَذْ شِفْرَتَكَ حَتَّى تَجْهَزَ عَلَيَّ  
فَتَذْبَحَنِي، فَإِذَا أَنْتَ أَضْجَعْتَنِي فَأَكْبِنِي عَلَى جَنْبِي، وَلَا تَضْجَعْنِي لَشَقِي؛  
فَإِنِّي أَحْشَى إِنْ أَنْتَ نَظَرْتَ إِلَيَّ وَجْهِي أَنْ تَذْرُكَ الرِّقَةَ فَتَحُولَ بَيْنَكَ  
وَبَيْنَ أَمْرِ رَبِّكَ فِي).

6 . معين لأمر الله، (وَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَرُدَّ قَمِيصِي إِلَى أُمِّي فَإِنَّهُ عَسَى  
أَنْ يَكُونَ أَسْلَى لَهَا فَافْعَلْ؛ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: نَعَمْ الْعَوْنُ أَنْتَ يَا بَنِي عَلَى أَمْرِ  
اللَّهِ).

7 . مُفدى، (وَيُقَالُ: إِنَّهُ رَبَّطَهُ كَمَا أَمَرَهُ بِالْحَبْلِ فَأَوْثَقَهُ، ثُمَّ شَحَذَ  
شِفْرَتَهُ، ثُمَّ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَاتَّقَى النَّظَرَ إِلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أَدْخَلَ الشَّفْرَةَ حَلْقَهُ  
فَقَلَبَهَا جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامَ لِقْفَاهَا فِي يَدِهِ؛ ثُمَّ اجْتَذَبَهَا إِلَيْهِ وَنُودِيَ ﴿أَنْ يَا  
إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا 362﴾ فَهَذِهِ ذِيحَتِكَ فِدَاءَ لَابْنِكَ فَادْبَحْهَا  
دُونَهُ).

ثُمَّ قَالَ الْفَاكِهِي: "قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي مَنْ لَا أَهْمُ مِنْ أَهْلِ  
الْبَصْرَةِ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: مَا فُدِيَ إِلَّا بِبَيْتِيسَ مِنَ الْأَرُوى هَبَطَ



عَلَيْهِ مِنْ تَبِيرٍ . ثُمَّ قَالَ الْفَاكَهِي : وَيَزْعُمُ أَهْلُ الْكِتَابِ وَكَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ  
ذَبِيحَةَ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي فَدِيَ بِهَا إِسْمَاعِيلَ كَبَشَ أَمْلَحَ أَقْرَعُ أَعِينُ 363".

نشأ إسماعيل في كنف بيت مبارك الأعراق والأركان، فقد تربى في  
رعاية إبراهيم النبي الرسول الخليل الأواه الحليم، ومع أم صابرة مطيعة  
مرحومة مباركة

ففي بيت رحمة الله برحمته تربى إسماعيل، والبيت الذي نعني في  
الحقيقة بيتان هما:

بيت إبراهيم وهاجر أم إسماعيل.

البيت الحرام فإذا أصبح فتى يسعى في طاعة الله خرج إلى أرض  
مباركة مقدسة فيها بيت الله الحرام حيث الشعائر المقدسة، وهنا نتوقف  
مع حقيقة اختيار موضع التنشئة، ونتساءل:

هل كان خيار إبراهيم وإسماعيل للمعيشة؟ أم للطاعة؟

إنّ مسألة اختيار المكان لها دلالات عميقة مع اعتبارنا لكل  
القصص الإخبارية عن كون إبراهيم كان في الشام ثم ارتحل إلى مكة باحثاً  
عن بيت الله، ومن هذه الدلالات:

إنّ إبراهيم كان يعلم أنّ في مكة بيت الله ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ  
دُرِّيِّ بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ  
أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ 364.

أنّ إسماعيل ترك في مكة لدور محدد (رسالته).

أنّ إحياء سيحصل على يد إسماعيل لبلد وأمة.

---

363 أخبار مكة للفاكهي، 5، 76.

364 إبراهيم 37.

دعوة إبراهيم كانت لذريته إسماعيل وأبنائه ومن حولهم.

وقد سبق الإشارة إلى دور إبراهيم ومعرفته بالبيت الحرام، ونحن الآن بصدد الحديث عن دور إسماعيل حيث سيتحوّل هذا لوادي من وادٍ مجذب موحش عديم الثمرات إلى وادٍ تَهْفُو إليه القلوب، يفيض بالخيرات الآتية إليه وذلك بصبرٍ إسماعيل على أداء الرسالة.

والواضح الجليّ أنّ دعوة إبراهيم (فَأَجْعَلْ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ) كانت لأبنائه لأنه يعلم أنّ الله سيتكفل بيته، هذا من، جانب أمّا من، جانب آخر فنشعر في دعوة إبراهيم لإسماعيل وذريته من بعده أنّ فيها معرفة بأهمية الواجب الموكّل إليهم وصعوبته لذلك كان الدّعاء، وقد كان اختيار لفظة (تهوي) في غاية الإعجاز لما هو مطلوب لأنّها لفظة تعني دلالات عديدة منها ما يسير في سياق دلالة الآية وهو: "تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَازْرُقَهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ فَيَمْنُ قَرَأَ بِهِ إِتْمَا عَدَّاهُ بِإِلَى لِأَنَّ فِيهِ مَعْنَى تَمِيلُ وَالْقِرَاءَةُ الْمَعْرُوفَةُ تَهْوِي إِلَيْهِمْ أَي تَرْتَفِعُ وَالْجَمْعُ أَهْوَاءُ وَقَدْ هَوِيَهُ هَوَى فَهُوَ هَوٍ وَقَالَ الْفَرَاءُ مَعْنَى الْآيَةِ يَقُولُ أَجْعَلْ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ تُرِيدُهُمْ كَمَا تَقُولُ رَأَيْتَ فَلَانًا يَهْوِي نَحْوَكُ مَعْنَاهُ يُرِيدُكَ قَالَ وَقَرَأَ بَعْضُ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ بِمَعْنَى تَهْوَاهُمْ كَمَا قَالَ زِدْفَ لَكُمْ وَرِدْفَكُمْ، وَتَهْوِي إِلَيْهِمْ زَعَمُوا أَنَّهُ فِي التَّفْسِيرِ تَهْوَاهُمْ، وَتَهْوِي إِلَيْهِمْ أَي تُسْرِعُ"365، وإذا كان علماء اللغة يرجّحون واحدا من هذه المعاني دون تخطيط آخر فهذا يدل على أنّ كلّ الوجوه يمكن أن تكون صحيحة ونحن نعتقد أنّه يمكن أن تكون لفظة (تهوي)، جامعة لكل هذه الدلالات في إبراهيم أرد لإسماعيل وذريته:

- أن تميل الناس إليهم.

- أن يحببهم الناس.

---

365 لسان العرب، ج 15، ص 371.

- أن تريدهم.

- أن تسرع إليهم بإجابة دعواهم.

وهذه الدلالات كلها تصلح لمطلوب الدعاء، أما عن تنمة الدعاء (وَأَرْزُقُهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ) فهي مطلقة وغير مخصصة بمعنى أنّ طلب الرزق لم يكن لإسماعيل وذريته فقط لأنّ ذلك كان سيبدو حاشا لله نوعا من الأناية والفردية فكان الدعاء للعموم أي لإسماعيل وذريته ولمن سيهوي إليهم ويعيش من المؤمنين في كلّ زمان ومكان.

فالدعاء على ذلك انطلق من الخاص إلى العام، وهو منهج نبوي علينا أن نتخذه سلوكا فنبدأ الدعاء من الخاص الذي يخصّ الداعي حين يطلب مسألة له ولأهله إلى العام أي عموم المؤمنين بعد ذلك، يقول الحقّ، جلّ وعلا مبينا لنا منهج الدعاء: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} 366.

مع أنّ إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام قد أظهر دعاؤه لربه، ولكن ذلك الدعاء كان نتاج باطن (إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)، ولهذا كان إسماعيل هبة ظاهرة من دعاء باطن، أي أنّ باطن إبراهيم صفة له من الباطن عزّ وجلّ.

ولهذا عندما يكون باطن الإنسان على علاقة مباشرة بالباطن الأعظم، يصبح باطنه ظاهرا كما ظهر إجابة لإبراهيم بابنه إسماعيل

عليهما الصلّاة والسّلام، الذي كان أثرا ظاهرا من باطن الدّعاء وباطن الإيمان بالباطن الذي يرانا ولا نحن نراه، إنّ الله الظاهر الباطن جلّ جلاله.

ولذلك فالْبَاطِنُ هو: "الَّذِي لَا يُحْسُّ، وَإِنَّمَا يُدْرِكُ بِأَثَرِهِ وَأَفْعَالِهِ" 367.

وهو الذي "احتجب عن أبصار الناظرين لجلاله وحكمته وكمال عزته وعظّمته" 368

اتصف إسماعيل بحلمه، والحليم في اللغة صفة للموصوف بالحلم، فعله حَلِمَ ويعني "الأناة والتثبّت في الأمور وذلك من شعار العقلاء" 369، فصفة الحلم تعني الأناة ومعالجة الأمور بصبرٍ وعلم وحكمة، وفي مقابلها العجّلة المفسدة لأمر الدين والدنيا. والحليم هو الذي يرغب في العفو ولا يسارع بالعقوبة، قال الله تعالى في وصف نبيه إسماعيل صلّى الله عليه وسلّم: (فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ).

والحلم لا يكون حلما مع الضعف والعجز عن المعاقبة، والجهل بالفعل الذي يكون الحلم فيه، ولذلك فلا بدّ أن يستوجب الحلم عدة أشياء ضرورية لاعتباره حلما، منها:

#### 1- القوّة:

فالحلم يعتبرّ ضعفا إذا لم يكن الحليم قويا فيكون بذلك مثلبة لا مكرمة.

وقد قال النابغة في ذلك:

---

367 الأسماء والصفات للبيهقي، ج 1، ص 98.

368 أسماء الله الحسنى، ج 32، ص 43.

369 لسان العرب، ج 12، ص 145.

ولا خير في حلم إذا لم يكن له... موارد تحمي صفوه أن يكذرا

هنا نتساءل:

هل كان إسماعيل قويًا؟

الأصل في الأنبياء والرسل أن يكونوا أقوياء كجزء من مواصفات من يقوم بمهمة الرسالة إذا لم نقل أساسا من أهم أسسها مصدقا لقوله تعالى: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ} 370، والمسألة هنا لا ترتبط بنبي دون آخر فمهام الرسالة لا بد لها من قوة تسهم في الأداء والتبليغ المكلف به النبي والرسول، والقوة المقصودة لا تقتصر على القوة الجسدية، بل هي مزيج من قوة، جسدية وروحية معا، وعلى النحو الآتي:

أ- القوة الجسدية

تظهر في أفعاله التي وصفها لنا رب العزة فقال: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} 371؛ فرجع القواعد مع أبيه عليهما الصلاة والسلام يتطلب ولا شك قوة، جسدية تؤهله لهذا الفعل.

الإيحاء الآخر بقوته يتمثل في فعل الخير، ومعلوم أن فعل الخير أنواع منه ما يطلب قوة، جسدية تعين الفاعل على فعل الخير كالسعي في الصدقات وإعانة الفقراء وزيارة المريض وغير ذلك ونعتقد أن إسماعيل كان يقوم بمثل ذلك وأكثر لأن الله سبحانه وتعالى وصفه بأنه من الأخيار فقال محبرًا عنه وعن غيره من المصطفين، {وَإِذْ ذُكِّرُوا بِإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ} 372.

---

370 مريم 12.

371 البقرة 127.

372 - ص 48.

ب- القوّة الرّوحية (قوّة العقيدة).

وتبدو واضحة دالة على قوّة عقيدة إسماعيل وهو يواجه بقوّة أمرًا تضطربّ عنده النفس وينفلت الجسد هو أمر الذبح؛ إنّ القوّة تظهر في ردة فعل إسماعيل حيث كان الخطاب الموجه من الأب لابنه بالذبح أمرًا إلهيًا {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} 373، المواجهة كانت شديدة بين حبّ الحياة وحبّ الآخرة تصدى لها إسماعيل بقوّة ورباطة جأش، قل أو ندر أن تظهر في غيره إلا ما شاء الله فقال لأبيه دون تردد أو نقاش أو أخذ ورد مع أنّ الأب لم يفرض، بل عرض على ابنه أن ينظر في الأمر لكنّ إسماعيل اختار أن يظهر قوّة إيمانه ليكون أسوة للمؤتسي كما يخبرنا العليم الخبير عمّا جرى بين أب وابنه لا ثالث معهما إلا الله: {قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} 374.

وخلاصة القول في ذلك أنّ الحلم هو: تجرّع الغيظ، ودعامة العقل وعلامة علو الهمة والثقة بالنفس، فلا يحركها الغضب بسرعة.

وأنّ الحليم هو من أوسع الناس صدرا، وألينهم عريكةً، وأشدّهم ثباتا وأقواهم جنانا، فلا تستفزه بدايات الأمور، وينظر إلى عواقبها ومآلاتها ولذلك من يفتقد هذه الخلة قد يُفسد أكثر ممّا يُصلح.

والحلم من الصفات التي يحبها الله في عباده، فعلى العبد أن يدرك أنّ توحيد الله في اسمه الحليم مقتضاه أن يكون الموحد حليما صبورا يتأني في رأيه وحكمه وقوله وفعله، ويتخير ما هو أنفع له وللآخرين، ويبادر بالتوبة إلى الله الحليم، روى مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنه أنّ

---

373 الصافات 102.

374 - الصافات 102.

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأَشَجِّ بْنِ عَبْدِ الْقَيْسِ: "إِنَّ فِيكَ خَصَلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ الْحِلْمُ وَالْأَنَانَةُ"<sup>375</sup>. وفي رواية أخرى عند أبي داود وحسنها الألباني: "إِنَّ فِيكَ خَلْتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ الْحِلْمُ وَالْأَنَانَةُ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا أَمْ اللهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟ قَالَ: بَلِ اللهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا، قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلْتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ"<sup>376</sup>.

وعلينا أن نعرف الحلم والإمهال: إنَّ كل حلم إمهال وليس كل إمهال حلما لأنَّ الله تعالى لو أمهل من أخذه لم يكن هذا الإمهال حلما لأنَّ الحلم صفة مدح والإمهال على هذا الوجه مذموم وإذا كان الأخذ والإمهال سواء في الإصلاح فالإمهال تفضل والانتقام عدل وعلى هذا يجب أن يكون ضد الحلم السفه إذا كان الحلم واجبا لأنَّ ضده استفساد فلو فعله لم يكن ظلما إلاَّ أنه لم يكن حكمة ألا ترى أنه قد يكون الشيء سفها وإن لم يكن ضده حلما وهذا نحو صرف الثواب عن المستحقِّ إلى غيره لأنَّ ذلك يكون ظلما من حيث حرمان من استحقَّه ويكون سفها من حيث وضعه في غير موضعه ولو أعطي مثل ثواب المطيعين من لم يطع لم يكن ذلك ظلما لأحد ولكن كان سفها لأنَّه وضع الشيء في غير موضعه، وقولنا الله حلِيم من صفات الفعل، ويكون من صفات الذات بمعنى أهل لأنَّ يحلم إذا عصي، ويفرق بين الحلم والإمهال من وجه آخر وهو أن الحلم لا يكون إلا عن المستحقِّ للانتقام وليس كذلك الإمهال ألا ترى أنَّك تمهل غريمك إلى مدة ولا يكون ذلك منك حلما، ولذا فالحلم لين، والحليم عطوف رؤوف بحال من هم في حاجة، فيتجاوز عنهم حتى يعلموا أنَّه رؤوف رحمن رحيم.

---

375 - صحيح مسلم، ج 1، ص 107.

376 - سنن أبو داود، ج 1، ص 457.

ولاشكّ أنّ الحليم يمتلك مفاتيح العلم بالأشياء ليتسنى له التمييز بين ما يستحقّ أن يحلم معه من الأفعال وما لا يستحقّ، لأنّه ليس كل الأفعال توجب الحلم فالباطل لا حلم معه، وهذه كانت صفة إسماعيل حليم عليم، والدليل على علم إسماعيل يتحصل لنا من النظر في مجموعة صفاته، فعبد عابد صابر حليم من الأخيار نبي رسول صفات كلها تفضي لأنّ يكون إسماعيل صلّى الله عليه وسلّم عليمًا قادرًا على أن يأخذ كفة الترجيح ليحكم بها فيميز بين الحقّ والباطل، فيكون حلمه بعد ذلك تابع من هذا العلم.

وبعد ذلك نقول: إنّ إسماعيل استمد صفة الحلم من اسم الله الحليم وعرف معانيها من علم النبوة والرسالة لذلك فإن كل ما في اسم الحليم من معان يقدر إسماعيل على فهمها واستيعابها والعمل بها ستكون منهجه في السلوك والتبشير والتبليغ.

ومن صفات إسماعيل الصبر والطاعة؛ فهو متحدّي الخوف بالإيمان، (يا أبتاه إذا أردت ذبحي فأشدد ربّاطي لا يصيبك من دمي فينقص أجري؛ فإنّ الموت شديد، ولا آمن أن اضطرب عنده إذا وجدت مسّه، واشحذ شفرتك حتّى تجهز عليّ فتذبحني، فإذا أنت أضجعتني فأكبني على جنبي، ولا تضجعني لشقي؛ فإنّي أخشى إن أنت نظرت إليّ وجّهي أن تدرك الرقة فتحول بينك وبين أمر ربك في).

### النبي إسحاق:

إسحاق هو ابن النبي إبراهيم عليهما الصلوة والسلام، وهو ابنه من زوجته سارة، وقد كانت البشارة بمولده من الملائكة لإبراهيم وسارة، لما مرّوا بهم ذاهبين إلى مدائن قوم لوط، ليدمروها عليهم لكفرهم وفجورهم، {وَأذْكَرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ} 377



ومن ثمّ فإسحاق من أنبياء الله الصّالحين، وجعله الله رسولا نبيا ومن نسله يعقوب، ومن يعقوب جاء يوسف والأسباط.

وقوله: (أولي الأيدي والأبصار) يعني بالأيدي: القوّة، ويعني بالأبصار: أولي العقول للحقّ. وعن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ) قَالَ: "الْأَيْدِي: الْقُوَّة فِي الْعَمَلِ، وَالْبَصَرُ: فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ" 378

وقال النّحاس: الأبصار فمتفق على تأويلها أنّها البصائر في الدّين والعلم. وأمّا الأيدي فمختلف في تأويلها، فأهل التفسير يقولون: إنّها القوّة في الدين. وقوم يقولون: هم أصحاب النعم والإحسان.

وقد ذكر الله تعالى سيدنا إسحاق عليه السّلام بالصفات الحميدة وجعله نبيا ورسولا، وبرّاه من كلّ ما نسبه إليه الجاهلون، وأمر الله قومه بالإيمان به كغيره من الأنبياء والرّسل، وقد مدح رسول الله نبي الله إسحاق وأثنى عليه عندما قال: (إنّ الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم). فهؤلاء الأنبياء الأربعة الذين مدحهم رسول الله هم أنبياء متناسلون.

وقد دع إسحاق بن إبراهيم عليهما السّلام إلى دين الإسلام وإلى عبادة الله وحده، وأوحى إليه بشريعة مبنية على الإسلام ليلبغها ويعلمها النّاس، وقد أرسله الله تبارك وتعالى إلى الكنعانيين في بلاد الشام وفلسطين الذين عاش بينهم، وقد قيل: إنّ إبراهيم عليه السّلام أوصى ابنه إسحاق ألا يتزوج إلا امرأة من أهل أبيه فتزوج إسحاق رفقة بنت ابن عمّه، وكانت عاقرا لا تنجب فدعا الله لها فحملت فولدت غلامين توأمين أحدهما اسمه العيص، والثاني يعقوب وهو نبي الله إسرائيل.

378 حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 4، ص 284.

وقد ذكر الله تعالى إسحاق بصفة غالبية عليه بأنه (غلام عليم)، جعله الله نبيا يهدي الناس إلى فعل الخيرات، ومنه كانت ذرية أنبياء بني إسرائيل في ابنه يعقوب عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.

والقرآن الكريم لا يذكر غير ومضات سريعة عن قصّة إسحاق صلّى الله عليه وسلّم، حيث كان ميلاده حدثا خارقا للعادة يصل حدّ المعجزة كون أمّه عقيما، وقد بشرت به الملائكة وورد في البشرى اسم ابنه يعقوب عليهما الصّلاة والسّلام قال تعالى: {وَأَمْرَأْتُهُ فَاصْحَاكْتَ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ} 379.

وقد، جاء ميلاده بعد سنوات من ولادة أخيه إسماعيل، أي أنّ إسماعيل هو الأكبر بدليل قوله تعالى: {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ} 380.

وهو دليل أيضا على أنّ الذبيح هو إسماعيل صلّى الله عليه وسلّم.

ولقد قرّ قلب (سارة) بمولد إسحاق بن إبراهيم عليهما الصّلاة والسّلام، غير أنّنا لا نعرف كيف كانت حياة إسحاق، ولا نعرف بماذا أجابه قومه، وكلّ ما نعرفه أنّ الله أثنى عليه نبيا من الصّالحين، قال الله تبارك وتعالى: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ} 381.

---

379 - هود 71.

380 - الصافات 103 - 113.

381 - الصافات 112 - 113.

فإسحاق هو الولد الثاني لإبراهيم عليهما الصلّاة والسّلام، الذي بشرت به الملائكة.

وقد قيل: إنّ عمر إبراهيم مائة وعشرين سنة وكان عمر سارة تسعين سنة وقيل غير ذلك، إلا أنّ الله تعالى أشار إلى أنّهما طاعنان في السن، فإبراهيم شيخ كبير بدلالة قوله تعالى على لسان إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم: { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ } 382.

وامرأته عجوز طاعنة في السن تجاوزت مرحلة الحمل والولادة قال تعالى: { قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ } 383.

ولدت كان لله مشيئة شائها بتأخير ولادة إسماعيل وإسحاق عليهما الصلّاة والسّلام؛ أنّه المؤخّر لما شاء والمقدّم لما شاء سبحانه لا إله إلا هو؛ الذي يؤخر ما يجب تأخيره وهو يعلم أنّ في تأخيره خير.

والمؤخر: هو الذي يملك الأمر الذي به تتم مستوجبات التقديم أو التأخير، وهو المتصرّف كما يشاء متى ما شاء، وهو العليم بمبررات التقديم والتأخير في كل ظرف، وهو الذي تقديمه حقّ وتأخيره حقّ سبحانه محقّ الحقّ ودامغ الباطل.

والمؤخّر هو اسم فاعل من آخر في حين أنّه المصدر للتأخير، فالله عزّ وجلّ هو الذي أوجد التأخير والتقديم وفق الأولويات بين جمع الأشياء لحكمة لا يعلمها إلا هو، ومن أجل تنظيم هذا الكون والخلق

---

382 - إبراهيم 39.

383 - هود 72 - 73.

بهذا النظام الذي أبدعه الخالق سبحانه وتعالى، قال عز وجل: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} وَأَيُّهُ هُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} 384، ومن أجل تسهيل حياة الخليفة الذي أراده الله تعالى منذ البداية أن يكون مقيماً في الأرض، راعيا لها قال سبحانه وتعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} 385.

والمؤخر المطلق بحكمته المطلقة آخر خلق المخلوقات بعضها عن بعض، فأخر خلق الإنس عن الملائكة والجن، فقد آخر خلق آدم عليه السلام على خلق الملائكة والجن وبالرغم من تأخير خلقه عنهم إلا أن الله تعالى قدّمه عليهم بتفضيله عنهم، ذلك أن المولى عز وجل حمّله الأمانة التي أبت الأرض والجبال أن تحملنها، وهذه الأمانة هي استخلاف الإنسان في الأرض، قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} 386.

<sup>384</sup> يس 36 . 40 .

<sup>385</sup> البقرة 30 . 33 .

<sup>386</sup> الأحزاب 72 .

ولكن الله هو المؤخر عن علم وليس لإهمال أو تقصير مما يتنافى مع قدرة الخالق المطلقة بل هو المؤخر لتحكمه في تقدير الأمور، والمؤخر المطلق هو المقدر الوحيد لموعد الخلق والموت والميلاد والحساب والرزق وغيرها فكل أمور الخلق بمواعيد مسبقة ومقدرة من المؤخر ولا حول ولا إرادة للإنسان في ذلك، فلا يد للإنسان فيما قدر الله من أمور عظيمة تأتي على الخلق دون علم أو معرفة، قال تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ} {387، فيوم الحساب يوم عظيم وعلى الإنسان أن يكون متيقنا من قدومه بدون أن يعرف توقيت وقوعه لأن ذلك من علم الغيب الذي لا يطلع الله عليه أحد من خلقه، بل يأتي على غفلة من الإنسان الذي سبق أن حذره الله تعالى من وقوعه، فيكون مجيء هذا اليوم على ضعف وغفلة من الإنسان وعلى علم وقوة من الله عز وجل، فمهما كان الإنسان على درجة كبيرة من العلم أو من المقربين إلى الله فإن ذلك الموعد يبقى خافيا عليه ويبقى من أسرار الغيب، فالرسول كان هو المصطفى من عباد الرحمن الذي اختاره الرحمن ليبلغ آخر رسالاته السماوية وبالرغم من ذلك فإنه كان خافيا عليه علم وقوع الساعة، قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِمَّا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِمَّا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} {388، فالعلم المطلق للأشياء وموعد وقوعها هي عند الله تعالى، لا يطلع عليه أحد من الخلق في الأرض أو في السماء.

<sup>387</sup> سبأ 29، 30.

<sup>388</sup> الأعراف 187.

المؤخر: هو الذي أصدر أمر الخلق مسبقا على من خلق، وآخر الحساب والعقاب والثواب عن الأعمال، وآخر الأفعال عن الأقوال، وآخر علم الغيب عن المعرفة على كل ما خلق.

والمؤخر هو المقدم بما له من مطلق الأمر في الخلق والإرادة والسيطرة الكاملة، وإذا كان الله تعالى مؤخرا فليس معنى ذلك أنه قد يترك عباده سدىً دون عقاب أو ثواب مهما طال الزمن أو قصر عليهم، فهو المؤخر وهو الرقيب مع تأخيره وهو المهيمن بحكمته في تأخير الأمور، فلا يترك عباده ولو طال الوقت دون محاسبة أو يهمل الخلق بسبب تأخير يوم الحساب.

قال سبحانه وتعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} {389}، وقال كذلك: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْتَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَحَقَّقَ فَنَسَوَى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} {390}، في الآية الكريمة السابقة يربط الله بين إقرار وقوع يوم الحساب وبين عملية الخلق والرباط هنا هو القدرة المطلقة لله، وهذا يلغي أي تبرير أو حجة للمذنب في حق الله وحق نفسه بتقصيره في الطاعات والعبادة، فقد أمهله الخالق ليعمل ويصلح لكنه آخر إصلاحه وخيره لوقت لا ينفع فيه الندم أو التحسر على ما فات من الوقت، وكذلك الكافر والجاحد كان لديه متسع من الوقت ليرجع إلى الله فيؤمن به ويعود لكن الكثير منهم سرقهم الوقت وشغلته الدنيا وغرهم الشيطان فلم يعرفوا الحق إلا في اليوم الذي لا فائدة تعود عليهم فيه، قال تعالى: {يَوْمَ يُثْمَرُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ

<sup>389</sup> إبراهيم 42.

<sup>390</sup> القيامة 36 40.

صَوَابًا ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاءَ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا  
قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ  
تُرَابًا} 391.

وقد يتساءل البعض: لماذا لم يكن من صفات الله تعالى المؤجل؟

الله عزّ وجلّ بتأخيره لبعض الأمور وفق حكمته المطلقة، يكون مؤخرًا ولا يكون مؤجلًا ولا لاغيا، لأنّ اللاغبي للذنب أو الخطأ تتجلى فيه صفة العفو الغفور، فالله بصفتيه يلغي لنا أخطاءنا ويبدلها حسنات إذا توافرت فيه الشروط التي تجعل هذا الإنسان ضمن من يشملهم الله تعالى بهاتين الصفتين وهي التوبة الصادقة والندم على ما ارتكبه من ذنب واتباع السيئة الحسنة.

وفي اسم المؤخر رسالة لكل الخلق لكنها تُفهم على طريقتين، قال تعالى: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَىٰ اللَّهِ مَتَابًا} 392، ليس من صفات الله المؤجل لأنّ التأجيل لا يتم إلا بمشاركة آخر فيه، فمثلا إذا كان مقررا أن ينعقد اجتماع بين رئيسك في العمل وبينك ويتم تأجيل هذا الموعد، فإن هذا التأجيل يحدث بالاتفاق بينك وبين ربّ العمل على إلغاء الموعد المحدد للاجتماع واستبداله بموعدٍ آخر متفقٍ عليه بينكما، ولهذا في التأجيل المشاركة والله واحد أحد لا شريك له، إما في التأخير أمر ذاتي يتعلق بالواحد. وما نسميه بالتأخير على المستوي البشري أو الخلقى، هو في حقيقته بأسباب المشاركة دائما، فعندما يتأخر التلميذ عن الوصول في الموعد المناسب للمدرسة فإنّ وراء ذلك أسباب منها المواصلات أو الحوادث أو الطبيب بأسباب المرض أو

<sup>391</sup> النبأ 38، 40.

<sup>392</sup> الفرقان 70، 71،

الوالدين بأسبأهما، أو الأخوة وفي جميعه بأسباب المشاركة، أما الله المؤخر لا شيء يؤخره عن أن يفعل ما يشاء أن يفعله متى ما شاء وكيفما يشاء.

وبما أن الله تعالى لا يشاركه أحد في إرادته وحكمه، إذ أنه فعّال لما أراد إذن هو المؤخر المطلق بتأخيره ما يشاء، قال تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 393، فقدرته على فعل أي شيء متى أراد هي التي تؤخر وتقدم ما تريد، فالتأخير للأمر لا يكون إلا ممن بيده الأمر كله أوله وآخره، قال تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} 394 أما من كُتِبَ عليه الأمر فلا يملك تقديم هذا الأمر أو ذلك أو تأخيره، لأنه لا يملك أمر (كن)، قال تعالى: {قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ} 395، فالمؤخر بالإضافة هو الذي يدرك الأهداف والغايات من وراء كل عمل يقدم عليه ويحدد لهذه الأعمال المواعيد المحددة التي تساعد في تحقيق أهدافها المرجوة.

وما نلاحظه أن ما وصلنا عن نبي الله إسحاق في القرآن الكريم لم يصل إلى درجة التفصيل كما هو الحال مع بعض الأنبياء مثل موسى وسليمان وعيسى صلى الله عليهم وسلّم، وإنما كانت إشارات منها:

أنه البشرى، قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا، جَعَلْنَا صَالِحِينَ} 396

موحى إليه: قال تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالتَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

---

393 المائدة 120.

394 النحل 40.

395 سبأ 30.

396 - الأنبياء 72.



وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ  
زُورًا {397

أنه غلام عليم، قال تعالى: {قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ  
عَلِيمٍ {398

أنه من الصالحين، قال تعالى: {وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ  
الصَّالِحِينَ {399 والصَّلاح هو منتهى الصفات الحميدة التي لا يشوب  
صاحبها فساد رأي أو اعتقاد لذلك مدح الله تعالى أنبياءه وعباده بهذه  
الصفة، وقد، جاء في تعريفها اللغوي أن: "الصَّلاح ضدُّ الفساد صلح  
يصلح ويصلح صلاحا وصلوحا، وهو صالح وصلح والجمع صلحاء  
وصلوح وصلح وصلحون، ورجل صالح في نفسه من قوم صلحاء ومصلح  
في أعماله وأموره وقد أصلحه الله وربما كنوا بالصالح عن الشيء الذي هو  
إلى الكثرة كقولهم هي مطرة صالحة، وهذا الشيء يصلح لك والإصلاح  
نقيض الإفساد والمصلحة الصَّلاح والمصلحة واحدة المصالح والاستصلاح  
نقيض الاستفساد وأصلح الشيء بعد فساده أقامه".

فالصَّلاح فضيلة يتحلى صاحبها ب:

التوحيد

الإيمان

العقيدة

الأخلاق

---

<sup>397</sup> البقرة 163.

<sup>398</sup> الحجر 53.

<sup>399</sup> الصفات 112.

وعليه جعل الله تعالى إسحاق عليهما، فكان العلم صفة ملازمة له  
لأنّها من تمام النبوة التي لا ينفك عنها العلم بحال من الأحوال، وهذا  
العلم هو علم نسبي إلى علم الله تعالى، ومع ذلك فعلم الأنبياء وما،  
جاؤوا به عن الله تعالى إنما هو أصل العلم ولا يمكن أن يُدرك بالعقل  
دفعة واحدة، وإنما يكتسب، فبعضه:

. بالنقل عن النبوة كونه وحيا أوحاه الله إليهم بواسطة، جبريل عليه

السلام

. أو كلام يكلم به رسوله بغير واسطة كما كلم موسى صلى الله عليه

وسلم

. أو يوحي الله بإذنه ما يشاء لمن يشاء

فعلم النبوة يختلف عن علم البشر كون الأنبياء صفوة الخلق فلا  
شك أنّ علمهم صفوة العلم، وإن كان الإنسان يمتلك علما في إدارة  
شؤونه الخاصة في الحياة ناتجا عن تجربته وتجارب أجيال سابقة عليه، فهو  
يتفاعل مع الحياة ومشكلاتها والكون وأسراره، ولكنّه بحاجة إلى من  
يرشده إلى طريق الحقّ ويبصّره سبل الهداية ونور اليقين وصولا إلى الفطرة  
السليمة التي فطر الله تعالى عليها خلقه.

فإسحاق كان العلم صفة من صفاته ومما خصه الله به في إبراز هذه  
الصفة دون غيرها من الصفات الكثيرة التي يتميز بها الأنبياء صلى الله  
عليهم وسلم، وقد أبرز الله تعالى أهم صفة من صفات النبوة في إسحاق  
صلى الله عليه وسلم، فهو لم يصفه بالعلم مثل (عالم) حتى يتبين الفرق بين  
العلم وبين من يحمل العلم أو، جزء منه، فوصفه بأنه عليم بعلمه وكليته  
ولكن الغاية ليست الشخص نفسه، وإنما الغاية التي يريد أن يؤكد عليها  
أن قضية العلم هي أساس القضايا دقيقتها وجليلها في مسألة النبوة، وكلما

كانت القضية عظيمة احتاجت إلى علم يوازيها في العظمة من أجل إنجازها، وهذا العلم الذي يجب أن يوازي القضايا ويكافئها لا بدّ أن له مصدر يستقى منه، وهذا المصدر هو العلم الذي مصدره الله تعالى لذلك وصفه بأنّه عليم بما علمناه من العلم وحيا أو تدريجا:

إذ أنّ العقل البشري لا يقوى وحده على إدراك سنن الكون كاملة

لا يقدر بوعيه المحدود على فهم خبايا هذا الكون من الوجود

إذا فهم الحياة فإنه يحتاج من يفهمه معنى ما بعد الحياة

إذا فهم علم الظاهر فهو، جاهل ليفهم علم الباطن

من يفهم من علم الوجود فقد لا يفهم علم الغيب

ولهذا، فقد وهب الله لإسحاق خيرا كثيرا وفضلا عظيما بما علّمه من علم النبوة الذي تنبثق عنه مناهج الهداية التي حملها الوحي إليه، ومن هذا المنهج تعلم علمه.

وعليه: فقد أمدّ الله سبحانه وتعالى إسحاق بمنهج قويم ومسلك أمين هو العلم الذي يدلّه على سبيل الهدى وطرق الرشاد وصولا إلى الفوز المبين بما رزقه من علم النبوة المتوارث حيث قال تعالى: {فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ} 400.

العلم يؤدّي إلى البينة

البينة تؤدّي إلى الإيمان

الإيمان يؤدّي إلى الاستقامة

الاستقامة هي الطريق السوي

الطريق السوي هو سنة الله لعباده

هذه السنة أو القوانين الإلهية تفتح أمام العقل آفاقا

فالعلم يعني الإيمان اليقيني بالسنن الربانية التي تحكم الكون كليا (في دائرة الغيب المطلق لله تعالى).

لقد وهب الله تعالى إسحاق لإبراهيم وهبا دون مقابل رحمة منه تعالى لأنه هو الوهاب الذي يعطي الهبة، وقد جاء في لسان العرب: "وهب في أسماء الله تعالى الوهاب، الهبة العطية الخالية عن الأعراض والأغراض، فإذا كثرت سمي صاحبها وهابا، وهو من أبنية المبالغة. غيره الوهاب من صفات الله المنعم على العباد والله تعالى الوهاب الوهاب وكل ما وهب لك من ولد وغيره فهو موهوب والوهوب الرجل الكثير الهبات، وهب لك الشيء يهبه وهبا ووهبا بالتحريك وهبة والاسم الموهب والموهبة بكسر الهاء فيهما ولا يقال وهبك، وأنه سمع أعرابيا يقول لآخر انطلق معي أهبك نبلا، ووهبت له هبة وموهبة ووهبا ووهبا إذا أعطيته، ووهب الله له الشيء فهو يهب هبة، وتواهب الناس بينهم وفي حديث الأحنف ولا التواهب فيما بينهم ضعة يعني أنهم لا يهبون مكرهين، ورجل واهب ووهاب ووهوب ووهابة أي كثير الهبة لأمواله والهاء للمبالغة، والموهوب الولد صفة غالبية وتواهب الناس وهب بعضهم لبعض والاستيهاب سؤال الهبة واتهب قبل الهبة واتهبت منك درهما افتعلت من الهبة والاتهاب قبول الهبة" 401.

ولذا فإنَّ الوهَّاب المطلق: هو الغلاب المطلق، الذي لا يقدر على مغالبتة أحد ولو اجتمع الثقلان بشأنه. فهو الغالب بهباته ألاَّ محدودة، وعطاياه المتنوعة، وحسناته المتعددة، وغفرانه للذنوب، وعفوه وتكفيره عن السيئات والخطايا. إنَّه الذي يهب الحكمة والحكم، والعلم والرزق،

401 - لسان العرب، ج 1، ص 803

وكلّ شيء لمن يشاء. ومع أنّه يعطي كلّ ذلك إلا أنّ البعض يكفر به  
ويُشرك.

قال تعالى: { رَبَّنَا لَا تُرْغِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ  
رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ } {402}. في هذه الآية الكريمة مطلب المؤمن من  
ربه لأنّ يُثبت قلبه على الإيمان ولا يحيد عنه، ومع أنّ هذه الآية سابقة  
على أيام الردة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنها إلا وكأنّها تحتويها  
حيث العلاقة بين ما تدل عليه وبين الذين زاغت قلوبهم بعد الإيمان من  
بعد موت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، كان هذا الدعاء في أفواه  
المؤمنين حتى لا تضعف النفوس وتدخلها الظنون، فانتشر بين المؤمنين  
هذا الدعاء لله الوهّاب الذي يهب الرحمة على من يشاء دون منّة ولا  
انتظار مقابل.

وإزاغة القلوب تعني: ميلها وحيادها عن الحقّ، فالبعض بعد موت  
الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ولُو وارتدّوا إلى ما كانوا عليه من  
شرك وكُفر، أي أنهم انحرفوا عن الطريق المستقيم وعادوا إلى الطريق  
المعوج. ولأنّه طريق معوج فهو في حاجة للإصلاح ممّا جعل أبوبكر  
يسلك نهج الإصلاح وتقويم الأمور حتى لا يعم الفساد وتعود الأحوال  
إلى ما كانت عليه من ظلمة وجهالة.

وفي قوله (وهب لنا من لدنك رحمة) تضرع دعائي غائي يأمل به  
المؤمن أن تعمّه الرحمة هبة من الله تعالى. وذلك لإيمان الداعي بأنّه تعالى  
هو واسع الرحمة مصداقا لقوله تعالى: { رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً  
وَعِلْمًا فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ } {403}.

<sup>402</sup> آل عمران، 8.

<sup>403</sup> غافر، 7.

فهب لنا، تعني: أمانحنا وارزقنا عطاء من غير حساب يا من ترزق من تشاء من غير حساب. ومن (لذلك، تعني) من عندك أي من مُلكك ورحمتك الواسعة التي تنعم بها على من تشاء من عبادك.

وقوله (إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) تأكيد على أَنَّهُ لَا وَهَّابَ غَيْرَهُ، أَي لَا مَعْطِي غَيْرَهُ بَدُونَ قَصْدٍ وَغَايَةٍ أَوْ مَنَّةٍ؛ وَتَدُلُّ عَلَى الرَّغْبَةِ الشَّدِيدَةِ فِي الدَّعَاءِ وَالِاتِّجَاءِ إِلَيْهِ وَتُؤَكِّدُ عَلَى عَدَمِ قَصْدِ الْغَيْرِ (إِنَّكَ أَنْتَ) وَلَا سِوَاكَ. فَأَنْتَ الْوَهَّابُ: وَاسِعُ الْعَطَاءِ وَالْفَضْلِ لِمَنْ يَدْرِي وَلِمَنْ لَا يَدْرِي سُبْحَانَكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْوَهَّابُ.

عن أم سَلَمَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ كَانَ يَقُولُ: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ثمَّ قرأ الآية" 404 (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ).

والموهوب من العباد هو الذي له صفات وملكات متنوعة ويجيد أو يحسن التصرف فيها، ممَّا يجعله متميزا على أقرانه أو متميزا في جيله. يدرك معطيات الأمر ويحلل متغيراته ويستنتج الصواب في الزمن الصواب، ويعمل بمهاراته المتنوعة على إظهاره من فكرة إلى موضوع ليشغل به حيزا ويملأ به فراغا حتى يستمده الآخرون من بعده.

وبما أَنَّهُ مَوْهُوبٌ، إِذْنُ فَمَنْ وَرَّائِهِ وَهَّابٌ، وَإِلَّا مِنْ أَيْنَ جَاءَتْهُ الْمَوَاهِبُ، وَلِذَا فَالْوَهَّابُ مَصْدَرُ الْهَيْبَةِ الَّتِي جَاءَتْ فِي اللُّغَةِ مِنَ الْمَصْدَرِ يَهَبُ. وَلِأَنَّ الْوَهَّابَ فَهُوَ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ مَا يَشَاءُ، مِمَّا يَجْعَلُهُ هُوَ الْآخِرُ يَهَبُ مِمَّا وَهَبَ إِلَيْهِ الْوَهَّابُ الْأَعْظَمُ. وَلِهَذَا فَالْإِيهَابُ صِفَةٌ حَسَنَةٌ اسْتَمَدَتْ مِنَ الْوَهَّابِ الْمَطْلُوقِ حَتَّى أَصْبَحَتْ قِيَمَةٌ بَيْنَ الْمَسْتَخْلِفِينَ مِنَ الْعِبَادِ فِي دَائِرَةِ الْمُمْكِنِ غَيْرِ الْمَتَوَقَّعِ.

---

<sup>404</sup> سنن الترمذي، ج 13، ص 21..

قال تعالى: {أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ} 405 في هذه الآية جاءت (أم) استغرابية استفهامية لأجل الرد استهزاء على ما يقوله المشركون من كباثر ويفعلون، فما هي حجة هؤلاء فيما يقولون على الله ورسوله وأيضا فيما يقولونه عن آلهتهم التي اتخذوها أربابا من دون الله تعالى وهي من تراب ولا روح فيها، حيث لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تحس ولا تفرح ولا تغضب؟

ولهذا فإنَّ إسحاق نبي بشري حيث أنَّ الملائكة الكرام بشرت به إبراهيم قبل أن يخلقه الله تعالى بأنَّ جعله نبيا، قال تعالى: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ} 406 فهو نبي بشري.

وقد منَّ الله تعالى على إبراهيم بأن جعل نبي الله إسحاق هبة لإبراهيم حيث قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} 407.

إنَّ من تكريم الله تعالى لإبراهيم فضلا عن اصطفائه ورسالته ونبوته، فقد جعل في ذريته النبوة والكتاب، فكان وهب الله تعالى أن رزقه إسحاق ليكون نبيا وهبا لإبراهيم قال تعالى: {فَلَمَّا اعْتَزَلْتُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا} 408 فقد جعل إسحاق نبيا، ثم من بعد ذلك استحقَّ الإنباء فكان نبيا، والنبي موحى إليه بما يشاء الله لعباده من التوحيد والصَّلاح والخير، ولذا؛ فالنبي ينبي بما نُبيء به من عند الله تعالى.

---

405 ص، 9، 10.

406 - الصافات 112

407 - العنكبوت 27

408 - مريم 49

إسحاق نبي من أنبياء الله تعالى بدلالة النصوص القرآنية، وهو وإن كان نبيا، فإتّما هو مبعوث بشريعة أبيه إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأننا نجد يوسف بن يعقوب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجمعين يقول: {وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} 409.

وهذا يدلّ على أنه ليس بالضرورة أن يكون لكلّ نبي كتاب ورسالة، وإتّما يبعث أنبياء كثيرون برسالة واحدة، فقد أنزل الله تعالى على إبراهيم الصحف التي بلغها إلى الناس وقد عمل على تبليغ هذه الصحف وملة إبراهيم جميع أبنائه من إسحاق إلى يوسف، حتى بعث الله تعالى موسى وأنزل معه التوراة.

ثمّ إنّ الرسالة السماوية وإن تعددت كتبها وصحفها، فإنّ جوهرها وحقيقتها واحدة لأنّها من الواحد الأحد، ولذلك جمع الله تعالى ما أنزله على أنبيائه ورسله باسم واحد لهذه الدلالة حيث قال تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ} 410 أنّ الله ذكر بعث النبيين وأنهم جاءوا بالبشارة والندارة وأنزل معهم الكتاب، وطالما أنهم يحملون التبشير والإنذار والكتاب، فهم مكلفون بالتبليغ، والتبليغ لا يكون إلا من رسول أو نبي، وإسحاق بلّغ أبنائه وقومه بما أمر به الله تعالى من صحف إبراهيم وملة إبراهيم.

---

409 - يوسف 38

410 - البقرة 213



إنّ الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين يأتون بأشياء من أمور التفصيل في الحلال والحرام، أو يقودون الناس ببلاغ ووحى من الله سبحانه وتعالى.

وعلى هذا فالذين فرقوا بين النبي والرسول يقولون: إن الرسول هو من جاء بشرع جديد إلى قوم كافرين، والنبي هو من بُعث بشريعة رسول قبله ليحدثها أو معه ليلغها، ويحيي معالمها، فهذا مأمور بالبلاغ الجديد المستأنف لقوم كفار، وهذا مأمور بالبلاغ للمؤمنين الذين ينتمون إلى شريعة سابقة، ولكنهم غيروا وبدلوا وضلوا وانحرفوا.

إنّ الله تعالى بعث الأنبياء لكي يكونوا حملة الخير والصّلاح للنّاس، ولما كان الإنسان بطبعه يرى الخير والصّلاح من زاوية المنفعة والفائدة التي تعود عليه وما زكّب به من شهوات النفس وميلوها وهواها فإنّ الخير والصّلاح ينظر إليه بشكلٍ جزئيّ يضر بالآخرين، لذلك كانت الأنبياء هي الوسيلة التي تضع النّاس على المحجّة البيضاء والنبي دليل البشر إلى المعرفة الله تعالى ومراده تعالى للوصول إلى السعادة والخير، فالنبي هو الواسطة الذي يبعثه الله تعالى إلى عباده.

إنّ الإيمان بالنبوة هو عملية تواصل بين الله تعالى وبين المجتمع الإنساني عن طريق الأنبياء، وذلك من خصائص الدين الحقّ، والنبي هو الإنسان الذي يختاره الله ليقوم بأداء رسالة معينة، وقد وجدت مذاهب كثيرة تؤمن بالله وتنكر النبوات، وتزعم أنّه لا حاجة لوجود النبي؛ لأنّ ما أتى به الأنبياء موافق للعقل، ففي العقل غنى عنه، أو مخالف له فلا حاجة لنا به، والعقل عندهم طريق الاستدلال.

غير أنّ الذي نردّ به على هؤلاء أنّنا لا نستطيع بالمنطق التجريبي والرياضي التوصل إلى حقائق ما وراء المادة والغيبيات، وبذلك يكون العقل قاصرا عن أداء ما يرجون منه في هذا الجانب، ولذا وجب بعث

الأنبياء ضرورة للإخبار بما يغيب عن العقل أو أنّ العقل قاصر على إدراكه بنفسه، ولذا فالعلم الصحيح من هذا الجانب في ذات الله وما يكون بعد الموت من أوصاف الآخرة والحساب ونيل الجزاء من ثواب وعقاب، وكلّ ما يتعلق بعالم الغيب، فلا يستطيع العقل إدراكه بفردّه لأنّ ذلك لا يعرف إلا عن طريق الأنبياء.

إنّ قضية النبوة لا يمكن أن يحلّ محلها العقل المنطقي أو الفلسفي، ولا يستطيع هذا العقل مهما أوتي من ذكاء وحجّة أن يكون بديلاً أو يأتي بديل عن الخطاب الديني، لأنّه إذا حكّمنا معايير العقل النظري في الخطاب الديني فلا مناص من هذا التناقض بين الاثنين، لأنّ عالم الغيب والإلهيات التي يتحدث عنها الدين، لا يمكن أن تختبر على صعيد العقل الفلسفي والمنطق الوضعي، ومن هنا وجب الأخذ بضرورة الفصل والتمييز بين الخطابين، (الخطاب الديني والخطاب العقلي المحض). ومع الاعتراف بشرعية كلّ من الخطابين في مناقشة القضايا، وجب أيضاً ضرورة ألا تحاكم أيّ قضية إلا في صورة معايير النسق الذي تنتمي إليه. ومن ثمّ فالإيمان بالغيب قضية صادقة على صعيد العقل النقلي الذي أتى عن طريق النبوة، ولا يمكن أن تنطبق معايير العقل الفلسفي على هذه القضايا لقصوره تجاهها.

والنبوة ليست محصورة بنبي محدد، وإنما هي ظاهرة موجودة عند جميع الأقاليم والأمم قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} 411.

والنبوة تثبت بالمعجزة، وهناك شهادات لا يمكن الطعن فيها على وجود هذه المعجزات، ومن ثمّ لا مهرب لنا من قبولها. فإذا سلمنا بذلك، فتلك هي بداية شرعية الخطاب الديني الذي قُبل على أساسه. فإذا

سلمنا بشرعية هذا الخطاب فعلينا فيما بعد ألا نحكمه إلا في ضوء المعايير التي يقدمها.

فالنبوة صفة جليلة قائمة على العلم والحكمة والمعرفة، ولا يمنحها الله تعالى إلا لأصفيائه من خلقه ممن تميزوا بنقاء الفطرة، وصفاء السريرة، ونفاذ البصيرة مع العناية الإلهية به والفضل الرباني عليه كون النبي من صفوة خلق الله تعالى.

ولذا، نجد يعقوب بن إسحاق بدلالة النبوة أنه يعلم من الله تعالى ما لا يعلمه غيره ويؤكد على ذلك في أكثر من موضع، فقد قال: {قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 412.

ولذا؛ فقد خصّ الله تعالى أنبياءه وعباده المقربون بهذا الوصف فقال في حقّ عيسى صلى الله عليه وسلّم: {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ} 413.

إنّ عيسى صلى الله عليه وسلّم:

كلمة من الله تعالى

وجيهاً في الدنيا والآخرة

من المقربين عند الله تعالى

مكلم للناس في المهدي وكهلاً

فكلّ واحدة من هذه الصفات من العظمة والشرف بمكان، ومع ذلك فقد ختم الكلام بما وصفه به أن جعله من الصالحين وعليه:

---

412 - يوسف 86

413 - آل عمران 45-46

فإنه لا رتبة أعظم من كون المرء صالحا لأنه لا يكون كذلك إلا ويكون في جميع الأفعال من الأوامر والنواهي مواظبا على:

النهج الأصح

الطريق الحق

السبيل الرشيد

وهذا النهج هو صلاح الدين والدنيا لأنه يتناول جميع أفعال الجوارح والقلوب، ومن الملاحظ في كثير من الآيات التي تتكلم عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، تذكر بعض التفاصيل عن صفاتهم ثم يردف ذلك بالصلاح الذي يدل على أرفع الدرجات.

وعليه فإن الله تبارك وتعالى، بارك على إسحاق وجعله ذا بركة، والبركة زيادة الخير في مختلف وجوهه، وقد جعلت البركة فيه يجعل الله تعالى، إذ قدر أن يكون مباركا ومثابا ومحصلا على خير فيما كلفه الله به من النبوة، والمبارك من الله تعالى، تتعدى بركته إلى من حوله ومن جاوره أو جلس معه.

إن البركة والمبارك عند الله بمكان، لما يجمع المبارك من خصال الخير والفضائل، ومن هنا فقد وصف الله تعالى القرآن الكريم بهذا الوصف حيث قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ 414.

فمن نعمة هذا الوصف أو من يتصف بها، أن المتصف بالبركة، تفيض صفته على الآخرين، ولذا فالقرآن الكريم من البركة أن الذي ينظر في المصحف له أجر النظر من بركة القرآن الكريم.

وإسحاق لما كان مباركا عليه من الله تعالى، فالبركة تغمره في جميع أحواله وأعماله لأن المبارك من باركه الله:

. حيث جعله ذا بركة.

. بارك فيه جعل البركة معه.

والبركة هي الخير واليمن، وأي بركة أعظم من النبوة التي بارك الله بها على إسحاق وجعله رحمة للناس يدعوهم إلى التوحيد والفضائل ومكارم الأخلاق.

ثم إن الذي تحلّ البركة فيه من الله سبحانه وتعالى تكون بركته لغيره عظيمة، فقد قال الله تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ} 415.

لقد وصف الله تعالى البيت الحرام بأنه مبارك، فمن بركته وشرفه أن جعله الله تعالى قبلة للمسلمين ومتعبدا للناس، وأودع الله سبحانه وتعالى البركة فيه، وهو مكان هداية الناس بالحجّ والاتجاه إليه في الصلاة.

ومن بركته أن جعل الله حلول الناس فيه سببا للتوبة والمغفرة، ولهذا إذا نزل إنسان يحمل وزن الدنيا من الخطايا وتاب إلى الله تعالى، عاد كيوم ولدته أمه وانفتح قلبه للإيمان والحكمة بما ينعكس عليه من بركته.

والبركة للإنسان أو المكان إذا جعلها الله له تكون:

. بركة عليه.

. وبركة فيه.

. وبركة له.

. وبركة حوله.

والبركة كثرة الخير ونماؤه طالما أنه باركه الله، قال تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} 416.

فالبركة من الله تعالى هي الخير والنماء في الأمور كلها، ولكن الوصف بها له متعلقات من المعاني التي تؤدي غرضها منها:

. المبارك: إنما يتعلق به ما كانت البركة حاصلة منه للغير في زمانه أو مكانه، قال تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} 417.

. وأما باركه: فيتعلق به ما كانت البركة صفة له قال تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ} 418.  
. بارك عليه: من جعل البركة متمكنة منه، قال تعالى: {وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ} 419.

### النبي يعقوب:

أنّ البحث في قصة يعقوب عليه الصلاة والسلام هي مثير من عدة جوانب، ذلك لأنّ قصص الأنبياء هي أحسن القصص {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ} 420، ومن هنا؛

---

416 - النمل 8

417 - ص 29

418 - آل عمران 96

419 - الصافات 113

420 يوسف 3.

فأحسن القصص تستوجب البحث في نوع الحسن وطبيعته وأسلوبه ومضامينه.

ونعتقد أنّ وصف الله عزّ وجلّ لأحسن القصص، يوجب أن يكون البحث منصبًا بكلّ موضوعية على إظهار الحقائق، ولذلك فلا يمكن للهوى أن يكون مآثرًا على ما نبذله من جهد موضوعي، الذي لا يمكن أن يتأتى بالوصف والثناء، وإنما بالتحليل والبحث المعمّق.

ومن ثمّ، نقول: إنّ قراءة أحسن القصص أثارت فينا الكثير من التساؤلات التي دفعتنا بقوّتها تجاه البحث فيها، وخاصةً تجاه ذلك المهمّ الذي فيه ما فيه من المعاني والدلائل الدالة على أهمية التمسك بالفضائل الخيرة والقيم الحميدة.

وفي هذا المجال لا بدّ من التنويه إلى أنّ البحث في قصص الأنبياء يتأثر بشكلٍ من الإشكال بما يسمى الإسرائيليّات تلك الإخبار التي وردت فيها مغالطات كبيرة بحقّ أنبياء الله ورسله، لذلك ومن هذا المنطلق آثرنا ترك كلّ هذه الأخبار واعتمدنا النصّ القرآني والسنة الشريفة مصدرًا أساسًا في كلّ مراحل البحث ومستوياته، وهذا كما نعتقد أقوى وأوثق للبحث.

الني يعقوب عليه الصلّاة والسّلام هو الأب والني الأسبق والمعاصر لرسالة يوسف صلّى الله عليه وسلّم، وهو نبي لابن ومعلمه العقيدة الصحيحة ومنبئه باجتماعه الله له، ومصدرًا من مصادر القيم والسلوكيات عند يوسف صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ هو من بعد ذلك المصدّق برسالة يوسف صلّى الله عليه وسلّم، والشاهد على طاعة إخوته له رسولا نبيًا.

وتحدّثنا بالتفصيل المطلوب والموجب عن سيدنا يعقوب، وركزنا الحديث على التعريف به وعلى صفاته، بينما تركنا قصته تنساب في أثناء

الحديث عن قصة سيدنا يوسف وكما أراد الله عزّ وجلّ، أن تكون القصة لسيدنا يوسف وليست لسيدنا يعقوب، لأنّ المولى عزّ وجلّ أراد أن تكون قصة يوسف درسا من الدروس العظيمة التي يستقى منها كثير العبر.

نقول: إنّ هذا المدخل إنّما هو باب الدخول إلى مستويات التحليل فيما بعد ورابطاً أساسياً للأحكام التي ستصدر عن التحليلات المتعددة أثناء البحث، فهي بمثابة الثوابت التي يتركز عليها هذا المؤلف، ومن خلالها أظهرنا صفات يعقوب ما كان يمر على البعض دون وقفة مع دلالة الصفة ومضامينها.

وبعد ذلك أخذنا الاهتمام إلى ميادين القصة الأخرى، فتحدثنا عن تحليل العلاقات الاجتماعية والعقدية ليعقوب عليه الصلوة والسلام مع يوسف وأخوته الكرام.

وقد مدح الله تعالى يعقوب عليه السلام فقال: {وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 421، وذلك لأنّه عمل الأسباب واجتهد في توفيتها وهو مقتضى الحكمة، ثم ردّ الأمر كلّ الله تعالى واستسلم إليه وهو حقيقة التوحيد فقال: {وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} 422، وهنا أثنى الله تعالى عليه من أجل جمعه بين هاتين الحالتين العظيمتين 423 ولذا فقوله (وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ) هو علم من علم العليم الذي يعلم بالشيء وحاله وما يترتب عليه والأسرار التي من ورائه إنّ مصدر العلم الذي تستنير به العقول وتطمئن به القلوب التي في الصدور.

---

421 يوسف 68.

422 يوسف 67.

423 الإيمان بالقدر، ص 224، بتقييم الشاملة آليا.



ولأنّ الله هو العالم المطلق فلا تخفي عليه خافية، أمّا العلماء في دائرة النسبية كما هو حال يعقوب عليه السّلام فهم في كثير من الأحيان لا يعلمون إلّا بما شاء الله. ولذا فالعالم يؤتي العلم ولم يؤت إليه علما، والمؤمنون هم الذين يعلمون أنّ الله تعالى يعلم السرّ والجهر، قال تعالى: {أُولَٰئِكَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} 424.

العالم هو الذي يعلم بالشيء وما يترتب عليه، وغير العالم لا يعلم عن ذلك شيئا، فالذين كتب عليهم القتال لا يرون في القتال إلا كرها لما يسببه من كوارث في الحياة الدنيا، ولكن لو نظروا إلى ما سياترّب عليه لمن يقاتل في سبيل الله والدفاع عن الشرف والكرامة وعن المستضعفين من الرّجال والنساء والولدان لعرفوا أنّ القتال على الحقّ خيرا كثيرا، ولكن الذين لا يعلمون بالمرتّب على القتال في سبيل إحقاق الحقّ قد يتوقفون عند الكره الذي كان سببه القتال، قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} 425.

إذا كلّما كان الإنسان في دائرة الممكن عالما كما كان يعقوب عالما كان على بيّنة، وكلّما كان غير عالم بما يجري كان في حاجة لمن يعلم ليستنير بعلمه في نهج العمل وتحقيق السّلام، ولذا لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون قال تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} 426.

وعلى المستوى البشري لو تساءلنا:

---

424 البقرة 77.

425 البقرة 216.

426 الزمر 9.

هل يمكن لنا أن نعرف المفسد من المصلح قبل أن تتاح أمامهم  
وأمامنا فرص للعمل التي تمكّننا من إصدار الحكم بموضوعية؟

بطبيعة الحال على المستوى البشري لا يمكن.

إذا هذه الإجابة مقصورة على البشر، وذلك لأنّ الله العالم يعلم  
بالإفساد والمفسدين قبل وقوع أفعال الفساد وهكذا يعلم بالمصلح وحاله  
قبل وقوع فعل الإصلاح مصداقا لقوله تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ  
الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} 427.

وعليه فالعالم الحقّ الذي يجب أن يوصف بالعالم هو من يعلم  
بالشيء قبل وقوعه سواء أكان ذلك الشيء فعل إصلاحيا أم أكان فعل  
إفساديا.

ومع أنّ الأشياء موجودة ومبررات ظهورها وتنوعها موجودة إلا أنّ  
العلم بما قبل وقوعها وقبل امتداد مؤشراتهما مجهولا بالنسبة للبشر، ولكن  
الأمر للعالم تعالى معلوما مصداقا لقوله تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا  
تَعْلَمُونَ} 428. فهوى سبحانه وتعالى يعلم أمر السماء وأمر الأرض  
وأمر الحياة وأمر الموت وأمر البعث وأمر الحساب وأمر التواب والعقاب  
والجنة والنار وهو بكل شيء عليم.

نفس الإنسان تركيبها معقد فهي تتلوّن وتتعدد من حالة إلى أخرى  
وفقا للموضوع والظرف النفسي والزماني والمكاني، ولأنّ ما في النفس يعد  
سرا من الأسرار الخلقية إلا أنّ النفس وما تُخْفِيهِ اللهُ يعلمه، ولأنّ الله العالم  
بأسرار الأنفس فهو لا شيئا مخفيا عنه ولهذا ينبغي على الإنسان أن يعلم  
بهذا العلم (علم العالم بما تكنه الأنفس) فهو إذا علم بأنّ العالم يعلم حاله

---

427 البقرة 220.

428 البقرة 238.

فلا داعي لأن يجهل أمر علم العالم بحاله (ما في نفسه) ليكون صادقا وإلا سينكشف أمره ولهذا العالم يحذرنا مصداقا لقوله تعالى: {وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ} 429، ومع أنّ الله يعلم ما في النفس فهو عفورا رحيمًا لمن استغفره وتاب إليه واحداً أحداً لا شريك له إنه العالم ما في أنفسنا، ومن لم يحذر الله تعالى سيجد نفسه من النادمين الذين هم على مستويين:

المستوى الأوّل: غروري إلى الحياة الآخرة: الذين غرّتهم الحياة الدنيا بما فيها من مغريات وملذات في مقابل إشباع الشهوة دون اعتبار للنواهي والأوامر الربّانية، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِغُضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ يَا مَعْشَرَ الجِنَّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَعَرَّهْمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ} 430.

بدون شكّ للظلم جنود وللعدل جنود ولهذا يولي كلّ بعض بعضه الظالم يتولى الظالمين (المفسدين في الأرض) والعاقل يتولى المصلحين فيها، ولهذا لا خير من ظالم يتولى ظالمين (المفسدين) فالظالمون بما قدمت أيديهم يجازون في الدارين.

النبي يعقوب عليه السّلام مهدي هادٍ، وهكذا الأنبياء والمرسلين على الهدى لأنهم مكلفون من الهادي عزّ وجلّ، والهادي سبحانه هو الذي بصّر عباده وعرفهم طريق معرفته حتى أقرّوا برّبوبيّته وهدى كلّ مخلوق إلى ما لا بدّ له منه في بقائه ودوام وجوده، وهو الذي أرسل الرّسل للهداية، فهدى كلّ نبي أو رسول إنما هو هدى الله، ومن هنا كان يعقوب عليه الصّلاة والسّلام مهدياً هادياً مصداقا لقوله تعالى: {وَوَهَبْنَا

<sup>429</sup> البقرة 235.

<sup>430</sup> الأنعام 129، 130.

لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كَلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ  
وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي  
الْمُحْسِنِينَ { 431.

ويعقوب مهدي في:

العقيدة.

القول.

السلوك.

وقوله: كَلًّا هَدَيْنَا يعني: أي كلّ هؤلاء هديناهم يعني إبراهيم  
وإسحاق ويعقوب، وفائدة ذكر هديهما التّنويه بإسحاق ويعقوب، وأنهما  
نبيان نالا هدى الله كهدييه إبراهيم.

وهدى يعقوب لم يكن لذاته بمعنى: أنّ الله هداه ليكون مهديا، بل  
هداه ليكون هاديا لنفسه ولغيره، وإلا ما فائدة الهدى إذ لم يظهر بعد  
العقيدة في السلوك ليكون أسوة.

هنا نتساءل:

هل يكون الهدى بالتبليغ فقط؟

أم يكون بوسائل أخرى؟

للإجابة عن هذه التساؤل نقف مع أنواع الهداية وهي:

1- هداية دلالة.

بمعنى: أنّ الله الهادي قد وضع طرق الهداية لجميع الخلق ليهدتوا  
ووهبهم من الوسائل التي تعينهم على تقبل الهداية من عقل يرتبط بين

الأشياء قياسا ومنطقا واستدلالا ونتيجة واقتناعا وسلوكا واقتداء وتأثيرا وتأثرا، فمن قبل وعمل استحقّ النوع الثاني من الهداية وهو هداية المعونة.

2 - هداية معونة: بأن يعينه الله ويثبته على الهداية.

3 - هداية تسديد: للمهتدي الذي يريد أن ينشر الهدى الصحيح

- هداية تأييد: للأنبياء بالمعجزات والوحي وليس لسواهم.

5- هداية الإئتساء: بمعنى: أنّ يأتسي الإنسان بغيره من المهتدين

فيصبح مهتديا.

ويعقوب عليه الصّلاة والسّلام كان مهتديا بكلّ هذه الآن واع من

الهداية لأنّه من المصطفين الأخيار الذين اصطفاهم الله عزّ وجلّ وهداهم.

هنا يأتي التساؤل:

فبعد أن عرفنا بهداية يعقوب، فكيف يكون هاديا بدوره؟

هذا التساؤل الإجابة عليه تستدعي عدة أمور منها:

نبوة يعقوب.

أسوة يعقوب.

بيت يعقوب.

سلوك يعقوب.

نقول: إنّ الأنبياء والرّسل بما جاؤوا به من الحقّ المبين لا شك أنّهم

هداة للحقّ، وهذا وصفهم عند أصحاب اليقين من المؤمنين، وكذلك

عند العقلاء من غيرهم، فمن لا ينظر إلى هؤلاء على أنّهم أنبياء الله

ورسله صلوات الله وسلامه عليهم ليس له بد إلا أنّ ينظر إلى سلوك الإصلاح فيسميهم مصلحين والمصلح هاد.

ولو نظرنا في أسوة يعقوب وبيته يظهر لنا أنّ أسوته كان إبراهيم وإسحاق عليهما الصلّاة والسّلام وهما هداة مهتدون.

أمّا سلوك يعقوب المتمثل في سلوكه مع أبناء عقوه بما يكره من مخالفة الحقّ فيدل ولا شك دلالة واضحة على أنّ يعقوب هاد مهتدٍ.

وعليه فإنّ يعقوب عليه السّلام كان هاديا بهداية الله الهادي الذي استمد صفة الهداية منه، والهادي هو الذي يعلم بالمطلق ما لم يعلمه من يُهدى إلى ما يُهدى إليه، ويعلم بصلاحه قبل بلوغه منه، وبعد الهداية إليه وبلوغه تكون الهداية حقّ بالفعل الحقّ بالقوّة والقدرة الحقّ.

الهادي هو مغير الأحوال من حال إلى حال أفضل، وهو على كل شيء قدير، والهادي هو الخالق الذي خلق المهتدين، ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾<sup>432</sup> وهو منزل نصوص وحكم وكلم الهداية إليهم حتى لا يضلون وإن ضل بعضهم فإن الهداية من ورائه تلاحقه بالفعل وتسابقه بالقول حتى بلوغها ومن ضل بعد ذلك كان من الضالين.

ولأن الهادي صفته الكمال، والمخلوق صفته النقص، فالمنقوص دائما في حاجة للكمال الذي يهديه إلى ما يجب.

وهو الله الهادي إلى سواء السبيل، (ليس كمثلته شيء وهو السميع البصير)، وليس كهديه هدي، فهو المنزه عن المثلية في الذات والأفعال والصفات.

---

<sup>432</sup> الإسراء 97.

والهادي من أسماء الله عزّ وجلّ قال: ﴿قُلْ إِنْ هُدَى اللَّهُ هُوَ  
الهُدَى﴾ {433، أي الصِّراط الذي دَعَا إليه هو طَرِيقُ الحَقِّ وقوله تعالى:  
﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ {434، أي إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نُبَيِّنَ طَرِيقَ الهُدَى من طَرِيقِ  
الضَّلَالِ.

وجاء في كتب اللغة إن الهادي سبحانه هو الذي بَصَّرَ عِبَادَهُ  
وعرَّفَهُمْ طَرِيقَ معرفته حتى أَفْرُؤُوا برَبِّوَيْتِهِ وهَدَى كل مخلوق إلى ما لا بدّ له  
منه في بَقَائِهِ ودَوَامِ وجُودِهِ، وهذا لأن هداية كل مخلوق لبقائه ولدوام  
وجوده، وهذا هو المعنى الذي يدور عليه بحثنا في أسماء الله الحسنى ودور  
الخليفة المتخلق بأسمائه، لأن كل ما في ملك الله عبيد له كرها وطوعا،  
وعليه فإن الهادي سبحانه وتعالى تكرم وتفضل فهدانا إلى الصراط  
المستقيم، وهو سبحانه وتعالى فعل ذلك جودا وكرما منه، ومن استجاب  
لهدائته فقد عرف طريق البقاء الابدي، وضمن لنفسه دوام الوجود في  
جَنَّةِ الخلد هداية من الله الهادي.

والله خلق خلقا من خلقه جبلهم على الطاعة، فهداية هؤلاء هداية  
ذاتية لا يغفلون عن ذكر الله وينفذون ما أمرهم دون تقصير، قال تعالى:  
﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ  
الْحَكِيمِ﴾ {435، فيسبح لله كلّ ما في السماوات السبع، وكل ما في  
الأرضين من خلقه، ويعظمونه طوعاً وكرهاً، فهو (الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ) الذي  
له ملك الدنيا والآخرة وسلطانهما، النافذ أمره في السماوات والأرض وما  
فيهما، القدوس: وهو الطاهر من كلّ ما يضيف إليه المشركون به  
ويصفونه به ما ليس من صفاته (الْعَزِيزِ) الشديد في انتقامه من أعدائه

---

433 البقرة 120.

434 الليل 12.

435 الجمعة، 1

(الحكيم) في تديره لأمر خلقه فيما هو أعلم به من مصالحهم، وهنا تكون الهداية من الهادي المطلق للهادي بالإضافة.

الهادي هو الذي أرسل الرُّسُل للهداية، ولكن أهل الضلال استحبوا العمى على الهدى. قال الله تعالى: {فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} 436 وحب العمى على الهدى انصراف بالكلية عن طريق الرشاد إلى طريق الفساد لا محالة ومن طريق الخلافة إلى طريق الغواية، ومن ارتضى هذا المسلك أوجب على نفسه الضلال، وابتعد عن نعمة الله التي أوجبها على نفسه في هداية خلقه إلى ما فيه خيرهم وبقائهم.

وللهداية أربعة أنواع:

1- هداية دلالة.

2- هداية معونة.

3- هداية تسديد.

4- هداية تأييد.

وعليه فإنَّ النبي يعقوب لا يعرف اليأس ولا القنوط؛ فالقنوط واليأس متقاربان، وكلاهما فيه استبعادٌ لرحمة الله عزَّ وجلَّ وسوءُ ظنٍّ بالله تعالى، قال الله سبحانه وتعالى على لسانه نبيه يعقوب عليه السلام: {إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} 437، أمَّا المؤمنون فلا ييأسون من روح الله مهما بلغ بهم الكرب والشدة؛ لعلمهم بالله عزَّ وجلَّ وأسمائه وصفاته، وقُربَ فرجه، وقُربَ رحمته من عباده؛ فهم لا ييأسون من رَوْحِ الله مهما اشتدت بهم الخطوب، وضاق بهم الحال. بل كلما اشتد الخطب عظم رجاؤهم بالله. وموافقهم في هذا الأمر معروفة، كموقف يعقوب لَمَّا

<sup>436</sup> فصلت، 17

<sup>437</sup> يوسف 87.



فقد أولاده الثلاثة، وموقف أيوب عليه السلام الذي بلغ منه الضُّرُّ مبلغاً شديداً، لم ييأسوا من رحمة الله. وموقف محمد عليه الصلاة والسلام كما أُخْرِجَ هو وصاحبه أبو بكر يوم الهجرة واختفيا في الغار، وجاء المشركون في طلبهما، ووقفوا على الغار والرَّسول عليه الصلاة والسلام وأبو بكر تحت أقدامهم، يقول أبو بكر: يا رسول الله، لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لأبصرنا، قال: "يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ فأعمى الله أبصارهم ولم يروا رسول الله وصاحبه، كما قال تعالى {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} 438 ولما خرج إلى الطائف يدعوهم إلى الله، وردوا عليه رداً قبيحاً، وأغروا عبيدهم وسفاهم برميهِ بالحجارة، هو ومولاه زيد بن حارثة؛ فرجع وأهل مكة كلهم أعداء له؛ فجاء من الطائف وقد قابلوه أسوأ مقابلة، وأهل مكة -أيضاً- خرج منهم لشدة أذاهم، فقال له مولاه زيد بن حارثة: يا رسول الله، كيف ترجع إليهم وهم قد أخرجوك، قال: "يا زيد، إن الله جاعلٌ لِمَا تَرَى فِرْجًا وَمُخْرَجًا رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَبْدُ الرَّزَّاقِ بْنِ هَمَّامِ الصَّنَعَانِيِّ، الْإِمَامُ الْجَلِيلُ، شَيْخُ الْعُلَمَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ، رَوَى عَنْهُ: الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْهٍ، وَغَيْرُهُمَا مِنْ كِبَارِ الْأُئِمَّةِ" 439.

وهذا نبي الله يعقوب عليه السلام، لما أشتد به الأمر، وتأزَّم الحال بفراق بنيه؛ عظم رجاءه بالله وطمعه برحمته، وقال لبنيه الحاضرين عنده: {يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا

438 التوبة 40.

439 إغاثة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، 2 ص 76.

يَيْئَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ {440}. وقال: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} {441}.

وفي هذا الشأن قال تعالى: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ} {442}.

وقد عدّ النبي عليه الصلّاة والسّلام اليأس من روح الله من الكبائر؛ فعن ابن عباس - رضي الله عنهما، أنّ رسول الله عليه الصلّاة والسّلام سئل عن الكبائر؟ فقال: "الإشراك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله". وعن ابن مسعود؛ قال: "أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله؛ لأنّ القنوط من رحمة الله سوء ظن بالله، وجهل بسعة رحمته ومغفرته، والأمن من مكر الله جهل بالله وبقدرته وثقة بالنفس، وإعجاب بها، وفي ذلك تنبيه على أن يكون العبد دائما بين الخوف والرّجاء، فإذا خاف؛ فلا يقنط ولا ييأس، بل يرجو رحمة الله، وإذا رجا؛ فلا يتمادى به الرّجاء حتى يأمن العقوبة. وكان بعض السلف يستحبون للعبد أن يقوي في حال الصحة جانب الخوف، وفي حالة المرض وعند الموت جانب الرّجاء؛ فتوازن القلب بين الخوف والرّجاء يدفع على العمل الصالح والبعد عن المعاصي والتوبة من الذنوب، أمّا إذا اختل توازن القلب، فمال إلى جانب واحد؛ فإنّ هذا ممّا يعطل حركة العمل، ويعرقل سبيل التوبة، ويوقع الهلاك" {443}.

---

<sup>440</sup> يوسف 87.

<sup>441</sup> يوسف 83.

<sup>442</sup> الزمر 53.

<sup>443</sup> الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد، ص 72.

ولأنَّ يعقوب أب متسامح وعفو فعندما قال له بنيه استغفر لنا:  
استغفر لهم كما وعدهم: قال تعالى: {قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا  
كُنَّا خَاطِئِينَ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ} 444.  
وهكذا هي لغة المحبة تتبادل بين الأبناء والأب، حيث قال يعقوب لبنيه:  
{يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ  
لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} 445. أي أنَّ يعقوب متوكل  
على الله وهو المستعان، {وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ} 446، وقد  
يظن البعض أن الاسم ورد مطلقا فيما رواه البخاري من حديث أبي  
موسى الأشعري رضي الله عنه لما قال له النبي عليه الصلاة والسلام عن  
عثمان رضي الله عنه: "افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه؛ فإذا  
عثمان، فأخبرته بما قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحمد الله، ثم  
قال: الله المستعان". والأمر ليس كذلك لأمر منها: أنَّ الإطلاق في  
المستعان ليس من كلام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد دار الأمر بين  
الصَّحَابِيِّينَ. ومنها أنَّ المقصود هو طلب عثمان رضي الله عنه الاستعانة  
والصَّبْرَ على إنجاز مقتضى الوعد أخذا من قول يعقوب عليه السلام:  
والله المستعان. ولذلك شكَّ أبو موسى الأشعري رضي الله عنه في قول  
عثمان رضي الله عنه هل قال: الله المستعان. أم طلب الصَّبْرَ من الله؟  
ففي رواية مسلم عنه أنه قال: "فذهبت فإذا هو عثمان بن عفان، قال:  
ففتحت وبشرته بالجنة، قال: وقلت الذي قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،  
فقال: اللهم صبرا أو الله المستعان». وفي رواية أحمد: «اللهم صبرا وعلى  
الله الشكلاان"

444 يوسف 97، 98.

445 يوسف 87.

446 يوسف 18.

إنّه يعقوب نبي الله عليه الصلّاة والسّلام خليفة الله الذي استمدّ صفاته من صفات الوارث.

. وبما أنّ الوارث جعل في الأرض خليفة، ألا يكون له الحقّ في حمل الأمانة؟

نعم له الحقّ في حملها، وحملها يستوجب طاعة الخالق (الوارث المطلق الذي يرث الخليفة).

. ومتى تكون الوراثه؟

. عندما يكون المورث حقّ.

. ومن الذي يرث الحقّ؟

. لا يرث الحقّ إلا الحقّ.

. وأيها اسبق الوارث أم الموروث؟

. الوارث أولا وآخرا.

. كيف يكون أولا وآخرا؟

. أولا لأنّه السابق على كلّ سابق. قال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} 447. وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبْنَا لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ

مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ {448}.

. وأخرا لأنه الحي الذي لا يموت.

. إنه الحقّ {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ} 449 تفنى الخلائق ويبقى الملك لله.

. وعليه، لا يرث الخليفة شيئا إلا بالحقّ.

. نعم سيكون الخليفة فيما أتاه الله من النبوة والحكمة والعلم والثروة مستخلفا بالوراثة، ومع أنه مورث نسبيا فيما أتاه الله إلا أنه لم يورث بالمطلق في أمر الموت والحياة.

. ولكن للخليفة بداية ونهاية.

. إنه الحقّ، ولذا فالوارث هو صاحب الملك والخليفة جزء ما يملك المالك، فبعد النهاية لن يكون هناك من يعود الملك إليه وارثا إلا مالكة بالمطلق لا إله إلا هو.

وبناءً عليه، فكل ميراث هو وقتي غير دائم ويعتريه النقص لأنه قد حصل من مالك بالوكالة إلى مالك بالوكالة، فالملك ناقص وكذلك الميراث ناقص إلا ملكه سبحانه وتعالى.

وفي ذلك قال الإمام الغزالي: "هو الذي يرجع إليه الأملاك بعد فناء الملك" 450.

الوارث هو المالك الأوحيد وهو الأول والآخر وهو الذي بيده الأمر والنهي وهو على كل شيء قدير، وهو الباقي الذي يرث ما خلق. فلو لم

---

448 يس 77 - 83.

449 الحديد 3.

450 محمد حسين، شرح أسماء الله الحسنى، الإسكندرية، 1996، ص 92.

يكن مالكا ما ورث، ولو لم يكن وارثا ما خلق، ولو لم يكن باقيا ما كان وارثا سبحانه.

والوارث الأوحده هو الذي ملك الملك دون أن يرثه من أحد، وهذه الصفة لا تنطبق إلا على الله الواحد الأحد الأول بلا بداية والأخر بلا نهاية الذي لا تربطه صلة نسب بأي مخلوق، وكيف تربطه صلة بمخلوق؟ وهو جلّ وعلا خالقه.

إنّ الصلة لا تتعدى أن الخلق جميعاً عباد الله سبحانه وتعالى لأنّه ملك للملك ومالك له بلا ند ولا شريك فيقول الله تعالى عن صفته الذاتية: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} 451، فلا توجد بين الله وبين أي مخلوق كان أي صلة يشار إليها مع الأقارب أو الأبعد، إذا فليس لديه سبحانه وتعالى ميراث ورثه من أحد ولا يستحق أحد أن يرثه لأنّه الحي القيوم الدائم الباقي، وورد في تفسير قوله تعالى: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) أن قريشا قالوا للنبي صلّى الله عليه وسلّم: صِفْ لنا ربّك الذي تعبدّه وتدعوننا إليه ما هو؟ فأنزل الله تعالى: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) قل يا محمد للكفار إنّ ربّي الذي أعبدّه (هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) فرد لا نظير له ولا شبيه له ولا شريك له ولا معين له، ثم قال عزّ وجلّ: (الله الصمد)، الصمد الذي لا يأكل ولا يشرب، وروي عن ابن عباس أنّه قال: الصمد الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ويتضرعون إليه عند مسألتهم و(الصّمَد) السيد الذي انتهى سؤدده، وقال الحسن البصري: الصمد الدائم، وقال قتادة الصمد الباقي، ويقال الكافي وقال محمد بن كعب القرظي الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ويقال: الصمد التام في سؤدده وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: الذي لا يخاف من فوقه ولا يرجو من تحته ويصمّد إليه

---

451 الإخلاص 4.1

في الحوائج ثم قال عز وجل (لَمْ يَلِدْ) لم يكن له ولد يرث ملكه. (وَلَمْ يُؤَلِّدْ) لم يكن له والد يرث عنه ملكه (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) لم يكن له نظير ولا شريك فينازعه في عظمته وملكه 452.

الوارث: هو المالك، أي لو لم يكن مالكا ما كان وارثا، وهو الذي يعود إليه الملك الذي خلقه، حيث لا وارث له إلا هو، قال تعالى: {رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} 453. فبعد أن ينهي الخلائق التي هي جزء من ملكه، يبقى من بعدهم الملك الذي خلقوا منه وخلق لهم وخلق من قبلهم سابق عليهم، فبعد الموت لمن يكون الملك؟

انتقل يعقوب عليه السلام بأولاده من بادية فلسطين إلى مصر بعد أن مكّن الله ليوسف عليه السلام في أرض مصر وصار على خزائنها، أرسل إلى أبيه وأهله جميعا أن يأتوا إليه، فأقبل يعقوب عليه السلام بأولاده وأهله جميعا إلى مصر واستوطنوها، ويذكر اليهود في كتابهم أنّ عدد أنفوس بني إسرائيل حين دخلوا مصر سبعون نفسا. وكانوا شعبا مؤمنا بين وثنيين، فاستقلوا بناحية من الأرض أعطاهم إياها فرعون مصر، فعاشوا عيشة طيبة زمن يوسف عليه السلام. وبعد وفاة يوسف عليه السلام بزمن الله أعلم بطوله تغير الحال على بني إسرائيل وانقلب عليهم الفراعنة طغيانا وعتوا واستضعافا لبني إسرائيل، فاستعبدهم وأذلّوهم، وبلغ بهم الحال ما ذكر الله عز وجل في قوله: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ

<sup>452</sup> بحر العلوم للسمرقندي، ج 4، ص 449.

<sup>453</sup> غافر 15، 16.

اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَتَمَكَّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ  
وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ {454}.

فكان الفراعنة يقتلون الذكور ويستحيون الإناث، واستمرت هذه  
الحنّة وهذا البلاء عليهم زمنا طويلا، إلى أن بعث الله عزّ وجلّ موسى  
عليه السّلام، فدعا فرعون إلى الإيمان بالله، وأن يترك دعوة النّاس إلى  
عبادة نفسه، وأن يرفع العذاب عن بني إسرائيل، ويسمح لهم بالخروج من  
مصر؛ فأبى فرعون ذلك بغطرسة وكبر، واستمرّ في تعذيب بني إسرائيل  
كما قال عزّ وجلّ: {وَقَالَ الْمَلَأُ مِنَ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ،  
لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآهَتِكَ قَالَ سَنُقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِ  
نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ} {455}؛ فأخذ الله تعالى فرعون وقومه  
بالجذب وهلاك الزّرع، وأرسل عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع  
والدم، ولكنّهم استكبروا وجحدوا، فأوحى الله إلى موسى عليه السّلام  
بعد ذلك بالخروج ببني إسرائيل "456.

وصفات يعقوب الخيّرة والحميد كثيره وعلى رأسها أنّه بصيرا،  
مصدقا لقوله تعالى: {اذهبوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ  
بَصِيرًا} {457}.

لما عرف يوسف إخوته سألمهم عن أبيه فقالوا ذهب عيناه،  
فأعطاهم قميصه، قال المحقّقون: إنّما عرف أنّ إلقاء ذلك القميص على  
وجهه يوجب قوّة البصر بوحى من الله تعالى ولولا الوحي لما عرف ذلك،  
لأنّ العقل لا يدلّ عليه.

---

<sup>454</sup> القصص 4 . 6.

<sup>455</sup> الأعراف 127.

<sup>456</sup> دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، ص 47.

<sup>457</sup> - يوسف 93.



ويمكن أن يقال: لعل يوسف عليه الصلّاة والسّلام علم أنّ أباه ما صار أعمى إلا أنّه من كثرة البكاء وضيق القلب ضعف بصره فإذا ألقى عليه قميصه فلا بدّ أن ينشرح صدره وأن يحصل في قلبه الفرح الشديد، وذلك يقوي الروح ويزيل الضعف عن القوي، فحينئذ يقوى بصره، ويزول عنه ذلك النقصان، فهذا القدر ما يمكن معرفته بالقلب فإن القوانين الطبية تدل على صحة هذا المعنى، وقوله: (يَأْتِ بِصِيرًا) أي يصير بصيرا ويشهد له 458.

فيعقوب أتى بصيرا، ولم يقل رجع بصيرا، ما أوجب أن تكون صفة جديد وليست قديمة في يعقوب، وهذا يعني أن بصيرة جديدة ستضاف إلى بصر يعقوب هي أن نبوة يوسف عليه الصلّاة والسّلام بدأت ودليلها البينات التي أتى بها يوسف عليه الصلّاة والسّلام مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زُلْتُمْ فِي شَكِّ مَا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ} 459.

وعليه فالبصير هو الله الذي مدّ يعقوب بالبصر والبصيرة؛ وهو الذي جعل يعقوب بصيرا بعد أن فقد حاسة البصر، ولهذا استمد يعقوب صفته الكريمة من البصير المطلق. والبصير هو: "الذي أحاط بصره بجميع المبصرات في أقطار الأرض والسموات، حتى أخفي ما يكون فيها فيرى ديب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وجميع أعضائها الباطنة والظاهرة وسريان القوت في أعضائها الدقيقة، ويرى سريان المياه في أغصان الأشجار وعروقها وجميع النباتات على اختلاف أنواعها وصغرها ودقتها، ويرى نياط عروق النملة والنحلة

---

458 - تفسير الرازي، ج 9، ص 108.

459 - غافر 34.

والبعوضة وأصغر من ذلك. فسبحان من تحيرت العقول في عظمته،  
وسعة متعلقات صفاته، وكمال عظمته، ولطفه، وخبرته بالغيب،  
والشهادة، والحاضر والغائب، ويرى خيانات الأعين وتقلبات الأجفان  
وحركات الجنان"460.

البصير "هو الذي أحاط بصره بجميع المبصرات في أقطار الأرض  
والسماوات يرى ويبصر ما تحت الأرضين السبع كما يبصر ما فوق  
السماوات السبع، بصير بأعمال العباد لا يخفي عليه منها شيء"461.

الحمد لله المنزه عما يخطر بالبال أو يتوهم في الفكر والخيال  
المحتجب برداء العز والجلال {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ  
اللطيفُ الخبيرُ}462 تحيرت العقول في حقيقة ذاته وتخبطت الأفهام في  
أسمائه وصفاته واندهشت الأبصار في جلال حضرته {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ  
وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}463.

البصير هو الذي يشاهد ويرى حتى لا يعزب عنه ما تحت الثرى،  
وإبصاره أيضا منزه عن أن يكون بحدقة وأجفان ومقدس عن أن يرجع  
إلى انطباع الصور والألوان في ذاته كما ينطبع في حدقة الإنسان فإن  
ذلك من التغير والتأثر المقتضي للحدثان وإذا نزه عن ذلك كان البصر في  
حقه عبارة عن الصفة التي ينكشف بها كمال نعوت المبصرات وذلك  
أوضح وأجلى ما يفهم من إدراك البصر القاصر على ظواهر المرئيات.

حظ العبد من حيث الحس من وصف البصر ظاهر ولكنه ضعيف  
قاصر إذ لا يمتد إلى ما بعد ولا يتغلغل إلى باطن ما قرب بل يتناول

---

460 شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج 1، ص 45.

461 الوجيز في أسماء الله، ج 1، ص 11.

462 الأنعام 103.

463 الشورى 11.

الظواهر ويقصر عن البواطن والسرائر، وإتّما حظه الديني منه أمران، أحدهما أن يعلم أنه خلق له البصر لينظر إلى الآيات وإلى عجائب الملكوت السموات فلا يكون نظرة إلا عبرة قيل لعيسى عليه السّلام هل أحد من الخلق مثلك فقال من كان نظره عبرة وصمته فكرة وكلامه ذكرا فهو مثلي، والثاني أن يعلم أنه بمراى من الله عزّ وجلّ ومسمع فلا يستهين بنظره<sup>464</sup>.

البصير هو من لا تُخفي عليه خافية مصداقا لقوله تعالى: { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ آتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ }<sup>465</sup>. فالذي يضع كل شيء بحساب وميزان لا تخفي عليه خافية، ولذلك القاعدة تقول: { الخالق يبصر الأشياء والأشياء لا تبصر خالقها) ولهذا بطبيعة الحال البصير المطلق خالق كل شيء فهو يرى الأشياء وهي لا تراه برغم وجوده وبرغم وجودها، ولهذا فالبصير هو مالك القوّة التي يكشف بها الخفايا مصداقا لقوله تعالى: { يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ }<sup>466</sup>.

والبصير: هو الذي يرى الأشياء والأحداث ويعلمها قبل حدوثها، ولذلك فالبصير هو العليم الحكيم، أي أنه يخلق الأحداث مثلما يخلق الأشياء ومثلما يخلق من الأشياء بشرا ومخلوقات لا تحصى ولا تعد بالعقل البشري الذي لم يؤت من العلم إلا قليلا. والخليفة هو المؤمن الذي يعلم هذا الأمر بالعلم الذي أبلغه الله به عن طريق اصطفاء الأنبياء والرُّسل وما كلفهم به واستخلفهم عليه سبحانه لا إله إلا هو، ولذا فلخليفة الذي آمن بما أنزل ليس له بدا إلا أن يقول ربّي زدني علما، قال تعالى: { فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى

<sup>464</sup> المقصد الأسنى ص 91.

<sup>465</sup> الأنبياء، 47.

<sup>466</sup> غافر 19.

إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَسْبِي وَمَ  
نَجِدْ لَهُ عَزْمًا وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى  
فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى  
إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ فَوَسْوَسَ  
إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ  
فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ  
وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا  
جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا  
يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا {467}.

البصير هو الذي يشاهد الأشياء كلها ظاهرها وخافيتها بغير  
جارحة، والبصر هو الذي به تُرى الأشياء هي كما هي، ولا تخفي عليه  
خافية، حتى يستمد الخليفة بصيرته التي يوصف بأنه المصلح في الأرض  
وغير المفسد ولا سافك الدماء فيها بغير حق، والجمع أبصار. وفي اللغة  
بصر به نظر إليه، أبصره إذا أخبر بالذي وقعت عينه عليه، ورجل بصير  
مبصر خلاف الضير، وفي التنزيل العزيز: { لا تدركه الأبصار وهو يدرك  
الأبصار } {468}. ولذا فالبصير هو الذي يُدرك الأشياء المتجاوزة لحاسة  
البصر، والمبصر هو الذي يُدرك حقيقة وجودها بالمشاهدة العينية، وعليه  
فالبصير يُدرك العلل والخفايا التي من وراء خلق الأشياء والمخلوقات،  
والمبصر فقط هو الذي يصف ما يشاهده ولا يدرك ما خلفه، وهذا الأمر  
المخفي هو الذي يعلمه ويدركه البصير. قال تعالى: { أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ  
الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ

<sup>467</sup> طه، 114 . 125.

<sup>468</sup> الأنعام 103.

وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ  
بِمُسَيِّطِرٍ {469}.

البصير هو الذي يعلم ما لا يعلمه المبصر فقط، ولهذا المؤمن المستخلف في الأرض هو الذي لا يقف عند حد مشاهدة الإبل، بل يتعدها إلى معرفة الكيفية التي بها وعليها خلقت، حتى يبلغ مرحلة الإعجاز التي تجعله مؤمنا بأن من ورائها خالق عظيم يملك قوّة الخلق كله ويؤمن إدراكا أنه الخالق الذي لا يُخلق.

### النبي يوسف:

أنّ البحث في قصّة يوسف عليه الصلّاة والسّلام هي مثير من عدة جوانب، ذلك لأنّ قصّة النبي يوسف بالتحديد هي قصّة موصوفة بأثما أحسن القصص {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ} {470}، ومن هنا؛ فأحسن القصص تستوجب البحث في نوع الحُسن وطبيعته وأسلوبه ومضامينه.

ونعتقد أنّ وصف الله عزّ وجلّ لهذه القصّة بأحسن القصص، يوجب أن يكون البحث منصّباً باتجاه تميّز العلاقة بين يعقوب ويوسف، ولذلك فلا يمكن للهوى أن يكون ماثراً على ما نبذله من جهد موضوعي، الذي لا يمكن أن يتأتى بالوصف والثناء، وإثما بالتحليل والبحث المعمّق.

ومن ثمّ، نقول: إنّ قراءة أحسن القصص أثارت فينا الكثير من التساؤلات التي دفعتنا بقوّتها تجاه البحث فيها، وخاصّة تجاه ذلك المهمّ الذي فيه ما فيه من المعاني والدلائل الدّالة على أهمية التمسك بالفضائل الخيّرة والقيم الحميدة.

<sup>469</sup> الغاشية، 17 . 22.

<sup>470</sup> يوسف 3.

وفي هذا المجال لا بدّ من التنويه إلى أنّ البحث في قصّة سيدنا يوسف صلّى الله عليه وسلّم يتأثر بشكلٍ من الإشكال بما يسمّى الإسرائيليّات تلك الأخبار التي وردت فيها مغالطات كبيرة بحقّ أنبياء الله ورسله، ويوسف عليه السّلام الذي يعتبره البعض من أنبياء بني إسرائيل لا شك أنّه ورد في هذه الإسرائيليّات على صعيد واسع، لذلك ومن هذا المنطلق آثرنا ترك كلّ هذه الأخبار واعتمدنا النصّ القرآني والسنة الكريمة مصدرا أساسا في كلّ مراحل البحث ومستوياته، وهذا كما نعتقد أقوى وأوثق للبحث.

كما أنّ التحليل المنطقي الذي اتبعناه أوصلنا إلى تأويل جديد يناسب مكانة الرّسول المجتبي من الله وهو ما يزل غلاما؛ فكان همّها ما كان، وكان همّ يوسف غمّه بما تدعوه إليه، فقد نظر إليها أمّا بينما شُغفت به حبّا، وهذا التأويل يناسب إلى حدّ كبير سردية الحدث من البناء القصصي، فيوسف (البطل) لم يظهر عنده مثل هذا المتغير لا في القول، ولا في السّلوك، فمن غير المجانس للسرد الأحسن أن تحدث المغايرة الانقلابية في الحدث الذي يشع بهالة الإيمان والتقوى والورع ليظهر من يوسف همّ في هذه الحالة يشوّه جو التقوى، هنا حتى في القصّة وبناء الحدث فيها سيحدث نوع من الخلل في بنية السرد وتشويه لمشهد المكان وإخلال بتزامن أفعال الحدث السردية.

وبمثل هذا التحليل عالجتنا بقية قضايا قصّة سيدنا يوسف صلّى الله عليه وسلّم، فبدأنا في مؤلّف سابقٍ الحديث عن يعقوب صلّى الله عليه وسلّم باعتباره الأب والنبي الأسبق والمعاصر لرسالة يوسف صلّى الله عليه وسلّم، وهو نبي للابن ومعلمه العقيدة الصّحيحة ومنبئه باجتماع الله له، ومصدرا من مصادر القيم والسلوكيات عند يوسف صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ هو من بعد ذلك المصدّق برسالة يوسف صلّى الله عليه وسلّم، والشاهد على طاعة إخوته له رسولا نبيا.

وتحدثنا بالتفصيل المطلوب والموجب عن النبي يوسف، وركزنا الحديث على التعريف به وعلى صفاته، بينما تركنا قصته تنساب في أثناء الحديث كما شئناها في مشيئة الله عز وجل، لأن المولى عز وجل أراد أن تكون قصة يوسف درسا من الدروس العظيمة التي يستقى منها كثير العبر.

فبعد أن رأى يوسف الرؤيا عرضها على أبيه يعقوب صلى الله عليهما وسلم، فطلب منه أبوه أن لا يقصص رؤياه على إخوته، الذين هم قادرون على عمل المكائد إن تدخّل الشيطان بينهم، ولذا يتضمن قول يعقوب ليوسف الحرص كل الحرص على يوسف، مصداقا لقوله تعالى: { قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ } 471 فقوله (لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ) هو قول الحريص (يعقوب) على ابنه يوسف من دون إخوته لأسباب معرفتها قد لا تكون غائبة عن نبوة يعقوب، أي لعلم يعقوب بما عليه أبنائه وبالنبوة التي بها هو مُمكّن من المعرفة الوافية، ولذلك جاء تفسير يعقوب لرؤيا يوسف على التمام كما فسرها وهي المحمولة للدلالة والمعنى في القرآن الكريم.

الأخوة وأي أخوة يرون أنفسهم أمام بعضهم ووالديهم هم على التساوي، ولكن أن يحس البعض منهم بأن أحدهم مُفضّل أو مُميّز عند أبيه بما تميّز به أو مُميّز به من عند الله، فقد يتداركهم الشيطان بما يتداركهم به فيجعل الفتنة تحلّ بين الأخوة محل المحبة، ووفقا لهذا المبدأ جاءت المكائد ليوسف من أخوته والشيطان.

فيوسف يعد الصغير بالنسبة لأخوته باستثناء أخ منهم، فكيف يُعظّم بما عُظّم به من محبة أبيه ومحبة الله إليه، قال تعالى: { إِذْ قَالُوا

لِيُوسِفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْبَانًا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {472} هذه المحبة جعلت أخوته أسمعهم في بعض الأحيان وكأن بها وقرا يحيل بينها وبين ما يُسمع عن كلِّ جميل يقال أو يُفعل ليوسف، وفي البعض الآخر أسمعهم لأخباره تُصدِّعهم كثيرا وهم بما يصدِّعهم من عظيم لا يطيقون وبخاصة وأنَّ الشيطان كان أقرب إليهم من يوسف، ولأنَّه الأقرب إليهم فقد ضلَّهم ضلالا آخر، ألا وهو وصفهم لأبيهم بأنَّه في ضلال، (إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ).

وعليه: كان تحذير يعقوب لأبنة يوسف في محله رؤية أخرى في رؤيا يوسف، ولهذا لقد تحققت الرؤيتان:

. تحققت رؤية يعقوب في كيد الإخوة، وكذلك في اجتناء الله ليوسف وتعليمه تأويل الأحاديث وإتمام النعمة عليه وآله، مصداقا لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} {473}.

ولأنَّ القرآن حقٌّ؛ فإنَّ ما جاء فيه عن يوسف ويعقوب هو ذلك الحقُّ الذي تحقَّق في زمنهما ونحن به مؤمنون، تصديقا تاما ومنه نأخذ العبر في أبنائنا وإخوتنا وعلينا أن نتعظ ولا نضل ولا نطغى، ولا ننحاز لغير الحقِّ فنشقى.

وعليه: لو سأل سائل:

---

<sup>472</sup> يوسف 8.

<sup>473</sup> يوسف 6.



هل هناك من يعتقد أنّ أبناءه سيكونون على علاقات وحسن  
معاملة واحترام لبعضهم بعضاً وأنهم سيكونون أفضل من أبناء النبي  
يعقوب صلّى الله عليه وسلّم (الأحد عشر كوكبا)؟

نقول:

في دائرة الممكن، كلّ شيء ممكن، ونأمل من الله حفظ أبنائنا على  
الحقّ والمنع من العيب والفتنة.

افتراءات على يوسف من إخوته وهو ممّا يُفترى عليه براء، فقولهم  
لأبيهم لقد أكله الذئب قولاً لا مصادق له، فهم الذين رموه في الجب  
اعتداءً وظلماً دون أسفٍ على ما فعلوا به، وهم الذين فكّروا في قتله قبل  
أن يُرمى في الجب، وهم الذين جاءوا لأبيهم بدم كذب، قال تعالى:  
{قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّبُّ  
وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ  
بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا  
تَصِفُونَ} 474، ولكن بالرغم من كذبهم فلم يصدقهم أبوهم (يعقوب)  
فيما قالوا (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ  
عَلَى مَا تَصِفُونَ)، وقوله (سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً) دليل يقيني على أنّهم  
كاذبون، ومع ذلك قبِلَ يعقوب بأن تكون الفرصة المتاحة حجة دامغة  
لأقوابيلهم المفتراة على يوسف، أي وكأنّه يود أن يقول لهم سننتظر يوماً  
تُشخّصُ فيه الحقيقة التي تجعلكم أمامي كاذبين.

بقي يوسف في البئر، حتى أتى ذلك اليوم الذي مرّت به قافلةٌ  
متجهةٌ إلى مصر، فأرسلت القافلة واحداً منهم لجلب الماء لهم من البئر،  
فلما ألقى بالدلو في البئر تعلّق به يوسف، فلما رأى الرّجل يوسف فرح  
كثيراً واستبشر به؛ فأخذته القافلة إلى مصر كي يعرضوه للبيع، وبينما هو

في السّوق معروضًا للبيع، أتى عزيز مصر ليشتري غلامًا له؛ فوقع عينه على يوسف وقرّر أن يشتريه، فاشتراه ببضع دراهم. ثمّ عاد به إلى البيت وطلب من زوجته أن تهتمّ بيوسف وتحسن معاملته فقد يصبح ولدًا لهما.

كبر يوسف وترعرع في بيت عزيز مصر، وكان جماله مثيرا لامرأة العزيز؛ فعجبت به ولفتت نفسها إليه شهوة، وبدأت إغرائه بكلّ ما يلفت النظر، غير أنّ يوسف كان مستعصما؛ فلم تقدر عليه، وقد أوقعها كيدها به في نفسها فخسرت الرّهان.

ومن هنا تعدّ قصة يوسف عليه السّلام من أروع القصص وبخاصّة في العفة.

فقد راودته امرأة العزيز عن نفسه؛ فرفض يوسف وحاول الهروب منها وعندما حاولت إمساكه وهو هاربًا من كيدها وصل إلى الباب وفتحه؛ فوجد سيدها عند الباب وقميصه قد مزّق من دبرٍ، ولخشيتها من أن يخبر زوجها عن فعلتها، أو لقهرها منه، لقت قصة متهمّة إياه فيها بالتحرش بها، فاحضر حكم ليحكم بينهما فقال الحكم إن كان قدّ قميصه من دبرٍ فهو صدق وهي من الكاذبين، وإن قدّ من قبل فهي صدقت وهو من الكاذبين؛ فراوا قميصه قدّ من دبرٍ؛ فعرف العزيز أنّها الكاذبة.

وقد سمعت امرأة العزيز أنّ مجموعة من النسوة في المدينة يتكلمن عن فعلتها فأحضرنه وأحضرت يوسف ثمّ أحضرت لكلّ واحدة منهنّ سكّينا ليقطعن الفاكهة؛ فقالت زليخة ادخل؛ فلما دخل عليهن يوسف قطعن أيديهنّ من شدّة جمال يوسف؛ فدعى يوسف ربّه أنّ السّجن أهون عليه ممّا يمكن به النسوة تجاهه.

فكانت الدعوة استجابة؛ فوضع يوسف في السجن بسبب الفتنة التي أثارها في قلوب نساء المدينة، ودخل معه السجن فتيان، أحدهما خباز والآخر ساقى، ونظرًا لما رآياه من أخلاق وأدب يوسف، أقبلا عليه ذات يوم يقصّان عليه ما رآياه في نومهما. {وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} 475؛ ففسر لهما الرؤى بأن أحدهما سوف يُصلب وتأكل الطير من رأسه، والآخر سوف ينجو ويعمل عند الملك. وطلب ممن ينجو منهما بأن يذكر قصته للملك عسى أن يعفو عنه، ولكنّه نسي أن يقصّ على الملك قصة يوسف المسجون ظلماً؛ فكان ذلك سبباً في أن يبقى في السجن سنيناً.

وهكذا لقد تعرّض يوسف عليه الصلّاة والسّلام لما تعرّض إليه من ابتلاءات ومكائد ومع ذلك استعصم، وأنجاه الله من كلّ ما تعرّض إليه. وقيل فيه ما قيل كغيره من الأنبياء العظام وهو براءة من كلّ ما قيل فيه بغير حقّ. وقد سميت سورة من سور القرآن الكريم باسمه. قصته من أجمل القصص القرآنية التي ظهرت فيها عناية الله تعالى ورعايته له نبيا كريما من الأنبياء المصطفين الأخيار.

كان يوسف عليه السّلام رائع الجمال خلّقا وخلّقا، وله عند ابيه شأنٌ عظيمٌ، فكان ذلك سبباً في حقد إخوته عليه وغيرتهم منه وكيدهم له.

وذات يوم وهو في صباه رأى في المنام أنّ أحد عشر كوكباً والشمس والقمر يسجدون له، فأسرع إلى والده يخبره برؤياه جمالا وروعة، {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ

---

475 يوسف 36.

لي ساجدين {476، ومن خلال نفاذ بصيرة والده علم أنه سيكون ليوسف شأن عظيم ومكانة رفيعة، فطلب من يوسف ألا يخبر أخوته بتلك الرؤيا العظيمة حتى لا يكيدوا له ويدبروا له أمرا لا يليق.

وكما قال النبي الوالد لابنه كان بالتمام، حيث اجتمع الإخوة ليدبروا مؤامرة ليوسف كي يبعده عن والده الذي يحبّه حبّا شديداً، فاقترح أحد الأخوة بأن يقتلوا يوسف، بينما اقترح آخر بأن يلقوا يوسف في أرضٍ بعيدة كي ينساه والده ويحبّهم حبّه.

وأخير اتفق الإخوة أن يلقوا يوسف عليه السلام في بئرٍ على طريقٍ تمرّ به القوافل كي تأخذه إحدى هذه القوافل وتذهب به بعيداً، ثم ذهبوا إلى أبيهم وطلبوا منه أن يسمح لهم بأن يأخذوا يوسف في رحلةٍ معهم.

وبذلك فالكيد هو العمل المسيء الذي يدبر ثم يفعل لكيد المحسود أو المرغوب الممتنع، كما هو حال يوسف عليه السلام الذي كان كيد امرأة العزيز له بأسباب المحبة وليس بأسباب الكريهة.

ولهذا فالكيد يُفعل بغاية في نفس من يقدم على أفعال الكيد التي لا تكون نتائجهما إلا مؤلمة على المستهدف بأعمالها وأفعالها وسلوكياتها.

قال تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْمَهُمْ رُؤُودًا} {477.

فقوله تعالى: (وَأَكِيدُ كَيْدًا) هذه الآية ضميرها يعود على المكيد الذي بيده أمر الكيد متى ما شاء وكيفما يشاء، ولأنّه المكيد بالمطلق جاء قوله (وَأَكِيدُ كَيْدًا) أمرا مطلقاً أي أنّه يكيد أي كيد دون تحديده، ومهما تنوع وتعدّد كيد الكائدين.

<sup>476</sup> يوسف 4.

<sup>477</sup> الطارق 15 . 17.

في هذه الآيات الثلاثة ضمائر ثلاثة هي:

1. الضمير العائد على الكافرين بقوله تعالى: (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا).

2. الضمير العائد على المكيد الأعظم، (وَأَكِيدُ كَيْدًا).

3. الضمير العائد على الشاهد الممهّل (النبي محمد عليه الصلّاة والسلام) الذي سيشهد العاقبة ماثلة أمام عينيه أنّ الكافرين كيدهم مكادا وهم لا يمتلكون القوّة ولا القدرة مصداقا لقوله تعالى: (فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا). وفي هذا الأمر قصّة سيدنا يوسف عليه الصلّاة والسلام غير بعيدة، وهي خير قصّة لإبطال الكيد حتى وإن كان سببه حبّا.

ولسائل أن يسأل:

كيف يكون الكافرون مكيدون، ويكون الله مكيدا؟

أقول:

.كيد الكافرون (كيد).

.كيد المكيد تعالى (كيد الكيد).

.كيد الكافرون تعزيز باطل.

.كيد المكيد عزّ وجلّ مناصرة حقّ.

ولتبيان أهمية هذه القيم في ارتكاب أفعال الكيد يتمّ تناول مجموعة من الآيات العظام من القرآن الكريم ذات العلاقة بالتحليل والتفسير استمدادا للقوّة الفكرية والمنطقية والقيمية والفضائية التي ترشد إلى كشف مكائد الكائدين وكيدها من المكيد المطلق.

قال تعالى: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ  
كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ  
عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ} 478.

قوله تعالى: (فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا) الكيد جاء نكرة بحيث يدل على  
أي كيد في دائرة الممكن مما يجعلك أحياناً متوقّعا له ويجعلك أحيانا  
متفاجئا بأسباب عدم توقّعتك له، ولهذا يقول يعقوب لابنه يوسف  
عليهما الصّلاة والسّلام: لا تستغرب من إخوتك إن كادوا لك كيدا،  
وهكذا هم فعلوا ما هو متوقّع من قبل يعقوب.

وعليه الكيد: هو العمل الذي يؤسّس على الحسد والمخادعة وسوء  
النية المبيّنة في دائرة غير المتوقّع، ولذلك يترتّب عليه الاستغراب والمفاجئة  
وأحيانا نقص حُسن التصرف تجاهه مما يجعل البعض يقعون بأسبابه في  
الفخ، وقد لا يُفك عنهم بسهولة ويسر، ولذا يجدون أنفسهم بين أيدي  
الكائدين حيث لا قدرة ولا حول ولا قوّة، فتكون المساومة أحيانا في غير  
موضوعية ومنطق، ويكون الثمن المترتّب على ذلك غالبا إن لم يحدث  
التدخل الذي به يكاد كيد الكائدين وتكون ساعة الفرج بمفاتيح من  
المكيد المطلق قوّة وقدرة وعزّة ونصرا.

ولهذا فالكيد هو فعل وعمل ممن نتوقّع غير المتوقّع. كما جرى ما  
جرى مع يوسف من قبل امرأة العزيز التي نظر إليها في مقام الأم ونظرت  
إليه في مقام العشيق.

ولأنّ المكيد هو الله تعالى؛ فهو بكيده المتين يكيد كيد الكافرين  
والمشركين والضّالين والمنافقين والحاسدين والظّالمين ويجعلهم في أسفل  
سافلين.

---

478 يوسف 4، 5.

أما السّجن فكلمّا أشرنا إليه يظلّ السّجن فصل آخر من فصول قصّة يوسف عليه السّلام، إذ أدخل السّجن ومعه شخصان، ويقال أنّهما ساقى الملك وخبّازه، فأعجبهما في يوسف عبادته وتوكّله على الله تعالى، وشاهد كلّ واحدٍ منهما رؤيا على شاكلته، فرأى الأوّل أنّه يعصر الخمر من ثلاث عناقيد عنب قد امتلأت؛ فعصر منها وسقى الملك، والآخر أنّه يحمل ثلاث سلالٍ من الخبز على رأسه، والطيّر تأكل منه، فسأل يوسف عن ذلك، فأخبرهما في البداية أنّه ما من حلمٍ يحلمانه إلّا ويخبرهما تأويله، وبداية أخبرهما أنّه يوحد الله تعالى، وأنّه على ملة أبيه وأجداده يعقوب وإسحاق وإبراهيم عليهم السّلام، وأخبرهما بتأويل حلمهما بأنّ الخباز سيصلب وتأكل الطير من رأسه، وأنّ السّاقى سيخرج من السّجن ويعود لسقى الملك، وأنّ هذا أمرٌ مقضي سيحصل في العاجل أم الآجل، وطلب من الذي ظنّ أنّه ناجٍ (السّاقى) أن يذكره عند الملك وما ألم به من ظلم. لكنّ الشيطان أنسى الناجي أن يذكر يوسف عند الملك لبضع سنين، بقي فيها يوسف في السّجن، والتي من بعدها أراد الله تعالى إخراج يوسف من السّجن، فرأى الملك رؤيا وهي أنّه كان على حافة النّهر فخرجت سبع بقراتٍ سمانٍ يرتعن في الخضرة هنالك، فخرجت سبع بقراتٍ هزال ضعاف فرتعن معهنّ، ثم أكلهنّ، فاستيقظ مذعورا ونام بعدها، فرأى سبع سنبلاتٍ خضراءٍ في قصبة واحدة، فإذا بسبع يابساتٍ آخر يأكلوهنّ، فقصّها على قومه فأخبروه أنّها من الأحلام التي لا تعبیر لها، وأنّ لا خبرة لهم بتفسير الرّؤى، وعندها تذكّر السّاقى الذي نجى من السّجن يوسف عليه السّلام وقدرته على تفسير الرّؤى وأخبر الملك عنه، وطلب أن يرسله إلى يوسف كي يفسّر لها، فأخبرهم يوسف بأنّه يأتيهم سبع أعوامٍ يخضّر فيها الزرع ومن بعدها سبعٌ يأتيهم فيها القحط، ومن بعدها يأتيهم عامٌ فيه الخير ويرزق فيه الناس ويعودون إلى عصر ما كانوا يعصرونه من الزيتون والعنب والسّمسم

وغيره، وأخبرهم ما يفعلون في كلّ من السنين كي يتغلبوا على القحط. عندما علم الملك بعلم يوسف أراد أن يخرجّه ويجعله من حضرته، ولكنّه أبى ذلك وطلب من رسول الملك الذي أتاه أن يعود إلى الملك ويطلب منه أن يسأل العزيز عن التّهم التي وضع على إثرها في السّجن كي تظهر براءته أمام النّاس جميعاً، وعندما سأل الملك عن ذلك أخبره أنّه تمّنع عنهنّ وأخبرت امرأة العزيز أنّ الله قد أظهر الحقّ واعترفت بذنبها، كي يعلم العزيز أنّها لم تخنه من دون علمه، فبانت براءة يوسف عليه السّلام أمام الجميع قبل خروجه من السّجن وما كان به من الظّلم، وعندما ظهر للملك ما كان به من الظّلم والعفة وما يمتلكه من العلم والحكمة طلب أن يأتوه به كي يكون من أكابر القوم عنده، وطلب من الملك أن يوليه على خزائن الأرض كي يستطيع إخراج النّاس من الضيق الذي سيحصل بحسب رؤيا الملك، فهو علم أنّه يستطيع ذلك وله من القوّة والعلم والأمانة ما يؤهّله لذلك، ولهذا طلب بنفسه أن يتولاه.

ثمّ نقول: إنّ هذا المدخل إنّما هو باب الدّخول إلى مستويات التحليل فيما بعد ورابطاً أساسياً للأحكام التي ستصدر عن التحليلات المتعدّدة أثناء البحث، فهي بمثابة الثوابت التي يتركز عليها المؤلّف، ومن خلالها أظهرنا صفات يوسف ممّا كان يمرّ على البعض دون وقفة مع دلالة الصّفة ومضامينها.

وبعد ذلك أخذنا الاهتمام إلى ميادين القصّة الأخرى، فتحدثنا عن تحليل العلاقات الاجتماعية والعقدية ليوسف صلّى الله عليه وسلّم مع كلّ من أبيه وإخوته والعزيز وامرأته وأصحاب السّجن، ثمّ بعد ذلك الملك، وما تبع ذلك من آيات بارزة ومهمّة في سيرة يوسف صلّى الله عليه وسلّم.



إنّ رسالة يوسف جاءت مقارنةً أو لنقل في زمن متقاربٍ مع نبوّات ورسالات عديدة؛ فكان هذا موضوعاً يثير التساؤلات الموجبة للبحث فتصدينا له بالدراسة والتحليل، ثم فصلنا في علم يوسف صلّى الله عليه وسلّم.

وعليه فيوسف صلّى الله عليه وسلّم اجتباه الله عزّ وجلّ نبياً رسولاً، مصداقاً لقوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ} {479}.

فقوله (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ) أي لقد جاءكم يوسف من قبل نبياً مرسلًا برسالة تحمل البيّنات لتهدتوا، ولكنكم بقيتم على الشك لا على اليقين الذي فيه صلاحكم وإصلاح أحوالكم التي بشأنها اجتبى يوسف رسولاً إليكم ليريكم كيف تصلحونها، وها أنتم اليوم باقون على الفساد والإفساد لا على الإصلاح والإعمار (فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ) أي لا زلتم على عدم التصديق مكذّبين بالحقّ.

وقوله تعالى: (حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا) بمعنى: عند موت الرسول يوسف صلّى الله عليه وسلّم كان الشاكون يظنون بأنّه بعد موته انتهى الأمر وخلصوا من الرسول الكريم ولن يبعث الله من بعد يوسف صلّى الله عليه وسلّم رسولاً، ولكن الله فعّال لما يريد فها هو يبعث من بعده، (كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ).

وعليه: فقوله تعالى: (حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا) هذه الآية الكريمة هي دليل إثبات أن يوسف كان مرسلًا نبياً رسولاً، إنّه رسول الإصلاح وطاعة الله واحداً واحداً مصداقاً لقوله تعالى: {يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ

مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ  
الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ  
لَا يَعْلَمُونَ {480.

وعليه: تعتبر رسالة يوسف صلى الله عليه وسلم رسالة إصلاح  
وإعمار وتنظيم الحياة الاقتصادية للمجتمع الملكي في بلاد مصر، أي؛  
أنها رسالة عملية تنفيذية كان يوسف على رأس تأدية مهامها في الأرض  
مصدقا لقوله تعالى: { وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا  
كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ  
إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ  
لُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ {481.

وكذلك كان يوسف رسول من الله تعالى لتأويل الأحاديث ومفتٍ  
في الرؤيا مصدقا لقوله تعالى: { وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ  
يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ  
أُفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ قَالُوا أَوْصَاةٌ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ  
بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ  
بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسَلُونِ يُوسُفَ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ  
سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ  
لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ {482.

ولاشك أن يوسف مرّ بعدد من الابتلاءات التي واجهها من قناعة  
وإيمان مطلق بالحق؛ فكان لنا عرض وتحليل لهذه الابتلاءات، ومن أهم

480 - يوسف 39، 40.

481 - يوسف 54، 56.

482 - يوسف 43، 46.

ذلك ابتلاء المرادة التي وقفنا عليها طويلا وفي أكثر من موضع لأنّها كما نعتقد من أهمّ الابتلاءات التي أهتمّت يوسف.

وفي كلّ ابتلاء كانت النّجاة؛ فلزم أن نتحدث في نجاة يوسف فيما ابتلي به، لأنّها نجاة محاطة باجتناب الله عزّ وجلّ ليوسف، ومقرونة بتسليم وطاعة مطلقة من يوسف لأوامر الله تعالى.

وكان لنا وقفة مع موضوع اجتناب الله ليوسف من حيث بيان ماهية الاجتناب، والفرق بينه وبين الاصطفاء والتكليف، وهو أمر خرجنا به بخلاصة نعتقد أنّها مهمّة لم يقف عندها الآخرون من خلال إحالة الكثير من المفسرين الاجتناب على دلالة الاصطفاء مع أنّ كلّ منها غير الآخر كما بيّن البحث من علاقات ونتائج.

ولاشك أنّ حدث السّجن كان من الأحداث المهمّة في حياة يوسف صلّى الله عليه وسلّم إنسانا ونبيا رسولا، وذلك لأنّه شكّل مثنوى كريم انطلق منه الرّسول يوسف إلى التبليغ بالرّسالة، وإلى التمكين في الأرض وما ترتّب عليه من إصلاح ذات البين مع إخوته، ثمّ إلحاق والديه به، وإقرار الجميع له بالنبوّة والرّسالة.

وبعد العرض التحليلي لمجمل القضايا الواردة في قصّة سيدنا يوسف أحببنا أن نقدّم القصّة بطريقة روائية رغبة منّا في مغايرة الأساليب من أجلّ أن نمنح القارئ فرصة أخرى للوقوف مع أحسن القصص والاستمتاع بالحسن البليغ لهذه القصّة التي تشع بالدروس والعبر.

ولا نقول إنّ البحث في قصّة يوسف اكتمل ببحثنا هذا، بل نقول موقنين: أنّ البحث ربّما يبدأ مع هذا البحث، وهذا ليس تشريفا لبحثنا ولكن استبصارا لغايتنا التي نأمل فيها أن يكون هذا البحث دعوة لبحوث أخرى لا تقتصر على السرد، وتذهب إلى التحليل المستند على

الحجّة والمرتكز على المنطق للإتيان بالجديد، وهذا ليس له وجه مبالغة لا من قريب ولا من بعيد؛ فهذا القرآن لا تنفذ موارده؛ فهو كَلِمَاتِ رَبِّي تنفذ البحار ومثلها ولا تنفذ كَلِمَاتِ رَبِّي، {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} 483.

كَلِمَاتِ رَبِّي وإن كانت معروفة في قصّة يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كونها اقتضرت على سورة واحدة قدّم المولى عزّ وجلّ لعباده قصّة متكاملة هي بحقّ من أحسن القصص، إلا أنّ الكَلِمَاتِ لا يمكن أن تنفذ لا من حيث العدد، ولا من حيث الدلالة، فنحن إذ نعتقد جازمين أنّ القرآن كلام الله، وفيه كَلِمَاتِهِ، نقول: إنّ هذه الكَلِمَاتِ ما هي إلا بمثابة الأَمْهَاتِ لكَلِمَاتِ تُوْحِي بها هذه الكَلِمَاتِ وتدلّ عليها، ولذلك؛ فالقرآن لا تنقضي عجائبه وفيه خير ما قبلنا وخبرنا وخبر ما بعدنا، ولذلك؛ فهو لا ينفد، ولا تنفذ كَلِمَاتِهِ.

وعليه: لقد كان يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عالماً بعلم المستقبل ومُتَبَيِّناً به وعاملاً من أجلّ تحقّيقه، فكان خير منفذٍ لرؤاه التي كانت من أجلّ صناعة المستقبل الأفضل والأجود والآن فع، ولذا لم يكن يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عالماً بعلم الغيب الذي هو بأمر الله إن شاءه كان متى ما شاء وكيفما يشاء وعلى يد من يشاء من الرّسل مصداقاً لقوله تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْأَلُكُم مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتٍ رَّبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا} 484.

---

483 الكهف 109.

484 - الجن 26 . 28.

وفي هذا الأمر يجوز أن يكون يوسف هو أحد الرُّسُل صلوات الله وسلامه عليهم الذين شاء لهم الله بالاطلاع على ما شاءه من علمه الذي هو علم غيب بالنسبة لمن لم يعلمه قبل تحقّقه على أرض الواقع، ولهذا، كان يوسف خير مؤوّل للرّواء، وخير مفسر لما يُرى وخير منفذٍ لما رأى.

وبالرّغم من كلّ ما جرى على يوسف فقد آتاه الله الملك إيتاء مصداقا لقوله تعالى: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ} 485.

وبإيتائه ملكا من ملك الله الواسع جعل يوسف على خزائن الأرض التي هي تحت سيطرة ملك مصر مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} 486

وكذلك الملك الصالح يوهب وهبا كما وهب لسليمان صلّى الله عليه وسلّم، مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلِكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّرِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} 487.

---

485 - يوسف 101.

486 - يوسف 55، 56.

487 - ص 34. 39.

وعليه: فالشعوب التي من بينها سادة وعبيد (مالك ومملوك) هم مُلك الملك الحقّ، ولذا فالمملك الحقّ، هو الذي يملك المالك والمملوك، وأمر التصرف فيهم، كجزئية من مُلكٍ عام لكلّ ما في السماوات والأرض، ولهذا فإن الملك يملك الخليفة وما يمتلكه الخليفة من مال وثروة وقوّة ومنافع ومغانم وعلوم ومعارف، ويملك ما لم يتمكن الخليفة من معرفته، {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} 488.

إنّ الملك الواسع الذي وسع كلّ شيء خلقه سواء أكان الخليفة متمكنا من معرفته أم لم يكن متمكنا من معرفته، إنه عالم الغيب والشهادة إنه الرّحمن الرّحيم، الذي له من الملك ما يرحم مخلوقاته دون استثناء، وله من الملك ما يعاقب به جميع مخلوقاته بدون استثناء، وله الحمد يعاقب من يشاء ويعفو ويتوب على من يشاء من عباده إنه الملك مالك الملك، ولذلك وسع كرسيه السماوات والأرض.

إذا الملك الحقيقي لله وحده لا يشركه فيه أحد وكلّ من ملك شيئا فإنما بتمليك مالك الملك تعالى الذي أتى ملكا من ملكه ليوسف صلّى الله عليه وسلّم وفقا لمشيئته عزّ وجلّ، ولذا، لا مُلك إلا لله.

وعليه: فحقيقة الملك، إنما تتم بالعتاء والمنع والإهانة والإثابة والعقوبة والغضب والرضا والعزل مصداقا لقوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُنزِلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 489.

---

488 - البقرة 255.

489 - آل عمران 26.

ولأنّ الأمر بيد الملك الحقّ فهو يؤتي الحكم لمن يشاء ويعز من يشاء  
ويذل من يشاء، فهو يذل عزيزا ويشفي مريضا ويستر عورة وهكذا يداول  
الأيام بين النَّاس سبحانه.

ولأنّ الملك لله وحده فهو الذي يؤتي منه من يشاء ملكا كما آتى  
يوسف صلى الله عليه وسلّم من ملكه ملكا، به تمكّن في الأرض؛  
{وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ} 490، ولأنه  
هو مالك الملك الحقّ، إذن، يملك الحقّ في أن يؤتي منه ما شاء لمن يشاء  
من عباده الصالحين دون أي اعتراض على مشيئته.

الملكُ خير، والملك مالك الخير، وجاء على رأس الملك الخير: الحياة  
والممّات والجنّة والنّار ويوم البعث العظيم؛ وجاء داخل الحياة والممّات  
خيرات حسان، وجاء داخل الجنّة والنّار خيرات كثيرة، وجاء يوم البعث  
خير سرمدي. وبما أنّ الملك هو مالك الخير، إذا هو الذي بيده الملك،  
ومع أنّ الملك بيده، ولا تصرف فيه إلا بأمره، إلا أنه جعلنا الوارثين {إِنَّ  
الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} 491. العاقبة  
هي الأفعال المترتبة على ما تم فعله على الأرض، فإن كان عمل خير  
تكون العاقبة ثوابا، وإن كان عمل شر تكون العاقبة عقابا، ولأن، كلّ  
فعل يترتب على فعلٍ، جاء التورث مترتبا على وجود الخليفة.

والسؤال الذي يُطرح مترتبا على ما سبق: كيف يكون الإنسان  
ملكا في الوقت الذي هو فيه عبدا لِمَلِكٍ؟

وعليه قد أنعم الله المنعم على يوسف حتى اتصف بالمنعم عليه،  
مصدقا لقوله تعالى: (وَوَيْلٌ لَّكُمْ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ  
أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ)، أي بإتمام النعمة على يوسف تتم

490 - يوسف 56.

491 - الأعراف 128.

النعمة على آل يعقوب، وهذا يعني أنّ إتمام النعمة على يوسف نعمة في ذاتها على آل يعقوب من الله تعالى.

إذن؛ فالمنعم هو من بيده أمر النعمة وهو المتفضل على ما خلق بالخيرات والنعمة التي لا تُحصى في الدارين، وهو مالك النعم والمتصرف فيها بالمطلق الكلّي والجزئي والمتجزئ، وهو الذي بيده الخير الذي كلّما أوتي نعمة منه تضاعفت نعمه.

ولذا فالمنعم هو المتمكن من إيتاء النعمة لمن هو في حاجة إليها سواء أكان مقدّراً لها ولمنعها أم كان غير مقدر لذلك فهو المنعم، قال تعالى ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبِّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ {492}.

والنعم هي كلّ ما فيه خير للمخلوقات هو نعمة سواء أكانت روحية (معنوية) أم مادية (تشغل حيزاً مادياً)، ولذلك؛ فالمنعم هو الله الذي أنعم على كلّ ما خلق بما هم في حاجة إليه كي لا يكون فيهم ألماً.

والمنعم من أسماء الله الحسنى وصفة تُظهر أفعاله الآن عامية على ما خلق مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ {493}.

يفهم من الآية الكريمة السابقة أن من أعظم النعم طاعة الله والرّسول؛ فهي تجعل المطيع لهما على مراتب العليين من الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين.

---

492 - إبراهيم 7.

493 - النساء 69.



ولذلك؛ فالمِنعم هو الذي أنعم على يوسف بما أنعم عليه به من تمام النعم، وهو الذي أنعم على جميع الأنبياء والرسل الذين سبقوه والذين بُعثوا من بعده، وكذلك الصديقين والصالحين، وهو الذي أنعم على كل خلقه المقدرين لنعمه وغير المقدرين لها، الشاكرين والحامدين وكذلك الجاحدين والضالين عن الهداية والطاعة، ولكل حسابه ثوابا (جنة عرضها السماوات والأرض) أم عقابا (نار وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين).

ومن نعم المنعم نعمة بعث الآن ببياء مبشرين ومنذرين وفاعلين للخيرات ومحرضين على الحق وإتباعه قال تعالى: { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ } 494. لقد جاء قول موسى صلى الله عليه وسلم لقومه مُظهرا للاعتراف بنعم المنعم عليهم وذلك ببعث الأنبياء فيهم وجعلهم ملوكا وإيتائهم من النعم التي لم تؤت لأحد من قبلهم من العالمين.

ومن نعم المنعم على خلقه أنه المؤلف للقلوب والمنقذ من المكائد والكروب، كما أنقذ يوسف من كيد إخوته وامرأة العزيز واللاتي قطعن أيديهن، قال تعالى: { فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِينَ لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيَسْجَنَنَّ وَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاعِرِينَ } 495.

494 - المائدة 20، 21.

495 - يوسف 30، 32.

ولأنَّه المنعم فنعمه على خلقه لا تحصى ولا تعد، قال تعالى،  
 {وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} 496، ولهذا، لم لا تُذكر نعم المنعم بالشكر والحمد له تعالى  
 على ما أنعمه علينا من نعم وما تفضل به علينا من فضائل، قال تعالى:  
 {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ  
 أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ  
 الْمُؤْمِنُونَ} 497.

ولذا، ينبغي على الأقوام والأمم والشعوب التي أنعم المنعم عليها  
 بالأنبياء والرسل أن يكونوا خير شاكر لأنعمه تعالى.

ولأنَّ يوسف يعلم أنه مُمكن في الأرض بقوة وقدرة مطلقة من الله  
 تعالى، وهو مخيراً في الأرض التي اجتباها الله فيها نبيا رسولا لأن يختار  
 المكان الذي يراه مناسبا له فيها حينها قال للملك أجعلني على خزائن  
 الأرض فجعله، قال تعالى: {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ  
 عَلِيمٌ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ  
 بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ  
 آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} 498.

وعليه: فمن الذي ينبغي أن يُمكن في الأرض خليفة؟

كلٌّ من يستمد صفاته من صفات الله تعالى، ولذلك كان الآن بقاء  
 على رأس المستخلفين فيها إصلاحا وإعمارا.

ورد لفظ (خليفة) في النص القرآني في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ  
 لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا

496 - إبراهيم 34.

497 - المائدة 11.

498 - يوسف 55. 57.

وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ {499} وكان ذلك ضمن سياق الآيات العظيمة التي كانت تمثل البداية الأولى للبشرية، فسماع هذه الآية يحيل إلى تشكلات مختلفة كانت تؤسس بداية البشرية ومن بين هذه التشكلات هي الخلافة، فقد وردت ضمن سياق قصة رسمت البداية الأولى في كل تفاصيلها، ومن بين هذه التفاصيل كانت الخلافة، وسياق الخطاب القرآني في هذه القصة اتسم بالتشريف لآدم عليه السلام، فهذا المخلوق شرفه الله تعالى وعرضه للملائكة بطريقة ارتسمت فيها عظمة الله تعالى وقدرته.

ويلاحظ أنّ لفظة الخليفة في النصّ القرآني وردت بصيغة التنكير التي تحمل دلالة الإطلاق المنفتح غير متحقق على اسم شخص بعينه، ولهذا كانت البداية لورود اسم الخليفة بداية لتشكّل نمط معرفي للصورة التي يكون عليها النسق المراد تحقيقه في الأرض، ولهذا كان يوسف من المستخلفين الممكنين في الأرض حكما وعلمًا.

وفي سياق الآيات القرآنية جاءت قصة استخلاف آدم في الأرض، ومنحه مقاليدها على عهد من الله وشرط، وإعطائه المعرفة التي يعالج بها هذه الخلافة، كما أنّها تمهد للحديث عن استخلاف بني إسرائيل في الأرض بعهد من الله؛ ثم أعطى مقاليدها للأمة المسلمة الوافية بعهد الله فتتسق القصة مع الجو الذي تساق فيه كلّ الاتساق 500، إذ يقول تعالى: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } {501}. يلاحظ في الآية الكريمة أن صيغة الخطاب وان قصد بها بني إسرائيل إلا أنّها تشمل عموم المؤمنين بالله وملائكته ورسوله.

---

499 - البقرة 30.

500 - في ظلال القرآن، ج 1، ص 27.

501 - البقرة 40.

وإحياءات لفظة (خليفة) ترسم أبعادا مهمة لما سيتحقق في الأرض بعد خلق آدم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمهمته لم تكن يسيرة وفق ما تمليه عليه لفظة (خليفة). كما أن الخلافة التي أرادها الله تبارك وتعالى لم تتوقف عنده بل استمرت وذلك من خلال الرُّسُل الكرام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ الذين بعثهم الله تعالى إلى أمم في أماكن وأزمان مختلفة، إذ يقول تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ كُلًّا مَّا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولًا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} 502، واستمر هذا النسق إلى مبعث نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبمبعثه انقطعت الرسالات والنبوات فكان خاتما لها.

أمّا من حيث الخلافة فهي تسير كما نعتقد وفق صيغة مطابقة لاستمرار الرُّسُل الذين من بينهم يوسف الذي مُكِّنَ في الأرض خليفة، وذلك في قوله تعالى (تَتْرَىٰ) فهذه اللفظة ترسم صورة التابع المتحقق للرُّسُل، لكن هذا التحقق ينتهي بخاتم الرُّسُل والآن بياء نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أمّا الخلافة فلا تنتهي إلا بنهاية الحياة.

ولأنّ يوسف نبيا ابن نبي؛ فلا مكابرة أن يستغفر؛ فاستغفر يوسف ربّه ضمنا على ما حدث معه من قِبَل امرأة العزيز، قال تعالى: {قَالَ هِيَ رَاوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي} 503، فقوله: (هِيَ رَاوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي) يعني ممّا يعني: وكأنّه يقول: استغفر الله أن أفعل مثل هذه الأفعال، ولكن هي التي راودتني ظلما وبهتاناً وأنا لم أكن كما هي تبتلني، وفي هذه الحالة لم يكن استغفار يوسف على ذنب ارتكبه بل جاء ترسيخا تاما لإيمانه بالله تعالى، ولهذا كان يوسف مستغفرا ربّه عمّا ألمّ به من امرأة العزيز، أي وكأنه يودّ أن يقول: (استغفر الله أن ارتكب هذا الفعل).

502 - المؤمنون 44.

503 - يوسف 26.

ولذا، فالاستغفار ليس بالضرورة أن يكون مقتصرًا على ارتكاب ذنب، بل قد يكون تجنبًا له وتيقنًا بعدم ارتكابه، أي أنّ استغفار يوسف ربّه جاء تأكيدًا لقوّة إيمانه بأن لا يرتكب الخطيئة مع امرأة العزيز ولا غيرها. فاستغفار يوسف هو تعوّد بالله من أن يرتكب هذا الفعل مع امرأة العزيز أو مع ما يماثله مع غيرها.

### النبي شعيب:

شعيب عليه السّلام هو رسول الله لأهل مدين، وكان يُعرف بخطيب الأنبياء، وأهل مدين هم عربّ ويسكنون أرض (معان) في الأردن قريبًا من قُرى لوط عليه السّلام. وفي عهد شعيب عليه السّلام، ظهر في مدين قوم يعبدون الأيكة، وهنا قال ابن كثير: "كان أهل مدين كفارًا يقطعون السبيل، ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة، وهي الشجرة من الأيكة، حولها غيضة ملتفة بها، وكانوا من أسوأ النّاس معاملة، يبخسون المكيال والميزان، ويطفّفون فيما يأخذون بالزائد، ويدفعون بالناقص؛ فبعث الله فيهم رجالًا منهم، وهو رسول الله شعيب عليه السّلام، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن بحس النّاس أشياءهم، وإخافتهم في سبلهم وطرقاتهم، فأمن به بعضهم، وكفر أكثرهم، حتى أحلّ الله بهم البأس الشديد"504

ويقال أنّ مدينة مدين التي بعث إليها شعيب نبيًا قد كانت من القرى المزدهرة في التجارة، ولكنّ الحياة الدنيا غرّت القوم؛ فكانوا يبخسون في المكيال والميزان ويطفّفون فيهما، ويأكلون المال الحرام، ويقطعون الطرق، ويعترضون القوافل، ويشيعون في الأرض فسادًا وظلمًا. ومن علامات طغيانهم أنّهم لم يكتفوا فقط بالجحود والتكبرّ والعصيان وإنكار نعم الله عزّ وجلّ وإيذاء شعيب عليه السّلام، بل أنّهم سألوا

<sup>504</sup> منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، 1، ص 219.

شعبيا أن يطلب من الذين آمنوا أن يتركوا الدين والعبادة حتى يؤمنوا بالله، ولكنّ شعيب لا يساوم في دين الله جلّ جلاله؛ فكفر أكثرهم وآمن القليل منهم، فتناول عليه من كفر به وبرسالته، فهددوا شعيب بالقتل لولا شأن قبيلة عليه السّلام، ممّا استوجب غضب الله سبحانه وتعالى، فانزل الله بهم أنواع من العذاب، حيث أصابهم حرّ شديد، ومنع الله عنهم هبوب الرّيح، ولم ينفعهم ماء ولا ظل، فتركوا بيوتهم وما يمتلكون وفروا حيث لا فرار ينجيهم من غضب الله جلّ جلاله. وفي تلك البرية التي فروا إليها أظلتهم سحابة سوداء، فاجتمعوا حولها ليستظلوا تحتها، فلما اكتمل عددهم، أرسلها ترميهم بشهب وشرار، واهتزت بهم الأرض، ونزلت عليهم صيحة من السّماء فأزهقت وأهلكت الأرواح، وفي المقابل انجى الله شعيبا ومن معه من المؤمنين.

لقد برز في قصّة شعيب أنّ الدين ليس قضية توحيد وألوهية فقط، بل هو أسلوب حياة النّاس أيضا، فشعيب عليه السّلام بعد الدعوة إلى التوحيد بدأ ينبّه على ما يخالف أمر الله العادل؛ فكانت دعوته حلّ للمشاكل الاقتصادي كما يعرّفها الاقتصاديون في هذا العصر. ومن هنا كانت قضية المعاملات الاقتصادية والأخلاقية محيّرّة لنبي الله شعيب، لما فيها من مظالم ومفاسد وآلام حيث كان القوم ينقصون المكيال والميزان، ويظلمون النّاس؛ فالنّاس سادت الرذيلة بينهم وهي لا شك أنّها تمسّ المروءة والشرف، ذلك لأنّ أهل مدين كانوا يعتبرون بحس النّاس أشياءهم نوعا من أنواع المهارة في البيع والشراء. وفي التفسير جاء قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾<sup>505</sup> (أشياءهم) هنا جاءت بمعنى الجمع وليس المفرد، وهي جمع الشيء؛ ومن ثمّ فالأشياء التي تؤلم النّاس كثيرة منها (المادي ومنها المعنوي) أي أنّها ليست مقصورة على البيع والشراء فقط، بل تدخل فيها الأعمال، أو التصرفات التي تسيء للأخلاق

---

<sup>505</sup> الأعراف 85.

الكرامة. ولهذا جاء النهي محرّماً لارتكاب المظالم التي تكسر النفس وتهزمها من الداخل. ولذا ينبغي احترام وتقدير واعتبار النفس الإنسانية نفسياً وأخلاقياً وحياتياً من حيث العمل وحرية التنقل وعدم الاستغلال أو الإكراه.

إنّ الله سبحانه وتعالى قد أرسل إلى قوم مدين أخاهم شعيباً لتصحيح مسار حياتهم في التعامل مع الناس، وإن عماد المعاملات يجب أن يكون له ضابط مما يمتلك:

. الحقّ المطلق.

. العدل المطلق.

. القوّة المطلقة.

ولذلك، قبل الدعوة إلى الإصلاح قال: يا قوم اعبدوا الله وحده لا شريك له وانبدوا عبادة الأصنام، فليس لهم من إله يستحقّ العبادة سوى الله. ثمّ دعاهم إلى الإصلاح من عدم إنقاص الناس حقوقهم إذا كالوا لهم أو وزنوهم، وخاصة أنهم في سعة من العيش وكثرة من المال الذي يغنيهم عن التطفيف في المكيال والميزان.

وكان الخوف عليهم أولاً من جراء عبادتهم غير الله تعالى الذي أدى بهم إلى هذا التطفيف الذي بسببه ينزل الله بهم عذاب يوم يحيط لا ينجو منه أحد.

فالواجب والحقّ يقتضيان إيفاء الكيل والميزان حقهما بالعدل والقسط، سواء أكان الكيل والوزن لهم أم عليهم، وعدم بخس الناس أشياءهم سواء أكانت هذه الأشياء ممّا يكال أم يوزن أم يذرع أم يعدّ أم كانت غير ذلك.

إنّ الذي يصدر عنه مثل هذا الأعمال فلا شك أنه يسعى في الأرض فسادا يضرّ بمصالح الآخرين، ولذا كان شعيب صلّى الله عليه وسلّم يدعوهم إلى أخذ البقية التي تبقى لهم من الكسب الحلال وإن قلّت، لأنه أفضل من الكثير الذي يأتي من التطفيف والبخس، لما يترتب على الأوّل من الثواب في الآخرة، وما يلحق الثاني من غضب الله تعالى وعذابه في الدنيا والآخرة.

لقد تناولنا في هذا الكتاب قصّة شعيب صلّى الله عليه وسلّم مع قومه ورسالته التي حملها إليهم بتكليف من الله تعالى، حيث أنهم عاثوا في الأرض فسادا بما كانوا يفعلون من تطفيف الكيل والميزان، وليس هذا فقط، وإنما استنكروا على شعيب صلّى الله عليه وسلّم أن يقول لهم: اعبدوا الله ما لكم من إله غير، ولا تبخسوا الناس أشياءهم،

فهم بهذا ينكرون عليه أن ربّط الدين بالدنيا، حيث قالوا له {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ} 506.

فهم أرادوا بهذا ألا يكون للدين أو العقيدة دخل في كيفية الحصول على الأموال واستثمارها وإنفاقها، ومن هذا الموقف يتبيّن لنا أن الاتجاه الذي يدعو إلى فصل الدين والعقيدة عن الحياة ليس ظاهرة جديدة مبتدعة دعت إليها العلمانية الغربيّة، وإنما هي خصيصة في الإنسان الذي يريد أن يستحوذ على حقوق الآخرين بمنطق القوّة والسطوة والجبروت بما يضع من قوانين تؤهله لعمليات السطو والبخس طالما هو مقتدر على ذلك، متجاوزا الفضائل التي تأتي بها العقيدة وتحكم التصرف وفق الحقوق والواجبات بما أحله الله تعالى لعباده.



فهي على هذا سمة دائمة من سمات الإنسان الذي يريد أن يفسد في الأرض ويستعبد بها خلق الله تعالى في جميع مراحلها البشرية وعصورها كلما سنحت له الفرصة.

ولذا، فقد تناولنا في مؤلفنا هذا عن شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقومه بعد رسالته التوحيدية، أهم جانب في حياة الإنسان وهو ما يتعلق في الاقتصاد الذي يمت بعلاقة لا تكاد تنفصل عن حياته المعيشية.

فدعوة شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انصب اهتمامها على معالجة قضية المشكّلة الاقتصادية، التي هي من أهم محاور اهتمام الإنسان منذ أن أوجده الله تعالى على الأرض، ذلك أنّها مرتبطة بمعيشته وحياته اليومية، ولما كانت المجتمعات الإنسانية تتشكل من مجموع أفراد، فهذا يعني: أنّ الجانب الاقتصادي يكون محل اهتمام المجتمع بأكمله (أي مجتمع كان). وهذه أبرز سمة عاجلتها رسالة شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن قبل هذا فإن رسالة شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحمل أشياء أخرى قبل الاقتصاد وبعده، فكان لا بدّ من الوقوف على صفات يتصف بها شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تناولنا منها ما استطعنا الوقوف عليه بشيء من التفصيل قبل الولوج في ثنايا البحث.

وكذلك فإننا تناولنا في هذا البحث أهم القضايا التي عاجلها شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رسالته التي جاء بها إلى قومه، منها:

. التصحيح العقدي.

. الإصلاح الاقتصادي.

. الإصلاح الأخلاقي.

. الإصلاح الاجتماعي.

إنّ المشكّلة الاقتصادية عامّة مرتبطة بوجود الإنسان على الأرض، وهي من العوامل المؤثرة في المسيرة التاريخية للإنسان، وهو رهين أثرها وجودا وامتدادا من حيث:

. العيش الكريم.

. البناء وال عمران.

. تعاقب الأجيال.

. استمرار الحياة.

ولم تقتصر دعوة شعيب صلّى الله عليه وسلّم على الدعوة إلى التوحيد وإصلاح الجانب الاقتصادي فحسب، وإنما تجاوزت ذلك إلى الجانب الأخلاقي في المجتمع، ذلك أنه ما لم تصلح أخلاق المجتمع وتبتعد عن الفساد المتأصل في النفوس من حب الطمع جريا وراء الدنيا وملذاتها، لا يمكن إصلاح الجوانب الأخرى، لأنّ الفساد الأخلاقي تكون نتائجه السلبية كثيرة منها:

. تحييد الحقّ والعدل.

. إحلال الظلم والطغيان.

وبهذا يسود قانون القوّة محل قوّة القانون في الجانب الاقتصادي كما ساد عند أصحاب مدين قوم شعيب الذي قام على:

. الهضم.

. البخس.

. الغصب.

فشعيب صلى الله عليه وسلم بدعوته ما لم يصلح أخلاق المجتمع، وتكون الدعوة الأساس فيه إلى الأخلاق الكريمة في التعامل القائم على الحق والعدل والتراضي في البيع والشراء، فلن يكون هناك إصلاح اقتصادي.

ولهذا فالصراع سيظل باق ما بقية البشرية بين حق وباطل؛ فالباطل الذي هو نقيض الحق له أتباع يحاولون أن يقلبوا الموازين ليطلوا الحق ويحقوا الباطل؛ ولأن ما يعبدون من دون الله باطل؛ فالله سبحانه وتعالى يتحداهم بأن يخلقوا خلقاً من أضعف خلق الله - سبحانه في قدرته - وهذا المخلوق على ضعفه إلا إنّه لا يستطيع أهل الباطل أن يخلقوا مثله لأنهم على ضلال، ولأنهم على ضلال؛ فالله يتحداهم بأن يخلقوا ذباباً، والله يعلم أنهم عاجزون لأنهم لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً؛ فكيف يملكون من أمر غيرهم؟

أما المستخلفون فيها بالحق فهم يؤمنون بأن الخلق من عند الحق تبارك وتعالى، وبالتالي لا يراودهم شك في ذلك.

ويبلغ التحدي الإلهي مبلغاً آخر وهذا التحدي يثبت العجز التام للباطل فيقول الله لهم: { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ } 507.

ولأن الكلمة الطيبة كلمة حق، فهي باقية مثل كلمة التوحيد، واحد أحد، الأول والآخر، الملك الحق، لا إله إلا هو، محمد رسول الله،

كَلِمَات تامة غير منقوصة، كما حال كَلِمَات الكفر والشرك بالله، ومثل  
كَلِمَات النفاق والكذب والبهتان.

وكَلِمَة الحقّ ثابتة كالشجرة الثابتة التي أصلها ثابت وفرعها في  
السماء، ولهذا في المقارنات كَلَام الله الذي أنزله على عباده الصالحين  
وأرسل به الرسل مبشرين ومنذرين هو كَلَام باقٍ يسمع في الأرض  
ويسمع في السماء، ولهذا مهما بلغ حجم الشجرة المباركة المشبه بها فإن  
الكَلِمَة المباركة ذات ظل أكبر وأعظم وإِنَّهَا ذات امتداد عظيم،

وقد اكشفنا اختلافا على شخصية الرَّجُل الصَّالِح هل هو شعيبا أم  
أَنَّهُ غير شعيب؟ ولتبيان ذلك وجب التوقف على حال هذا الرَّجُل،  
وعلى حال شعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من وصف القرآن الكريم لحال  
كُلِّ منهما.

فعندما ورد موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماء مدين وجد امرأتين  
تذودان حيث قال تعالى: { قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِرَ  
الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى هُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا  
أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ } 508.

فهذا الرجل شيخ كبير ليس له من العصبة من يسقي له غنمه، ممَّا  
يضطره إلى الاعتماد على ابنتيه في سقي أغنامه وربما رعيها، إذ لو كان له  
عصبة ما، أبناء أو قبيلة أو عشيرة لأوكلَّ إليهم ذلك، أو لضمَّ غنمه إلى  
ماشيتهم على الأقل.

---

<sup>508</sup>القصص 23، 24.

وَأَمَّا شَعِيبٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ} 509.

فقوم شعيب يرونه فيهم ضعيفا، ولكن هذا لا يكفي لإيذائه بالرجم أو غيره، ذلك أنّ خلفه عصابة أشداء، ويبدو أنّ منهم على دينه ممن اتبعه وأنّ رهط شعيب، يحبّون شعيبا، فلما اجتمع مناعة رهطه وحبهم له، لم يجرأ قومه على إيذائه لأنّ هيبة رهطه استمكنت من نفوس قومه؛ فامتنعوا عنه.

إنّ شعيبا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لما أراد أن يسوق العبرة لقومه من أجل الاتعاض والعدول عمّا هم عليه من البخس والتطيف وأكل أموال الناس بالباطل، ذكرهم بالأقوام السّابقة عليهم ممّن عصوا والمصير الذي ألوا إليه من الأقدم نزولا إلى أقرب قوم لهم زمنا، حيث قال: {وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ} 510.

فقد تسلسل معهم من قوم نوح إلى قوم هود إلى قوم صالح، ثمّ قال وما قوم لوط منكم ببعيد، والبعد يحمل معنيين، وقد بيّنا البعد المكاني والزّماني؛ ومن طبعي أنّ البعد الزماني هو المقصود أكثر من البعد المكاني لأنّ البعد الزماني هو الذي يحمل الخبر العبرة من أجل الاتعاض، وليس المكان، فإن كان نوح وهود وصالح وأقوامهم بعيدون عنكم ويفصل بينكم وبينهم زمن طويل، فإنّ قوم لوط ليسوا منكم ببعيد.

ومعلوم أنّ لوطا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد عاصر إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففهم ليسوا بعيدين عن إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

<sup>509</sup> هود 91.

<sup>510</sup> هود 89.

إنَّ كلَّ الرِّسالات السماوية جاءت لكي تصحح ما انحرف وتعيد الأمور إلى ما كانت عليه، فالانحراف الذي وقع يجب أن يقوّم وهذه هي مهمة الرِّسول المرسل، ونحن بصدّد رسالة النبي شعيب صلّى الله عليه وسلّم نرى أن دعوته تشعبت، فإنّ دعوة شعيب صلّى الله عليه وسلّم كانت أوسع من دعوة الرُّسل من قبله هوّدٍ وصالح عليهم السّلام إذ كان فيها تشريع أحكام فرعيّة ذلك أنّها لم تعالج قضية واحدة، بل كانت قضايا متعددة، فقد انغمس النّاس في الكفر والظلم، وأصبحت حياتهم الاقتصادية تسير في نهر من الحرام ليس له بداية ولا نهاية، هذه الأنهار المتعددة لا يمكن تركها تجري دون وقفها وان لم تقف فيجب بتجفيفها حتى لا يبقى الكفر والمعصية يدبون في الأرض كما تدب الحياة في شرايين النّاس، ولهذا جاءت دعوة شعيب صلّى الله عليه وسلّم من أجل الإصلاح وان لم يتحقّق الإصلاح فتكون الدعوة حجّة عليهم يوم القيامة، إذ يقول تعالى: { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَفْضُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَعَرَّهْتُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَىٰ بَظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ } 511.

وإضافة إلى ما تقدم فقد تناول البحث مسائل إشكالية نأمل أنّنا قد وفقنا الله تعالى في الوصول بها إلى نتيجة من خلال المقارنة والتحليل، وبخاصة على سبيل المثال هل أنّ شعيب صلّى الله عليه وسلّم كان معاصرا لموسى صلّى الله عليه وسلّم، أم أنّ الذي زوّج ابنته لموسى هو الشيخ الكبير، ومسائل أخرى سيقف عليها القارئ في ثنايا البحث.

ونحن نأمل ممّن يرى اختلافا معنا وله رأي مغاير فيما توصلنا إليه من نتائج وله حجّة علينا في ذلك، أن يقدم لنا الحجّة المقنعة التي تدعونا

<sup>511</sup>الأنعام 130 - 131.

إلى العدول عما ذهبنا إليه من رأي أو ما خلصنا به من نتيجة، فإنّها قابلة للنقاش مع من له علينا دليل يقيم به الحجّة علينا، حيث لا حجّة مطلقة إلا ما جاء في كتاب الله تعالى، وفق كلّ ذي علم عليم.

### النبي أيّوب:

اشتهر النبي أيّوب عليه الصّلاة والسّلام بصبره وثقته في ربّه تعالى بأنّه لا شافي إلا هو عزّ وجلّ، وهو عندما التجأ الى ربّه داعيا استجاب سبحانه وتعالى إلى عبده وأمره بأن يقف من مكانه ويضرب الأرض برجله، فظهر له منبع عين فأمره سبحانه وتعالى بالاعتسال من المياه النابعة من العين، وعندما نفذ أمر الله تعالى خرج من بدنه جميع الأذى والأذى الذي كان يلّم به طيلة تلك السنوات التي لم يرد اتفاقا عليها، ثم أمره سبحانه وتعالى مرة أخرى أن يضرب الأرض ثانية في مكان آخر، ففعل نبينا أيّوب وأخرج من مكان الضربة نبعا بعين أخرى، فأمره سبحانه وتعالى أن يشرب من مياهها، فخرج من باطنه كلّ الألم الذي كان يشعر به، فعادت له عافيته من الباطن والظاهر.

رفع الله تعالى عن نبيه أيّوب عليه السّلام البلاء بعد ما مرّ به من ألم؛ فقد كان صابراً شاكراً ذاكراً مع شدة ما ألمّ به من الألم والأذى والسقم والمرض وأبدله بعد ذلك صحة ظاهرة وباطنة ولما اغتسل من ذلك الماء المبارك أعاد الله لأيوّب عافيته وسلامته. وقد رفع الله عن سيدنا أيّوب الشدّة وكشف ما به من ضررٍ رحمة منه ورأفة وإحسانا وجعل قصّته ذكرى للعابدين نُصّب من ابتلي بما هو أعظم من ذلك، فصبر واحتسب حتى فرّج الله كربّه.

إنّه الشافي الذي بيده الشفاء لكلّ مرض وداء وألم، هو القادر على تغيير الأحوال من سيئة إلى حسنة، هو الشافي الذي يعيد الأحوال من

حالة الخوف إلى حالة الطمأنينة. وهو الشافي جلّ جلاله الذي إذا أراد لشيء أن يكون يقول له (كن) فيكون.

ولهذا فقد اشتهر أيّوب عليه السّلام بصبره حتى أصبح المثال للصبر، كان غنيا ويملك الكثير، يتصدّق ويتزكّى، وكان ليّن الجانب.

اشتهر بغناه مثلما اشتهر بفقره وحاجته لما يشبع الحاجة، وفي غناه كان يعلم أنّه لا غنى إلّا من الغني المطلق جلّ جلاله، واسم الغني "من أسماء الله تعالى في علاه، وهو الذي لا يُحتاج إلى أحدٍ في شيءٍ، وكلُّ أحدٍ مُحتاجٌ إليه، وهذا هو الغني المطلق" 512.

فالغنيُّ: مصدر الغنى البدني والروحي والنفسي والعقلي، وبهذا فهو مصدر الغنى الكمي والكيفي، ولننظر كيف؟

البدن غني مادّي جمالي وهو مظهر من مظاهر الوجود في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، والروح غني البدن بالحياة المنبعثة فيه بالأمر الخارج عنه، والنفس غني الروح بالبقاء المؤقت مع المظهر المادّي للمخلوق في محيط البدن، والعقل غني النفس بما يطمئنّها، حيث فقدانه مقلق، أمّا الروح فأمرها بيد الغني المطلق جلّ جلاله.

وعليه فسلامة البدن وطهارته غني يجعل كلّ عضوٍ شاهداً بالسلامة والطّهارة في مرضاة الغني المطلق جلّ جلاله.

وانبعاث الروح في البدن غني من التلف والفساد، لتسييره حركةً وسكوناً فيما يشاء الله أن يكون عليه ويكون به.

وغنى النفس امتلاؤها بالطمأنينة، التي بها تسكن على الحقّ ثباتاً لا حياض عنه دون ظنّ.



وغنى العقل بإرشاده إلى ما به تتم الهداية وبه يحقّ الحقّ، أي نور  
يضاء به البدن والنفس.

ورأت اليهود أنّ معنى الغنى مقصورٌ ضدّ الفقر، قال تعالى: {لَقَدْ  
سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا  
وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ  
أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} 513، وحدث ذلك عندما سمعوا  
قوله تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا  
كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} 514.

فالغني: هو الذي أغنى أيّوب وجعله من المالكين، وهو الذي أغنى  
غيره فمنهم شاكرين ومنهم جاحدين، ولكلّ حسابه يوم الحساب، ولذا  
فالغني يغني وهو ليس في حاجة، وهو يملك المطلق لمشبعات كل حاجة،  
يهب ما يشاء لمن يشاء وهو لا يوهب إليه، يرزق وهو في غير حاجة  
للرزق، يملك وهو في غير حاجة للملك، إنّّه ذو الرّحمة والمغفرة والتوبة  
لكلّ عبد منيب ومستجيب له واحد احد لا شريك له، له ما في  
السّموات وما في الأرض وهو على كلّ شيء قدير، وهو الذي يُفْتَقَرُ  
إليه وهو الغني الحميد، وهو الذي كمل في غناه عمّا سواه، كما أنّ الحليم  
الذي كمل في حلمه. فالله جلّ جلاله غني في ذاته بذاته لعدم حاجته أو  
احتياجه لغيره، ولغناه عن الحاجة في ذاتها، فكيف يحتاج من ليس له  
طريق للحاجة، بل هو الذي خلقها، وليس ليحتاج إليها، لقد خلقها  
لكي تسبّحه كثيرا، وتمجّده كثيرا في علاه، وتعلم رفعته، وتظهر مجده  
الابدّي الأزلي الذي ليس للعوز طريق إليه بأيّ حال كان، وللخليفة أن

---

513 آل عمران 181، 182.

514 البقرة 24.

يستمدّ منه الغنى، فالخليفة هو الذي يبحث عن مشبعات حاجاته بما يرضي ربّه تعالى؛ فعليه ممّا عليه بالآتي:

التقوى: وهي خير الرّاد، وذلك بالسير على الجادة التي لا يجيد عنها إلا هالك، قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقْ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ إِنَّ تُفْرَضُوا لِلَّهِ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾{515}. ولهذا فمن يتقي الله يجد له مخرجا، ويرزقه من حيث لا يحتسب، سبحانه جلّ جلاله إنّه الغني.

الإففاق في وجوه الخير: قال تعالى: ﴿الْم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾{516}.

كثرت الروايات والأساطير التي نسجت حول مرض أيّوب، ودخلت الإسرائيليات في كثير من هذه الروايات التي منها.

أنّ أيّوب عليه السّلام كان ذا مال وولد كثير، ففقد ماله وولده، وابتلي في جسده، فلبث في بلائه ثلاث عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا زوجته ورجلين من إخوانه. وكانت زوجته تخدم الناس بالأجر، لتحضر لأيوّب الطعام. ثم إنّ الناس توقفوا عن استخدامها، لعلمهم أنّها امرأة أيّوب عليه السّلام، خوفا أن ينالهم من بلائه، أو تعديهم بمخالطته. فلما لم تجد أحدا يستخدمها باعت لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيريّتها بطعام طيب كثير، فأنت به أيّوب، فقال: من أين لك هذا؟ وأنكره، فقالت: خدمت به أناسا، فلما كان الغد لم تجد أحدا، فباعته

---

515 التّغابن 16-18.

516 البقرة 1-5.

الصفيرة الأخرى بطعام فأتته به فأنكره أيضا، وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام؟ فكشفت عن رأسها خمارها، فلما رأى رأسها مخلوقا، قال في دعائه: (ربّ إني مسني الضرّ وأنت أرحم الرّاحمين). وحلف أن يضربها مئة سوط إذا شفي. وقيل أنّ حلفه بضرّها كان لأثما أخبرته أنّها لقيت طبيبا في الطريق عرض أن يداوي أيّوب إذا رضي أن يقول أنت شفيتي بعد علاجه، فعرف أيّوب أنّ هذا الطبيب هو إبليس، فغضب وحلف أن يضربها مئة ضربة.

قصة أيّوب فيها من المتناقضات ما يسفها بالتمام، وإليكم إلى جانب ما ذكرناه صياغات وروايات مختلفة عنها، وذلك لتسهيل المقارنات للقراء الكرام، ومنها:

روى بن أبي حاتم نحوه من حديث بن عبّاسٍ وفيه ما قيل عن أيّوب: "فكسأه الله حلةً من حُللِ الجنّة فجاءت امرأته فلم تعرفه فقالت يا عبد الله هل أبصرت المبتلى الذي كان هنا فلعلّ الذئاب ذهبت به فقال ويحك أنا هو" 517.

وروى بن أبي حاتم من طريق عبد الله بن عبّيد بن عمير نحوه حديث أنسٍ وفي آخره قال "فسجد وقال وعزّتك لا أرفع رأسي حتى تكشف عني فكشف عنه وعن الضحّاك عن بن عبّاسٍ ردّ الله على امرأته شبّابها حتى ولدت له ستة وعشرين ولداً ذكراً" 518

كان أيّوب عبدا من عباد الله الصّالحين، وقد ابتلاه الله تعالى لسرّ لا نعلمه، ولكن في مجمله لا يكون إلا خيرا ومن بعده رحمة عظمى، ذلك لأنّ الابتلاء لا يكون إلا من الله، ولكن لمن هم مقربين إليه،

---

517 فتح الباري لابن حجر، 6، ص 420.

518 المرجع السابق ص 420.

ليطهرهم من كلّ شيء في الحياة الدّنيا الزائلة، ثمّ يعيدهم فيها على القوّة  
والمكانة والرّفعة، ثمّ يورثهم من بعدها الجنّة.

وكما يقولون بلا حجة ودليل قاطع ولا غموض لقد أبتلي أيّوب في  
عافيته وولده وماله؛ فصبر صبورا جميلا، وبقي واثقا في ربّه، راضيا بقضائه،  
محتسبا لابتلائه، وكان الشيطان عليه اللعنة يوسوس لزوجته، ولعدد من  
خلصائه القلائل الذين بقوا على وفائهم له بأنّ الله - تعالي - لو كان راضيا  
عن عبده أيّوب ما ابتلاه هذا الابتلاء الذي طال سنين.

وفي أمر الابتلاءات يقول رسول الله عليه الصّلاة والسّلام وفقا لما  
روي عنه: "أشدّ النَّاس بلاء الأنبياء، ثمّ الصّالحون، ثمّ الأمثل فالأمثل  
وقال: يتتلي الرّجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في  
بلائه" 519

أمّا القرآن الكريم فيدلّ على أنّ ابتلاء الله عزّ وجلّ نبيه أيّوب عليه  
السّلام لم يكن على وجه العقوبة على ذنب أو مخالفة، ولكنّه كان  
لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى.

ولأنّه لم يكن عقابا فقد أثنى سبحانه وتعالى على صبره في قوله  
تعالى: { إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ } 520، وهو سياق ثناء  
ومدح ورفع مقام ومكانة، ولهذا فهو يختلف عن سياق العتاب أو  
العقاب كما يدّعي البعض. أي أنّ هذه الآية الكرّمة تكشف مدى رضا  
الله على نبيه أيّوب عليه الصّلاة والسّلام. ولهذا ليس كلّ ما يقال عن  
الأنبياء يؤخذ به وكأنّه المسلّمات والحجج؛ فنحن ندرك أنّ ما قاله  
الأنبياء هو الحجّة الصّادقة، ولكن كيف ثبت أنّ ما قيل عنهم قد قالوه  
أو أنّه كان ملتصقا بهم؟

---

519 صحيح الجامع، السلسلة الصحيحة للألباني، ص 143 . 145.

520 ص 44.

وهنا أقول موجزا:

الكلّ يعرف أنّ القرآن الكريم قد نسخ ما سبقه من رسالات، وأنّ النسخ لا يعدّ إلغاء لها، ولكنّه يعني أنّ ما قيل في تلك الكتب والصّحف والرّسالات قد احتوتها رسالة الكافة برسول الكافة محمّد خاتم الأنبياء والمرسلين.

وعلى هذا المثال؛ فإنّ سنّة محمّد عليه الصّلاة والسّلام هي السنّة الخاتمة؛ فمن يؤمن بنبي غير محمّد؛ فليس له إلاّ الإيمان بمحمّد الذي بالصّلاة والسّلام عليه تعم الصّلاة والسّلام على كافّة الرّسل عليهم الصّلاة والسّلام.

أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيًّا مَوْحَىٰ إِلَيْهِ؛ فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا التَّكْرِيمُ مِنْ رَبِّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ﴾ 521

ولأنّ أيّوب نبيا مكرّما من ربّه؛ فكانت له الإجابة من بعد الإجابة، وكان لع التيسير من بعد التعسير، أي كان له تزامن العسر مع اليسر مصداقا لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ 522.

وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "أشدّ الناس بلاء الأنبياء ثمّ الأمثل فالأمثل" وهكذا صار الناس إذا ذكروا بلاء سيدنا أيّوب وصبره على مرّ السنين مع كونه أفضل أهل زمانه.

وعليه:

---

521 النساء 163.

522 الشرح 5، 6.

هناك من المبالغة في ابتلاء أيّوب عليه السّلام، وهذا لا يعني أنّه لم يتعرّض لما تعرّض له، ولكن السّرعة في الدّعاء كانت مرتبطة بسرعة الاستجابة (فإنّ مع العسر يسرا إنّ مع العسر يسرا) أي أنّ اليسر في قصّة النبي أيّوب عليه السّلام قد تلازم مع كلّ عسر.

ومع ذلك سأذكر ما قيل في حقّه بين حقّ وباطل، ومنه:

إنّه ابتلي كما قيل بأن جاءت الشياطين إلى أمواله فأحرقتها، وفتكت بأغنامه وإبله وعبيده وخرّبت أراضيه؛ فلما رأى سيدنا أيّوب ما حل به لم يعترض على الله تعالى بل قال: لله ما أعطى ولله ما أخذ؛ فهو مالك الملك وله الحمد على كلّ حال.

وكما قيل أيضا: عادت الشياطين إلى أفعالها وفسادها؛ فسلطت على أولاد سيدنا أيّوب الذين كانوا في قصر أبيهم ينعمون برزق الله تعالى فتزلزل القصر بهم حتى تصدّعت جدرانها ووقعت حيّطانه وقتلوا جميعا ولم يبق منهم أحد. وبلغ سيدنا أيّوب الخبر فبكى لكنّه لم يقابل المصيبة إلا بالصّبر.

امتلاء إبليس وأعوانه غيظا ممّا صدر من سيدنا أيّوب عليه السّلام من صبرٍ وتسليم لقضاء الله وقدره وأصيب سيدنا أيّوب بأمراض شديدة عديدة لكنّه لم يخرج منه الدود كما يذكر بعض النّاس الجهال وإنّما اشتدّ عليه المرض والبلاء حتى جفاه القريب والبعيد ولم يبق معه إلا القلة القليلة، لكنّ زوجته بقيت تخدمه وتحسن إليه ذاكرة فضله وإحسانه لها أيّام الرّخاء.

ثم طالّت مدة هذه العلة ولم يبق له شيء من الأموال البتّة. وكان يزوره اثنان من المؤمنين فارتدّ أحدهما وكفر فسأل سيدنا أيّوب عنه فقيل

له وسوس إليه الشيطان أنّ الله لا يتلى الأنبياء والصالحين وأنتك لست نبيا فاعتقد ذلك.

وكما قيل أنّ الله سبحانه وتعالى أراد أن يختبر صبر سيدنا أيّوب عليه السّلام فابتلاه بمرض لم يبقه سليما إلا في قلبه ولسانه، وأصبح رجلا ضعيفا لا حول له ولا قوّة، ولم يعد أحد يزوره من أقاربه وأصدقائه سوى زوجته التي كانت له زوجة صالحة وبارة به ظلت ترعاه طيلة فترة مرضه وعملت في خدمة الناس بمقابل مادّي حتى تستطيع أن تطعم زوجها وتخدمه، وظل نبينا عليه السّلام مريضا وفقيرا سنين طوال، ولكن بالرّغم من كلّ المصائب التي حلّت به عليه السّلام فلم يتوانى عن حمد الله وشكره وازداد صبره صبورا كثيرا إلى أن أصبح يضرب له المثل في صبره.

وقد قيل الكثير ممّا قيل فيه، ولكنني لم آت منه إلا بما يليق بي أن أكتبه عن نبيا لا يليق بناء إلا أن نصلي ونسلم عليه كوننا لا نفرّق بين أحد من رسله، {لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} 523.

ولأنّ أيّوب نبيا مكرّما من ربّه؛ فكانت له الإجابة من بعد الإجابة، وكان لع التيسير من بعد التعسير، أي كان له تزامن العسر مع اليسر مصداقا لقوله تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} 524.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أشدّ الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل" وهكذا صار الناس إذا ذكروا بلاء سيدنا أيّوب وصبره على مرّ السنين مع كونه أفضل أهل زمانه.

وعليه:

---

523 البقرة 285.

524 الشرح 5، 6.

هناك من المبالغة في ابتلاء أيّوب عليه السّلام، وهذا لا يعني أنّه لم يتعرّض لما تعرّض له، ولكن السّرعة في الدّعاء كانت مرتبطة بسرعة الاستجابة (فإنّ مع العسر يسرا إنّ مع العسر يسرا) أي أنّ اليسر في قصّة النبي أيّوب عليه السّلام قد تلازم مع كلّ عسر.

ومع ذلك سأذكر ما قيل في حقّه بين حقّ وباطل، ومنه:

إنّه ابتلي كما قيل بأن جاءت الشياطين إلى أمواله فأحرقتها، وفتكت بأغنامه وإبله وعبيده وخرّبت أراضيه؛ فلما رأى سيدنا أيّوب ما حل به لم يعترض على الله تعالى بل قال: لله ما أعطى ولله ما أخذ؛ فهو مالك الملك وله الحمد على كلّ حال.

وكما قيل أيضا: عادت الشياطين إلى أفعالها وفسادها؛ فسلطت على أولاد سيدنا أيّوب الذين كانوا في قصر أبيهم ينعمون برزق الله تعالى فتزلزل القصر بهم حتى تصدّعت جدرانها ووقعت حيطانها وقتلوا جميعا ولم يبق منهم أحد. وبلغ سيدنا أيّوب الخبر فبكى لكنّه لم يقابل المصيبة إلا بالصّبر.

امتلاء إبليس وأعوانه غيظا ممّا صدر من سيدنا أيّوب عليه السّلام من صبرٍ وتسليم لقضاء الله وقدره وأصيب سيدنا أيّوب بأمراض شديدة عديدة لكنّه لم يخرج منه الدود كما يذكر بعض النّاس الجهال وإنّما اشتدّ عليه المرض والبلاء حتى جفاه القريب والبعيد ولم يبق معه إلا القلة القليلة، لكنّ زوجته بقيت تخدمه وتحسن إليه ذاكرة فضله وإحسانه لها أيّام الرّخاء.

ثم طال مدة هذه العلة ولم يبق له شيء من الأموال البتة. وكان يزوره اثنان من المؤمنين فارتدّ أحدهما وكفر فسأل سيدنا أيّوب عنه فقيل



له وسوس إليه الشيطان أنّ الله لا يتلى الأنبياء والصالحين وأنت لست نبيا فاعتقد ذلك.

وكما قيل أنّ الله سبحانه وتعالى أراد أن يختبر صبر سيدنا أيوب عليه السلام فابتلاه بمرض لم يبقه سليما إلا في قلبه ولسانه، وأصبح رجلا ضعيفا لا حول له ولا قوّة، ولم يعد أحد يزوره من أقاربه وأصدقائه سوى زوجته التي كانت له زوجة صالحة وبارة به ظلت ترعاه طيلة فترة مرضه وعملت في خدمة الناس بمقابل مادّي حتى تستطيع أن تطعم زوجها وتخدمه، وظل نبينا عليه السلام مريضا وفقيرا سنين طوال، ولكن بالرغم من كلّ المصائب التي حلّت به عليه السلام فلم يتوانى عن حمد الله وشكره وازداد صبره صبورا كثيرا إلى أن أصبح يضرب له المثل في صبره.

وقد قيل الكثير ممّا قيل فيه، ولكنني لم آت منه إلا بما يليق بي أن أكتبه عن نبيا لا يليق بناء إلا أن نصلي ونسلم عليه كوننا لا نفرق بين أحد من رسله، {لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} 525.

لما اشتد الحال على أيوب عليه السلام ولم يعد يقوى على شيء تضرّع إلى ربه سبحانه وتعالى ودعا كما ورد في سورة الأنبياء {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ} 526. إنه النبي أيوب الذي يثق في أنه لا تُسأل الرحمة إلا من مصدرها، ولهذا فهو قد سأل الرحمن الرحيم (وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) والرحيم اسم لله تعالى، ولأن اسمه الرحيم، ومن صفته الرحمة، إذن لا يمكن

---

525 البقرة 285.

526 الأنبياء 83، 84.

أن يَقْنُطَ فاعل خير أو مؤمن من رحمته. {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا  
الْإِحْسَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} 527.

ولهذا فالتمسك بالأفعال الحسان هو الدليل على ممارسة الخليفة في  
الأرض لدوره الطبيعي، أما الذين لم يقدموا على أداء الأفعال الحسان  
فهم المنحرفون عن نهج الخليفة على الأرض. ولذا أحسن يُحسن إليك،  
{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ  
لِّلْعَبِيدِ} 528 أي أن التمسك بالقيم والفضائل الإنسانية والعمل بها له  
جزاء حسن من قبل الذين يُقدّم لهم كلما قدره، ومن ورائه جزاء أعظم  
من الرحمن الرحيم، وفي مقابل ذلك إنزال الضرر بمن لا يعمل صالحا،  
وذلك بالعقاب في الحياة الدنيا متى وقع بين أيدي الناس الذين وقع  
عليهم منه ضررًا يستوجب عقابا أو قصاصا عاجلا، والضرر الأكبر يلاحق  
الضرر الأصغر حتى يدعمه يوم القيامة إن لم يقع العفو بأسباب تجب ما  
قبلها.

وبما أن الله هو الرحمن الرحيم، إذن الرحمة آتية لا محالة. وبما أنها آتية  
لا محالة لكل من يتقدم لها، إذن فلماذا القنوط؟ ولماذا لا تُفتح صدور  
البعض لاستقبالها واحتضانها؟ وعليه فمن يريد أن يُعمم برحمته الواسعة  
فعليه بالإيمان كما آمن أيوب عليه السلام، فالإيمان يمكن من  
الاستخلاف في الأرض ويجعل أصحابه من الوارثين في الدارين.

يقول الله تعالى: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ  
عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ  
تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} 529 كلمتي غفور ورحيم تدل

---

527 الرحمن 60، 61.

528 فصلت 46.

529. الأنعام 54.

على أنه الفاعل لذلك على أرض الواقع والقادر في أيّ حين على فعل المغفرة والرحمة، ولهذا جاءت كلمة الرحيم مستمرة بأفعالها التي هي شواهد دالة على إظهار الحقيقة كما هي سواء كانت ذات أثرٍ سالبٍ أو أثرٍ موجبٍ. وقصة سيدنا الخضر مع سيدنا موسى عليهما الصلاة والسلام دليل شاهد على تجسد الرحمة في الأفعال { قَالَ أَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا أَمَّا السِّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَوَةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا } 530

ولأنه عبد الله الصالح عندما ألمّ به الألم نادى ربه مناداة العبد الطائع السائل المعبود المطلق أن يفك ما ألمّ به من كربٍ وشدة، فكانت له الاستجابة متزامنة مع زمن الدعاء مصداقا لقوله تعالى: { وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَلَيْسَ لِي مِنَ الضَّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ } 531.

530 . الكهف من 70 . 82.

531 الأنبياء 83، 84.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: (إِذْ نَادَى رَبَّهُ أُنِّي مَسْنِي الضَّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ) أَي أَنْ أَيُّوبَ:

. (نادى).

. (فاستجبنا).

. (فكشفنا).

هذه الصيغ الثلاثة هي صيغ الملازمة الزمنية، وكأنه لا فاصل بين زمن المناداة وزمن الاستجابة وزمن كشف الضر عن أيوب.

ثم بعد ذلك آتينا أهله وأكثر من ذلك مثلهم معهم رحمة من عند الله جلّ جلاله (وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ).

ولذا؛ فمن يتقي الله ويطيعه كما أطاعه أيوب وأخلص له في العبادة يجد الله عزّ وجلّ قريبا مجيبا للدعاء كلما دعاه أحد من عباده الكرام، ولذلك بقيت استجابة الله لنداء أيوب ذكرى لأولي الألباب (وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ) الذين يعبدون الله وهم مخلصو العبادة.

ومع أنّ أيوب نبيا كريما من أنبياء الله الكرام إلا أنه بشر لم يرتقِ إلى الكمال كغيره من الخلق، فالكمال لله وحده، ولهذا تعرّض أيوب للمسّ من الشيطان، التجاء أيوب إلى من هو عابده واحد أحد ليفكّ اللبس عنه؛ فكانت له الاستجابة بما يطهره من اللبس مصداقا لقوله تعالى: {وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أُنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ

رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ وَحُذِّ بِيَدِكَ ضِعْمًا فَاضْرَبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا  
وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ {532}.

استجابة التطهير كانت بماءٍ طُهِرَ جعل أيوب على القوّة يركض  
طاعة لأمر الله الذي قال له: (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ)  
أي قم فأنت أصبحت معافي على الشفاء والقوّة والقدرة التي تجعلك  
مهيب أمام الإنس والجن فلا تقرّبك الشياطين من بعد هذه القوّة فركض  
برجله وهو متوكل على الله قوّة مطلقة.

أيوب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذرية إسحاق ابن إبراهيم، ولذلك  
كان أيوب أحد الذين جعل الله فيهم النبوة ذرية بعضها من بعض  
مصادقا لقوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا  
هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى  
وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنْ  
الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ  
آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ  
هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا  
يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ  
فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ  
اقتدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ {533}.

ولأنه لا ضار إلا الله؛ فهو الشافي، أي لا ضرر إن أراد الله الشفاء،  
ومن هنا، بعد أن مسّ أيوب ضررا، جاء الضار فضرّ ضرر أيوب؛  
فانقلب الضرّ شفاء، ومن هنا فالضار هو النافع الشافي، فهو الذي

ينفع من يشاء من خلقه ويضره حيث هو خالق الأشياء كلّها خيرها  
وشرّها ونفعها وضرّها"534.

والضّرّ ضد النفع535، ومع أنّ الضّرّ ضد النفع من حيث تقريب  
المعنى للقراء، إلا أنّ الضّار في أسماء الله الحسنى هو النّافع، فهو لا يضرّ  
لغاية الضّرر ولكنّه يضرّ لغاية المنفعة والفائدة والمصلحة.

الله سبحانه وتعالى "لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضرّه معصية  
العاصين، وإتّما هو النّافع الضّار"536، ولهذا يقول سبحانه وتعالى: {إِنْ  
تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ  
لَكُمْ}537.

الضّار اسم من أسماء الله الحسنى وفيه صفة لازمة للذات الإلهية لا  
تقبل الانفكاك عن مقابلها ولا نقول نقيضها، لأنّ المقابلة تحفظ التوازن  
المنطقي وإن كان الله تعالى غني عن هذا، فالمقارّبة التي نحاول فيها تبسيط  
معنى هذه الصّفة من أجل توضيحها وإظهار الإطلاق فيها للذات  
الإلهية، ونسبية هذه الصّفة لغير الله تعالى، فمّمّا لا شك فيه أن كثير من  
النّاس لا يفهمون من معنى هذه الصّفة إلا سلبا، وهذا غير صحيح فلا  
صفة سلبية في صفات الله تعالى، فكل صفاته كمال وجلال وجمال؛  
وهذا لا يدركه إلا المستخلفون فيها، أي الذي يُمكنه عقله من أن يجمع  
بالمعنى الفلسفي بين الذاكرة والإرادة والحفاظة والاستنتاج والإدراك، وإلا  
كيف نفهم قوله تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ  
الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}538 وفي قراءة الإمامين

---

534 لسان العرب، ج 4، ص 482.

535 المصدر السابق، ج 4، ص 482.

536 كتب العقيدة، ج 3، ص 159.

537 الزمر 7.

538 البقرة 251

ورش وقالون عن نافع ولولا دفاعُ الله النَّاسَ أي الحروب والافتتال من أجل إعمار الأرض وهذا ما يقوم به الخليفة وهو من أجل الإصلاح في الأرض وإعمارها تنفيذاً لأمر الله ومصدقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} 539.

وعليه فإنَّ إلحاق الضرر بالضرر هو فعل موجب، وهو عمل خير، من أجل الإصلاح في الأرض وإعمارها، حيث وضح الله للمستخلفين فيها سبل الهداية والرشاد بتفصيل ذلك بآيات مبشرات، فلقد قال الله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} 540. فالله سبحانه يوقع الضرر فيمن يريد الضرر والإفساد، لأنه سبحانه يرسل الرسل ويختار الخلفاء لما فيه من الخير للخلق بإبلاغهم الرسالة وأمرهم بالصالح بما فيه منفعتهم، فلما رفضوا دعوة الحق وكذبوا

بها منكبين لدلالاتها وخيرها وصلاحتها، وقد وقع اليقين في قلوبهم، ولكنهم لم يدعوا لاستعلائهم بالباطل وطغيانهم، فكان لابد من إيقاع الضرر بهم حتى لا يتفشى في الأرض الفساد، وهذه عاقبة الذين دأبوا على الفساد وإلحاق الضرر بالآخرين وبأنفسهم، وهذا الضرر الذي حل بهؤلاء الذين كانوا مفسدين مستعدين إنما هو إصلاح للأرض ومن يعمرها، وعبرة لمن يتعظ فمن قدر على هلاك فرعون وأمثاله من المفسدين كان قادرا على إهلاك من هو على صفته وذلك إلى يوم القيامة فإن الله تعالى دائم الضرر للأعداء كما أن جماله وجلاله باق للأولياء والخلفاء مستمر في كل عصر وزمان، فعلى العاقل أن يتعظ بحال غيره ويترك الأسباب المؤدية إلى الهلاك مثل الظلم والعلو الذي هو من صفات النفس الأمارة بالسوء ويصلح حاله بالعدل والتواضع وغير ذلك مما هو من ملكات القلب التي يتصف بها الخليفة، والإشارة في الآية إلى أن الذين أفسدوا استعداد الإنسانية لقبول الفيض الإلهي بلا واسطة كانت عاقبتهم أنهم نزلوا منازل الحيوانات من الأنعام والسباع وقرنوا مع الشياطين في الدرك الأسفل من النار فانظر كيف أن الارتقاء إلى السؤدد في مرضاة الله تعالى من دفع المفسد وجلب المصالح لا يكون إلا لمن اتبع سبيل الهدى وطريق الرشاد بمعنى أنه يحمل صفة الضار بالإضافة وهذه الصفة يتمتع بها الخليفة ومن سمع وأطاع أمره من رعيته.

كان النبي أيوب موهوبا وهذه الصفة التي اتصف بها سيدنا أيوب صلى الله عليه وسلم مثيرة للعقل الباحث عن الحقيقة؛ لذا سنتناول وهب الله لأيوب بأنه وهب بلا سبب وبدون دعاء، وان طلب الوهب سنة الأنبياء والصالحين، وتعريف الوهب من الله والفرق بينه وبين التبرع على المستوى الإنساني.

فنقول وعلى الله اعتمادنا:



إنَّ وهب أيُّوب يبدأ من وهبه لله النبوة والأهل وكل النعم التي تقلب فيها من قبل الابتلاء، دونما سؤال منه بأي منها، ودون عوض لله على وهبها، ووهبه نعما أكثر وأعظم من بعد الصبر على الضّرّ والمس.

وموهوب اسم مفعول تدل على من وقع عليه الوهب، كما تدل على أنّ هناك واهبا جعل من الموهوب موهوبا بعد هباته له التي لم تكن لولا وهبه هو بداية.

والموهوب في سيرة أيُّوب معلوم ذاتا وهبة، والواهب ليس مجهولا لأنّه لا واهب سواه بالمطلق جلّ جلاله وتقدست أسمائه سبحانه المسئول هبة في كل لحظة ونفس.

والذي وهب لأَيُّوب وهبان مصداقا لقوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ} 541.

- أهله.

- مثلهم معهم.

فكيف كان ذلك الوهب وهنا تثار تساؤلات منها:

- هل الوهب اشتمل على الموات من أهله؟

- هل هم عادوا أحياء؟

هل الوهب بالبركة في الباقين؟

ومن أين جاء المثل الثاني؟

وللإجابة على هذه التساؤلات نرى ما قيل في كتب التفاسير:

- "قال الحسن وقتادة: أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم"542.

أنّ الله تعالى أحيأ له أهله الذين كانوا ماتوا قبل البلية وأهله الذين ماتوا وهو في البلية، ويرى الجمهور على أنه تعالى أحيأ له من مات من أهله وعافي المرضى وجمع عليه من تشتت منهم. وقيل وإليه أميل (الألوسي) وهبه من كان حيا منهم وعافاه من الأسقام وأرغد لهم العيش فتناسلوا حتى بلغ عددهم عدد من مضى {وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ} فكان له ضعف ما كان543.

ونحن لا نرى رأي الحسن وقتادة رضي الله عنهما لأنه ينافي العقل ولم يثبت بنص ولم يذكره القرآن الكريم.

وكذلك لا نذهب إلى ما ذهب إليه الجمهور لأنّه يرى ما رأى الحسن وقتادة قبل ذلك. ونوافق الألوسي بأنّ الوهب في الأحياء بالبركة والتناسل، مع بقاء احتمال أن الله أحياهم له فهو على كل شيء قدير.

غير أنّ الوهب في حياة سيدنا أيّوب صلّى الله عليه وسلّم لم يقتصر على ذلك بل تعداه فالصّبر وهب والصلاح وهب ونعم العبد وهب.

وطلب الوهب سنة الأنبياء من قبل أيّوب ومن بعده وكذلك دأب الصّالحين والمؤمنين.

واختص الله به أيّوب أنّه وهبه ذلك الوهب دون أن يسأله بالتحديد أهله ومثلهم معهم.

---

542 تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج 7، ص 75.

543 تفسير الألوسي، ج 17، ص 357.

ونحن وفي هذا المقام وسيرا على نهج الأنبياء والصالحين لا نقدر على دفع ألسن الضَّرَاعَةِ من أن تلهج للواهب الوهاب أن نقول: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} {544}.

وطلب الهبة من الله سنة الرّسل والصالحين مصداقا لقوله تعالى: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} {545}.

فبانعدام الذرية بأسبابها المعلومة لا تنعدم حينئذ أسباب الهبة من الذرية الطيبة الموهوبة إذا دعا الموهوب طالبا الهبة من الوهاب (الله).

ونقول: إنّ كلّ ذرية هي وهب بأسبابها المعلومة أو الموهوبة لأنّ الأسباب المعلومة للذرية ما هي في حد ذاتها إلا هبة من الله الوهاب مصداقا لقوله تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاءً وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُرَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} {546}.

فالوهب عطاء بلا أسباب، والجعل بقاء على الأسباب وإن لم تتحقق أسباب الجعل بقي المَجْعُول على أصله لأنّه لا يملك من الأسباب شيئا.

---

544 آل عمران 8.

545 آل عمران 38 – 40.

546 الشورى 49 – 51.

## النبي ذو الكفل:

ذي الكفل هو نبيا من أنبياء بني إسرائيل عليهم الصلّاة والسّلام، ويقال أنّ ذو الكفل هو ابن أيّوب عليه السّلام، واسمه الأصلي بشر، وقد بعثه الله بعد النبي أيّوب وسّمّاه ذو الكفل، لأنّه قام بتكفّل بعض الطاعات، وهو عند الجمهور نبي مرسل وكان من شأنه أنّه جابه الظلم وتصدّى لأولئك الفجرة الذين طاردوا عدداً كبيراً من أنبياء بني إسرائيل وتعقبوهم ليقتلوهم؛ فكفّلهم ذو الكفل وآواهم غير مبالٍ بعسف الظالمين وكيدهم، وقيل أنّ ذا الكفل اسمه والأسماء لا تعلق 547.

وقال ابن عبّاس: كانّ ذو الكفل "في بني إسرائيل نبي، وكانّ مع ذلك ملكاً" 548.

ويقول الشعراوي: الكفّل هو: "الحظ والنصيب، وذو الكفل هو: ابن أيّوب عليه السّلام، ويظهر أنّ أولاد أيّوب كانوا كثيرين، إنّما اختص الله ذا الكفل بالرسالة، وكان هذا حظّه دون غيره من أبناء أيّوب؛ ولذلك سُمّي ذو الكفل" 549.

أمّا ابن كثير فقال: "إنّ النبي ذو الكفل هو من سلالة إسحاق عليهما الصلّاة والسّلام، وزعم قوم أنّه ابن أيّوب. ثم استظهر ابن كثير أنّه نبي. وأيّوب، وذو الكفل أرسلوا إلى أهل دمشق في الشّام 550.

كما وقع خلاف في "ذو الكفل" فقيل: إنّما هو رجل صالح، وتوقف في ذلك ابن جرير، وظاهر سياقه مع الأنبياء أنّه منهم 551

---

<sup>547</sup> التفسير الوسيط، مجمع البحوث، 8، ص 511.

<sup>548</sup> تفسير السمعاني، 3، ص 401.

<sup>549</sup> تفسير الشعراوي، 15، ص 619.

<sup>550</sup> التفسير الوسيط، مجمع البحوث، 8، ص 511. طال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره

من الأديان، ص 66.

ولأنّ ذا الكفل اسم ومعنى فهو: نبي من بني إسرائيل بعثه الله تعالى إلى ملك يقال له كنعان فدعاه إلى الإيمان وكفل له الجنّة وكتب له معه كتاب ذكر حقّ على الله، وآمن الملك وأوصى بأنّ يدرج ذلك الكتاب معه في طي أكفانه، ففعلوا ودفنوا الملك؛ فرد الكتاب إلى ذي الكفل، وقيل له: إنّ الله يُقرئك السّلام وقد وفي للملك ما كتب في ذمتك<sup>552</sup>.

ذو الكفل نبيا كريما واسع الصدر لا تضيق نفسه إلّا من ظلما وممن يكون وعلى من يقع، وهو الذي تولّى تخليص مجموعة كبيرة من أنبياء بني إسرائيل من القتل، وتكفّل بكلّ ما يمكنه من العمل الصّالح. وقيل: ذو الكفل؛ "لأنّه تكفّل بأمر سبعين نبيا فخلّصهم من القتل. وقيل: تكفّل بعمل صالح فوقى به". ولهذا كان ولي لمن يقع عليه ظلما، حتى اتصف بالعدل، وهذه القيمة هي التي تأسّس ملكه عليها. وهنا؛ فالولاية قيمة حميدة كونها اعتراف بواجب أو حمل مسؤوليّة واجب حمل أعبائها.

ومن ثمّ؛ فالولاية مناصرة للحقّ وأصحابه، وهي قيمة حميدة تتمرّز معاييرها على المودّة والمحبة والإخلاص وإلّا ستكون فاقدة لدلالاتها الشرعيّة والقانونيّة، ذلك لأنّ الولاية ذات عرى لا تنفصم.

وعليه: فإنّ الولاية تستوجب حُسن معاملة وإدارة وتنظيم وحُسن علاقات، ولذا فالولاية تقارب وتلاحم عن إرادة بين الذين لهم من العلاقات ما يستوجب ظهور الولاية شكّلا وموضوعاً، والولاية النّاجحة هي التي تؤسّس على الاحترام المتبادل والاعتراف المتبادل والتقدير المتبادل مع عدم الإغفال عن أهميّة المشاورة في الأمر الذي يتعلّق أمره بالجميع.

<sup>551</sup> منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة، ص 694.

<sup>552</sup> درج الدرر في تفسير الآية والسور، 3، ص 123.

والولي المطلق الله ومن يتبعه إيماناً وطاعة وهداية يكون ولي بالإضافة متخلّقاً بأخلاق هذا الاسم العظيم، فيتداخل المعنى الإلهي بوجه الإطلاق مع المعنى الإنساني بوجه الاستحقاق إن أطاع الولي بالإضافة الولي المطلق، ومن هذا التداخل الذي لا يصعب على صاحب الذوق السليم والفكر المستنير أن يعرف الفروق بين المطلق والمضاف.

والولي من العباد: هو المستخلف في الأرض وهو من يحبّ الله عزّ وجلّ ويحبّ أوليائه وينصره وينصر أوليائه ويعادي أعداءه، ويحقّق الحقّ ويعمل على إزهاق الباطل 553.

إذن الولاية مناصرة والولي هو النصير. وفي القرآن العزيز: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} 554، والولي بالإضافة المطيع، وهو التابع إيماناً لمن أولى أمره إليه.

والولاية هي ما يستوجب الطّاعة في غير معصية الله تعالى، والولي بالإطلاق هو الذي يوالي من ينصره، ولا يوجد من يوالي الله مثل الخليفة سيد الخلق صلّى الله عليه وسلّم الذي أوقف حياته لنصرة الحقّ ولنصرة الدين الحنيف، لذا فالله ينصر من ينصره، وإن ظن البعض أنّ الله لن ينصر النبي صلّى الله عليه وسلّم فهذا الظن وهم محض، يقول الله تعالى: {مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ} 555.

---

553 المقصد الأسنى، ج 1، ص 130.

554 آل عمران، 68

555 الحج 15

والولي هو المتولي لأوامر الولي المطلق (الله) سبحانه وتعالى وهو الخليفة الذي أخذ على عاتقه حمل الأمانة؛ فيدعو إلى المعروف وينهى عن المنكر.

ومعلوم أنّ البشر كثيرون ولكن الذي حمل الأمانة وتولّى مشقّتها وأحد وهو الإنسان الذي يتّسم بصفات الإنسان الأمثل أو النموذج الأصوب وهو بهذا المعنى إنسان وأحد فرد في كلّ زمان يصلح الله به فساد المفسدين من جنسه، ويمكن أن يتبعه آخرون على درجات متفاوتة من صلاحه ورغبته في التعمير بشكل إنساني يؤدّي الأمانة التي استخلفه الله عليها

وعليه:

فدو الكفل فاعل الخيرات الحسان وهو الذي أوكل أمره إلى الله الوكيل الدائم، ومن هنا كان ذو الكفيل وكيلا لمن لحقته مظلمة، سواء أكان من الأنبياء الذين تعرّضوا للقتل لولا تدخل ذو الكفل وكفالة حمايتهم وحفظهم، أم أنّهم من غيره، ولهذا فالوكيل هو من يتولى الأمر سواء أكان موكّلا به أم أنّه عند الضرورة ولإنقاذ أرواح يتولّى هذا الأمر وكيلا من نفسه، ولهذا فالوكالة في مجملها في طاعة الله هي شرعية. أي أنّ الوكالة ضمان متعارف عليه يمكن أن يوثق عقدا وشهودا، ويمكن أن يكون وفقا لقاعدة التوريث في الدين الإسلامي حيث الأخ الأكبر يصبح وكيلا لبقية أخوته الذين لم يبلغوا ويدركون ما يجب ويقفون دونه وما لا يجب وينتهون عنه.

ولذا فالوكالة قيمة حميدة تتكوّن بدايةً بحسن التّوايا، وتنتهي بالتّسامح بين الوكيل ومن كان وكيلا عليهم، حتّى لا يبقى ما يؤثّر سلبا في النّفس، حيث لا كمال إلّا الله تعالى.

فالوكالة تفويض عن إرادة عندما يكون الموكل عاقلا ناضجا عارفا بمبررات التوكيل، ومع ذلك يتحمل ما قد يحدث من دائرة غير المتوقع، ولكن يظلّ القانون والشرائع والأعراف مصدر للأحكام التي يمكن أن يحتكم إليها ويُحتكم بها، وقد تكون الوكالة ليس عن إرادة ولا حتى عن دراية، بل لأسباب القصور يجد المكفول مكفولا من قبل من هو حريص عليه وعلى سلامة ما ورثه من والديه أو ممن له الحقّ في أخذ نصيب من ثروتهم وراثته.

وهنا فالوكالة قيمة حميدة وهي ضرورة عند الحاجة لأسباب القصور أو لأسباب ظروف قاهرة؛ فانعدام المقدرة يستوجب وكيفا سواء عند صغر السنّ أو عند فقدان المدركات العقلية التمييزية بأسباب الشيخوخة أو المرض، ولذا فالوكالة تتطلب ضمنا مكتوب، وضامنا قادر على سلامة الوكالة وفقا لما كتب.

إذن الوكالة عبء ومسؤولية على عاتق من قبل أن يكون وكيفا على ما وكلّ عليه، وفوض بشأنه تفويضا صريحا موثقا؛ فالوكالة يمكن أن تكون تفويضا بخصوص الحفظ، حفظ ما وكلّ عليه الإنسان إلى حين يأتي انتهاء زمن التوكيل في الزمن المستقبل، أو تفويض تصرف فيما تتمّ الوكالة بشأنه استثمارا حرا يجعله في دائرة الممكن معرضا لما هو متوقع ولما هو غير متوقع.

إذن للوكالة معطيات منها:

. الموكل.

. الوكيل.

. شيء يستوجب الوكالة.

. عقد يوثق به موضوع الوكالة.



وهنا فالوكيل هو "المتوكل" لتدبير خلقه، بعلمه، وكمال قدرته، وشمول حكمته. الذي تولى أوليائه، فيسّرهم لليسرى، وجنّبهم العسرى وكفاهم الأمور. فمن اتخذه وكيلاً كفاه"556، فنعم الوكيل الكفيل بنا وبأرزاقنا؛ فهو الذي تولى الأمور إليه وهو الولي الكريم، ولذا فالناس المؤمنون الكرام إذا مسّهم ضرٌّ من البعض خدعة وضلالاً وتأمراً ليس لهم بداً إلا أن يولوا أمرهم إلى الوكيل المطلق؛ فهو نعم الوكيل مصداقاً لقوله تعالى: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}557؛ فالمتوكل على الله هو الذي يعلم أنّ الله كافٍ رزقه وأمره فيركن إليه وحده ولا يتوكل على غيره.

والوكيل المطلق رحيم بمن وكل أمره إليه تعالى؛ فليجمع الناس ليرهبوا المتوكل على الوكيل، وما على المتوكل على الوكيل المطلق إلا أن يقول: "حسبي الله ونعم الوكيل" نعم أنا المتوكل عليه، الآخذ بأسبابه، المنتصر باعتمادى عليه، لا يخيفني جموع أهل الباطل من مفسدين حاقدين، ولا يرعبني عددهم؛ فعددهم بدد، وجند ربّي لي مدد {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}558.

لقد كان ذو الكفل صلى الله عليه وسلم نبي صادق وصديق صابر اصطفاه الله للنبا العظيم الذي يهدي قومه للتي هي أحسن مصداقاً لقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ}559؛ فقوله (وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ)

<sup>556</sup> شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج 1، ص 88.

<sup>557</sup> آل عمران 172، 173.

<sup>558</sup> -الفتح 7.

<sup>559</sup> الأنبياء 85، 86.

تدل على أنّ معاناة كبيرة قد تعرّض لها ذا الكفل من قومه، ومع ذلك تحمّل كل ما لحقّ به منهم وصبر عليهم من أجل أن يكون فيهم نبيا مرشدا للحقّ بالحقّ حتى يصح الغافلون من غفلتهم التي أضلّتهم عن اتباع السبيل الحقّ.

فكان ذو الكفل في قومه رحمة، ذلك لأنّه كان من المدخلين في رحمة الله الواسعة (وَذَا الْكِفْلِ كُلُّ مِّنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا)، والإدخال في رحمة الله على مفاهيم عظيمة؛ فمن رحمته الواسعة إظهار ذو الكفل على معجزات وآيات من آيات الخالق مكنته من علم اليقين من خلال إظهاره على تلك المعجزات والآيات العظيمة.

ومن رحمته الواسعة أنّه كان مصطفى اصطفاً مباركا ليكون رسولا بالحقّ على الحقّ الذي لا يدركه إلا المؤمنون المصدّقون الذين أظهرهم الله على اليقين العظيم.

ومن رحمته أنّه هادي للتي هي أحسن ممّا جعله خليفة من الوارثين في الدارين.

ولأنّ ذا الكفل نبي كريم وصديق عظيم؛ فهو دون شكّ أنّه من الصالحين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (وَذَا الْكِفْلِ كُلُّ مِّنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ).

فقوله تعالى: (مِنَ الصَّالِحِينَ)، يدلّ على أن ذا الكفل كان الصالح في خلقه، ولهذا كان اجتنابه للنبا لأنّه صالح له بالتمام، وهذا يدل أيضا على أن الصالح هو من لا نقص ولا عيب فيه، والكمال لله وحده.

وعليه؛ فإنّ الله قد أدخل ذا الكفل في رحمة الواسعة، ولهذا فهو المرحوم بها في الدارين، ذلك لأنّ الرّحمة لا تكون إلّا من الرّحمن الذي قال: (وَذَا الْكِفْلِ كُلُّ مِّنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا). إنّ الرّحمن

الذي جعل الرحمة في ذا الكفل عليه السلام، وهو الذي يدعى فيجيب رحمة، قال الله تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} 560 بما أنكم تدعون الله أيها المؤمنون، فبأي اسم من أسمائه ادعوه، سواء دعوتم الله تعالى أم دعوتم الرحمن لا فرق في ذلك، فدعاؤكم لم يخرج عن أسمائه الحسنى. وفي جميع الحالات أنتم تدعون الله. فلا تدعوا آخر من دونه. وهذا لا يعني وجود ازدواجية، بل يعني أن الله واحد لا يُثنى ولا يُجمع ولا يُعد بأي متوالية حسابية. نزلت هذه الآية الكريمة حسبما رواه الواحدي عن ابن عباس رضي الله عنهما بعد ما سمع بعض من المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ربه بقوله (يا الله يا رحمن) فقالوا: "إنه ينهانا أن نعبد إلهين، وهو يدعو إله آخر" 561. وكما يبدو أن لضعف اللغة أثر سالب على معرفة الدلالة بالدعاء السابق، فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقل في دعائه (يا الله ويا رحمن) بل قال (يا الله يا رحمن) فانعدام حرف الواو من دعاء رسول الله تأكيد لا يصاحبه الشك في أن المدعو هو واحد لا شريك له، ولأن الداعي يتضرع إلى ربه بالرحمة، فلا أفضل له إلا أن يدعوه بالرحمن، ولهذا قال: (يا الله يا رحمن). وفي الدعاء الافتراضي جاء (يا الله ويا رحمن) وفي هذا الدعاء دخل حرف الواو الدال على إثبات وجود الآخر، الذي ورد في عقول أولئك المشركين وهو ما لم يقله الرسول في دعائه المبارك.

قال تعالى: {وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} 562 جاءت (إلهكم إله واحد) مطلقة دالة على من يستحق أن يُعبد، وواحد تعني ليس له ثان، و(لا إله إلا هو) رد على من يظن بوجود آلهة أخرى

560. الإسراء، 110.

561. تفسير البيضاوي أنوار التنزيل وأسرار التأويل. محمد أحمد كنعان، بيروت: دار لبنان ودار

العلم للملايين، الطبعة الأولى، 1984م، ص 379.

562. البقرة، 163.

من دونه، ولأجل التنبيه والتفطين من الغفلة جاء التأكيد ب(لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) ولهذا تدل (هو) على الله الذي (لا إله إلا هو) الذي (هو) الرحمن الرحيم. وبذلك إثباتا لا فرق بين أن يُقال الله أو يُقال الرحمن فكلاهما واحد.

ولذا فالخليفة بدأ عمله في ممارسة شؤونه الحياتية باسم الله مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} 563 فما يود قوله سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو: إنَّ ما نود القدوم عليه معكم فيه الرَّحمة، وبالتالي لا مجال لكم في التأخير عمَّا من شأنه أن يجعل بيننا وبينكم رحمة، فاقبلوا ولا تتأخروا عن دخولكم ميادين المحبة والرَّحمة، ولهذا بدأ سليمان بعنونة رسالته باسمه تعالى (الرحمن الرحيم). فالرحمن اسمه تعالى الذي لا يثنى ولا يجمع وذلك لارتباطه بالوحدانية وعدم المشاركة، ولذا لو لم يكن الله رحمن ما كان رحيم. فالرحمن شاملة جامعة لكل رحمة، ولهذا فالله تعالى هو مصدر الرَّحمة، ومن وجوده استمدت الرَّحمة أو اشتقت، فالله سابق الوجود على كل موجود، ولأنَّ الرَّحمة من الموجودات (المخلوقات) لذا كان الرحمن سابق عليها وكانت هي مترتبة على وجوده.

وعليه لا يمكن أن يشتق الخالق ممَّا خَلَقَ، ولكن كلَّ شيء يشتق من خالقه. ولأنَّ البشر كغيرهم من ورائهم خالق، ولأنَّ المخلوق وفقا للقاعدة يشتق صفته من خالقه، لذا يستخلف البشر خالقهم بالرَّحمة. فالرَّحمة صفة التمام بين المحبين، ولهذا فهي خاصية إنسانية تميِّز بها البشر عن غيره من المخلوقات الأخرى. ومن يكتسي بالرَّحمة يُخلف الرحمن في شيء من خواص الرَّحمة، ومن لا يُخلفه يفقد هذه الخاصية التي يفقدانها لا يتمكن من أن يكون خليفة.

---

563. النمل، ، 30، 31.

والفرق كبير بين الخليفة الكم، والخليفة الكيف: الخليفة الكم: كلٌّ من حُلُق فهو خليفة عددا. وكلٌّ من آمن بما أنزل الرّحمن فهو الخليفة قيما. ومن هنا يتضح الفرق في المعنى بين الكافر الذي له الحقّ في الرّحمة في هذه الدار الدنيا، وبين الخليفة الذي له الحقّ في الرّحمة باستخلافه الدارين معا.

ولأنّ ذا الكفل من الصابرين فهو من القادرين، حيث لا صبر إلا لقادر عليه، ولذا كان ذو الكفل صابرا وقادرا على تحمّل الأعباء وما ترتب عليها في سبيل النبأ العظيم الذي أنبي به من المنبئ الأعظم الله جلّ جلاله.

إذا الصابر هو القادر على حمل المسؤوليات الجسام دون كلل ولا ملل، وعندما يوفّق في حملها يوصف بأنه قدير وجدير بما حمل أو حمّل به في سبيل غايات عظام كرسالة أو نبأ عظيم كما هو حال الرّسل الكرام صلّى الله عليهم وسلّم.

ولأنّ القدير المطلق هو الله عزّ وجلّ فكل قدرة لا تستمد إلا منه، أي لو لم تكن له هذه الصفة ما كانت لنا القدرة التي نحن عليها.

ولأنّ القدرة على مستوى المخلوق مهما عظمت فهي لا تخرج عن دائرة النسبية، لذا لا يمكن أن يكون الإنسان مهما عظم قديرا بالمطلق وذلك لأنّ القدير قوته تغالب أي قوّة ولو اجتمعت، ولهذا هو القدير جلّ جلاله.

ولأنّ القدير فهو إذا أراد شيئا يقول له (كن) فيكون ولهذا قدرته دائما متحقّقة بالقوّة، أمّا الإنسان فله الأمانى غير المتحقّقة بالقدرة البشرية في بعض الأحيان، ولهذا ليس كل ما يتمناه الإنسان هو قابل لأن يتحقّق خاصة إذا جاء في غير طاعة الله مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَدَّ

كثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ  
أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَأَعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ  
اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {564.

إذا الخالق تعالى هو القدير الذي يقول للشيء كن فيكون، أمّا قدرة  
ذو الكفل التي بما كان صابرا لا مُطلقية فيها إلا مطلقية أمر الله الذي  
هو الحقّ فمن عمل عليه عمل على تحقيق المطلقية وهذا دور الأنبياء  
والرسل والصالحين والصدّيقين والمؤمنين حقّا الذي يسعون إلى إحقاق  
الحقّ كما يشاءه الله ومع ذلك قدراتهم وصبرهم وإن عظم لن يبلغ  
المطلقية.

ولهذا؛ فأمر المخلوق في دائرة الأمانى بين متوقّع وغير متوقّع ومهما  
كبر حجم هذه الدائرة فهي دائرة محصورة بداية ونهاية أي أن أمرها لم  
يكن مطلقا، ولهذا ليس كل شيء سيكون قابلا لأن يتحقّق وإن صبرنا  
في الزّمن الآن أي انه بالصّبر سيتحقّق، ولكن ليس دائما يتحقّق في  
الزّمن الآن، لو كان كذلك لتحقّق كل شيء في زمن الرّسل صلّى الله  
عليهم وسلّم، ولو كانت الأمانى تحقّق كل شيء لتحققت أمانى أهل  
الكتاب الذين ودّ كثيرا منهم أن يردوا المسلمين حسدا عن دينهم كفّارا؛  
فهؤلاء ومن هم على أمثالهم في كل عصر إن لم يستغفروا ويتوبوا لله تعالى  
سينالون أشد العذاب ولذا فإن القدير سبحانه وتعالى على كل شيء  
قديرا، قال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ  
إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَأَعْفُوا  
وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {565.

564 البقرة 109.

565 البقرة 109.

ولأنّ القدير على كل شيء قدير جعل الخيرات محصية بما لا تُحصى به، أي جعل الخيرات على الكثرة التي لا تُحصى من مخلوق مع أنّها المحصية لديه قال تعالى: {إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} 566، ولأنّ الخيرات متعددة ومتنوعة فعملها ممكنا من العباد طاعة لله تعالى، ولهذا التنوع والتعدد من العلامات الموجبة لترسيخ الفضائل والقيم ولكن علينا بالصبر كما كان ذو الكفل صابرا من اجل أن يُحقّق الحقّ، قال تعالى: {وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 567، إذا المهم هو عبادة الله واحدا أحدا، والمهم الإكثار من عمل الخيرات ولكن تولية الوجوه ليست هي الغاية بل الغاية لمن تولى الوجوه، فإن كانت مولاة للواحد الأحد فإن توليتها أينما تكون هي على الصواب، وإن كانت مولاة لمن هم دونه كفرا وشركا فهي على الباطل.

ولأنّ الخالق القدير هو الصبور خلق كلّ شيء كما شاءه دون عجلة ولا تسرّع مع أنّه خلق كل شيء بالأمر (كن) لذلك وجبت على كلّ مخلوق طاعته وعبادته والتسبيح بحمده جلّ جلاله، فعلى المستوى البشري من يعمل لك خيرا محدودا تشكّره وتراه جميلا رائعا يستوجب منك التقدير والاعتراف فما بالك بالذي خلقك خلقا آلا يستحقّ الإيمان والطاعة والإتباع في كل أمر ونهي، ثم آلا تعترف للذي خلق الشيء وخلق منه الأشياء وخلقك من أشيائه وهو المسيطر والمهيمن على كل شيء بأنه الملك القدير جلّ جلاله.

<sup>566</sup> مريم 93 . 95.

<sup>567</sup> البقرة 148.

وعليه: فالذين يؤمنون بالتقدير جلّ جلاله هم الصابرون حقًا وهم الذين لا يقنطون من رحمته الواسعة فهو على كل شيء قدير، ولذا فهم صابرون على الإيمان دون قنوط ولا يأس ولذا فهم سينتصرون بما أنهم على الحقّ وبالحقّ يعملون ومن اجل إحقاقه جادون إلى أن يعم السّلام في الأرض ويكون النّاس كافة أخوة متحابين.

ولأنّ القادر جلّ جلاله فمن جعله القدير القادر عقيما بالمطلق فعليه بأن يقبل ويصبر ويعلم أن الله في أمره شؤون فليتقي الله ربّه ولا يظلم أحدا، وأن يحمد ربّه على ذلك الذي لو شاء لجعله شيئا آخر أو جعله على حال آخر قد لا يكون على أحسن حال فالحمد لله ربّ العالمين على حُسن خلقه وتقديره لكل شيء تقديرا.

ولأنّ المؤمن لا يقنط من رحمة الله الواسعة فلا يستعجل بإصدار الأحكام فما يقلقك اليوم قد لا يقلقك غدا وقد يسعدك كثير من بعد غدٍ، ولذلك فلا تقنط ولا تستعجل وكن من الصابرين كما كان ذو الكفل من الصابرين.

ولأنّ الصابر هو غير المستعجل وهو من ينظر إلى الأمور من زويا التوافق الزمني مع التوافق المكاني مع مراعاة الظروف الخاصة بالأحوال والآمال فإن الصبور من هو أكثر صبرا والصابر هو من يؤمن بمشيئة الله وقدره ويرضى بها ويعمل كل ما من شأنه أن يحقّق له الرضا في مرضاة الله دون كلل ولا ملل.

وعليه فالبارئ قد براء أنبيائهم من كلّ ما نعتوا به بغير حقّ، وهذا النبي ذو الكفل مبرّء من البارئ الأعظم جلّ جلاله، ولذلك فصفة البارئ تحتوي في مضمونها البراءة من الشريك والصاحبة والولد، وهو الخالق الذي لا يُخلق. وهو الذي تعود له أفعال الخلق الكاملة مصداقا لقوله



تعالى: { يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ  
فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ } 568.

والبريء من قضي ببراءته من التهم. والبارئ من لا تلحقه التهم،  
وليس بناقص. ولذا فإنَّ البارئ المطلق هو الذي لا تلحقه التهم بالمطلق  
وليس بناقص، والبارئ بالإضافة هو أيضا لا تلحقه التهم وإن رُمي بها،  
ولكن ليس بكامل، فالكمال خاصية الخالق التي لا يصلها المخلوق.

ولأنَّ البراءة من الذنوب والآثام طهارة للنفس، فإن من يرمي أحدا  
بخطيئة لم يرتكبها فقد احتمل بهتاناً مبيناً مصداقاً لقوله تعالى { وَمَنْ  
يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَنْ يَكْسِبْ  
حَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا } 569.

ولهذا فإنَّ ذو الكفل من الخيرين، والخير من الخلق هو من يرك  
الناس المحتاجين بما يشبع حاجاتهم أو يسهم في إشباعها، أو بما يرشدهم  
للتّي هي أحسن وأقوم، قال تعالى: { وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ  
وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ } 570، والأخيار هم المتميّزون بما ميّزهم الله به عن  
الغير فأعطاهم ما لم يعط الآخرين نبأً وحكمةً وبيّنةً وهداهم إلى هداية  
الناس.

والخير بالإضافة هو من يوجّه قوّته في خدمة الآخرين حتى يكونوا  
على القوّة التي من أجلها خلق في أحسن تقويم وبها يُحقّق الحقّ ويُدمغ  
الباطل حتى يزهد.

والخير هو من يكون قادراً على قول الحقّ وفعل الحقّ وغير متردد في  
ذلك وفي أي مكان وزمان وجد فيه.

---

<sup>568</sup> الانفطار، 6 . 8.

<sup>569</sup> النساء، 111، 112.

<sup>570</sup> ص 48.

والخير هو من يعلم أنّ ما يملكه من ملك هو من ملكه الواسع جلّ جلاله؛ فلا يطغى ولا يظلم الناس أشياءهم.

والخير هو من يعلم أنه لا سلطان إلا سلطانه؛ فلا يهيمن على الناس بما يملكه من سلطان، بل عليه أن يجعلهم على المودة أخوة متحابين.

والخير هو من يؤمن بأنّه لا مطلّقة للعرش غير عرش الله تعالى فلا يكفر ولا يشرك ولا يضلّ ويطغى، بل عليه أن يتقي الله فيما يولى عليه من عرش، وأن يجعل الناس على بساط العدل والمساواة في مرضاة الله تعالى ذو العرش العظيم.

والخير هو من يستمع للناس ويستمعهم الحقّ ويبينه لهم حتى يهتدوا إلى سواء السبيل. وهذه الصفات الحسان كلّها قد توافرت في النبيّ ذا الكفل عليه الصلّاة والسّلام.

**النبيّ يونس:**

إنّ مؤلّفنا الموسوعيّ هذا يتناول البحث في قصّة يونس صلّى الله عليه وسلّم، وقد تناولنا فيه مجموعة من القضايا التي لم تكن موضع اتفاق في الرّوى من خلال فهم النصّ القرآني، وقد وقفنا على معظم ما قيل من آراء واجتهادات من اسمه بداية إلى أن آمن قومه أجمعين.

وكان مفتتح مؤلّفنا عن يونس صلّى الله عليه وسلّم بجملة من صفاته التي خصّه الله تعالى بها، من النبوة والرّسالة والاجتباء وصحبة الحوت، وما لهذه المفردات من الدلالة التي تحملها كلّ صفة بما يتصف بها حاملها.

فيونس عليه الصلّاة والسّلام نبيا لقوم محدّدين يسكنون مدينة نينوى بالموصل العراقية، وسمي يونس ابن مئىّ بَدِ الثُّون (الحوت) أو

صاحب الحوت، وعدد الشعب الذي أرسل إليهم نبي الله يونس ابن متى يزيدون عن مائة ألف، وجميعهم كافرون كونهم يعبدون ما يعبد من دون الله.

حاول النبي يونس عليه السلام ما استطاع إليه سبيلا أن يدعوهم إلى التوحيد وترك ما يعبدون من أصنام شركا بالله تعالى، ولكن قد صعب الأمر عليه؛ فلم يؤمن معه أحد منهم؛ وهكذا كانت العصبية على الكفر؛ فهم قوم تعصبوا جميعا على أن لا يؤمنوا بما يهدي إليه ذو النون عليه السلام. وهذا الأمر استغضب النبي المكلف بالتبشير والدعوة؛ فغضب منهم جميعا كونهم جميعا لم يؤمنوا؛ ومع ذلك أعطاهم الفرصة ثلاثة أيام، وهو كما يراها للضرورة إنذار؛ فكان الإنذار ثلاثة (أيام الإيمان أو العذاب الشديد) من الشديد الأعظم جلّ جلاله.

تركهم وقرّر الهجرة بدينه لعله يجد قوم يؤمنون بالحقّ الذي بأسباب التمسك به غضب يونس بمن لم يأخذ به؛ فتوجّه إلى البحر مهاجرا ليبلغ دين الله عزّ وجلّ أينما وجد في المعمورة من يستمع إليه ويأخذ بما أنبأه الله به.

ومن جملة القضايا وجدنا أنّ هذا النبي الكريم يونس صلّى الله عليه وسلّم ذكر في القرآن الكريم ست مرات، أربع منها باسمه (يونس) ومرة (ذو النون) ومرة (صاحب الحوت)، وقد عرّفه لنا نبينا محمّد صلي الله عليه وسلّم أيضا وذكره باسمه واسم أبيه (يونس بن متى) وذلك بقوله صلّى الله عليه وسلّم: لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى، وقد تناولنا هذه القضية من جميع وجوهها.

كان أهل قريته قد ركنوا في عبادتهم إلى عدد من الوثنيات القديمة فعبدوا الأصنام بدلا من أن يكونوا على التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى، فبعث الله إليهم نبيه يونس صلّى الله عليه وسلّم يدعوهم إلي

الإسلام، ويردّهم إلى التوحيد من جديد، وبعد أن أقام فيهم ردحا من الزّمن يدعوهم عصوه وكذبوه، فهذّبهم بعذاب الله، وتوعدهم به، ثم خرج مغاضبا من بين ظهرائهم، وعلى هذا فيونس صلّى الله عليه وسلّم نبي مرسل من الله تعالى إلى قومه ذهب مغاضبا.

إنّ مسألة المغاضبة من أهم القضايا التي ركّز عليها البحث من أجل الوصول إلى حقيقة الفعل والتمييز بين الغضب والمغاضبة، ووجدنا أنّه صلّى الله عليه وسلّم لم يغضب ربّه ولم يغضب، ولم يقل الله تعالى أنّه ذهب مغاضبا ربّه، فمن زاد هذه الزيادة كان قائلًا على الله الكذب وزائدا في القرآن ما ليس فيه، وهذا ما لا يجوز، فإنّما هو غاضب قومه، وهذا لم يوافق مراد الله تعالى في مشيئته، وإن كان يونس صلّى الله عليه وسلّم لم يقصد بذلك إلا إرضاء الله عزّ وجلّ، فإن وقع منه ذلك فهو بغير قصد؛ فقد أراد به وجه الله، فلم يوافق ذلك مشيئته تعالى، فكان خلاف مراد الله جلّ وعلا.

وقد بيّنا أنّ يونس صلّى الله عليه وسلّم، نبي الله المصطفى وعنده الصالح، لما ذهب مغاضبا {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ} 571. كان ذلك من القضايا الكبيرة التي توصل البحث فيها إلى نتيجة عقدية عقلية منطقية، بما لا يدع مجالًا للشك أن يونس صلّى الله عليه وسلّم كان موقنا أنّ الله تعالى يقدر عليه وعلى جميع خلقه، من القدرة والقوّة والسلطة والتضييق والسّعة.

إنّ ظن يونس صلّى الله عليه وسلّم ذهب إلى أنّ الله تعالى لن يؤاخذه على هجر قومه مغاضبة لله تعالى، فلبث في بطن الحوت.

ومن المغاضبة انتقل البحث إلى قضية عرفية شرعية، هذه القضية هي المساهمة التي تحلّ كثيرا من الإشكالات والمسائل وقت الاختلاف في

---

571 الأنبياء 87.

بعض الأمور التي يستعصي على الناس حلّها، فتكون المساهمة والاقتراع حلا مرضيا لا يُظلم فيه أحد.

وقد بيّن البحث أنّ الله تعالى يسبب الأسباب ويهيئها من أجل الأخذ بها وصولا إلى ما يشاءه تعالى لأنبيائه، ولذا؛ فإنّ حال المغاضبة التي اتصف بها صاحب الحال يونس صلّى الله عليه وسلّم، كانت أحد الأسباب المؤدّية إلى الاجتباء بعد الاصطفاء، وهذه الأسباب من سنة الله تعالى في ابتلاء الأنبياء عليهم الصلّاة والسّلام أجمعين من أجل رفعة المكانة وعلو الدرجة وزيادة الأجر.

وهنا غضب يونس لدينه ولم يغضب لنفسه، ولما غضب واتخذ قراره مهاجرا وراكبا البحر، لا لشيء إلاّ لعلّه يجد قوم آخرين يؤمنوا بما أرسله الله به، وهنا أقول: غضب يونس كان بين أمرين اثنين:

الأمر الأول: أنّ غضب يونس في مكانه لأنّه لم يكن غضب متعلّق بخصوصيّة يونس، بل من أجل الدين وتوحيد الله تعالى، وهذا من حقّه.

الأمر الثاني: أن يهاجر يونس لبحث عن قوم آخرين؛ فهنا تكمن العلة وهي أنّ يونس يعرف أنّه قد أرسل إلى قوم نينوى، فكان لا وجوب للبحث عن قوم لم يبعث لهم.

قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَمَعْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ 572.

يفهم من هاتين الآيتين الكريمتين أنّ يونس عليه السّلام قد أدرك أنّه لا منقذ له من الغرق ومن الخروج من بطن الحوت إلاّ الله الذي أرسله ليدعو قومه إلى توحيدهِ وعدم الشّرك به، ولهذا ألهمه الله إلى ما ينقذه

---

572 الأنبياء 88، 89.

وهو: (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) أي أدرك يونس أن التسييح بوحداية الله تعالى هو دعاء الله بكل صفاته. ذلك لأن اسم الله هو الاسم الأعظم المطلق الذي لا يقتصر على صفة أو خاصية واحدة، بل هو الذي تتعدّد فيه الصّفات التي يتضمّننها ويحتويها في أسمائه الحسنی، والتي إن وعدّها لا نحصيها، {وإن تعدّوا نعمة الله لا تُحصوها} 573 وهذا لا يعني أن نعمة الله غير محصية، بل تعني أن قدراتنا المحدودة لا تستطيع حصرها وعدّها، مع أن الله أحصى كل شيء وعده عدّ {إن كلُّ من في السّمآوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدّهم عدداً} 574.

إذن بالنسبة لله كل شيء مسجل إحصاءً وتعداداً، أمّا بالنسبة لنا نحن بنو الإنسان فغير قادرين على ذلك، وإلا هل هناك من يستطيع أن يحصوا ما تراه العين أو يُحسّ به وما لا تراه العين ولا يُحسّ به مع أنّه موجود من حولنا وعلى مقربة منا، وكذلك يمتدّ إلى ما يبعد عنّا إلى ما لا نهاية حيث قدراتنا القاصرة أمام مقدرته تعالى، (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ).

ومن ثمّ فإنّ في هذا التسييح ينتفي التماثل مع الله في الفعل والاسم والمضمون والصورة، {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} 575. لا إله نفي، لاعتقاد ظنيّ في إله يفيد ويضر، أو يقرب من ويبعد عن، مع تأكيد على الوحداية (هو الله). واستثناء الإله الذي ينسب إلى الذين أهوه باختياراتهم أو لرغباتهم وحسب ظنّهم، وهذا ما حدث مع قوم يونس الذين سخروا منه وهو يدعوهم إلى الله تعالى ولا إله غيره.

573 إبراهيم، 34.

574 مريم، 93 . 95.

575 الحشر، 22.

ولذا فإنَّ اسم الإله يرتبط بتأليه (تعلّق) من البشر لغير الله. أمّا اسم الله تعالى الذي سبّحه يونس فلا يرتبط بالإله إلا لسبب تقريب المعنى والدلالة للذين يظنون باعتقادهم في الآلهة حتى يتبيّن لهم المعنى المرشد إليه وهو الله (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ).

إذن لا إله إلا الله، تعني أنّ الإله ليس هو الله، وبما أنّه ليس هو الله. إذن لا يمكن أن يكون من اشتقاقاته، (ليس من اشتقاق اسم الله). الإله مسمى بشري أطلقه البشر على ما يعبدون، أمّا اسم الجلالة (الله) فمسمى ذاتي مصداقا لقوله تعالى في سورة الشعراء: {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} 576، ولهذا اسمه غير مشتق، ولا يُشتق منه مسمى؛ فلو سلّمنا بأنّه بالإمكان أن يشتق منه مسمى نسلم أيضا في الوقت ذاته بالتعدد، وهذا أمر مستحيل حيث الله واحد لا يتعدد ولا شريك له (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ).

ولذلك جاء اسم الله اسم علم ليدلّ على ذاته، ومجموع صفاته الحسنى التي احتواها دعاء يونس المنقذ من الهلاك (أقصد الدّعاء المنقذ). وهذا ما يخالف ما ورد في بعض المشتقات اللغوية التي تسند اسمه تعالى إلى اشتقاق من (أله) التي تعني التحير في وعدم الاهتداء إلى، ويقال أنّه مشتق من (الوله) وهو ذهاب العقل والحبّ الشديد، الذي قد يؤدّي إلى ذهاب العقل من التعقّل. ويقال أنّه مشتق من (لاه) ولهذا جاءت (أله) وألوهة) وهذه تدلّ على أنّ الإله هو المعبود بحقّ أو بباطل، كما ورد في كتاب القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للسيد مجدي منصور 577. ولذلك يتمّ الاتفاق في هذا الأمر مع ابن القيم رحمه الله تعالى قال: "زعم السهيلي وشيخه ابوبكر ابن العربي أنّ اسم الله غير

576 طه 14.

577 مجدي منصور الشورى، القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. القاهرة: مكتبة العلم،

1999م، ص 29.

مشتق؛ لأن الاشتقاق يستلزم مادّة يشتق منها، واسمه تعالى قديم والقديم لا مادّة له، فيستحيل الاشتقاق ولا ريب أنّه أريد بالاشتقاق هذا المعنى وأنّه مستمدّ من أصل آخر فهو باطل، ولكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هذا المعنى ولا ألمّ بقلوبهم، وإنّما أرادوا أنّه دال على صفة له تعالى وهي الإلهية كسائر أسمائه الحسنی، كالعليم والقدير والغفور والرحيم والسميع والبصير وبقية صفاته الحسنی "578.

ولنا تعليق، وهو أنّ اسم الله لم يسمه أحد، بل سمي نفسه به (أنا الله) إذا فلا يليق أن يجرد أو ينسب إلى تجريد يقودنا بحكم أنّ اسم الله قديم؛ فلا قديم للحي القيوم جلّ جلاله، {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} 579.

إيمان القوم الجمعي بالواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد لم يتحقّق إلا مع قوم يونس صلّى الله عليه وسلّم: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} 580.

وقوم يونس لم يؤمنوا بسهولة ولا مباشرة أول ما تمّ تبليغهم من قبل يونس بل في البداية كانوا مصرّين على الشرك ممّا دفع الرّسول يونس للذهاب عنهم مغاضبان وهو متوليا عنهم إلى حين مصداقا لقوله تعالى: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ وَأَبْصَرَهُمْ فَسَوَّفَ يُبْصِرُونَ أَفَبِعَدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ

578 المرجع السابق، ص 30.

579 الحشر 22 . 24.

580 الإخلاص 1 . 4.



فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ وَأَبْصَرَ  
فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ} 581.

ثم بعد أن تولى عنهم وعاد إليهم آمن جميعهم تسليما مطلقا بالله  
رب العالمين لا شريك له فكانت لهم الأسبقية بالإيمان الجمعي،  
{وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِئَةِ آلَافٍ أَوْ يُزِيدُونَ فَأَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ فَاسْتَفْتِهِمْ  
الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَهُمْ الْبُنُونَ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ أَلَا أَنَّهُمْ  
مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَأَنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ اصْطَفَىٰ الْبَنَاتِ عَلَى  
الْبَنِينَ} 582.

يفهم من الآيات الكريمة السابقة أن عدد قوم يونس الذين بُعث لهم  
رسولا هم مائة ألف أو يزيدون وهؤلاء هم الذين آمنوا دون استثناء لأحد  
منهم.

وأولئك القوم الذين آمنوا جميعا تحققت لهم المتعة إلى حين  
(فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ) وقوله إلى حين جاءت على احتمالات منها:

أ . إلى حين المؤقتة في الحياة الدنيا: وهذه إن كانت على هذا  
المفهوم تكون متعة قوم يونس طوال حياتهم بعد أن آمنوا جميعا، وهي  
تشير إلى نيلهم رضا الله تعالى الذي به يغفر لهم ما تقدم من ذنب كما  
يشاء الله دائما أن يغفر الذنوب لمن يهتدي إليه ويؤمن به بعد ضلال،  
ولهذا كان نوح صلى الله عليه وسلم داعيا لقومه لأن يهتدوا حتى يغفر  
الله لهم ما تقدم من ذنوب، قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ  
أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ

581 الصافات 174 - 179.

582 الصافات 147 . 153.

مُيِّنُ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا رُسُلَهُ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى  
أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {583}.

وخلال هذه الفترة إلى حين المؤقتة استفتهم يا يونس في قولهم هل  
حقّ أنّ الملائكة إناثا؟ (فَاسْتَفْتَهُمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَهَهُمُ الْبَنُونَ أَمْ خَلَقْنَا  
الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ أَلَا أَنَّهُمْ مِنْ إِنْكَهَمُ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَأَنَّهُمْ  
لَكَاذِبُونَ) فقولهم (فَاسْتَفْتَهُمُ) أي استوضحهم وأضح لهم الحقّ حتى يتبينوا  
الحقّ من الباطل ليعرفوا أنّه لا برهان لهم ولا حجّة ولا دليل على أن  
الملائكة قد خلقت إناثا، وأوضح لهم يا يونس أنّ الخالق يخلق ما يشاء  
خلقا ولا يلد كما تلد المخلوقات فهو الذي بيده الأمر والمشية كيفما  
يشاء، ومتى ما يشاء، وأينما يشاء، وما يشاء، ومن يشاء سبحانه أنه  
القوي القادر بالطلق، ولذا فهم قبل الإيمان كانوا على الإفك يقولون ممّا  
يقولون أنّ الله قد فضّل اصطفاء الإناث على البنين (أَلَا أَنَّهُمْ مِنْ إِنْكَهَمُ  
لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَأَنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ اصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ).

ولذا؛ فإنّ إيمان قوم يونس هو إيمان جمعي حيث لا استثناء لأحد  
منهم، ولهذا فالذي آمن به ومعه قومه جميعا هو الرّسول يونس صلّى الله  
عليه وسلّم.

وعليه: لقد كان لقوم يونس رسول ورسالة، الرّسول هو يونس  
الكريم، والرسالة هي رسالة الهداية والتوحيد والتبيين للحقّ من الباطل.  
والقوم هم الجمع من النّاس الذين تربّطهم علاقات تواصل دما  
وانتماءً وهم المعنيين بالأمر كما كان قوم يونس هم المعنيين بالرسالة.

ولأنّ يونس شديد الحرص على أن يؤمن القوم، يبدو كما قيل أنّه  
قد استعجل شيء ما؛ فذهب إلى البحر، وركب الفلك مع الرّاكبين

الذين امتلأت السفينة بهم؛ ثم انطلقت السفينة الممتلئة ركاباً، ولكن لسوء الحظ أظلمت والأمواج تكاد أن تغرقهم والحيثان تحوطهم بين الحين والآخر، فكان الخوف يملأ الأنفوس، فاقترح الجميع أن يتم التخفيف عن السفينة لتنجو بمن كتب الله لهم النجاة، وحتى لا تكون المظلمة بينهم؛ فقد اتفقوا على إجراء القرعة؛ ومن جاءت عليه لا بد أن يقفز من الفلك في البحر. ولكن كما يقولون: كلما أجريت القرعة جاءت على صاحب الحوت (يونس) عليه السلام؛ ففز، ولكن رعاية الله وحفظه التقمته حوته قبل أن يسقط في الماء.

وهناك في بطن الحوت بقي يونس وكأنه قد ركب قارباً لوحده؛ فكانت السرعة به منطلقة حتى اليابسة حيث النجاة، وهناك في اليابسة أيضاً كانت رعاية الله وحفظه ليونس عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَبَدَأْنَا بِإِبراهيمَ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَأَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} 584.

جاء يونس عليه السلام منذر، والمُنذِر هو المعلم الذي يُعْرِف القوم بما يكون قد دهمهم من عدو أو غيره وهو المخوف أيضاً وأصل الإنذار الإعلام يقال أنذرته أنذره إنذاراً إذا أعلمته فأنا مُنذِر ونذير أي معلم ومخوف ومُحذِر ونذرت به إذا علمت ومنه الحديث أنذر القوم أي اُحذِر منهم واستعد لهم وكن منهم على علم وحذر "585.

584 الصافات 139 . 138.

585 لسان العرب، ج 5، ص 200.

الإندار استباق بما يُحقّق المستقبل الأفضل ممّا يستوجب الإلتباع لِمَا  
أُنذِر به أو التّجنب حتى لا يقع المُنذَر في المحظور، ولهذا جاء الاجتناب  
على مفهوم ما يُبعد عن المنهي عنه لما فيه من أذى أو ضرر أو مهالك،  
وعليه فإنّ جميع الرّسل الكرام هم منذرين لمن بُعثوا إليهم مرسلين مصداقا  
لقوله تعالى: { وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ } 586.

ولأنّ يونس هو أحد الرّسل الكرام صلى الله عليهم وسلّم فهو منذر  
لقومه بما أمره الله عزّ وجلّ أن يُنذرهم به، قال تعالى: { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ  
كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ  
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ  
وَأَتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا وَرَسَلْنَا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسَلْنَا  
نَقُصُّهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا رَسَلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ } 587.

وهكذا؛ فإنّ القاعدة تنص على أن الله تعالى (أرسل المرسلين  
مبشّرين ومنذرين) قال تعالى: { وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ  
وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا  
هُزُورًا } 588.

وعليه فالمنذر هو الذي يعلم قبل غيره بما يُنذِر به الآخرين المكلف  
بإندارهم، فالرّسل الكرام يُعلّمهم ويُعلّمهم الله بعلم من علم غيبه لظهره  
للناس المعنيين والمستهدفين بأمره فيبلغوا الرّسل وينذروا بما أمرهم وأنذروهم  
به جلّ جلاله.

---

586 النعام 48.

587 النساء 163 . 165.

588 الكهف 56.

جاء يونس عليه السلام حجّة، والحجّة هي البيّنة حيث لا مجال للبس والغموض، ولذا فالرّسل حجّة من الله للعباد، والحجّة الدليل والبرهان الحقّ الذي به يُدمغ الباطل حتى يزهد.

قال تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا وَرَسُولًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسُولًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا رَسُولًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حِجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} 589.

ولأنّ يونس حجّة كغيره من الرّسل الكرام كان جميعهم حُجج على أقوامهم حتى لا يكون للناس على الله حجّة، مصداقا لقوله تعالى: (رسلا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حِجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) أي بعد أن أرسل الله رُسُله صلى الله عليهم وسلّم فلم يعد للناس حجّة (معدرة) بأن لا يؤمنوا، فلو لم يُرسل الله الرّسل لكان للناس ما يقولون، ولكن أن يبعث فيهم وهم رُسُل كرام وبين أيديهم الحُجج العظيمة الدالة على وحدانية تعالى وصفاته الحسنى ومع ذلك البعض منهم لم يؤمن فهذه لا بدّ وأن يترتب عليها العقاب الشديد للذين كفروا وأشركوا، فلو لم يبعث الله رُسُله لكان للناس ما يقولون ولكن بعد أن بعث لهم رُسُله فليس لهم ما يقولون وليس لهم بد إلا اختيار أحد الأمرين:

. أمر الإيمان واتباع الرّسل فيكون لهم الجزاء الأوفى من مغفرة وتوبة والفوز بالجنّة.

. أمر العصيان والكفر والشرك ويكون لهم أمر العذاب الشديد الذي به سيكونون في النار.

وقضية اللبث من القضايا المهمة التي وقفنا عندها، في البحث والتدقيق والتمحيص وقد بيّنا المدّة الاحتمالية لهذا اللبث من النصوص القرآنية حيث أن مدّة اللبث كانت على وجه الدقة منذ أن التقمه الحوت إلى أن قال: {فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} 590.

ثم عرجنا على أنواع اللبث وأوقاتها ممّا ورد في محكم التنزيل مرجّحين وجه الاحتمال التقريبي لما لبث يونس صلّى الله عليه وسلّم.

ومن خلال إرسال يونس صلّى الله عليه وسلّم إلى مائة ألف أو يزيدون تناولنا مسألة التكليف الإلهي، ولماذا الإرسال؟ وما الفائدة التي تعود على الخالق من المخلوق؟

إنّ كثيرا من الناس يتساءل عن الحكمة من التكليف الإلهي في عبادة البشر لله تعالى؛ حتى أنّ البعض يخرج من التساؤل إلى السؤال الذي يطرحه: أي حاجة للخالق سبحانه وتعالى في أن يدين له عباده بالولاء والإيمان والعبادة، وأي ضرر يناله الخالق عزّ وجلّ إن لم يدنّ له عباده بالولاء والإيمان والطاعة والعبادة؟

والجواب على هذا نقف على جزء منه في بحثنا في قصة يونس صلّى الله عليه وسلّم، كما وقفنا على أجزاء أخرى لهذا الجواب في كتبنا عن قصص الأنبياء ومع هذا نقول: إنّ منفعة الإيمان بالله تعالى وعبادته وطاعته والدينونة له، لا تعود على الله عزّ وجلّ، وهو أغنى من الحاجة إليها، وأعزّ من أن يطلبها من خلقه، وليست عائدة إلى الله عزّ وجلّ، وحتى لا يعجب أحد من ذلك ويتساءل عن نوع هذه المنفعة وما يقابلها من ضرر فقد ذكرنا أن منفعة الإيمان بالله عائدة إلى الإنسان ذاته، كما أن ضرر الكفر به عائد عليه أيضا.

---

590 الأنبياء 87.

وبيان ذلك أنّ الإنسان مفطور على جملة من الصفات والطباع التي لا بدّ له منها كي يتمكن من إعمار الأرض وإصلاحها وتسخيرها والاستفادة منها، مثل:

. الفطرة.

. العقل.

. التمييز.

وما يتفرع عن ذلك من الإيمان والإدراك والعلم والمعرفة وصولاً إلى الحقائق.

والعقل وما يصدر عنه أيضاً من نقائص الموجبات التي ذكرناها مثل الكفر والتقصير والجهل والادعاء، التي تكون سبباً في الأناية والأثرة والسطوة ممّا يجعل كفة ميزان الشيطان دائمة الرجحان عندما يغيب العقل عن حقيقة وجود الإنسان في هذا الوجود.

إنّ يونس صلّى الله عليه وسلّم نبي مرسل من أنبياء الله تعالى، ويحمل كل الصفات الموجبة، وهذه الصفات لا يمكن أن تؤدّي عملها الصالح في عمارة الأرض وإصلاح الناس على نحوٍ تسعد به الإنسانية، إلا إذا كانت هناك رقابة عليها على هذه الصفات، وكان صاحبها مستشعراً بوجود هذه الرقابة.

ولهذا، فقد بيّن البحث أن يونس صلّى الله عليه وسلّم يضرب المثل في استخلاص العبرة للإنسان، والإنسان متى ما تذكّر الله وشعر أنّه مراقبه في كل حركة وهمسة، ومتى ما تذكّر أنّه مكشوف أمام الله تعالى في سره وعلايته، وأنّ الله تعالى قادر على أن يهلكه متى شاء، وأيقن ذلك في قلبه يكون من الصعب على صاحب الاعتقاد أن يعصي الله تعالى.

ثم إن العبرة للإنسان التي يجب أن يستخلصها لم يجرها الله تعالى على أيّ أحد، بل أجراها الله تعالى على نبي كريم مصطفى، فهذا العبد الذي ابتلعه الحوت لا يشك أحد في هلاكه، ولكن هذا العبد أيضاً، اعتاد أن يلجأ إلى الله في كل أموره، فكان أول شيء فكر فيه أن يلجأ إلى ربّه! (فنادى في الظلمات ألاّ إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين).

وهذا دعاء:

أوّله توحيد.

وأوسطه تسبيح.

وآخره إقرار.

والله تعالى لا يخيب ظن من التجأ إليه، فاستجاب له ونجّاه من الغم كما ينجي المؤمنين، فقد دخل يونس صلّى الله عليه وسلّم في زمرة المؤمنين الذين ينجيهم الله عند البلاء والكرب والمصيبة، وقد تناولنا ذلك في باب الفضائل ليونس صلّى الله عليه وسلّم عندما تكلمنا عن بعض من صفاته.

ثم إنّ القول في ما ذهب إليه البعض من أنّ هفوة يونس في هجر قومه كانت خطيئة، فقد ذكر البحث أنّها كانت غضبة لله تعالى وليست هفوة، إذ أنّ ذلك لو صدر عن غير نبي لكان ذلك من تمام فضائله وفي ميزان حسناته، ولكن يونس صلّى الله عليه وسلّم، كان ذلك مأخذاً عليه نظراً لرفيع مقامه وعلو رتبته، فكان التقام الحوت له بموجب التريّة الخاصة والعناية المتميزة من الله تعالى لتزكية نفسه الطاهرة والسمو بها عن كل شائبة، ثم إنّ يونس صلّى الله عليه وسلّم، أنّ الذي صدر منه كان سبباً لرحمة العباد في كشف الضر عنهم ونجاتهم من الكرب إذا دعوا



بدعوة يونس صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ).

ولهذا فقد أبق يونس عليه الصلّاة والسّلام والآبق هو الفار من معايشة المظالم والظالمين والكفر والكافرين والشرك والمشرّكين والنفاق والمنافقين والفساد والمفسدين في الأرض وسافكي الدماء فيها بغير حقّ.

والآبق، هو خروج بلا استئذان من أحد، أي خروج دون انتظار مشورة أو أخذ رأي، ولهذا فالذي معه الحقّ وهو طائع له ومحضّ عليه لا يقبل أن يستشير الذين ليس لهم مع الحقّ وإحقاقه علاقة اعتراف وتقدير واحترام واعتبار، وهذا هو حال يونس صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي كان رسولا لإحقاق الحقّ وإزهاق الباطل ودمغه، ولذا كان أبق يونس عن قومه عن غير طاعة لهم فيما هم عليه من كفر وشرك وفساد ونفاق ومظالم، ففر منهم وما يعبدون من دون الله من أربّاب ليكون على حاله من المسبّحين باسم الله وحمده تعالى، ولذلك فقد وُصِفَ يونس صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالآبق.

إذا أبق يونس صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان كفرا بكفر قومه الذين هم على الضلال متخذين من دون الله أربّابا؛ فكان أبقه في مشيئة الله درسا في حياته ليكون من بعده رسولا مُجْتَبَى بعد نجاحه وفوزه في كل ما تعرض له من ابتلاءات من ربّه الذي أعدّه على الطاعة والصبر وحمل المسؤولية التي بها تمكّن يونس من استيعاب قومه من أجل هدايتهم للحقّ وسبل الخيرات الحسان إعمارا في الأرض وإصلاحا فيها.

وعليه: فالآبق فرار بالقوّة والقدرة والاستعداد والإرادة مع تحمّل كل ما يترتب على الأبق من أفعال وردود أفعال وإن كان من وراء الأبق مخاطر وصعاب وابتلاءات جسام، كل ذلك يُقبل أن يواجهه لا

بالاعتراض عليه بل مع وافر التصميم على تنفيذه دون تردد وهذا ما فعله  
يونس رسول الله لقومه الذين يصلون تعدادا لمائة ألف أو يزيدون.

الأبق هو الموصوف بأفعال الأبق التي ذكرناها ولا يقتصر على أبق  
العبد من ظلم سيده عندما يفر منه عاصيا عن طاعة أوامره التي تُملى  
عليه بالقوة وهي في كثير من الأحيان في غير طاعة الله تعالى، كالعبيد  
الذين يخدمون سادتهم في تناول الخمر وكؤوسه وتهيئة المناخ المناسب  
لارتكاب الفواحش والمظالم ما ظهر منها وما بطن.

ولذا؛ فالأبق فرار من العيش مع المظالم والظالمين والفساد والمفسدين  
والكفر والكافرين، أنه الفرار مع سابق الإصرار.

الأبق دائما يسبقه قرار ولا يُنفذ إلا بقناعة تامة، والأبق هو الذي  
يقبل أن يُنفذ قراره بنفسه ولا يُنفذه له ولا معه آخرين، ولهذا لا يشارك  
الأبق الآخرين في اتخاذه قرار الأبق مما يجعل تنفيذه بالقوة يؤدي إلى  
اختفاء الأبق دون معرفة مكانه من قبل الذين أبق منهم فرارا.

وعليه: فالأبق هو الفار من أجل النجاة بالنفس أو الرسالة.

أما ظن يونس؛ فيحتاج إلى بيان، فهو في اعتقادنا ظن موجب،  
وهذا أمر لم يقل به أحد فقد أشارت التفاسير إلى غير ذلك من قريب أو  
بعيد، لذلك فإن الأمر يحتاج إلى تحليل دقيق.

ونبدأ من حيث يجب أن نبدأ وهو قوله تعالى: (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ  
عَلَيْهِ) هذه الآية هي المرتكز الذي تقوم عليه فكرة الظن الموجب.

ونريد قبل إقرار الفكرة أن نذكر بحقيقة لازمة هنا مفادها من المحال  
أن يكون في ظن يونس تحدى الله عز وجل، فهو من المصطفين المحبتين  
والأنبياء الرسل، ولا شك أن الله لا يصطفي ولا يجتبي ولا يكلف بالنبوة  
أو الرسالة من يظن أن يمكن له أن يتحدى الله عز وجل.

إذا جملة (نُقَدِرَ عَلَيْهِ)، ليس المقصود فيها يونس إنسانا جسدا لأنه محال بحقّ الله القادر جلّ جلاله، ومحال بحقّ يونس صلّى الله عليه وسلّم، عليه يجب أن يكون نقدر عليه، لغير الإنسان الجسد، وهو على وجه التحدي فعله (ذهب مغاضبا)، فنقدر عليه تعود على فعل يونس، وهو فعل موجب لأنّ يونس غضب على قومه لأنهم تأخروا في إعلان إيمانهم فغضب غضبة حقّ لله، فهو فعل موجب، وبعد الغضب حصل تقدير من يونس هو الظن المتعلق بالذهاب، فقد ظن يونس ضنا يقينا أنّ العذاب واقع لا محالة بقومه إن لم يؤمنوا وهذا ظن يقين بالنسبة ليونس، وقدّر أنّه بذهابه عنهم سينجو من العذاب، ولكن الله أراد أن يبيّن ليونس تفهيمًا وتعلِيمًا لا عقابًا بأن المنجي هو الله وليس الظن بالذهاب فكان الحوت لتحقيق هذه الإرادة الإلهية التي تحققت بفهم يونس فكانت من المسبّحين ولو لم يسبّح لبقية الظن بالذهاب وبقي يونس في بطن الحوت ولكن التسبيح هو إقرار بالتسليم أن المنجي هو الله عزّ وجلّ وليس تقدير ظني بالذهاب عن العذاب.

والظان الذي يود أن يكون ظنه في محله هو من يدور في خاطره ما يدور من أمر مشكوك فيه ممّا يجعله في حاجة لأن يتبيّن قبل أن يصدر حكما نهائيًا فيما يظن من ظنون، ولذا، كان ذا النون صلّى الله عليه وسلّم مغاضبا على قومه الذين لم ينتهوا عما كانوا فيه من ضلال فهم يعبدون من دون الله أربابًا، ممّا جعل ذهابه منهم مغاضبا عليهم دون تردد في مقاطعتهم وهو يفكّر يقينا أنّهم لن يقدروا عليه بأسباب اتباعه للحقّ واتباعهم للباطل، ولهذا كان ظن يونس في تحليلنا لمفاهيم خروجه مغاضبا وهو ظان أن لن يقدر عليه على احتمالات منها:

الاحتمال الأوّل:

في قوله تعالى: (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) تشير هذه الآية الكريمة أن يونس كان مغاضبا على قومه أي؛ أنه غاضب عليهم فخرج منهم وهو في حالة غضب ثم أنه كان على غير أمل أن يتركوا ما يعبدون من دون الله من أرباب، فكان ظنّه أنهم سيظلون على شركهم إلى النهاية، ولهذا خرج منهم يأس، ممّا جعل المأخذ على ظنه الذي لم يكن في محله مأخوذ عليه؛ فالمؤمن لا يئس ولا يقنط من رحمة الله فما بالك بالرّسل الكرام صلى الله عليهم وسلّم، قال تعالى: {قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} {591}، وهذا لا يعني أنّ يونس قد ضل (استغفر الله) ولكنه يعني إذا كان القنوط لا يُقبل من غير الأنبياء فكيف أن يُقبل من يونس الرّسول الكريم الذي سعى لأن يهدي للتي هي أحسن طاعة لأمر الله الذي هيئه أولا لمهمة الرسالة ثم اجتباه رسولا لها؟

وبالعودة إلى مراجعة الآية الكريمة (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) يتضح مفهوم غضب يونس على قومه وظنه أن لن يُقدر عليه على اعتبارات منها:

. إن يونس كان يظن أنّ غضبه على قومه لن ينتهي، وذلك لاستمرار مسببات غضبه عليهم.

. أنّ يونس قد ظن أن قومه الذين خرج منهم مغاضبا لن يؤمنوا معه أبدا.

وبالرغم من وجود هذين الاعتبارين إلا أن النتيجة كانت على عكس ما كان يظن يونس في غضبه على قومه، حيث كانت النتيجة هي وفقا للآتي:

أ . لقد انتهى غضب يونس الذي كان يظن أنه لن ينتهي أو يزول عنه بمجرد دخوله الظلمات التي بمروره في ظلماتها قد نسي كل شيء إلا ذكر ربّه الذي ناداه مُسَبِّحًا وهو في الظلمات تسبيحًا جليلاً وعظيماً، (وَدَا النُّونَ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)، ولهذا لو لم يكن يونس صَلَّى الله عليه وسلّم من المسبّحين لبقى لا بئنا في بطن الحوت إلى يوم يُبعثون مصداقا لقوله تعالى: (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ).

ب . إنّ قوم يونس الذين ظن أنهم لن يتركوا ما يعبدون من دون الله من أربابٍ كان ظنه في غير مكانه فهم جميعا قد أسلموا بقدرة الله تعالى دون استثناء، مصداقا لقوله تعالى: { وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِثَّةِ آلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَاٰمَنُوۡا فَمَتَّعْنَاهُمْ اِلَىٰ حِيۡنٍ } 592.

ومقارنة ظن يونس ويأسه من إيمان قومه معه نجد أنّ إيمان قومه بقدرة القادر المطلق كان ميسرا ودون استثناء لأحد منهم، ولذا؛ فهم أصبحوا على التوحيد والطاعة على يدي يونس الذي كان يظن أنهم لن يتركوا الشرك والكفر ويؤمنوا بالله العزيز الجبار.

وعليه: فقوله تعالى: (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) كان ظنا في غير مكانه ولا ينبغي أن يكون من رسول لا يقنط من رحمة الله تعالى، ولكن للغفلة أسباب ولعدم الكمال أسباب وللابتلاءات أسباب وللامتحانات أسباب ولكل ما تعرّض له يونس من أسبابٍ أسباب، وكلها كانت في

مشيئة الله وقدرته المطلقة فهو الذي إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون مصدقا لقوله تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون {593.

#### الاحتمال الثاني:

لأنّ يونس صلى الله عليه وسلم كان على يقين أن ما قام به هو لا يخالف ما يشاءه الله فأقدم على ما قدم عليه مغاضبا دون أن يحسب لِمَا حدث معه حساب، ولهذا كان ظنُّه أنّ ربّه تعالى لن يحكم عليه وهو مغاضبا من أجل توحيده وعدم الشرك به تعالى فخرج مغاضبا وفي نفسه ظن أنّ ما قدّم عليه هو الحقّ (عين الصواب) ولم يعتقد (يظن) أنّه سيكون في مخالفة مع ما يشاءه الله، ولكن النتيجة كانت مخالفة لظن يونس الذي كان في اعتقاده أن الله لن يحكم عليه بما حكم به عليه، وهكذا يكون الاتفاق مع ما جاء في تفسير ابن عبد السلام لقوله تعالى: (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) "ظن أن لن نحكم عليه بما حكمنا" 594.

#### الاحتمال الثالث:

لأنّ يونس مؤمن برّبّه بالمطلق فهو يظن في نفسه يقينا أن ربّه لن يخذله وهكذا كان ربّه خير حافظ له وإن تعرض إلى ما تعرض إليه من ابتلاءات وامتحانات، فبعد أن ذهب من قومه مغاضبا وتعرّض لِمَا تعرض إليه في الظلمات من التقام وضيق، فلم يكن (يظن) أن يتعرض إلى ما تعرض له من ضيق، ولهذا فقد ظنّ أن لن يُضَيِّقَ الله عليه في شيء بعد خروجه من قومه مغاضبا، (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) بمعنى "لن نضيق عليه" 595.

<sup>593</sup> يس 81 . 83.

<sup>594</sup> تفسير ابن عبد السلام، ج 4، ص 34.

<sup>595</sup> تفسير الرازي، ج 11، ص 65.

وعليه: لقد كان يونس بصيرا بحاله وحال قومه قبل إيمانهم وبعد إيمانهم، ولأنه رسول مُرسل لقد كان طائعا لأمر ربه الذي أمره بأن يبصرهم لأجل أن يعرف ويتعرف على ما يؤثر فيهم سلبيا ليتفاداه وما يؤثر فيهم إيجابيا ليقدم عليه.

وفي اللغة بصر به نظر إليه، أبصره إذا أخبر بالذي وقعت عينه عليه، ورجل بصير مبصر خلاف الضير، وفي التنزيل العزيز: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ} 596. ولذا؛ فالبصير هو الذي يُدرك الأشياء المتجاوزة لحاسة البصر، والمبصر هو الذي يُدرك حقيقة وجودها بالمشاهدة العينية.

وعليه: فالبصير يُدرك العلل والخفايا التي من وراء خلق الأشياء والمخلوقات، والمبصر فقط هو الذي يصف ما يشاهده ولا يدرك ما خلفه، وهذا الأمر المخفي هو الذي يعلمه ويدركه البصير. قال تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ} 597.

البصير هو الذي يعلم ما لا يعلمه المبصر فقط، ولهذا المؤمن المستخلف في الأرض هو الذي لا يقف عند حد مشاهدة الإبل، بل يتعداها إلى معرفة الكيفية التي بها وعليها خلقت، حتى يبلغ مرحلة الإعجاز التي تجعله مؤمنا بأن من ورائها خالق عظيم يملك قوة الخلق كله ويؤمن إدراكا أنه الخالق الذي لا يُخلق جلّ جلاله.

يقول صاحب اللسان: أعلم الله أنه يدرك الأبصار وفي هذا الإعلام دليل أن خلقه لا يدركون الإبصار أي لا يعرفون كيف حقيقة البصر وما

<sup>596</sup> الأنعام 103.

<sup>597</sup> الغاشية، 17 . 22.

الشيء الذي به صار الإنسان يبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه، فاعلم أن خلقا من خلقه لا يدرك المخلوقون كنهه ولا يحيطون بعلمه فكيف به تعالى والأبصار لا تحيط به وهو اللطيف الخبير 598.

والأبصار من جهة أخرى هو الاعتبار والاستبصار كما في قوله تعالى: { وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ } 599. الضمير يعود للمخاطب وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فالكفرة الفجرة يعرفون حجة محمد رسول الله ويبحدون الحقيقة الآتي بها، ولذا فهم كالأعمى الذي فقد بصره فلا يرى شيء.

ومن ينظر إلى تاريخ الأمم السابقة يجد التاريخ ملئ بالعبر والمواعظ والحكم والدروس والعواقب، قال تعالى: { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ } 600. وقال تعالى: { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } 601.

ولأن الله قد أنعم على عباده بالبصر والبصيرة فهو يراهم في أحسن صورة وتقويم وهم مبصرون في آياته عز وجل وفيما يأمر بالبصر إليه والنظر فيه كما أمر سيدنا يونس صلى الله عليه وسلم، وذلك ليكون نظر الناظرين إلى ما يسر النفس ويطمئن القلب، قال تعالى: { صَفَرَاءَ فَاقِعَ لَوْهَمًا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ } 602. ومع أنّ النظر إلى البقرة الصفراء الفاقع هو نظر إلى المشاهد المحسوس إلا أن النظر بالبصيرة يرتقي إلى ما هو مجرد، ولهذا؛ فإنّ ما يسر أعيننا في الأشياء الخفية يرتقي بنا إلى نظرة البصيرة

---

<sup>598</sup> لسان العرب، ج 4 ص، 66.

<sup>599</sup> يونس 43.

<sup>600</sup> الأنعام 11.

<sup>601</sup> النمل 69.

<sup>602</sup> البقرة.



التي بها نتمكّن من مراقبة الله في أفعالنا وأعمالنا فيكون لزاما علينا أن لا نعتب أحدا ولا نذم أحدا ولا نذكر غيرنا إلا بالخير وإلا فالصمت خير ويجب أن يكون تفكيرنا بالنظر العميق في مظاهر خلقه تعالى وهو الذي يوصلنا إلى ما يسرنا حقيقة.

ومن القضايا الكبرى التي عاجلها البحث ووصل فيها إلى نتائج مرضية على ما نعتقد هي قضية النبد وإنبات شجرة من يقطين، فكان نبذه صَلَّى الله عليه وسلّم في العراء وإنبات شجرة اليقطين عليه، قدرة إعجازية واقعية فمن الأسباب الإعجازية التي نقف عليها في ثنايا البحث آية إعجازية من خلق الله تعالى لخلو هذه العراء من أي نوع من أنواع النبات أو الأشجار، أي أنّ هذه العراء قاحلة تماما بحيث لا تساعد على نمو أي نوع من أنواع النجم أو الشجر، ومع هذا فقد أنبت الله تعالى على نبيه صَلَّى الله عليه وسلّم، أوهن النباتات تحملا في أقسى الظروف الطبيعية والبيئية.

وقد أوضح البحث الوجه الإعجازي في شجرة اليقطين (اليونسية) لأهمّها خاصة بذلك النبي، وأهمّها نبتت في موطن وبيئة أقل ما يقال فيها أنها خالية من النبات حتى تلك التي لها قدرة كبيرة على مقاومة العطش والجفاف، حيث أن هذه العراء لم يكن فيها من النبات غير شجرة من يقطين أنبتها الله تعالى على يونس صَلَّى الله عليه وسلّم، ولو لم تكن هذه الشجرة آية معجزة لما خصها الله تعالى بإضافة (يقطين إلى شجرة).

ثم إنّ البحث في مجمله ركز على قضية مهمة تتلخص في أنّ يونس صَلَّى الله عليه وسلّم ما كان له أن يتصرف في شأن من شؤون الرسالة التي كلفه بها الله سبحانه وتعالى، إلا أن يأذن له الله تعالى بذلك.

لقد ترك لنا يونس صَلَّى الله عليه وسلّم عبر كثيرة ومنافع جمّة، وخير ما تركته لنا وسنّه سنّة فينا استجابة الدعاء في النجاة من الغمّ، قال

تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ} 603.

فجاز الله يونس صلى الله عليه وسلم خير الجزاء، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

### النبي موسى:

النبي موسى صلى الله عليه وسلم، كان نبيا داعيا كغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى توحيد الله واحد أحد لا شريك له، وكان في مواجهة فرعون وطغيانه؛ فموسى عليه الصلاة والسلام نبى ولد في ظروف صعبة حيث كان في زمنه فرعون حاكما لمصر، وهو قد طغى في الأرض حتى أنه قرر قتل المواليد الذكور خوفا من منافس و متحد يخلص المصريين من فسادهم في الأرض، ومع ذلك وُلد موسى، وسلم موسى، بل وعاش في بيت فرعون كونه آية من آيات الخالق تعالى.

فذلك الطاغية فرعون ذات ليلة رأى في منامه أن نارا تأكل ملكه وتقتل شعبه وهي آتية من ناحية بيوت بني إسرائيل، قام فرعون مفزوعا خائفا من نومه، فأسرع باستدعاء السحرة والكهنة وحكي لهم ما رأى، فأخبروه تفسيرا أنه سيولد في بني إسرائيل مولودا يكون سببا في ذهاب ملكه وهلاكه؛ ففزع فرعون وأمر جنوده وحاشيته أن يقتلوا كل من يولد ذكرا من بني إسرائيل. وفي تلك الفترة كانت امرأة عمران حاملا بنبي الله موسى عليه السلام، ولدت موسى في هذه الظروف الصعبة، قال تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَاَلْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ وَقَالَتْ

امْرَأْتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ  
وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِعًا إِنْ كَادَتْ لِتُبَدِي بِهِ  
لَوْلَا أَنْ رَّبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ  
فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ  
فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ  
إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا  
يَعْلَمُونَ {604}. في هذه الآيات العظيمة كانت الأسرار والإعلان  
عنها؛ فأُمُّ موسى عليهما السَّلام أعلمها الله بكلِّ ما سيحدث لابنها،  
وقد طمَّنها يقينا، ولكن يظل الإنسان مهما عظم غير كاملا؛ فكان  
الخوف مسيطرا على أمِّ موسى إلى أن عاد إليها أمَّا ومرضعة، وفوق ذلك  
بشَّرت بمستقبل موسى أنه سيكون رسولا. قال تعالى: {إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ  
وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} {605}.

وعليه حفظ الله موسى فلم يعلم جنود فرعون بأمره، وقذف الله في  
قلب أمِّ موسى أمَّا إن خافت عليه تضعه في صندوق وتربطه بيبتها  
وتلقيه في النهر لكيلا يراه أحد من جنود فرعون الظالم، وترضعه كلِّ فترة.  
ولكن في يوم خرجت أمِّ موسى لتضرع ابنها، فإذا بها تجد أن الحبل قد  
قطع وأن الصندوق قد جري في النهر حتى رآه جنود فرعون فأخذوه إليه؛  
فعندما رآته امرأة فرعون طلبت منه أن تأخذه ولدا لها، ولكن موسى عليه  
السَّلام رفض أن يرضع من جميع المرضعات، حتى علمت أخت موسى  
بأمره، فقالت لامرأة فرعون أمَّا تعرف من يرضع هذا الطفل، وطلبت من  
أمِّ موسى أن تأخذ الطفل لترضعه؛ فوافقت امرأة فرعون، وعاد موسى  
لأمِّه آمنا.

<sup>604</sup> القصص 7.13.

<sup>605</sup> القصص 7.

كبر موسى وكان شابا قويا، وفي يوم وجد رجلان يتقاتلان أحدهما من بني إسرائيل والآخر من جنود فرعون، وهما يتعاركان استنصره من هو من شيعته فنصره موسى حيث وكز جندي فرعون فقتله، وهذا الأمر هو الذي جعله يخرج من مصر مهاجرا إلى مآمن؛ فذهب إلى مدينة مدين.

وعندما دخل موسى مدين وجد أناسا يسقون حيواناتهم، وقد لاحظ فتاتين لم يقمن بالسقي أدبا وتجنبا للاختلاط بالرجال، فأخذ موسى أغنامهما وسقي لهما، فعادت الفتاتان إلي أبيهما وقصتا عليه ما حدث، فاستدعاه واستمع إليه ثم طمئننه خوفه، وطلب منه أن يعمل عنده مقابل أجر، ويزوجه إحدى ابنتيه، فوافق موسى وعاش في مدين سنين التعاقد والتعهد وأكثر من ذلك استيفاء واضحا لما تم الاتفاق عليه مع ذلك الرجل الصالح. فعن ابنُ مُصَفَّى، نا بَقِيَّةُ، عَن مَسْلَمَةَ بِنِ عَلِيٍّ، حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ أَبِي أَيُّوبَ، عَنِ الْحَارِثِ بْنِ زَيْدٍ، عَنِ عَلِيِّ بْنِ رَبَاحٍ قَالَ: سَمِعْتُ عُثْبَةَ بْنَ النُّدْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا " فَفَرَأَ طَسَ حَتَّى إِذَا بَلَغَ قِصَّةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ آجَرَ نَفْسَهُ ثَمَانِي سِنِينَ أَوْ عَشَرَ سِنِينَ عَلَى عِقَّةٍ فَرَجِهِ وَطَعَامِ بَطْنِهِ" 606

أخبر الرسول موسى ببعثة محمد صلى الله عليهما وسلم كما هو موجود في التوراة "التي جاء بها موسى عليه السلام، ومصادقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ} 607؛ فعن عُمرَ بنِ الحَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ، حَرَمَتْ

606 الأحاد والثاني لابن أبي عاصم، 3، ص 63.

607 الأعراف 57.

عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا فَبَاعُوهَا، وَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا " قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَلَمْ يَزَلْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، الْيَهُودَ حَاصَّةً، وَغَيْرِهِمْ عَامَّةً، مُحَرَّمًا مِنْ حِينَ حَرَّمَهُ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَفَرَضَ الْإِيمَانَ بِهِ، وَأَعْلَمَ خَلْقَهُ أَنَّ دِينَهُ الْإِسْلَامُ، الَّذِي نَسَخَ بِهِ كُلَّ دِينٍ قَبْلَهُ، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَقِيلَ، وَاللَّهِ أَعْلَمُ: أَوْزَارُهُمْ وَمَا مُنِعُوا بِمَا أَحَدُوا قَبْلَ مَا شُرِعَ مِنْ دِينِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "608

وكذلك عيسى - عليه السلام أخبر بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمر بالإيمان به { وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ } 609، فعيسى عليه السلام بشر بني إسرائيل بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا معناه: أنه أمرهم بالإيمان بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فكفروا بعيسى، لأنه بشرهم بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "610

حدثنا ابن عباس عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: "عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ؛ إِذْ رُفِعَ لِي سِوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ "611.

في زمن موسى ومن قبله انتشر السحر، حتى أن القوم قد مهروا فيه، فأثروا به على النفوس، وسحروا به أعين الناظرين؛ فكان ما آتاه الله نبيه موسى فوق ما تبلغه القوى والقدر، وما لا يدرك بالأسباب والوسائل، وقد أوضح الله ذلك في كثير من الآيات، منها قوله - تعالى - : { وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا

<sup>608</sup> السنن الكبرى للبيهقي، 10، ص 14.

<sup>609</sup> الصف 6.

<sup>610</sup> إغاثة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، 1، ص 70.

<sup>611</sup> إغاثة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، 1، ص 85.

عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَارَبٌ أُخْرَى قَالَ أَلْقَهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ  
حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ حُذِّهَا وَلَا تَخَفْ سُنْعِيدُهَا سِيرَتُهَا الْأُولَى وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى  
جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءِ آيَةٍ أُخْرَى لِنُرَيْكَ مِنْ آيَاتِنَا  
الْكُبْرَى {612، ولهذا بُهت السحرة، وبطل ما جاءوا به من التمويه  
والتضليل، وامتاز الحق عن الباطل "613؛ وهنا استسلم السحرة وأسلموا  
إلى الله رب العالمين، {وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ  
رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} 614

وعليه فالسحر لا أحد ينكره؛ فهو مُتَحَقِّقٌ وَوُقُوعُهُ وَوُجُودُهُ، وَلَوْ لَمْ  
يَكُنْ مَوْجُودًا حَقِيقَةً لَمْ تَرِدِ النَّوَاهِي عَنْهُ فِي الشَّرْعِ وَالْوَعِيدِ عَلَى فَاعِلِهِ  
وَالْعُقُوبَاتِ الدِّينِيَّةِ وَالْأُخْرَوِيَّةِ عَلَى مُتَعَاطِيهِ وَالِاسْتِعَادَةَ مِنْهُ أَمْرًا وَخَبْرًا.  
وَقَدْ أَحْبَبَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ كَانَ مَوْجُودًا فِي زَمَنِ فِرْعَوْنَ وَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُعَارِضَ  
بِهِ مُعْجَزَاتِ نَبِيِّ اللَّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَأَلْقَوْا تِلْكَ الْحِبَالَ وَالْعِصِيَّ  
فَرَأَاهَا النَّاسُ حَيَاتٍ عِظَامًا ضَخَامًا، وَلَكِنْ بَعْدَ مَا رَمَى مُوسَى الْمَعْجِزَةَ  
(العصا) لَقِفَتْ كُلَّ مَا أَلْقَوْا مِنْ سِحْرِ "615.

وهكذا هو حال السحر والسحرة تفريق الناس والإضلال بهم؛ فهم  
جميعهم لا يعملون شيء إلا فتنة وفرقة، وفي المقابل دين الله يوحد المفرقين  
تحت كلمة واحدة (لا إله إلا الله ولا شريك له)؛ فعن عمرو بن عوف  
رضي الله عنه: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "أَلَا إِنَّ بَنِي  
إِسْرَائِيلَ افْتَرَقَتْ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سَبْعِينَ فِرْقَةً؛ كُلُّهَا ضَالَّةٌ؛ إِلَّا  
فِرْقَةً وَاحِدَةً: الْإِسْلَامَ وَجَمَاعَتَهُمْ" 616

<sup>612</sup> طه 17 . 23.

<sup>613</sup> مذكرة التوحيد، ص 61.

<sup>614</sup> الأعراف 120 . 122.

<sup>615</sup> معارج القبول بشرح سلم الوصول، 2، ص 544.

<sup>616</sup> إتخاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة، 1، ص 263.

كان موسى حذرا خائفا حيث ورد تحوّفه في أكثر من مشهد فهو قد كان خائفا ممّا فعل بتلك الوكرة التي كانت قاتلة، وله من بعدها مخاوف أخرى، {فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ} 617

وقال تعالى ف مشهد آخر: {فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} 618

وهكذا كان الخوف حذر يتكرر مع سيدنا موسى عليه السلام ذلك لأن جميع خوف موسى هو خوف موج وللضرورة، {فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} 619، وهنا يطمئنه الله تعالى بقوله: {يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ} 620، ويؤكد له ذلك بقوله: {يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ} 621.

وقال تعالى: في مشهد آخر يطمئن الله فيه موس حتى يثق في أنه محفوظ من كل ما يخيف، {حُذِّدْنَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى} 622

ومع ذلك فقد أوجس موسى في نفسه من الخوف ما أوجس، وبالرغم من ذلك الله معه يطمئنه في كل مشهد، {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى} 623.

---

617 القصص 18.

618 القصص 21.

619 القصص 25.

620 القصص 31.

621 النمل 10.

622 طه 21.

وعليه فإنّ الخوف توقّع حذري قبل وقوع الفعل؛ فهو يستوجب اتقاء ما سيقع، وقد يُحدث أمرا غير مُرضيا، أو أنّه يُحقّق ألما، والخوف هو ما ليس بُجْبِن، فالجبن لا يكون ساكنا إلّا في نفس من يعرف الحقيقة تجاه ما يجب ولا يقدم عليه، والخوف لا يكون إلّا في دائرة المتوقع من أجلّ الإقدام على، أو الانتهاء عن، دون تأخّر ولا جبن.

ولذا فالخوف استشعار للمستقبل واستطلاع لما قد يَحِلُّ به وقد يؤثر تأثيرا سلبا على الفرد أو الجماعة أو المجتمع وما يمتلكون، وحتى لا يحدث تُبْذَل الجهود من قبل مستشعريه وقاية منه أو استبدالها له، أو استغناء عنه في دائرة الممكن.

ومع أنّ معظم معلومات العامّة من النَّاس عن الخوف هي معلومات عن سالبٍ، إلّا أنّ حقيقة أمره لا ترتبطه بسالبٍ؛ فالعامّة على سبيل المثال يخافون من الظلمة، ولكن هل يوجد شيء من مكونات الظلمة يخيف؟

بالتأكيد الظلمة لا تُخيف، ولكن ما قد يفاجئك وأنت في زمن الظلمة قد يُلحق بِكَ ألما أو ضررا، ولهذا ينبغي أنّ تكون عند الظلمة حذرا متيقّظا، وإن لم تكن كذلك فقد تفاجأ بما هو غير متوقّع، وعندها قد تحدث الخسارة، ولكن بفضل الله علينا خلق الخوف في أنفسنا وجعله قابلا للاستشعار العقلي ليأخذ الإنسان حذره ممّا يُخيف.

وعليه فالخوف الذي هو من خلق الله فينا خلقا، هو دائما موجب، ولذا لا حجة للبعض الذين يرون أنّ الإنسان قد حُلِق على السلبية في مقابل قوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} 624؟

623 طه 67 . 68.

624 التين 4.



ولأنَّ الخوف موجب فكلِّ عاقلٍ منَّا يخاف المرض ولا يخاف الموت، ذلك لأنَّ للمرض دواء؛ فكلُّنا نسعى إلى بلوغه والعمل من أجلِّ الحصول عليه؛ فتجرى التطعيمات الوقائية للناس عن المرض استباقاً، خوفاً من حدوثة، أمَّا الموت فلا دواء له، ولهذا لا أحد يفكّر في علاج الموت.

ولأنَّ الخوف يصنع المستقبل؛ فكلُّنا نسعى لتوفير الماء قبل أن يلمَّ بنا العطش، ولأنَّنا نجوع؛ فنسعى لتأمين غذائنا قبل أن تلمَّ بنا أزمة الغذاء وألم الجوع، ولأنَّنا نخاف من الوحدة، فنسعى جميعاً من أجلِّ تحسين علاقاتنا الاجتماعيّة مع الآخرين أبوة وأخوة وعمومة وقراة وجيران كرام كي لا يلمَّ بنا ما يخيف، وحينها نتمكّن من بلوغ السكينة.

ولأنَّنا نعرف ما تتركه السرقة من ألم؛ فنسعى للتأمين على ما نمتلكه قبل أن تحدث السرقة، ولذا فمن لم يكن خائفاً فطنا سيدفع ثمن غفلته أماً.

وهكذا بأسباب الخوف من الجهل تسعى النَّاس لنيل التعليم، ولذلك دائماً من لا يخاف على مستقبله لا يسعى لتأمينه، ومن لم يرسم الاستراتيجيات والخطط لمستقبل أفضل، لن يجد لنفسه مكانة يتبوَّؤها بين النَّاس، ولن يكون له مستقبلاً مفضّلاً ولا مقدّراً، بل قد يجد نفسه على الرصيف جالسا على قارعة الطريق متسوِّلاً، أو سجيناً بين الجدران بأسباب فقدانه مشبعات الحاجة.

ولأنَّ الخوف نعمة من نعم الله علينا؛ فكلِّ عاقلٍ ليس له بدٌّ إلاَّ أن يُفكّر في كلِّ ما من شأنه أن يجنِّبه ما يخيف.

وعليه: فالعاقل دائماً يسعى لتأمين مستقبله من الكوارث. وهكذا كلِّ من يخاف من العدوان يسعى لإعداد العُدَّة قبل أن يحدث العدوان، وذلك لأجلِّ إرهاب العدو ووضع حدِّ له يقف عنده.

ولمتسائل أن يسأل:

الخوف من أجلّ ماذا؟

نقول:

من أجلّ السلامة، ولذا فمن يحرص على الإقدام على ما يخيف من أجلّ التخلص منه أو تجنبه بما يحقق السكينة والأمن، سلم. وإلا لماذا الآباء هم يخافون على أبنائهم؟

بطبيعة الحال خوف الآباء على أبنائهم هو من باب الحرص عليهم وتحقيق السلامة لهم. ولذلك فمن خاف سلم، ومن لم يخف ألقى نفسه في التهلكة.

وعليه فالعلاقة قويّة بين الخوف والتدبّر، وبينه وبين التفكير، والتذكّر، أي لماذا الإنسان العاقل ينبغي عليه أن يتدبّر أمره، ويتذكر ماضيه، ويفكر في مستقبله؟

نقول:

يتدبّر حاله في الزمن الآن من أجلّ أن يستمدّ القوّة التي بها يتمكّن من التذكّر والتفكير، ويتذكّر الماضي لكي يتدبّر حاضره عن بيّنة، ويعرف ما يجب أن يقدم عليه في مستقبله، أمّا التفكير فلا يكون إلا في كلّ ما من شأنه أن يحفّزه على صناعة المستقبل.

وكما أنّ هناك علاقة موجبة بين الخوف والتدبّر والتفكير والتذكّر؛ فكذا هناك علاقة سالبة بين الخوف والوهم؛ فالوهم مجرد افتراضات لا علاقة لها بالواقع (تخيّل ليس إلا)، أمّا الخوف فلا وجود له إلا مع واقع، ولهذا فالفرق كبير بين متخيلات الوهم وبين ما يكشفه الخوف حقيقة. فالآباء في كثيرٍ من الأحيان يرسمون صور وهميّة في أذهان أبنائهم عن

المجهول بالنسبة لهم بغرض السيطرة عليهم وجعلهم تابعين؛ فالغول الذي ليس له صورة لعدم وجوده حقيقة، صورته لم تمح من أذهان الكثيرين من أبناء العالم المتخلف.

ولأنّ للخوف علاقة وثيقة مع المستقبل؛ فالناس تخاف من مفاجئات الزلازل؛ فتسعى في البحث لأجل أن تتمكن من المعرفة العلمية التي تكشف مؤشرات الزلازل قبل وقوعها تفاديا لما قد تحدثه من كوارث، ولذا فالمهندسون وخاصة المعمارين هم دائما يبحثون عن كيفية إيجاد تصميم معماري يساهم في تفادي الهزات الأرضية أو الحد مما تؤدي إليه من أضرار.

ولأنّ الخوف فطري؛ فكلّ المخلوقات الحيوانية حالها كحال الإنسان تخاف فطرة لا تعلما؛ فالخروف بدون شك يخاف الذئب، والذئب يخاف الكلب، والكلب يخاف صاحبه ولا يخاف أعداءه، وهكذا الدجاج يخاف الثعالب، والثعالب تخاف الصيادين، ولكن دون تدبر؛ فكلّ سلوك حيواني يكون الحسم فيه أثناء المواجهة للأقوى، مما يجعل للمفاجئة مكانة في إلحاق المغالبة بين حيوانا وآخر.

والفرق بين الخوف على المستوى العاقل والمستوى الحيواني هو أنّ الإنسان يخاف فيتدبر أمره مسبقا من أجل أن يتفادى المخاطر المقدرة تقديرا بحسبان؛ فالمسلم يعلم أنّ أمامه مستقبل بين (سكينة وألم) وله أن يختار إرادة (جنة أم نار) ولهذا فالمؤمن في حياته الدنيا يتقي الشرور ويتعد عن ارتكاب المظالم خوفا من النار وحبّا في الجنة، ولهذا فهو يصلي ويؤتي ويصوم ويتبع أمر الله ونهيه، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويسعى للإصلاح في الأرض وإعمارها وفلاحها، أمّا غيره من بني جنسه (الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم)؛ فهم غافلون، ولهذا لم يعملوا على صناعة مستقبلهم وهم في الحياة الدنيا، ولذا فالخوف تفادٍ للفعل المؤلم

سواء أكان هذا الفعل في الحياة الدنيا أم أنه عندما يكون مترتباً عقاباً في الحياة الآخرة على ما لم يُفعل في الحياة الدنيا أو أنه فُعل عن غير طاعة لما يجب أن يُفعل إرادة.

ولأنّ الخوف يُجَنَّب الألم؛ فالواعون دائماً يتجنبون لحظة الغضب بحكمة وتدبّر، بغرض إضاعة الفرصة على الغاضب وإعادته لرشده، ولذا فإنّ لم يتمّ تفادي الغضب لحظته تحدث المواجهة المؤلمة؛ فتتأزم الأمور ويتصدّع البناء الأسري أو العشائري أو أيّ بناء اجتماعي وإنساني على مستوى الأفراد والجماعات وحتى الدول.

وهكذا العالم المتقدّم دائماً يقدّم على كلّ شيء يمكن أن يسهم في صناعة المستقبل الأفضل؛ فبالنسبة له كلّ شيء بحسابه؛ ولذا كلّ يوم نلاحظ أسعار النفط والذهب والفضة والعملات وأسعار الأسهم وما شابهها اقتصادياً تتغيّر وتتبدّل قيمها أحياناً بتعديل رؤية في سياسة منظمة الأوبك أو تصريح من رئيسها أو تصريح من أيّ رئيس له أثر فعال على الساحة العالمية، أو إذا وقعت كارثة طبيعية أو غير طبيعية من حروب أو حتّى تهديدات باردة ترتفع بأسبابها أحياناً جميع الأسعار عقاريّة ومالية وذهبية ونفطية وفضيّة وغيرها، وكلّ ذلك بأسباب الخوف التي تجعل الكلّ يأخذ حذره الذي به يتمكن من تأمين مستقبله.

وعليه: النّاس جميعاً يخافون في ظروف متشابهة أو ظروف مختلفة، ولذا فالخوف انفعال طبيعي مرتبط بالفطرة، وثمة مخاوف تكون وهميّة لدى البعض إذا تكرّرت بانتظام في غياب مخاطر حقيقيّة، وتكون هذه المخاوف ما بعد الفطرة في بعض الحالات، وهي مرتبطة ارتباطاً مباشراً بتجربة مخيفة نتج عنها رعب؛ فالذي يخاف من حيوان معيّن أو من أكثر من حيوان قد يكون هذا الخوف تأصّل في نفسه بعد أن تعرّض أو عرف وراء من تعرّض لهجوم من حيوان معيّن، وهكذا لو وقع طفل في حفرة؛

فهو يخاف أيّ حفرة مشاهمة، ممّا يجعله أكثر حذرا في مستقبله من أجلّ السلامة، وهذا النوع من الخوف هو خوف زائد على الفطرة، لأنّه ناتج عن تجربة سبّبت أذى نفسيا كبيرا أو ألما جسديًا، جعلت صاحب هذه التجربة يخاف الأشياء التي مرّت به وسبّبت له ألما أو أذى نفسيًا أو جسديًا؛ فأصبح هذا الخوف نوعا من المرض الذي يجب علاجه، أمّا الخوف الطبيعي فهو خوف فطري لدى جميع البشر، وهو صفة من صفاتهم اللازمة، والذي لا يخاف يكون مريضا وجب علاجه أيضا.

الخوف هو صفة للخائف مثله مثل أيّ صفات أخرى يمكن أن يتّصف بها الإنسان، وطالما أنّ الخائف موصوف بما يمكن أن يتّصف من صفات ومن ضمنها الخوف؛ فإنّ الصفة التي اتّصف بها . أيّة صفة . إمّا أن تكون صفة عارضة تزول بزوال مسببها، كاصفرار الوجه الذي يسببه المرض مثلا، أو أنّها صفة لازمة خلقية كلّون البشرة والشعر والأعين، أو فطرية غريزية من الصفات الإنسانية التي تنقسم إلى مادية وإلى نفسيّة روحية، فالمادية كالشعور بالجوع والعطش التي تزول بزوال مسبباتها بعد الأكلّ والشرب وإن تكرّرت بانتهاء مشبعاتها ويكون المنبّه عليها داخلي يشغل حيزا ماديا معيّنًا، وأمّا النفسيّة الروحية التي لا تنفكّ عن الجسد ولا يعرف موطنها فيه، كالشجاعة والجبن، والكرم والبخل، والخوف والأمن، تسكن في الحيّز الإنساني فطرة غريزيّة لا يعرف موطنها، وتفترق عن الصفات المادية بأنّها تستثار وتهدأ بمثيرات خارجية وهي ملازمة في الحالين:

. حالة الاستثارة.

. حالة الهدوء.

فالكرم صفة مثل صفة الخوف، ذلك أنّ الذي يتّصف بها يكون كريما، ولا تظهر فيه صفة الكرم إلّا بمثيرين اثنين:

الأول: من يقوم الكرم بإكرامه.

. الثاني: ما يقدمه لمن يكرمه.

فإذا تلاشى كلاً هذين المثيرين لهذه الصفة أو أحدهما، فإنّ صفة الكرم تهدأ في نفسه ولا تتلاشى، وذلك إمّا لأنّه لم يجد من يكرمه، أو أنّه لا يجد شيئاً يُكرم به، وبهذا تبقى الصفة قائمة في النفس لحين استحضر مثيراتها ودوافعها من الأسباب.

والخوف أقرب ما يكون إلى صفة الكرم؛ فهو ليس من الصفات المكتسبة، إذ لو كان الخوف مكتسباً لَعَمِلْنَا جاهدين على إيجاد نقائص أسبابها بطريقة الكسب، وتخلّصنا منه إلى النهاية.

وعليه: فالخوف صفة لازمة للخائف ولغيره، وذلك أنّ الخائف تكون صفة الخوف لديه لازمة ظاهرة، وأمّا غير الخائف؛ فإنّ صفة الخوف لديه لازمة باطنة، وهذا يعني أنّ الخوف جزء من تكوين الإنسان النفسي كونه فطرياً غريزياً، ومعلوم أنّ الصفات الفطرية التي ترتبط بالجانب النفسي لها علاقة مباشرة في حياة الإنسان؛ فإن أحسن الإنسان استخدامها، أدّت وظيفتها الإيجابية التي وجدت من أجلّها، وإن كان غير ذلك؛ فلا بدّ أن تكون النتائج عكسيّة.

ولما كان الخوف صفة فطرية لازمة؛ فلا بدّ أن تتناسب هذه الصفة مع مراحل الإنسان الحياتية وتنمو مع نمّوه بما يناسب التحذير من المخاطر التي تحدق به في كلّ مرحلة من مراحل حياته، إذ لولا الخوف الفطري لهلك كثير من النّاس وخاصة الأطفال الذين لم يصلوا إلى مرحلة التمييز العقلي، وهنا تظهر صفة الخوف نعمة ممّا أنعم الله تعالى بها على خلقه، ولذلك يكون الخوف عندهم نوعاً من الحواجز التي تردعهم عن المخاطر في تلافيفهم إيّاها، وكلّما كبر الإنسان كبر خوفه بنمّوي عقله

خوفا تحسبياً، لا بمعنى الجبن والتخاذل، وإنما بمعنى تقدير المخاطر التي تؤدي إلى ضرر، ومعرفة المكاسب التي تؤدي إلى النفع.

تعرض موسى عليه السلام إلى مواقف ومشاهد وابتلاءات ولكنه قد أخذ منها العبر والدروس؛ وخير الدروس التي عاشها مع العبد الصالح، ففيها عرض لأحداث مختلفة أخذت كل واحدة منها شكلاً معرفياً جديداً في حياة موسى صلى الله عليه وسلم، فمن البداية ارتسمت عليه المعرفة المترامية الأطراف التي لم تجد لها من يحدها سوى العبد الصالح، الذي أراد في الأحداث الثلاثة أن ينهي لقاءه مع موسى صلى الله عليه وسلم، إذ يقول تعالى: {قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا} 625 ثم ينهي هذه الفتنة بعد استيضاح ما بدر منه من أفعال بقوله تعالى: {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} 626. إنَّ اعتراف موسى صلى الله عليه وسلم من علم هذا العبد الصالح جعله يخرج من الدائرة التي كان يعتقد فيها أنه على علم واسع، ودخل في الدائرة التي يتمحور فيها العلم بأنه ناقص، فهو كالقطرة التي يأخذها الطائر من البحر الواسع.

عليه: نرى في الفتن التي تعرض لها نبي الله موسى صلى الله عليه وسلم دروساً وعبراً، هذه الدروس والعبر لم تكن مقيدة بموسى صلى الله عليه وسلم بل هي مفتوحة ضمن نسق الهي بين فيه أن موسى صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء يكون بهم التأسّي، ففي النبي محمد صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ

625 - الكهف 70.

626 - الكهف 82.

لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ  
الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ  
إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا {627} وفي النبي إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول الله  
تعالى {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ  
إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ  
الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ  
لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ  
أُنَبِّئْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ  
أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ  
وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ  
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ {628}،  
هذا هو المنهج الإلهي المختار للجماعة المسلمة المختارة، التي ناط بها الله  
تحقيق منهجه الذي يريده للحياة الإنسانية، في صورة واقعية عملية، كما  
يستقر في الأرض نظاما ذا معالم وحدود وشخصية مميزة؛ تبلغ إليه البشرية  
أحيانا، وتقصر عنه أحيانا، ولكنها تبقى معلقة دائما بمحاولة بلوغه؛  
وتبقى أمامها صورة واقعية منه، تحققت يوما في هذه الأرض.

وكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقوم في يقظة دائمة وإلهام  
بصير، بالتقاط الأحداث والوقائع والمناسبات في كل فرصة، واستخدامها  
بحكمة بالغة في بناء هذه النفوس. والوحي والإلهام يؤيدانه ويسددانه  
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى تصنع تلك الجماعة المختارة على عين الله.  
بتوفيق الله. على يدي رسول الله.

627 - الأحزاب 21، 22.

628 - الممتحنة 4 - 6.



هذه الآيات الكريمة حلقة في سلسلة ذلك الإعداد الطويل،  
تستهدف مع غيرها ممّا جاء في مثل موضوعها إقامة عالم ربّاني خالص في  
ضمير المسلم 629.

ولقد عظم الله موسى بالتكليم، الذي يتفصّل تبياناً إلى:

أ. مكلم، وهو الله جلّ جلاله الذي كلم الملائكة والجنّ ثم كلم آدم  
من بعدهم وكلامه جلّ جلاله لآدم هو كلام نوع حتى وإن كان آدم  
مفردة فهو أصل النوع البشري، وهكذا الملائكة والجن وإن كانا أصل  
لنوعيهما المختلفين. وهكذا كلم موسى تكليماً {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى  
تَكْلِيمًا} 630.

ب. مكلم، المكلم من عند الله هو المرسل له الكلام، قال تعالى:  
{ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا  
جَانٌّ وَلى مُدِيرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ  
الْمُرْسَلُونَ} 631 وقال تعالى: {قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَأَلْقِ مَا  
فِي يَمِينِكَ تَلْفَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ  
أَتَى} 632.

ج. رسالة أو نبأ، والذي نعنيه بالرسالة أو النبأ هو الذي لا يكون  
إلا من عند الله تعالى ولا يكون إلا للأنبياء والمرسلين، {وَلَقَدْ سَبَقَتْ  
كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} 633، ولذلك فالكتب والفرقان والصحف

---

629 - في ظلال القرآن، ج 7 ص 174

630 - النساء 164.

631 - النمل 9، 10.

632 - طه 68، 69.

633 - الصافات 171.

والألواح والزبور والتوراة والإنجيل والقرآن كلها رسالات من الله تعالى إلى المصطفين من الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

وعليه: فالتكليم في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع يمكن أن يكون وفقا لما يأتي:

أ . تكليم الله لمن أراد من الأنبياء والرسل، لقد اصطفى آدم صلى الله عليه وسلم على جميع الأنواع ليكون خليفة في الأرض مصلحا ومعمرًا فيها لا سافك دماء، قال تعالى: وقال تعالى: {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} 634.

وكلم إبراهيم صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: {قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} 635.

وكلم موسى تكليماً مصداقاً لقوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} 636.

ب . تكليم بعض من الأنبياء والرسل لله تعالى، كما هو حال إبراهيم صلى الله عليه وسلم مصداقاً لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْمِئْتُمْ ثُمَّ قَالِ بَلَى وَلَكِنْ لِيَبْظُنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا

634 - البقرة 33 . 35.

635 - البقرة 260.

636 - الأعراف 143.

ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَا تَيْبَةَ سَعِيًّا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ {637، وتكليم موسى لربه في قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ نُنْظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ {638، وقال تعالى: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذُكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى {639.

ج . تكليم العباد لخالقهم، توجه العباد بالدعاء لربهم تعالى الذي يثقون ويؤمنون يقينا أنه السميع المجيب ألا يكون هذا الأمر كلاما مباشرا مع الله تعالى؟ مع أنه لن يكلمهم ولكنه السميع المجيب مصداقا لقوله تعالى {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ {640 وهنا أتساءل: ألا يكون الدعاء كلاما؟ وإذا كان كذلك، ألا يكون الدعاء المباشر كلاما مباشرا مع الله تعالى؟، وبما أنه السميع، ألا يوجب ذلك علينا مناجاته ودعائه وتكليمه بالطاعة والتضرع إليه؟، ولأنه مجيب أي متصل الإجابة ألا تكون إجابته على الكلام التضرعي أو الدعائي أو المطلي عند كل حاجة أو ضيق لأجل فك رقبة أو كربة من كرب الدنيا ومآسيها؟

637- البقرة 260.

638- الأعراف 143.

639- طه 37. 23.

640- البقرة 186.

دخل النبي موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرحلة جديدة، بينها القرآن الكريم من خلال مفردتين اتسمتا بالبناء الأولي لشخصية النبي موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ يقول تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نُجْزِي الْمُحْسِنِينَ} 641 تحدد التقديم والتأخير في هذين المفردتين (الحكم والعلم) وذلك أن النبوة بدأت خيوطها بالظهور والتبلور في شخصية موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهنا تتضح الصورة التي يؤسس على أساسها التكليف المراد منه، وبما أن الأنبياء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشر، فالتكليف يأتي عليهم وفق القاعدة البشرية ولا يتجاوزها إلا ضمن استثناءات أريد لها أن تتحقق حتى تتفق مع المعجزة المصاحبة لهم، وذلك كحال آدم وعيسى ويحيى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إنَّ المرحلة التي ذكرها القرآن الكريم بقوله: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى) اختلف فيها فلم يتحدد عمر بعينه "اختلف في زمان بلوغ الأشد والاستواء فأخرج ابن أبي الدنيا من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال الأشد ما بين الثماني عشرة إلى الثلاثين والاستواء ما بين الثلاثين إلى الأربعين فإذا زاد على الأربعين أخذ في النقصان، وأخرج عبد بن حميد. وابن المنذر. وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال الأشد ثلاث وثلاثون سنة والاستواء أربعون سنة وهي رواية عن ابن عباس أيضا وروي نحوه عن قتادة وقال الزجاج مرة بلوغ الأشد من نحو سبع عشرة سنة إلى الأربعين وأخرى هو ما بين الثلاثين إلى الأربعين واختاره بعضهم هنا وعلل بأن ذلك لموافقته لقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً} 642 لأنه يشعر بأنه منته إلى الأربعين وهي سن الوقوف فينبغي أن يكون مبدؤه مبدأه ولا يخلو عن شيء والحق أن بلوغ الأشد في الأصل هو الانتهاء إلى حد القوة، وذلك وقت انتهاء

641 - القصص 14.

642 - الأحقاف 15

النمو وغايته، وهذا ممّا يختلف باختلاف الأقاليم والأمصار والأحوال، ولذا وقع له تفاسير في كتب اللغة والتفسير، ولعل الأولى على ما قيل: أن يقال إنّ بلوغ الأشد عبارة عن بلوغ القدر الذي يتقوى فيه بدنه وقواه الجسمانية وينتهي فيه نموه المعتد به والاستواء اعتدال عقله وكماله ولا ينبغي تعيين وقت لذلك في حق موسى صلّى الله عليه وسلّم إلا بخبر يعول عليه لما سمعت من أنّ ذلك ممّا يختلف باختلاف الأقاليم والأمصار والأحوال نعم اشتهر أن ذلك في الأغلب يكون في سن أربعين"643. إنّ هذه الآراء المختلفة تمثل لنا تداعيات حاضنة لقوالب جاهزة تملئ حين تكسب الدرجة القطعية فيما يوافق التنظير الذي تنتمي إليه، فالثلاثون والأربعون وغيرها تتحقّق فيها النبوة ضمن إرادة الله تعالى المطلقة فيما يريد ويختار.

ابتدأت حياة موسى الجديدة بواقعة أشبه بالحلم الذي يتبدد عند ساعات النهار الأولى، إذ يقول تعالى: {وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ}644. دخل موسى صلّى الله عليه وسلّم المدينة حين خف وجود الناس، فوجد رجلان يقتتلان واحد من بني إسرائيل والأخر من القبط، وموسى صلّى الله عليه وسلّم يشاهد هذا الموقف، فلا يقف موقف المتفرج؛ إنما يتصرف وفق الاستصراخ الذي يحمل دلالات طلب المعونة العاجلة، والاستغاثة المتحققة هنا جاءت وفق استدعاء للصورة التي كان عليها بنو إسرائيل بعد إرضاعهم لموسى صلّى الله عليه وسلّم "وذلك أنّ موسى صلّى الله عليه وسلّم كانت له بديار مصر صولة بسبب نسبه إلى تبني فرعون له

643 - تفسير الألوسي، ج 15، ص 89.

644 - القصص 15.

وتربيته في بيته وكانت بنو إسرائيل قد عزوا وصارت لهم وجهة وارتفعت رءوسهم بسبب أنهم أرضعوه وهم أخواله - أي من الرضاعة - فلما استغاث ذلك الإسرائيلي موسى صلى الله عليه وسلم على ذلك القبطي أقبل إليه موسى (فوكزه) قال مجاهد: أي طعنه بجمع كفه وقال قتادة: بعضا كانت معه (فقضى عليه) أي فمات منها، وقد كان ذلك القبطي كافرا مشركا بالله العظيم ولم يرد موسى قتله بالكلية وإنما أراد زجره وردعه"645، هذا الموقف وان حمل دلالات النصر، إلا أن موسى صلى الله عليه وسلم قال { قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ } . فهنا تتكشف شخصية موسى صلى الله عليه وسلم التواقة نحو السلم، فالقتل ليس من سمات الأنبياء، وحتى ليس من سمات عباد الله الصالحين إلا بالحق، لذلك لجأ موسى صلى الله عليه وسلم إلى طلب المغفرة رغم انه لم يقصد قتله، إذ يقول تعالى: { قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ }646.

إنَّ حادثة مقتل العدو أَلقت بظلالها على نفسية موسى صلى الله عليه عليه وسلم، فالسمة البشرية ظهرت عليه، يقول تعالى: { فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ }647 ظهرت حالته السيكولوجية ضمن حالة الترقب التي أمسكت به، ذلك أن البحث عن مخرج يتطلب قرارا فوريا، إلا أن هذا القرار لم يتحقق فقد اصطدم بدهشة، فالحلم الذي تبدد عاد

645 - القصص الأنبياء، ج 2، ص 13.

646 - القصص 16، 17.

647 - القصص 18.

من جديد ليعيد الفزع والهلع والاضطراب إلى نفسيته {فَإِذَا الَّذِي  
اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ} 648.

هذه الحادثة أُختلف فيها، إذ حمل الاختلاف فيه وجهان "إنّما قال  
هذا الكلام الإسرائيلي الذي اطلع على ما صنع موسى بالأمس وكأنه لما  
رأى موسى مقبلا إلى القبطي اعتقد أنه جاء إليه لما عنفه قبل ذلك  
بقوله: {إنك لغوي مبين} فقال ما قال لموسى وأظهر الأمر الذي كان  
وقع بالأمس فذهب القبطي فاستعدي فرعون على موسى وهذا الذي لم  
يذكر كثير من الناس سواه ويحتمل أن قائل هذه هو القبطي وأنّه لما رآه  
مقبلا إليه خافه ورأى من سجيته انتصارا جديدا للإسرائيلي فقال ما قال  
من باب الظن والفراسة: إنّ هذا لعله قاتل ذاك القتل بالأمس أو لعله  
فهم من كلام الإسرائيلي حين استصرخه عليه ما دله على هذا والله  
أعلم" 649 والخلاف المتحقّق في هذا النص لا يفضي إلى خلاف  
جذري في وصول موسى إلى درجة الخوف والحذر الشديدين، فالأمور  
ازدادت سوء، وأصبحت صورة موسى تبتعد عما كانت عليه في حضرة  
فرعون، فلا بدّ من الفرار والخروج من أرض مصر.

إنّ سمة الإطلاق لم تتحقّق من آدم صلّى الله عليه وسلّم إلى أن  
يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، فالخير والشر متحقّقان في الأرض،  
ويتواجدان بأشكال وصور مختلفة، فالصورة الضبابية التي غطى بها اسم  
فرعون عهده حملت على القول أنّ الخير لم يظهر على السطح إنّما هو  
قابع في ردهات مظلمة يأبى أن يظهر، أو قد لا يجد له شكل يظهر به؛  
لأنّ كلّ الأشكال لا تستوعبه، ولا يدخل تحت أي من مسمياتها، هذه  
الصورة خرج منها ما هو منقذ بالدلالة الإنسانية، أراد أن ينقذ المنقذ

---

648 القصص 18.

649 - قصص القرآن، ج 2، ص 15.

المنتظر الذي طال انتظاره، إذ يقول تعالى: {وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} 650 إنَّ الخطر الذي ينتظر موسى صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم يوشك أن يتداعى عليه، ذلك أنَّ المكان الذي فيه موسى ليس بمنأى عن فرعون وجنوده ولهذا اضطر إلى البحث عن مكان جديد يجد فيه ضالته التي ينشدها، وفي هذا الموقف يعاد التاريخ مرة أخرى مع سيدنا محمد صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين خرج من مكة إلى المدينة مهاجرا بدينه وليؤسس دولة الإسلام فيها، هذا الأمر غير مقتصر على الأنبياء صَلَّى اللهُ عليهم وسلَّم فقط، بل هو دعوة من الله تعالى لكلِّ المسلمين، إذ يقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} 651.

أهم الله موسى عليه الصلاة والسلام أن يقصد بلاد مدين إذ يجد فيها من يبصره بأداب النبوة ولم يكن موسى يعلم إلى أين يتوجه ولا من سيجد في وجهته، يقول تعالى: {وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ} 652.

وصل موسى صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم أرض مدين وفي جعبته أفكار متلاطمة يحاول نسيانها أو تجاوزها، فإذا به أمام أمة من الناس يسقون، يقول تعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا

650 - القصص 20، 21.

651 - النساء 97.

652 - القصص 22.



أَنْزَلَتْ إِلَيَّ مِنْ حَيْرٍ فَقِيرٌ<sup>653</sup> إن سؤال موسى لهاتين المرأتين ليس سؤالاً عادياً، إنما هو سؤال المصلح الذي لا يتوانى عن تغيير أي شيء أمامه مهما كان حجمه أو تأثيره، والعمد إلى الحديث مع هاتين المرأتين يبرر أنّ الإصلاح لا يتقيد ولا يتحدد بأي شيء، فنوع الجنس ليس عائقاً.

وفي القرآن الكريم فيه قضايا متنوعة يعكف عليها الفكر فيقرأها قراءة جديدة يحاول من خلالها الوصول إلى نتائج أو حتى إلى حقائق جديدة لم تمرّ عليها قوافل أهل العلم من قبل، وصدق رسول الله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ قال: "وَهُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ وَلَا تَلْتَسِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ"<sup>654</sup>.

إنّ حياة موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت حافلة بالأحداث المختلفة من بداية إلقاء أمّه له في اليم إلى أن التحق بالرفيق الأعلى، فقد آثرنا أن يكون عرضنا لحياته وللقضايا الفكرية التي تحملها دعوته في كثير من الأحيان بطريقة السرد التحليلي، فتنقلاته والأماكن المختلفة التي وقف عليها منحتنا أو رغبتنا بإتباع السرد الروائي، ذلك أنّ الإثارة في الأحداث تثير المتلقي في تتبع الأحداث المختلفة، فهذه الطريقة كما نعتقد هي من الطرق المهمة في الوصول إلى عقل وقلب المتلقي.

إنّ الشخصيات المختلفة التي رافقت موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعوته كانت لها بصمة واضحة في حياته، فقد استعرضناها وحاولنا إعطاءها الدور المناسب في الظهور والاختفاء، حتى أنّ المسميات كانت بما ورد في القرآن الكريم فلم نسمّ الشيخ الذي قابله في مدين بشعيب، ولا العبد الصالح بالخضر، ذلك أنّ منهجنا يتبع النصّ القرآني ويستند

---

<sup>653</sup> - القصص 23 - 24.

<sup>654</sup> - سنن الترمذي ج 11 ص 93

عليه، فمؤلفنا ليس مقصودا على المسلمين، ففيه من الأفكار ما ترتبط ارتباطا مباشرا بهم، وهذا حتم علينا أن يكون مصدرنا الأساس هو القرآن الكريم ثم السنة الكريمة.

اتبع منهج المؤلف منهجا يتلاءم مع حياة موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان التقسيم المتبع يتطابق مع بداية حياته وتحركاته المختلفة قبل الدعوة وبعدها، كما رافق هذا العرض استبطان الحالة السيكولوجية لكل شخصية محاولين ما استطعنا تحليل كل كبيرة أو صغيرة فيها، وهذا ما تحقق صداه في كثير من المواقف التي وقفنا إزاءها؛ فالشخصيات تنوعت في حياته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالأم والأخت والأخ والزوجة والشيوخ والعبد الصالح مثلت الجانب الإيجابي من دعوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما فرعون وهامان والسامري وقارون فقد مثلت الجانب السلبي من الدعوة، هذه الإيجابية والسلبية تفاعلت في مختلف الأحداث وأنتجت دروسا وعبرا شكّلت فيما بعد منعطفًا كبير في سياق الفكر الديني.

ختاما نأمل أن يكون هذا الكتاب عنوانا جديدا من عناوين الدعوة إلى الله تعالى في زمن اختلطت فيه الأمور وتشظت؛ فلم يعرف لها قرار إلا بالإيمان بالله تعالى والركون إلى دينه الإسلام، إذ يقول تعالى: {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} 655.

## النبي هارون:

هارون عليه السّلام نبياً ورسولاً ووزيراً اصطفاه الله عزّ وجلّ سنداً لرسالة موسى عليه السّلام، وهو ذو مكانة رفيعة عند بني إسرائيل، وهو بما وصفه الله به في كتابه الحكيم هو رجل دولة (وزيراً) أي أنّ هارون على مهام ثلاثة:

. النبأ .

. الرّسالة .

. الوزارة .

ولهذا عضّد الله أزر موسى بأخيه هارون عليه السّلام وأناط بهما دعوة بني إسرائيل وتخليصهم من عبودية فرعون وجبروته واستدلاله لهم، ولقد نصر الله موسى وهارون وأهلك فرعون وجنوده، وأورث بني إسرائيل الأرض من بعدهم

عُرف هارون عليه السّلام بفصاحته ومكانته في قومه، ومقدرته على المخاطبة والمحااجة، فطلبه موسى عليه السّلام من ربّه لأن يجعله معه سنداً، قال تعالى: { وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي } 656

ولهذا كان هارون سنداً لموسى في حوارهِ مع فرعون والذين معه من الكافرين؛ فكان الوزير بما وُصف به من وزارة، وهو المتمكّن من الحجّة والفصاحة والمكانة عند بني قومه.

كان هارون عليه السّلام على منزلة عالية من موسى عليه السّلام، أي أنّ هارون رفيع المنزلة عند أخيه موسى وعند ربّه، ولهذا ثمّ اصطفاه

---

656 القصص 34.

رسولا مساندا لأخيه ومعين له على بني إسرائيل، وذلك كان هارون متميز بوده ولين جانبه مع بني إسرائيل. وفي هذا الشأن روي حديث عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم يقول فيه لعلي: "أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي" 657

ونحن في بحثنا عما يتعلّق بالرسول هارون عليه الصلّاة والسّلام نقول: ما قاله الشيخ العدوي على تأصّل الوثنية في بني إسرائيل بالرّغم من دعوة موسى عليه السّلام لهم الأيام والليالي الطويلة، فيقول: "فهذا نبي الله موسى يمضي الأيام في دعوة القوم إلى توحيد الله تعالى، ويدأب على محاربة الشّرك والوثنية أيّاما وليالي، ثم يترك أخاه هارون عليه السّلام؛ فيطمع القوم في حلمه ولين جانبه وودّه لبني إسرائيل، فينتهز السامري تلك الفرصة التي فيها أصبح ودّ هارون ظاهرا، ويعمل ما من شأنه أن يضل القوم وذلك بصنعه عجل من حلي الذهب والفضّة على نحو خاصّ، بحيث إذا مرّ الهواء يصدر منه صوت كصوت العجل، واستغل سداجة بني إسرائيل وجهلهم، ومن ثمّ؛ فموّد هارون لقومه ولين جانبه تجاههم جعلهم يستغلون غياب موسى ويحيدون عمّا ارشدهم به موسى، ومن هنا؛ فالود مع أنّه قيمة رفيعة عند الله الودود الأعظم؛ لكنّها قد تستغل من قبل متربّصي الدوائر في غير محلّها، ولهذا كانت صفة هارون من صفة الودود المطلق؛ فهو الذي بوّدّه خلق عباده في أحسن تقويم. وهنا فالودود "هو الذي يحبّ الخير لجميع الخلق؛ فيحسن إليهم ويثني عليهم" 658. وهو الذي "يؤدّ عبادة الصّالحين فيحبّهم ويقربّهم ويرضى عنهم ويتقبّل أعمالهم، وهذه محبة خاصّة بالأنبياء والصّالحين، أمّا المحبة العامّة؛ فالله هو الودود ذو إحسان كبير لمخلوقاته من جهة إنعامه عليهم وإكرامه للإنسان واستخلافه بينهم، حيث أسجد له ملائكته واستخلفه

657 الفصل حماية الرسول حمى التوحيد، ص 94. في الملل والأهواء والنحل، 4، ص 78.

658 المقصد الأسنى، ج 1، ص 122.

في أرضه على سبيل الابتلاء، واستأنمته في ملكه انتظاراً لمزيد من الإكرام في دار الجزاء، وبعث إليهم الرّسل وأنزل عليهم الوحي من السّماء، كل ذلك بفضله وكرمه وعطائه ومدده"659.

وعليه فالودود: هو الله المتصف بالود، ولأنّ الود من ذات الله؛ فإن استمداده لا يكون إلا منه، ولهذا فالله الودود مصدرٌ لكل ود كما أمّد الله هارون بوّده.

والودود: هو غير منقطع الود، وهو الذي يوّد المودود بما لا يكون في حساباته، أو أنّه في حساباته ولكنّه في غير دائرة المتوقّع الزماني أو المكاني، أو الاثنين معا.

والودود: هو من يملك ما لا يملكه غيره، في الوقت الذي يكون الغير في حاجة ممّا يملك المتصف بالود، ولذا فالود لا يقابله إلا ودّ، والود لا ينتج إلا محبة بما تطوى المسافات بين الودود المطلق والودود بالإضافة، وهكذا يمتد الودّ من ودودٍ إلى مودودٍ من بعده مودود، ولهذا فالود يستخلف في من تهيأت نفسه لمبادلة ودّ بوّده كما استخلفه في هارون عليه الصّلاة والسّلام

والله تعالى ودود بمغفرته حيث قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَن يَصِرُوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ

---

659 أسماء الله الحسنى، ج 23، ص 10.

يَعْلَمُونَ أَوْلَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ  
خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ {660}.

مع أنّ الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم إلا أنه لم يخلقه على الكمال، فهو يُخطئ ويصيب ولأنه كذلك فكان فضله عليه بالاستغفار وداً، ولأنّ فعل الفاحشة من الأفعال النواقص، فمن يرتكبها أو يظلم نفسه ويذكر الله فالله يغفر له فعلته لكل ذنب دون الشرك به، ولذا فالخليفة يذكر ربه دون إصرار على فاحشة فيغفر له ذنبه، ولذلك لا يغفر الذنوب إلا الودود عزّ وجلّ. وقال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} {661}، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَعْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّوهَا نَصَرَ مِنَ اللَّهِ وَفَتَحَ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} {662}.

وهو تعالى ودود برحمته، قال تعالى: {رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُرْحَمَكُم أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا وَرَبِّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْدُورًا وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ

<sup>660</sup> آل عمران 133 . 136.

<sup>661</sup> الزمر 23.

<sup>662</sup> الصف 10 . 13.

مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ  
مَسْطُورًا {663.

الرَّحْمَةُ مَكُونٌ قِيَمِي مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ، وَتَسْتَمِدُّ مِنَ الرَّحْمَنِ، وَهِيَ لَا  
تَمْنَحُ إِلَّا مِنْ أَبْوَابِ الْوَدِّ، وَلِذَا فَلِلرَّحْمَةِ أَبْوَابٌ مَفْتُوحَةٌ لِمَنْ يُوَدُّ أَنْ يَدْخُلَ  
مِنْهَا لِمُودَةِ الرَّحْمَنِ خَوْفًا مِنْ عَذَابِهِ، وَالْخَلِيفَةُ بِطَبْعَةِ الْإِيمَانِيِّ هُوَ دَائِمًا فِي  
حَالَةِ انْتِظَارٍ لِلْفَوْزِ بِرَحْمَةِ الْوَدُودِ، مِمَّا يَجْعَلُهُ فَاعِلًا لِلْخَيْرِ وَمُحْرَضًا عَلَى فِعْلِهِ.  
وَقَالَ تَعَالَى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ  
مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَيْلًا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ  
عَلَيْكُمْ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ  
فِيهِ أَوْ لَيْلًا تُبْصِرُونَ وَمَنْ رَحْمَتِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا  
مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} 664، وَقَالَ تَعَالَى: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا  
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ} 665.

وَلِأَنَّ الْوَدُودَ الْمَطْلُوقَ هُوَ اللَّهُ فَقَدْ سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ الْوَدُودَ بِأَنْ يَجْعَلَ لَهُ  
أَخِيه هَارُونَ وَزِيرًا، قَالَ تَعَالَى: {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي  
اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي} 666

والسؤال هنا:

من الجاعل؟

الله جلّ جلاله.

ومن المجمعول مع موسى عليه السلام؟

---

663 الإِسْرَاءُ 54 . 58.

664 الْقَصَصُ، 71 . 73.

665 الْجَانِيَةِ 30.

666 طه 29 . 32.

هارون عليه السّلام.

أي طلب موسى من الله أن يجعل له وزيراً من أهله؛ فجعل له وزيراً من أهله (أخيه هارون عليه السّلام).

وعليه فالجاعل هو المؤسس للأشياء على ما ينبغي أن تكون عليه، والجعل مترتب على الخلق فالذي خلق السّماوات والأرض وخلق الإنس والجنّ والملائكة هو الذي جعل هارون وزيراً ونبياً ورسولاً مع موسى.

إذا الجاعل:

هو القادر على جعل الأشياء على ما هي عليه خلقاً وطبعاً ونوعاً وجنساً وخاصية وصفة وفعلاً.

ولأنّه الجاعل جلّ جلاله فهو الذي جعل في الأرض رِوَاسِيَّ وجعل فيها فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وهو الذي جعل السّماء سَقْفًا مَحْفُوظًا.

ولأنّه الجاعل فهو يُطاع ولا يُعصى فيما أمر ونهى وحَدَّرَ وحَرَّمَ، قال تعالى: {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا} 667.

ولأنّ الجاعل بالمطلق يسأل؛ فسأله موسى أن يجعل له من أهله معيناً له؛ فجعل معه أخوه هارون عليهما الصّلاة والسّلام. ولهذا الجاعل بالمطلق يُطاع بالمطلق.

ولأنّه الجاعل عزّ وجلّ؛ فهو الذي جعل الأنبياء في أقوامهم وأممهم أنبياء وملوكاً كما هو حال بني إسرائيل، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى



لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا  
وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ {668}.

ولأنه الجاعل جلّ جلاله فهو الذي جعل الكعبة البيت الحرام للناس  
مثابة وأمنا. قال تعالى: { جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ  
وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ  
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } {669}.

ولأنه الجاعل خلق ما خلق مجعولا على وظيفة ومنافع فالنجوم  
خلقت خلقا وجعلت في علاقة وظيفية مع غيرها من الكواكب لتُظهِر  
تألقها يهتدي به الناس مقاصدهم ليلا في ظلمات البر والبحر، مصداقا  
لقوله تعالى: { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ  
وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } {670}.

ولأنه الجاعل فهو كما جعل النجوم ليهتدي الناس بها ليلا كذلك  
جعل الشمس ضياء والقمر نورا وهو الذي جعل التقدير الإحصائي من  
خلال دوران الأرض والشمس والقمر والنجوم في أفلاكها التي جعلت  
عليها امتدادا ودوراناً، قال تعالى: { هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ  
نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا  
بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } {671}.

ولهذا فهارون عليه الصلّاة والسّلام مقتدرا، ولأنّ موسى عليه  
الصلّاة والسّلام يعرف مقدرة أخيه هارون طلبه سندا ونصيرا له؛ فهو  
على معرفة بني إسرائيل، وله من الحكمة ما له، وهو الودود واللين

---

668 المائدة 20.

669 المائدة 97.

670 الأنعام 97.

671 يونس 5.

معهم، وهو أكبره سنًا، ولهذا ارتأه موسى مقتدر على العون؛ فسئل  
القريب الجيب؛ فأجابه به عونًا مقتدرًا. أي أنّ موسى يعلم يقينًا أنّ الله  
هو المقتدر بالمطلق فطلب منه مقتدرًا في دائرة الممكن؛ فكانت الإجابة.

وعليه؛ فالمقتدر: هو الله الذي لا ينقصه شيء بالمطلق من الأفعال  
والصفات الحسنى، والمقتدر اسم صفة من صفاته جلّ جلاله.

والاقتدار الإلهي ذاتي لا يستمدّ من أحد؛ أي أنّ المقتدر بالمطلق  
هو الله تعالى بذاته

ونحن نرجّح أنّ هارون هو أكبر من موسى وقد ولد قبله تقديرا من  
الله حتى يكون لدي أمّه عذر اللبن الذي سترضع به موسى، فلو كان  
موسى ولد قبل هارون لراود الشكّ جنود فرعون، وأما أنّ موسى أكبر  
من هارون بدليل أنّه أخذ (برأس أخيه يجره إليه) فلو كان موسى أصغر  
من هارون لما فعل ذلك فنقول: إن أخذ موسى بلحية هارون ورأسه لا  
يقوم دليلا على أن موسى أكبر من هارون لأنّ تلك الأخذة كانت  
غضبة لله تعالى يغضب لها الكبير والصغير.

ولأنّ الدّعوة ليست بالأمر الهين فكان لدور كل منهما ضرورة  
لإنجاح الرّسالة المرسلين بها؛ فبعد أن عرف موسى أعباء رسالته وما  
تتطلبه بادر إلى البحث عن معين يسنده في دعوته، قال تعالى: { قَالَ  
رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي  
وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي  
كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ  
سُؤْلَكَ يَا مُوسَى } 672.

إنّ طلب موسى صلّى الله عليه وسلّم يتمركز حول بناء قاعدة رصينة تعينه في الاتكاء عليها من أجل مواجهة شخصية وفكر وعدو لم يطرح التاريخ الإنساني هذا الطرح من قبل، فضلا عن ذلك أن موسى قد عرف فرعون جيدا، لذلك أفضى به البحث عن حلول ما سيتوقع من ذلك اختياره لهارون، فهو يتقرب ويرصد ويخمن ما يترتب على دعوته فهو يهياً الأمور المختلفة ويجندها لخدمة قضيته المركزية، فالعصا مثلت الجانب المادّي في دعوته، وهارون مثل الجانب الإفصاحي المعنوي، وهنا اكتملت الدائرة الدعوية التي تفكك كل الأباطيل وتعيد طرحها بأنساق واضحة تتفق مع توحيد الله تعالى وعبادته.

إنّ وجود هارون صلّى الله عليه وسلّم في حياة موسى مثل العتبة الثانية التي وقف عليها في حياته، فاللقاء بينهما ابتداءً مع رحلة موسى بالعودة إلى مصر، تلك العودة التي كتب لها أن تحصل ضمن بداية ثنائية ضمت موسى وهارون عليهما السلام، لمجاهة فرعون لتقوميه وتبصيره وتغييره إلى الوجهة التي يريدّها الله تعالى.

إنّ نقطة البداية كانت قائمة على ترابط فكري قائم على إرشاد من الله تعالى، إذ يقول تعالى: { اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي دِكْرِي اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالََا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى } 673.

ابتداءً وصف فرعون بالطاغية بصيغة التعليل "فجملة (إنّه طغى) تعليل للأمر بالذهاب إليه، وإتّما صلحت للتعليل لأن المراد ذهاب خاص، وهو إبلاغ ما أمر الله بإبلاغه إليه من تغييره عما هو عليه من عبادة غير الله. ولما علم موسى ذلك لم يبادر بالمراجعة في الخوف من ظلم

فرعون، بل تلقى الأمر وسأل الله الإعانة عليه، بما يؤول إلى ربّاطة جأشه  
وخلق الأسباب التي تعينه على تبليغه، وإعطائه فصاحة القول للإسراع  
بالإقناع بالحجّة "674.

فهارون صلّى الله عليه وسلّم لأتّه نبي من الله تعالى أعلمهم بما لم  
تدرکه عقولهم من فعلتهم في تصرفهم هذا حيث دعاهم إلى الحقّ ونصح  
لهم هارون لبيّن لهم الحقّ من الباطل، فهو نبيهم والنائب عن نبيهم المنقذ  
ونبهمهم إلى أنّ هذا من الابتلاء قال: (يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم  
الرحمن) ونصحهم باتباعه وطاعته كما تواعدوا مع موسى وهو عائد إليهم  
بعد ميعاده مع ربّه على الجبل، ولأنّ هارون صلّى الله عليه وسلّم نبي لهم  
فقد علم ما لم يعلموه من عودة موسى صلّى الله عليه وسلّم، وأنهم قد  
أسخطوا الله تعالى، ولكنهم بدلا من الاستجابة له التواو وتملصوا من  
نصحه، ومن عهدهم لنبيهم بطاعته وقالوا: (لن نبرح عليه عاكفين حتى  
يرجع إلينا موسى).

إنّ قضية النبوة لا يمكن أن يحلّ محلها العقل المنطقي أو الفلسفي،  
ولا يستطيع هذا العقل مهما أوتي من ذكاء وحجّة أن يكون بديلا أو  
يأتي بديل عن الخطاب الديني، لأنّه إذا حكمنا معايير العقل النظري في  
الخطاب الديني فلا مناص من هذا التناقض بين الاثنين، لأن عالم الغيب  
والإلهيات التي يتحدث عنها الدين، لا يمكن أن تختبر على صعيد العقل  
الفلسفي والمنطق الوضعي، ومن هنا وجب الأخذ بضرورة الفصل  
والتمييز بين الخطابين، (الخطاب الديني والخطاب العقلي المحض). ومع  
الاعتراف بشرعية كلّ من الخطابين في مناقشة القضايا، وجب أيضا  
ضرورة ألا تحاكم أيّ قضية إلا في صورة معايير النسق الذي تنتمي إليه.  
ومن ثمّ فالإيمان بالغيب قضية صادقة على صعيد العقل النقلي الذي أتى

عن طريق النبوة، ولا يمكن أن تنطبق معايير العقل الفلسفي على هذه القضايا لقصوره تجاهها.

والنبوة ليست محصورة بنبي محدد، وإنما هي ظاهرة موجودة عند جميع الأقوام والأمم قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} {675}.

والنبوة تثبت بالمعجزة، وهناك شهادات لا يمكن الطعن فيها على وجود هذه المعجزات، ومن ثم لا مهرب لنا من قبولها. فإذا سلمنا بذلك، فتلك هي بداية شرعية الخطاب الديني الذي قبل على أساسه. فإذا سلمنا بشرعية هذا الخطاب فعلينا فيما بعد ألا نحكمه إلا في ضوء المعايير التي يقدمها.

فالنبوة صفة جليلة قائمة على العلم والحكمة والمعرفة، ولا يمنحها الله تعالى إلا لأصفيائه من خلقه ممن تميزوا بنقاء الفطرة، وصفاء السريرة، ونفاذ البصيرة مع العناية الإلهية به والفضل الرباني عليه كون النبي من صفوة خلق الله تعالى.

وعلى هذا فالنبوة اصطفاء واجتباء وهبة من الله تعالى لمن يشاء من خلقه، ولا يمكن لأحد أن يكون نبيا أو أن يصل إلى مرتبة النبوة عن طريق العقل في البحث والتفكير والدراسة والتأمل والتدبر، ومهما أوتي الإنسان من صفات العقل الموجبة، فهو يستطيع أن يكون كذابا، ولكنه لا يستطيع أن يكون نبيا بأن يهيب نفسه لتلقي النبوة، فالنبوة لا تنال بالاستعداد والتمرين والممارسة، وإنما هي فضل من الله يؤتيه من يشاء.

وأبسط ما يدل على أن النبوة خارجة عن الذات هي أن ظاهرة الوحي معجزة خارقة لسنن الطبيعة، ولا صلة لها بالتأمل العقلي أو

الاستعداد النفسي. إن الوحي أو الإلهام الذي تتمتع به النبوة خارج عن الذات الإنسانية، وموقف النبي منها هو موقف المتلقي الذي لم يكن له أي دخل لا في المعنى ولا في المضمون ولا في القبول ولا في الرفض. فالنبوة هي قبول النفس الإنسانية الوحي من الله تعالى لحقائق المعلومات والمعقولات عن جوهر بجوهرها دون تردد ولا تدخّل.

هارون رسولاً مع رسول، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ {676}.

لقد جاء النص في القرآن الكريم بإرسال هارون مع موسى صلّى الله عليهما وسلّم، وعلى هذا فهارون عليه الصلّاة والسّلام مرسل من الله تعالى مع أخيه إلى بني إسرائيل.

فالرسول هو الذي يحمل رسالة ومكلف برسالة إلى قوم يبلغهم بها، وهارون صلّى الله عليه وسلّم رسول اصطفاه الله تعالى مع موسى ليكون داعياً إلى الله بإذنه وهادياً لقومه ومبشراً لهم بما يصلح دينهم ودنياهم في أخذهم بالإيمان وامتناعهم عن الكفر والشرك، وبذا يتحقّق العدل والاستقامة والصلاح من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وجاء في لسان العرب: "سُمِّيَ الرَّسُولُ رَسُولًا لِأَنَّهُ ذُو رَسُولٍ أَي ذُو رِسَالَةٍ وَالرَّسُولُ اسْمٌ مِنْ أَرْسَلْتُ وَكَذَلِكَ الرِّسَالَةُ وَأَرْسَلْتُ فَلَانَا فِي رِسَالَةٍ فَهُوَ مُرْسَلٌ وَرَسُولٌ" {677}.

فالرسول هنا من أرسله الله تعالى برسالة سماوية تدعو إلى إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل، ولذا لا يمكن أن يكون الرسول داعياً لما ينفر منه الطبع وتاباه النفس، لأنّ الرّسالة التي يحملها رسول الله (أي رسول) لا تأتي وفق رغبات الناس وميولهم وأطماعهم وما تشتتهي أنفسهم، بل

---

676 - المؤمنون 45

677 - لسان العرب، ج 11، ص 281.

الرّسول الذي يرسله الله تعالى يعمل الحقّ ويأمر بالحقّ ويدعو إلى الحقّ، سواء أكان ذلك موافقا للرغبات والميول أم مخالفا لها. لأنّ الرّسول الذي يبعثه الله تعالى، يبعثه بما يحقّق العدل والمساواة بين البشر على اختلاف ألوانهم وأجناسهم.

إذا الرّسل الكرام لم يأتوا إلا بالحقّ، ولهذا فهم لم يأتوا بما تهوى أنفس البعض الذين يسعون في الأرض فسادا ممّا يجعلهم مستكبرين على ما جاء به الرّسل فيضلوا السبيل الله ويضلون، لأن الله تعالى لم يرسل الرّسل لإقرار النّاس على ما هم عليه ممّا يشتهون أو يريدون قال تعالى: {أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ} 678.

إنّ رسل الله صلّى الله عليهم وسلّم يواجهون دائما من البشر بالإعراض عن الرّسل أو اتهامهم بالتكذيب والضلال والجنون وما إلى ذلك عندما تنقصهم الحجّة في مواجهة الحقّ، وصفات كثيرة ما أنزل الله بها من سلطان نزه الله تعالى عنها رسله الكرام حتى أنّ بعض الذين يتبعون الرّسول يأتون إلى مخالفته انصياعا لهوى النفس أو إشباعا لطمع أو هوى كما فعل السامري.

فيعمد الضالون المضلون إلى إذكاء نار الفتنة معارضة للرّسول كما فعل السامري عندما حول لهم الذهب إلى عجل له خوار وقال: (هذا إلهكم وإله موسى) فكانت المفاجأة أمام أعين بني إسرائيل وأمام هارون عليه السّلام أن الذهب قد تحول إلى عجل له خوار البقر والعجول.

فأخذ السامري ينادي ويقول: هذا إلهكم وإله موسى، فأذكى نار الفتنة بين بني إسرائيل بأن ردهم عن الإيمان إلى الضلال.

ولقد عانى رسول الله هارون من السامري ومن اتبعه في عبادة العجل بعد أن استخلفه موسى على قومه، حيث انجرف الناس إلى عبادة العجل والسجود له، فبعد أن صنع السامري العجل كانت الريح كلما دخلت في داخل العجل تخرج من فمه صوتاً يشبه صوت البقر له حوار فيزدادون فتنة وسجوداً لهذا العجل، وعبثاً حاول هارون صلى الله عليه وسلم أن يرجعهم عن هذا الضلال المبين رغم أنه اعترض عليهم بأقصى ما لديه من قوة وطاقة.

لكن القوم قد اختاروا طريق الضلال والغواية وعبدوا العجل الذهبي، وكادوا أن يقتلوا هارون صلى الله عليه وسلم وأعلنوا وجهتهم قائلين:  
لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى.

فإما أن تعبدنا معنا أو تنصرف عنا.

فظل ينادى عليهم قائلاً: أتعبدون عجلاً لا ينفع ولا يضر!

أهذا ما أوصاكم به موسى من طاعة!

فقال له السامري وهو يتزعم عبيد العجل: إنَّ هذا هو إله موسى ولئن رجع موسى ليعبدنا معنا.

فاعتزلهم هارون صلى الله عليه وسلم ولم يستطع أن يقف أمام هذا التيار الجارف من الضلال.

ظل موسى عليه السلام فترةً طويلةً غائباً عن قومه وعن هارون، ولم يكن على دراية بما حدث لقومه، فأعطاه الله الألواح المكتوب عليها التوراة وأمره أن يرجع إلى قومه الذين ضلوا وأضلهم السامري على الرغم من وجود رسول بين ظهرانيتهم وكانوا قبل ذلك مؤمنين.



فأخبره الله تعالى موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ السامري قد أضلهم بعبادة العجل، فحمل الألواح ورجع إلى قومه.

قال تعالى: {وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي} 679. هارون نبي مسالم اتخذ صفاته من صفات ربه تعالى؛ فكان سلاما وكان رحمة (وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي)، إنه المبشر بالرحمة بقوله (رَبَّكُمُ الرَّحْمَن).

وعليه فإيمان هارون بربه الرحمن جعله رحيما في دعوته، الرحمن: هو الذي "رحمته تمنع إهمال عباده" 680.

الرحمن: "يختص بالله سبحانه وتعالى ولا يجوز إطلاقه في غيره. وقال بعض أهل التفسير الرحمن الذي رحم كافة خلقه بأن خلقهم وأوسع عليهم في رزقهم" 681.

قال الله تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} 682 بما أنكم تدعون الله أيها المؤمنون، فبأي اسم من أسمائه ادعوه، سواء دعوتكم الله تعالى أم دعوتكم الرحمن لا فرق في ذلك، فدعاؤكم لم يخرج عن أسمائه الحسنى. وفي جميع الحالات أنتم تدعون الله. فلا تدعوا آخر من دونه. وهذا لا يعني وجود ازدواجية، بل يعني أن الله واحد لا يثنى ولا يُجمع ولا يُعد بأي متوالية حسابية. نزلت هذه الآية الكريمة حسبما رواه الواحدي عن ابن عباس رضي الله عنهما بعد ما سمع بعض من المشركين رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو ربه بقوله (يا الله

---

679 طه 90.

680 شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة - ج 1، ص 20.

681 تفسير أسماء الله الحسنى، ج 1، ص 28.

682. الإسراء، 110.

يا رحمن) فقالوا: "إنه ينهانا أن نعبد إلهين، وهو يدعو إله آخر" 683. وكما يبدو أن لضعف اللغة أثر سالب على معرفة الدلالة بالدعاء السابق، فرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يقل في دعائه (يا الله ويا رحمن) بل قال (يا الله يا رحمن) فانهدام حرف الواو من دعاء رسول الله تأكيد لا يصاحبه الشك في أنّ المدعو هو واحد لا شريك له، ولأنّ الداعي يتضرع إلى ربه بالرحمة، فلا أفضل له إلا أن يدعو بالرحمن، ولهذا قال: (يا الله يا رحمن). وفي الدعاء الافتراضي جاء (يا الله ويا الرحمن) وفي هذا الدعاء دخل حرف الواو الدال على إثبات وجود الآخر، الذي ورد في عقول أولئك المشركين وهو ما لم يقله الرسول في دعائه المبارك.

ولهذا جاء قوله تعالى: ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾ 684 جاءت (إلهكم إله واحد) مطلقة دالة على من يستحق أن يُعبد، وواحد تعني ليس له ثان، و(لا إله إلا هو) رد على من يظن بوجود آلهة أخرى من دونه، ولأجل التنبيه والتفطين من الغفلة جاء التأكيد ب(لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) ولهذا تدل (هو) على الله الذي (لا إله إلا هو) الذي (هو) الرحمن الرحيم. وبذلك إثباتا لا فرق بين أن يُقال الله أو يُقال الرحمن فكلاهما واحد.

ولذا فالخليفة بدأ عمله في ممارسة شؤونه الحياتية باسم الله مصداقا لقوله تعالى: ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين﴾ 685 فما يود قوله سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو: إنّ ما نود القدوم عليه معكم فيه الرحمة، وبالتالي لا مجال لكم في التأخير عمّا من شأنه أن يجعل بيننا وبينكم رحمة، فاقبلوا ولا تتأخروا عن

683 . تفسير البيضاوي أنوار التنزيل وأسرار التأويل . محمد أحمد كنعان، بيروت: دار لبنان ودار

العلم للملايين، الطبعة الأولى، 1984م، ص 379.

684 . البقرة، ، 163.

685 . النمل، ، 30، 31.

دخولكم ميادين المحبة والرحمة، ولهذا بدأ سليمان بعنونة رسالته باسمه تعالى (الرحمن الرحيم). فالرحمن اسمه تعالى الذي لا يثنى ولا يجمع وذلك لارتباطه بالوحدانية وعدم المشاركة، ولذا لو لم يكن الله رحمن ما كان رحيم. فالرحمن شاملة جامعة لكل رحمة، ولهذا فالله تعالى هو مصدر الرحمة، ومن وجوده استمدت الرحمة أو اشتقت، فالله سابق الوجود على كل موجود، ولأن الرحمة من الموجودات (المخلوقات) لذا كان الرحمن سابق عليها وكانت هي مترتبة على وجوده. والحمد لله رب العالمين.

### النبي إلياس:

عاش إلياس عليه السلام في القرن التاسع قبل الميلاد في عهد ملك من ملوك بني إسرائيل الذي اتخذ معبودا من دون الله؛ وكان يراه مجيبا للدعاء، ولكن لما تعرّض ابنه للمرض القاسي ودعاه شافيا لابنه؛ فلم يجبه، ثم انتظر ودعاه ثانية وثالثة ورابعة فلم يجبه شيء، من بعدها عرف أنه لا يجيب.

وكان المعبود الذي اتخذهُ الملك إله لبني إسرائيل هو ذلك الصنم الذي جاءته به زوجته الفنيقية التي استمالت الملك (زوجها) ضعيف الشخصية إلى عبادة الأوثان.

كان إلياس عليه السلام نبيا ورسولا لبني إسرائيل بعد أن ظهرت فيهم عبادة الأصنام؛ فكان داعيا لعبادة الله واحد أحد لا شريك له، ولكن دعوته وجهت بالرفض الشديد، وبخاصة من ملكهم أجب. فدعا إلياس ربّه: "اللهم إنّ بني إسرائيل قد أبو إلا الكفر بك والعبادة لغيرك؛ فغيّر ما بهم من نعمتك؛ فأوحى الله إليه إنّنا جعلنا أمر أرزاقهم بيدك فأنت الذي تأمر في ذلك؛ فقال إلياس: اللهم فأمسك عليهم المطر؛

فحبس عنهم ثلاث سنين، حتى هلكت الماشية والشجر، وجهد الناس جهدا شديدا"686.

ويذكر ابن كثير أنّ رسالة النبي إلياس عليه السلام كانت لأهل بعلبك غربيّ دمشق وأنّه كان لهم صنم يعبدونه يسمي (بعلا) وقد ذكره القرآن الكريم على لسان إلياس حين قال لقومه: { أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ وَاللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ }687.

ولهذا فالنبي إلياس يدعوا إلى التوحيد الذي هو قيمة تسليميّة حيث لا مجال للمشاركة ولا للمثال ولا إمكانيّة للثنائية والجمعيّة، ولا إمكانيّة للمشاهدة للمطلق في قوله وفعله وهو الواحد الذي لا يتعدّد. فالتوحيد قرار عن وعي بأنّ الخالق واحد أحد، وهو لم يكن سبب ولا علّة ولا شيء، ذلك كونه خالق السبب والعلّة والشيء، ومن بلغ معرفة أهميّة التوحيد يستطيع أن يعدّ ممّا لا يُعدّ، ويخصي ممّا لا يُخصي، أي بإمكانه أن يعرف الكثير، ويتعلّم من أجلّ معرفة المزيد؛ فهو بعد أن وحد خالقه فتح على نفسه أبواب المعرفة الواسعة هيّ كما هيّ حقائق تتعدّد.

إذن التوحيد نجاة من الضلال، وهداية إلى الحقّ، ولكن لا يمكن أن يكون التوحيد بيّنة ما لم يعمل العاقل بمدركاته العقلية فيحركها يمينا حتّى يعرف أنّه لا يمين غيره، ويحركها شمالا حتّى يدرك أنّه لا شمال غيره، ويحركها علوّا حتّى يدرك أنّه لا علوّ غيره، ويحركها أسفلّ حتّى يدرك أنّه لا أسفلّ غيره، وعليه أن يُفكّر قبل أن يقرّر، من الذي جعل اليمين واحد، واليسار واحد، والعلوّ واحد، والسفل واحد، أي هل الذي خلق هذه الآحاد واحد أم متعدّد؟

<sup>686</sup> تفسير الطبري، جامع البيان ت شاكر، 21/، ص 98.

<sup>687</sup> الصفات 125، 126.

التوحيد قيمة حميدة تخلص عقل الإنسان من الشكّ والظن في غير محلّهما، أي التي تجعل العقل يشكّ ويظنّ، ولكن لأنّه عقل حُلق على حُسن التقويم فلا ينبغي أن يشكّ أو يظن فيما لا شكّ ولا ظنّ فيه. أي يجب أن يشكّ ويظن في كلّ ما فيه شكّ أو ظنّ.

ولسائلٍ أن يسأل:

ولماذا الشكّ والظنُّ أصلاً؟

نقول:

لأنّه ليس كلّ ظاهر عاكسا لحقيقة الكامن، أي ليس كلّ ما يقال يسلم به حقيقة؛ فالناس بين صادقٍ وكاذبٍ، ولهذا ليس هناك بداً إلاّ الشكّ الذي ينقذ من السير في المتاهات الخطأ.

ولسائلٍ أن يسأل:

وبما أنّ الأمر كذلك؛ فكيف لنا بالتوحيد بدون شكّ ولا ظنّ؟

نقول:

هل يمكن أن يكون شيئاً مصنوعاً من غير صانع سابقٍ عليه وجوداً؟ إذا كانت الإجابة بنعم.

نقول متسائلاً:

هل يمكن أن يكون الخلق ما لم يكن من ورائه خالق؟

إذا كانت الإجابة بنعم.

نقول:

إذن لا بدّ أن يكون الخالق سابق على ما يُخلق.

وعليه فالتوحيد هو رسالة جميع الرّسل عليهم الصّلاة والسّلام، وأنّ الكافرين دائماً يرتعدون من ذلك، ولذا كان سؤالهم عن الإله، وهذا لسان حالهم، حيث أنّهم يؤمنون بالإلهة، التي هي من اختياراتهم كالشمس والقمر والنجوم والنّار، أو من أيديهم الصانعة لها كالأصنام، ولأنّ لسان حالهم وإيمانهم هو وجود الإله القريب لمشاهداتهم وحواسهم. لذا لم يرتق تفكيرهم إلى الله المجرد من المشاهدة المادّية كما كانوا هم يعتقدون. فكانت الإجابة قل لهم يا محمّد أنّه (أنا الله) الذي لا مثيل له ممّا يعتقدون ويتوقعون أو لا يتوقعون.

وبما أنّ الواحد الذي لا يماثله شيء.

إذن الواحد الذي لا يماثله شيء لا يمكن أن يشتق من شيء.

والقاعدة تقول لا يشتق شيء من شيء إلا وهو على حالة من التماثل معه. ولذا من يقبل بأن اسم الله مشتق من اسم إله فعليه أن يقبل بالتماثل مع المشتق منه، وإذا قبل بذلك يجد نفسه على غير قاعدة.

ولأنّ الإله مخلوق (القمر والنجوم والشمس والنّار والأصنام وغيرها ممّا اتخذ آلهة من دون الله). ولأن الله هو الخالق. إذن كيف يؤمن الإنسان باشتقاق الخالق من المخلوق!!

ولذلك لا أحد يتماثل مع الله عزّ وجلّ، فالذي لم يكن له كفؤاً أحد، لا يماثله أحد في الصورة ولا المضمون ولا الاسم. وعلينا أن نتبيّن الفرق بين الاسم والمسمى، فالاسم اسم الله، والمسمى الآخر (الإله مسمى)، و(أسمائنا مسميات)، أما الله فلم يسمه أحد، حتى يقال عنه المسمى، فاسمه عزّ وجلّ في ذاته. {إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ} 688. إذن بما أنه

قال تعالى: (أنا الله) والله لا يماثله شيء في الصورة ولا المضمون ولا الاسم. إذن (لا إله إلا الله). إي لا إله من دونه (لا معبود من دونه) فلا وجود لمن يستحق العبادة غيره، فالذي سُمي بالإله يقول الله ليس هو أنا ولهذا قال تعالى: (لا إله إلا الله) أي لا إله غيري، وبالتالي من تعتقدون بأنه أنا فهو ليس كذلك (لا إله إلا الله) ولهذا نهى الله العباد عن اختيار آلهة من دونه، حيث لا وجود لمن تعتقدون بأنه إله غيري، فأنا الله. أما أولئك الذين اتخذتموهم من دوبي فهم ليس أنا، وهذه تحمل في مضمونها حكم وجوبي لتركهم، ومن لم يترك هذا الأمر ويتخلى عنه سيكون مشركاً، {الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى} 689 ولهذا لا يعد الإله من أسماء الله الحسنى، بل الإله مسمى من قبل البشر وبالتالي جاء الخطاب على لسان حال الذين أطلقوا هذا المسمى (المعبود) الذي يقبل التعدد. ولذلك فالله هو الواحد الأحد الذي تتعدد صفاته التي بها يُسمى وهو لا يتعدد. وهنا يتضح الفرق بين اسم الله وبين بقية أسمائه التي يتصف بها ويحق لنا أن نسميه بها ما يجعله المسمى بصفاته الحسنى.

أما الله تعالى فهو الاسم الأعظم المطلق الذي لا يقتصر على صفة أو خاصية واحدة، بل هو الذي تتعدد فيه الصفات التي يتضمنها ويحتويها في أسمائه الحسنى، والتي إن نعدّها لا نحصيها، {وإن تعدّوا نعمة الله لا تُحصوها} 690 وهذا لا يعني أن نعمة الله غير محصية، بل تعني أنّ قدراتنا المحدودة لا تستطيع حصرها وعدّها، مع أنّ الله أحصى كلّ شيء وعده عدّاً {إن كلّ من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدّهم عدداً} 691.

689 طه، 8.

690 إبراهيم، 34.

691 مريم، 93 . 95.

إذن بالنسبة لله كلّ شيء مسجّلٌ إحصاءً وتعداداً، أما بالنسبة لنا نحن بني الإنسان فغير قادرين على ذلك، وإلا هل هناك من يستطيع أن يحصوا ما تراه العين أو يُحسُّ به وما لا تراه العين ولا يُحسُّ به مع أنّه موجود من حولنا وعلى مقربة منا، وكذلك يمتد إلى ما يبعد عنّا إلى مالا نهاية حيث قدراتنا القاصرة أمام مقدرته تعالى.

ينتفي التماثل مع الله في الفعل والاسم والمضمون والصورة، {هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} 692. لا إله نفي، لاعتقاد ظني في إله يفيد ويضرب، أو يقرب من ويبعد عن، مع تأكيد على الوحدانية (هو الله). واستثناء الإله الذي ينسب إلى الذين أهوه باختيارهم أو لرغباتهم وحسب ظنونهم. ولذا فإن اسم الإله يرتبط بتأليه (تعلّق) من البشر لغير الله. أما اسم الله تعالى فلا يرتبط بالإله إلا لسبب تقريب المعنى والدلالة للذين يظنون باعتقادهم في الآلهة حتى يتبين لهم المعنى المرشد إليه وهو الله.

إذن لا إله إلا الله، تعني أنّ الإله ليس هو الله، وبما أنه ليس هو الله. إذن لا يمكن أن يكون من اشتقاقاته، (ليس من اشتقاق اسم الله). الإله مسمى بشري أطلقه البشر على ما يعبدون، أما اسم الجلالة (الله) فمسمى ذاتي مصداقاً لقوله تعالى في سورة الشعراء: (أنا الله) ولهذا اسمه غير مشتق، ولا يُشتق منه مسمى. فلو سلمنا بأنه بالإمكان أن يشتق منه مسمى نسلم أيضاً في الوقت ذاته بالتعدد، وهذا أمر مستحيل حيث الله واحد لا يتعدد ولا شريك له.

ولذلك جاء اسم الله اسم علم ليدل على ذاته، ومجموع صفاته الحسنى. وهذا ما يخالف ما ورد في بعض المشتقات اللغوية التي تسند اسمه تعالى إلى اشتقاق من (أله) التي تعني التحير في وعدم الاهتداء إلى،

---

692 الحشر، 22.



ويقال إنّه مشتق من (الوله) وهو ذهاب العقل والحب الشديد، الذي قد يؤدي إلى ذهاب العقل من التعقل. ويقال إنّه مشتق من (لاه) ولهذا جاءت (أله وألوهة) وهذه تدلّ على أن الإله هو المعبود بحقّ أو بباطل، كما ورد في كتاب القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للسيد مجدي منصور الشورى<sup>693</sup>. ولذلك يتم الاتفاق في هذا الأمر مع ابن القيم رحمه الله تعالى قال: "زعم السهيلي وشيخه ابوبكر ابن العربي أن اسم الله غير مشتق؛ لأنّ الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها، واسمه تعالى قديم والقديم لا مادة له، فيستحيل الاشتقاق ولا ريب أنّه أريد بالاشتقاق هذا المعنى وأنّه مستمد من أصل آخر فهو باطل، ولكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هذا المعنى ولا ألمّ بقلوبهم، وإنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى وهي الإلهية كسائر أسمائه الحسنى، كالعليم والقدير والغفور والرّحيم والسميع والبصير وبقية صفاته الحسنى"<sup>694</sup>. ولأن الإله تؤلّه اختيارات بشر، لذا يرتبط الإله بالبشر لأنه منهم، أما الله تعالى فلم يؤلّه أحد، بل ألهى ذاته، حيث (ليس كمثله شيء). وبما أن ليس كمثله شيء. إذن لماذا المقارنات والاشتقاقات من آخر لا يساويه في شيء؟ وهل الله في حاجة لأن يُعرّف بغيره؟ الذي يُعرّف بغيره يمكن أن يكون نكرة، والله تعالى لم يكن ولن يكون نكرة. ولهذا يُعرّف الله جلّ جلاله بذاته العلية. وهو ليس بناقص حتى يُعرّف بآخر ليستدل عليه. ولهذا فالله تعالى يُستدل به لا يُستدل عليه بآخر.

ولأنّ إلياس من المرسلين الكرام جاء لقومه هاديا للتي هي أحسن وأقوم بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ

<sup>693</sup> مجدي منصور الشورى، القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. القاهرة: مكتبة العلم،

1999م، ص 29.

<sup>694</sup> المرجع السابق، ص 30.

أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ  
الْأَوَّلِينَ {695}.

أي أنّ إيلياس جاء مُرسلا لقومه لأجل أنّ يتّقون، ولهذا فرسالته هي  
رسالة تقوى وتوحيد لله ربّ العالمين.

ولذا؛ فقد بيّن الله تعالى لخلقه كيفية عبادتهم إياه عن طريق الأنبياء  
والرُّسل لمنع العذر وإسقاط الحجّة، فقال تعالى: {رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ  
لَعَلَّ النَّاسَ عَلَى اللَّهِ حِجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا  
حَكِيمًا} {696}.

لقد أنذر الله فأعذر، حتى لا يكون للناس على الله عذر يوم القيامة  
يعتذرون به قائلين: لولا أرسلت إلينا رسلا يبيّنون لنا الشرائع، ويعلموننا  
ما لم نكن نعلم من الأحكام، وينبهوننا من سنة الغفلة، فكانت الرُّسل  
تُرسل (تتري) بسبب قصور الكثير من الناس عن إدراك جزئيات المصالح،  
وعجز أكثرهم عن إدراك كلياتها، قال تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلًّا  
مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا  
لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} {697}.

فهذه الآيات هي دلائل على أن إرسال الرسل وبعث الأنبياء  
للخصوص والعموم والكافة هي ضرورة للناس، ونعمة من الله ورحمة بهم،  
وهي أيضا حجّة قاطعة في التبليغ، لذلك قال تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ  
حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} {698}. فقد جاء الخطاب شاملا لأقوام الخاص والعام  
والكافة، وهي منتهى الحكمة البالغة من وجوه:

---

<sup>695</sup> الصافات 123 . 126.

<sup>696</sup> النساء 165.

<sup>697</sup> المؤمنون 44.

<sup>698</sup> الإسراء 15.

الأول، قوله: (رسولاً) جاءت نكرة فأفادت الشمول واستغرقت كلَّ من يعذب أو لا يعذب.

الثاني: الدعوة إلى الهدى والردع عن الضلال في إقامة الحجج وتمهيد الشرائع قطعاً للعدو.

الثالث: بعث الرُّسل واجب لا بمعنى الوجوب على الله، وإنما بمقتضى حكمته لما فيه من المصالح للخلق.

ولذا؛ فقد كان بعث الأنبياء والرُّسل لحكمة وبحكمة.

أ. إرسا لهم لحكمة، لأنَّه تعالى يعلم أنَّ النفس أمانة بالسوء، فتحتاج إلى من يقوِّمها ويردها إلى طرق الهدى وسبيل الرشاد، فكان إرسال الرُّسل لحكمة الله تعالى في مصلحة خلقه، ومحبة لهم ورحمة ورأفة بهم، وهذه المعطيات تتحقَّق عن طريق إرسال الرُّسل بالإيمان بالله تعالى وما جاء به المرسلون، من الإيمان بالله وباليوم الآخر الذي يجازي فيه بالخير خيراً وبالشر شراً، إنَّه قانون في العدالة لا مثيل له فهو يشمل العموم في دفع الإنسان إلى عمل الخير، وتتميز حكمة الله في هذا الأمر بأن الإنسان الذي يتبع ما جاء من عند الله عن طريق الرُّسل يحقِّق ما يلي:

1. يهذب النفس من الداخل وينظم مشاعره وفق الأخلاق والقيم النبيلة، لأنَّ هذه الأمور هي حاجة عامة لا تقتصر على إنسان دون آخر أو قوم دون قوم.

2. يُمكن الإنسان من حفظ نفسه في عدم الخروج على أحكام الله حيث لا مراقب إلا قناعة الإيمان.

3. إنَّ عمل الخير الصادر عن النفس المؤمنة يكون عملاً متقناً باعتباره صادراً عن إرادة الإنسان في رغبته وليس مكرهاً عليه.

وما تقدم فإنّه لا يخص قوما دون آخرين ولا شخصا دون آخر، وإتّما حاله يسري على كلّ قوم من الأقوام التي بعث الرُّسل إليها، وذلك لاتّحاد النفس الإنسانية فيما تحب وتكره، وما ترغب وترفض من معطيات الحياة الدنيا.

ب . إرسالهم بحكمة وذلك يتمثل بأن الأنبياء والمرسلين هم من البشر، فمنهم للخصوص ومنهم للعموم ومنهم للكافة على فترات، بحيث كلّما ابتعد النَّاس عن طريق الحقّ أرسل الله رسولا يردّهم إلى جادة الصواب، قال تعالى: { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ } 699.

ولأنّ إلياس متقي فقد كان أمرا بالمعروف وناه عن المنكر من خلال دعوته لتوحيد الله وطاعته وبما أمر جلّ جلاله، (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْثًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ).

فالأمر على المستوى البشري غير محدد يمكن أن يكون أمر زواج ويمكن أن يكون أمر طلاق ويمكن أن يكون أمر مشاركة وتعاون وإعمار وإصلاح في الأرض ويمكن أن يكون أمر إفساد وسفك دما فيها بغير حقّ ويمكن أن يكون الأمر سياسة داخلية أو سياسة خارجية ويمكن أن يكون أمر سلم أو أمر حربّ ويمكن أن يكون أمر قتال وجهاد وغيره كثير، ولذلك فأمر الأمر يتعدد ويتنوع؛ فقد يكون الأمر هو الفتح الذي به يدخل المسلمون الأمصار بعد أن تتم دعوة أهلها للهداية أو أن يكون الأمر اتفاق تتم به المعاهدات والمواثيق التي تنصّ على تبادل المنافع

والتعاون إلى حين الهداية وهكذا، قال تعالى: {فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَّ بِالْفَتْحِ  
أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ} 700.

وعلى المستخلفين في الأرض أن يتبينوا كل أمر يتعلق بأمورهم في  
الحياة سواء أكانوا مع أنفسهم أم مع محيطهم من الأقارب والأبعد  
وسواء أكانوا مع الآخرين على المستوى الإنساني وأن يرسم سياساتهم  
وفقا لما أمر الله تعالى ليكونوا خير خلفاء في الأرض وخير وارثين في  
الدارين.

ولأنّ إلياس متقي لذا فهو الناهي عما يجب الانتهاء عنه، (أَتَدْعُونَ  
بِعَلًّا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ).

الناهي هو الذي يعلم ما يترتب على ارتكاب الأفعال التي تؤدّي  
إلى المهالك قبل أن تُفعل فينها عنها حيطة.

والناهي هو المبين لما هو حرام ولما هو حلالا وما يقع بينهما من  
معطيات تؤدّي إليهما فينها عن المؤدي السالب ويحث ويجرض على  
المؤدي الموجب.

وفي اللغة "النهي خلاف الأمر نَهَا يَنْهَاهُ نَهْيًا فَانْتَهَى وَتَنَاهَى كَفَّ؛  
وَالنَّهْيَةُ كَالغَايَةِ حَيْثُ يَنْتَهِي إِلَيْهِ الشَّيْءُ وَهُوَ الْإِنْهَاءُ" 701.

ولذا؛ فالناهي جلّ جلاله ينهى كي لا تكون الفتن والشقاق  
والعداوة والبغضاء والافتتال بين العباد، ولهذا جاء إلياسين ناهٍ لقومه عن  
كل ما من شأنه أن يؤدّي إلى الفتن والفرقة والعداوة والبغضاء، فكان  
نهيهم لقومه عن عبادة ما يشركون به ويكفرون، ومع ذلك فقد كذبوه كما  
كذبت الأقوام رُسُلها من قبله، قال تعالى: {أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ

<sup>700</sup> المائدة 52.

<sup>701</sup> لسان العرب، ج 15، ص 343.

أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ فَكَذَّبُوهُ فَأَيُّكُمْ لَمُحْضَرُونَ  
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ {702}.

إذا طاعة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمره طاعة الله تعالى، ونهي  
الرسول هو نهي من عند الله تعالى، فنهي الرسول من نهي الناهي الأعظم  
عز وجل، ولذا فالنهي بين المؤمنين من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل  
هو طاعة لأمر الناهي تعالى، فالذين آمنوا بالحق مع إلياس صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ هم من الناهين ولهذا فهم لا يتماثلون مع الذين لا ينهاون عن  
منكر فعلوه.

المسلم عليه هو المعز من عند المعز الأعظم جل جلاله، ولهذا  
فالسلم على إله ياسين كان دليل عزة ومناصرة وتأييد وتقدير خاص  
لرسول خاص هو إله ياسين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، {سَلَامٌ عَلَيَّ إِلَى  
يَاسِينَ} {703}.

ولأن المعز هو المقدر تقديرا عاليا لذا جاء السلام عليه من عند الله  
عز وجل طمأنة على نفس وقلب إله ياسين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي  
كان رسولا طائعا لأمر الله وهاديا لقومه ليكونوا على الطاعة والإخلاص  
لله الواحد القهار، وفي هذا الأمر قال ابن القيم في نونيته:

وهو المعز لأهل طاعته وذا... عز حقيقي بلا بطلان {704}.

ويقول مشرف الحمداي الغامدي بالتمام كما جاء في لسان العرب:  
"العز خلاف الذل ويقال عزه على أمر يعزه إذا غلبه عليه والعزة القوة  
والغلبة" {705}.

---

<sup>702</sup> الصفات 125 . 128.

<sup>703</sup> الصفات 130.

<sup>704</sup> شرح أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته الواردة في الكتب الستة. حفصة بنت عبد العزيز،

الرياض، دار القاسم، ص 236.

وقال البيهقي: "المعزّ هو الميسرّ لأسباب المنعة"706.

ولذا؛ فالمعزّ هو المحب، والمعزّة لا تبني إلا على علاقة متصلة ورضا ومحبة.

وفي هذا الشأن يقول الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }707. فالذي يجعل الخلفاء لا يخافون لومة لائم هو مصدر العزّة الذي يسندهم ويحمي ظهورهم فيحفظهم على الإقدام دون تردد من أجلّ قول الحقّ وفعل الحقّ وعمل الحقّ.

وعليه المعزّ هو مصدر العز الذي منه العزّة تُستمد، وهو الذي يعزّ جُند الحقّ بالآتي:

أولا . عزّة النية: النية تكمن في الضمير، مثلما تكمن الفكرة في العقل، ومثلما تكمن النبتة والشجرة في البذرة والنواة، ومثلما يكمن صفاء الزيت في نقاء حبة الزيتون، كذلك تكمن العزّة في صفاء النية.

ولذا؛ فبالنية تُعزّز الأقوال والأعمال والأفعال والسلوكيات، فلا قول بدون فكرة سابقة عليه، ولا عمل إلا ومن ورائه غاية، ولا فعل إلا والتصميم دافعه، ولا سلوك إلا بقوة الحركة.

ولهذا، تؤسس العبادات جميعها على النية، أي أن النية هي المعزّة للصوم فبدونها يصبح الصوم امتناع عن الأكل أو إضراب عنه، وبدونها

<sup>705</sup> منهج الإمام ابن القيم في شرح أسماء الله الحسنى، ص 429.

<sup>706</sup> المرجع السابق، ص 430.

<sup>707</sup> المائة، 54.

تصبح فريضة الحج حركة جماعية أو تظاهرة بشرية استعراضية ليس إلا. وبدون النية قد توصف الصلاة بأنها حركة أو مران رياضي أو ما شابه ذلك، وأيضا قد توصف الزكاة بدون نية بأنها صدقة أو تبرعات مادية.

وعليه: فإنّ النية هي المعززة للقول الهادف والفعل الهادف والعمل والسلوك الهادفين؛ ولتبيان ذلك علينا باستعراضها وفقا لدائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع) حتى نستبين الحق من الباطل:

ثانيا . عزة القول: القول في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع يُمكن أن يكون حجّة لنا ويُمكن أن يكون حجّة علينا، فعندما يكون حجّة لنا يُعزز مواقفنا بدون تردد، وعندما يكون حجّة علينا يُضعفها ويعزز مواقف آخرين.

ولذا؛ فالخليفة دائما تكون الحجّة له ولا تكون عليه، ولهذا لقد أعز الله رسوله إل ياسين بالسلام عليه وأخصه به خصوصية رفعة وعلو منزلة وعظمة رسالة (سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) فكانت له العزة بالبيّنة التي تُظهر الحق وتُزهق الباطل، ولذلك لا إظهار للحق ولا إزهاق للباطل إلا بالقوة الظاهرة في القول بالبيّنة.

ثالثا . عزة الفعل: لا يُمكن أن يكون للفعل عزة تسنده إن لم تكن من ورائه نية. ولا يمكن أن يكون للنية قوّة إن لم يكن من ورائها حقّ يسندها مصداقا لقوله تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ} 708. وقوله تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} 709. وعليه لا عزة للفعل إلا بتحقيقه.

---

<sup>708</sup> الأنبياء، 18.

<sup>709</sup> ياسين، 82.



رابعا . عزّة العمل: العمل في دائرة الممكن يمكن أن يكون سالبا، ويمكن أن يكون موجبا، فإن كان إصلاحا في الأرض كان موجبا، وإن كان إفسادا فيها، كان سالبا، وبذلك يكون الجزاء هو المترتب على الفعل بالثواب إيجابيا وبالعقاب سلبيا. وفي ذلك يقول الله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} 710. ويقول تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} 711.

وعليه بقوله تعالى: (سلام على إل ياسين) نال إل ياسين اعترافا وتقديرا عظيمين بأنه في مرضاة الله عزّ وجلّ. وكما كتبت هذه الشهادة من الله جلّ جلاله لإل ياسين كذلك كتبت لرسول الله محمد صلى الله عليهما وسلّم قال تعالى: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} 712.

### الني اليسع:

الني اليسع من الأنبياء المفضّلين من ذو الفضل جلّ جلاله؛ فهو على المكانة والرّفعة المرموقة، ذلك لأنّ فضائل الله لا تحصى ولا تعدّ ومهما تصوّرنا في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع كيف هي فضائل أو ماهي؟ ستضلّ فضائل ذو الفضل غير قابلة للقياس كونها من أعمال

<sup>710</sup> فصلت، 46.

<sup>711</sup> النور، 55.

<sup>712</sup> الأنعام، 19.

المعجزات التي لا تكون إلا على أيدي الأنبياء الكرام الذي من بينهم النبي اليسع عليهم صلوات الله وسلامه.

ونحن نبحت في فضائل الله على نبيه اليسع عليه السلام ارتئينا البحث في صفة الفضل التي لا تستمد إلا من ذو الفضل وهو الله تعالى، وهو مصدر كل فضل، وهو المعطي دون انتظار مقابل، فمن فضله كان بعباده رءوف رحيمًا وكان لما خلق رزاقًا كريمًا.

فدو الفضل اسم من الأسماء الله الحسنى التي سمي بها نفسه جلّ جلاله مصداقًا لقوله تعالى: { مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } 713.

فقوله تعالى: (وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) أي صاحب الفضل الواسع الذي لا يساويه فضل مهما تعدد.

وجاء الفضل معرفًا للتخصيص والتحديد فهو لم يكن فضلًا مجهولًا أو نكرةً، بل هو الفضل الذي من عند الله، ولهذا لا فضل للمقارنة مثل فضل ذو الفضل العظيم.

فإذن قوله تعالى: (مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ) تدلّ هذه الآية الكريمة على ما في نفوس الكافرين والمشركين من حسد وحقّد على الذين آمنوا، فهم لا يحبون الخير الذي أفاض به ذو الفضل على الذين أسلموا وجوههم إليه واحدًا واحدًا. ولأنّه ذو الفضل العظيم فقد مدّ أهل الخصوص الذين منهم النبي اليسع بالخيرات الحسان حتى وصفوا أنّهم من الأختيار الكرام، ولذا فإن ذو الفضل العظيم لا ينتظر من أحدًا رأي ليؤتي

من رزقه لمن يشاء أو لم يؤته. إنه مالك الملك والأمر يؤتي الملك لمن يشاء وينزع الملك مما يشاء مصداقا لقوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} 714 وقال تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} 715.

إذا لو لم يكن ذو الفضل العظيم ما كان له أن يؤتي الملك والرزق لمن يشاء بغير حساب؟

بدون شك إيتاء الملك والنبوة والحكمة والرزق والعلم والسلطان لا يكون إلا من ذو الفضل العظيم جلّ جلاله. قال تعالى: {وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} 716.

في مضمون هذه الآية الكريمة تنبيه على أنّ الإيمان بالله لا فرق فيه سواء أكان في رسالة موسى أو عيسى أو محمد أو الذين سبقوهم من الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم، ولهذا فمن آمن بأيّ من الأنبياء السابقين عليه أن يؤمن برسول الكافة محمد عليه الصلاة والسلام وبرسالة الإسلام الخاتمة وألا يكون من المشركين أو الضالين.

وقوله (إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ) أي الهداية باتباع الرسول والرسالة الخاتمة هو الهداية التي هي من عند الله فلا يحق الاعتراض أو الاحتجاج،

<sup>714</sup> آل عمران 26، 27.

<sup>715</sup> الإسراء 30.

<sup>716</sup> آل عمران 73، 74.

أي لا يحقّ للمخلوق أن يحتج أو يعترض على مشيئة الله واصطفائه  
للأنبياء والرُّسل، ولذا فالمؤمنون لا يفرِّقون بين أحدا من رسله مصداقا  
لقوله تعالى: {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ  
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ  
مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ  
الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ  
قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا  
يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} 717، وقوله تعالى: {أَمَرَ الرُّسُولَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ  
مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ  
مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} 718.

وقوله (أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ) أي أنه لا دين حق إلا من  
الحقّ تعالى، ولهذا الربّ واحد والدين واحد وإن تعدد الأنبياء والرُّسل؛  
فالدعوة واحدة لواحد أحدا لا شريك له.

ولأنّ الأمر كذلك فلماذا إذا الاعتراض والاحتجاج والكفر والشرك؟  
نعم إنّه لا مبرر حقّ لذلك، ولذا يفترض أن تعمّ الفرحة كل الذين سبق  
لهم أن آمنوا بالنبي أو الرُّسول السابق للاحقّ من بعده.

وقوله: (قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)  
تعود هذه الآية على سيدنا محمد عليه الصلّاة والسّلام ليقول أنّ ما آتاه  
من الله تعالى هو من فضله تعالى، ومن ثمّ فالفضل يستوجب الحمد  
والشكر، وبخاصّة لمن عمّه الفضل العظيم، ليكون رسولا بالكتاب الحكيم  
للناس كافّة.

<sup>717</sup> آل عمران 84 . 86.

<sup>718</sup> البقرة 285.

ولأنّ الأنبياء والرُّسل يصطفون من الله اصطفاء؛ فكيف للبعض  
كفرا وشركا لا يعقلون! أم على قلوب أفاهاها؟ قال تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ  
لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ  
أَفْأَلْهَا إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ  
سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي  
بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ  
وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْحَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَخْبَطَ  
أَعْمَاهُمْ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ  
أَضْعَانَهُمْ} 719.

وجاء قوله (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) لأن الله  
يصطفي الرُّسل والأنبياء اصطفاء؛ فالأمر فيه اختصاص بالرحمة والفضل  
لمن يشاء من عباده الصالحين كما شاء فضله على النبي اليسع عليه  
السلام.

ولأنّ الأمر بيده تعالى فلماذا إذا الكفر والشرك وعدم الطاعة لله  
ذو الفضل العظيم؟

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا  
وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ  
الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ  
الْمَاكِرِينَ} 720، من غير شك من يتقي الله يجعل له مخرجا ويرزقه من  
حيث لا يحتسب ويحفظه من كل مكروه وسوء ومكر وكيد إنّه على كل  
شيء قدير.

719 محمد 23 . 29.

720 الأنفال 29، 30.

أوحى الله تعالى إلى نبي اليسع عليه السلام وأيده بما أيده به عبده إلياس؛ فأمنت به بنو إسرائيل، وكانوا يعظّمونه وينتهون إلى أمره، وحكم الله تعالى قائم فيهم إلى أن فارقهم اليسع عليه السلام 721.

كان بنو إسرائيل في زمنه إذ قاتلوا أحداً من الأعداء يكون معهم تابوت الميثاق الذي كان في قبة الزمان. وذلك تبرّكا به لما جعل الله فيه من السكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون 722.

فلما انقطع إلياس عن بني إسرائيل بعث الله اليسع، فكان فيهم ما شاء الله، ثم قبضه الله وعظمت فيهم الأحداث وعندهم التابوت يتوارثونه، فيه السكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة، فكانوا لا يلقاهم عدو فيقيدون التابوت إلا هزم الله العدو، وكانت السكينة شبه رأس هر، فإذا صرحت في التابوت بصراخ هر أيقنوا بالنصر وجاءهم الفتح.

ولأن اليسع رشيدا منذ نعومة أظافره؛ فهو بلا شك هو من الأخيار قبل رشده ومن بعده حتى أصبح رسولا يدعون إلى توحيد المعبود الله جل جلاله.

ولأنه رشيد؛ فهو يعرف ما يجب ويتبعه ويدعو إليه، ويعرف ما لا يجب؛ فيتجنبه وينهى غيره عنه. ولكن ماذا يعني أن اليسع رشيدا؟

أقول:

إنه من استمدّ صفة رشده من الرشيد الأعظم عز وجل، والرشيد اسم من أسماء الله الحسنى وهو يدل على مطلق الكمال والحكمة والهدى، والرشيد معناه بالغ الرشاد ومنتهاه في التدبير والتوجيه إلى

<sup>721</sup> نهاية الأرب في فنون الأدب، 14، ص 28.

<sup>722</sup> قصص الأنبياء، 2، ص 252.

الصواب والحقّ والسداد، فمن القواعد الجلية والأشياء المنطقية في إثبات الصفة للموصوف هي ضرورة التلازم بين الدال والمدلول حتى يصح لنا أن نستدل بوجود الدليل على وجود المدلول، وهو نوع من التلازم الضروري كدلالة وجود الخلق على وجود الخالق، كما بيّنا ذلك في مواضع كثيرة، فلمّا ثبتت أدلة الخلق على أنّ لها خالق؛ فهو دليل على أنّ الخلق لم يتركوا هملاً، وإمّا كان لهم منافع ومعارف ومصالح ومعاش توجّهوا إليها خدمة لحاجاتهم كلّ حسب طبيعة خلقه بالإرشاد من الرّشيد جلّ جلاله فقد جاء في لسان العربّ من أسماء الله تعالى: "الرّشيد هو الذي أرشد الخلق إلى مصالحهم أي هداهم ودّهّم عليها، وهو الذي تنساق تدبيراته إلى غاياتها على سبيل السداد من غير إشارة مشير ولا تّسديد مُسَدِّد"723، فهو عزّ وجلّ أرشد الخلق إلى مصالحهم وفق تدبيراته؛ وهذا يعني أنّه إرشاد فطري من الله تعالى لخلقه إلى مصالحهم التي تكمن فيها منافعهم وحاجاتهم التي يكون فيها خيرهم ومعاشهم في دينهم ودنياهم على مستوى الخلق العاقل، أو بطريق الوحي كما هو حال النحل والحمام الزاجل وكثير من الطيور في هجرتها المعروفة صيفا وشتاء وهو نوع من البرمجة وليس وحيا عن طريق الملائكة التي تبلغ الرّسل، إمّا بطريق التسخير كما هو حال كثير من الحيوانات في إرشاد هذا النوع من الخلق خدمة لخلق آخر، وإما بالطاعة كما هو حال السماوات والأرض بإرشادها لمشيئته فيما أراد من رشد جل شأنه، حيث نتبين صفة الرّشيد من خلال ما أرشدت إليه هذه المخلوقات على اختلاف أنواعها وأوصافها وصفاتها بما تحمل من التباين والمتناقضات وبما تتفق من إتباعها للرّشاد.

الله سبحانه وتعالى رشيد في أفعاله ورشيد في صفاته وأسمائه الحسنی فهو رشيد بقرّته وبعده وظهوره وبطونه وتقديمه وتأخيريه، ورشيد بكونه

<sup>723</sup> لسان العرب، ج 3، ص 175.

حيا وقيوما، فهو رشيد في تأخيره الجزاء من الثواب والعقاب وإن كان الخلق يرونه بعيدا فهو بالنسبة إلى رؤية الله قريب وقد يكون بالنسبة إلينا بعيدا مثل قوله: {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا} 724 وهو الرّشيد الحيّ لنفسه لتحقيق ما نسب إليه ممّا لا يتصف به إلا من شرطه أن يكون حيا قيوما حيث قال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} 725 لقيامه على كل حال نفس بما آتاها من رشاد، وهو الواجد لما طلب فلحق، فلا يفوته هارب كما لا يلحقه في الحقيقة طالب، معرفته الواحد من حيث ألوهيته فلا إله إلا هو الصمد حيث قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ} 726 الذي يلجأ إليه في الأمور ولهذا اتخذناه وكيلا، والتوكل عليه هو طريق الرشاد، وهو القادر النافذ الاقتدار في القوابل الذي يريد فيها ظهور الاقتدار حيث قال تعالى: {أَيُّنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 727 فإن الاقتدار لله فهو تعالى قادر بنفسه ولهذه القدرة نطلب منه الرشاد، وهو المقدم المؤخر برشده من شاء لما شاء ومن شاء عما شاء، وهو الأوّل الآخر بالوجوب وبرجوع الأمر كله إليه، والظاهر الباطن لنفسه، ظهر فما زال ظاهرا أو عن خلقه بطن فما يزال باطنا، ولذلك يطلب منه الرّشيد أولا وآخرا وظاهرا وباطنا، وهو البر أبدا بإحسانه ونعمه وآلائه التي أنعم بها على عباده لأنّه رشيد، وهو التوّاب لرجوعه على عباده ليتوبوا ورجوعه بالجزاء على توبتهم ليرشدهم لما فيه خير دينهم

<sup>724</sup> المعارج 6، 7

<sup>725</sup> البقرة 255

<sup>726</sup> الإخلاص 1، 2

<sup>727</sup> البقرة 148



ودنياهم، وهو المنتقم ممن عصاه تطهيرا له من ذلك في الدنيا بإقامة الحدود ليعفو عنه في الآخرة فهو الحليم الرشيد، فهذه الآلام كلها انتقام وجزاء خفي لا يشعر به كل أحد حتى إيلام الرضيع جزاء العفو لما في العطاء من التفاضل في القلة والكثرة وأنواع الأعطيات على اختلافها لابد أن يدخلها القلة والكثرة فلا بد أن يعمها العفو فإنه لابد من الأضداد كالجليل والرؤوف بما ظهر في العباد من الصلاح والرشاد، وهو المقسط بما أعطى بحكم التقسيط حيث قال تعالى: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ} 728 وهو التقسيط الجامع بوجوده لكل موجود فيه وهذا التنزيل بالقدر المعلوم هو إصلاح وإرشاد للخلق، وهو الغني عن العالمين والمغني لهم، من أعطاه صفة الغنى بأن أوقفه على أن علمه بالعالم تابع للمعلوم فما أعطاه من نفسه شيئا فاستغنى عن الأثر منه فيه لعلمه بأنه لا يوجد فيه إلا ما كان عليه لرشده، وهو البديع الذي لم يزل في خلقه على الدوام بديعا لأنه يخلق الأمثال وغير الأمثال ولا بد من وجه به يتميز المثل عن مثله، ولا يتميز إلا بالإرشاد، وهو الضار النافع بما لا يوافق الغرض وبما يوافقه بما أرشد كل مخلوق إليه، وهو النور الذي يرشد من الظلمات لما فيه خير الخلق ومصالحهم، وهو الهادي بما أبانه للعلماء به مما هو الأمر عليه في نفسه ليستبينوا سبل الرشاد، وهو المانع لإمكان إرسال ما أمسكه وما وقع الإمساك إلا لحكمة وارشاد اقتضاه علمه في خلقه، وهو الباقي حيث لا يقبل الزوال كما قبلته أعيان الموجودات بعد وجودها فله دوام الوجود ودوام الإيجاد، والوارث لما خلفناه عند انتقالنا إلى البرزخ خاصة، وهو الرشيد بما أرشد إليه عباده في تعريفه إياهم بأنه تعالى على صراط مستقيم في أخذه بناصية كل دابة فما من أحد إلا هو على ذلك الصراط والاستقامة مآلها إلى الرحمة فما أنعم الله على عباده بنعمة أعظم من كونه

آخذ بناصية كل دابة، وهو الصبور برشده على ما أودى به حيث قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا} 729 فما عجل لهم في العقوبة مع اقتداره على ذلك وإنما آخر ذلك ليكون منه ما يكون دلالة على أنه رشيد لجميع أنواع خلقه 730.

وهذا الخلق الذي ينقسم إلى هذه الأنواع سوف نحاول أن نفصل القول في كل واحد منهم في إرشاد الرشيد له وفق مشيئة الله تعالى وإرادته التي أرادها لخلقها بحكمته واحدا بعد الآخر، إرشاد الإنسان ومن شاركه بصفاته أو بعضها من الجن والملائكة بصرف النظر عن أطاع أو عصى، فالله سبحانه وتعالى أرشد وأمر بالرشيد كونه رشيدا، فمن اتبع سبيل الرشاد الذي بينه الله لخلقها فقد استمسك بالعروة الوثقى، وأما من أبى فلا يلومن إلا نفسه، فالله سبحانه وتعالى خلق آدم عليه الصلاة والسلام بيده وأسكنه الجنة مع زوجته وأرشده لما فيه خيره وصلاحه وصلاح ذريته. وعليه فالنبي اليسع عليه السلام من أنبياء الله المفضلين، وقد بُعث إلى الأراميين بسوريا وكذلك إلى بني إسرائيل، وهناك من يرى بعثته قبل اليأس، وهناك من يراها من بعده.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنَا بِشْرٌ أَبُو حُدَيْفَةَ، أَنبَأَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ "كَانَ بَعْدَ إِيَّاسَ الْيَسَعُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَمَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمُكِّثَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ مُسْتَمْسِكًا بِمِنْهَاجِ إِيَّاسَ وَشَرِيعَتِهِ حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ ثُمَّ خَلَفَ فِيهِمُ الْخُلُوفُ وَعَظُمَتْ فِيهِمُ الْأَحْدَاثُ وَالْخَطَايَا وَكَثُرَتْ الْجَبَابِرَةُ وَقَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ، وَكَانَ فِيهِمْ مَلِكٌ عَيْنِدُ

729 الأحزاب 57

730 طرق حديث الأسماء الحسنى، ج 1، ص 108.

طَاغٍ، وَيُقَالُ إِنَّهُ الَّذِي تَكْفَّلَ لَهُ ذُو الْكِفْلِ إِنْ هُوَ تَابَ وَرَجَعَ دَخَلَ الْجَنَّةَ  
فَسُمِّيَ ذَا الْكِفْلِ"731.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ هُوَ الْيَسَعُ بْنُ أَخْطُوبَ.

لقد فضّل الله تعالى اليسع صلّى الله عليه وسلّم مع أنبيائه المفضّلين  
على من سواهم من العالمين مصداقا لقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ  
وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ  
وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ  
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ  
آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا  
لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ اِقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ  
عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ}732.

واليسع صلّى الله عليه وسلّم نبيا من سلالة أنبياء كرام جعلت النبوة  
فيهم ذرية بعضها من بعض، {ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ  
عَلِيمٌ}733، ولذلك كما كانت النبوة في اليسع كانت من قبله في آبائه  
وذرّيّاتهم وإخوانهم صلّى الله عليهم وسلّم وهكذا هي من بعده، (وَمِنْ  
آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)، أي  
لقد كان الاجتباء والاصطفاء للأنبياء والرسل من ذرية آدم ومن بعده من  
ذرية نوح ثم من ذرية إبراهيم أبو الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم، وهكذا  
كان الاصطفاء والاختيار للأنبياء والرسل متداخل بين من جعل الله  
النبوة فيهم من آدم إلى أن أتم الله دينه بالرّسالة الخاتمة على الرّسول الكافة  
محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

731 قصص الأنبياء، 2 ص 252.

732 الأنعام 86 . 90.

733 آل عمران 34.

قال تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنَّبُوءَ) فالنبوة هنا تعني أنهم مؤتون الحكمة التي لا تكون إلا من الحكيم المطلق، ولهذا فالنبوة ليس علما يعلم، ولكننا نبأ يتنزل من حكيم عليم.

والحكيم هو "الذي يضع الأشياء في مواضعها، فيضع الفضل في أهل الطاعة، ويضع العذاب في أهل الكفر والمعاصي، هذا فضله سبحانه وعدله"734.

الحكيم: في أسماء الله تعالى الحكيم وهو بمعنى الحاكم وهو القاضي وهو الذي يُحكّم الأشياء ويتقنها735.

الحكيم اسم من أسماء الله الحسنى وصفة من صفاته، وهو الذي تستمد الحكمة منه التي باستمدادها يصبح الإنسان خليفة، ولذلك فالخليفة الحكيم هو الخليفة المتدبر لأمره وأمر من له علاقة به، قال تعالى: {أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِ وَلَوْ رَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا}736 وقال تعالى: {أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْحَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ}737. إنه من الحكمة أن يتدبر

734 كتب العقيدة، ج 16، ص 31.

735 لسان العرب، ج 12، ص 140

736 النساء 82، 83.

737 محمد 24، 29.

الإنسان أمره بحكمة، يفكر في وجوده ويتذكر ما مضى من حياته  
ويتساءل:

هل في الوجود ظلم؟ إذا كانت الإجابة بنعم. ألا ينبغي عليه أن  
يتساءل:

لم لا يقضى على الظلم؟ وعليه أن يتذكر أن ما يقع من ظلم على  
العباد شر ومفسدة ومهلكة تؤلم الناس وتجعلهم في حاجة لمن يسندهم  
لإزالة الألم عنهم. ومن حقّه أن يتساءل:

لم لا يتوحد المظلومون ليزيحووا الظلم عنهم؟

وعليه أن لا يغفل عن التفكير في الظلم وما يتركه من مآسٍ وأن  
يفكر بروية في تساؤله:

ألا نتعرض يوماً إلى هذا الظلم؟ وإذا تدبر هذا الأمر قد يطرح  
سؤالاً:

ألا يكون من الأفضل أن نشارك من وقع عليهم الظلم في مقاومته  
قبل أن يصبح حالنا وأولادنا من بعدنا كحالهم. وإذا بلغ النتيجة الموجبة  
ألا يكون قد وصل إلى التي بعدها وهي إنه من الوجوب الحقّ إحقاق  
الحقّ.

وعليه من الحكمة أن نعرف أن الله واحد، وأنّ الحقّ واحد، وأنّ  
الظلم واحد فلا نغفل وعلينا أن نتبيّن ونسأل حتى بلوغ المعرفة التي بها  
يحقّ الحقّ ويزهق الباطل. وفي هذا الشأن يقول الشاعر:

وفي كل شيء له آية... تدلّ على أنّه واحد<sup>738</sup>

---

<sup>738</sup> تفسير الرازي، ج 1، ص 7.

وبناء على ذلك كن حكيما فيما تقول وتذكر ما قلت حتى لا تضيع منك فرصة الاستغفار، وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين قال تعالى: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ إِنْ اللَّهُ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ} 739.

وقال تعالى: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ} 740.

بناء على ما جاء في الآيات المتقدمة من سورتي الذاريات والغاشية فإنَّ الحكمة مؤسسة على تدبر والتدبر مؤسس على التذكر والتفكير، ولذا فإنَّ أمر الحكمة يستوجب فطنة والفتنة تتطلب إيمانا لا مشاركة فيه، واتباع طاعة لا إكراه فيها.

الحكيم هو من يعلم بحال الشيء ويملك حق التصرف وفقا لميزان العدل دون مظلمة أو ميل لأحد على حساب آخر، ولذا فالحكيم يتصرف وفقا للزمان والمكان والظرف دون مخافة أحد في سبيل قول الحق أو فعل الحق.

الحكيم هو من يجازي المستغفرين بالتوبة والتائبين بالجنة، وهو الذي يمهل ولا يهمل كبيرة ولا صغيرة حتى ولو كانت أقل من حبة خردل قال تعالى: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَا بُنَيَّ أُقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ

<sup>739</sup> الذاريات 55 . 60.

<sup>740</sup> الغاشية، 21 . 26.

مِنْ عَزَمَ الْأُمُورَ وَلَا تُصَعِّرْ حَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ  
لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ  
أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ {741}.

والحكيم العليم هو الخبير بحالنا وأحوال غيرنا، له الحمد لقد ميزنا  
بحسن الخلق والتقويم وفضلنا على العالمين في استخلاف الأرض، وجعل  
لكل واحد منا خصوصية تميزه عن بقية بني جنسه وعلى هذه القاعدة  
جعل لكل نوع خصوصية وجعل داخل كل خصوصية خصوصية. ولذا  
فإننا نلاحظ أن أجسام العالم متساوية في ماهية الجسمية، ومختلفة في  
الصفات، وهي الألوان والأمكنة والأحوال، ويستحيل أن يكون  
اختصاص كل جسم بصفته المعينة لأجل الجسمية أو لوازم الجسمية، وإلا  
لزم حصول الاستواء، فوجب أن يكون ذلك لتخصيص مخصص وتدير  
مدبر، وذلك المخصص إن كان جسما عاد الكلام فيه، وإن لم يكن  
جسما فهو المطلوب، ثم ذلك الموجود إن لم يكن حيا عالما قادرا، بل  
كان تأثيره بالفيض والطبع عاد الإلزام في وجوب الاستواء، وإن كان حيا  
عالما قادرا فهو المطلوب، إذا عرفت هذا فقد ظهر أن كل واحد من  
ذرات السموات والأرض شاهد صادق، ومخبر ناطق، بوجود الإله القادر  
الحكيم العليم، وإن لله تعالى في كل جوهر فرد أنواع غير متناهية من  
الدلائل الدالة على القدرة والحكمة والرحمة، وذلك لأن كل جوهر فرد  
فإنه يمكن وقوعه في أحياز غير متناهية على البدل، ويمكن أيضا اتصافه  
بصفات غير على البدل، وكل واحد من تلك الأحوال المقدره فإنه  
بتقدير الوقوع يدل على الافتقار إلى وجود الصانع الحكيم الرحيم،  
والعارفون المحققون لحظوا فيها مباحث عميقة، وأسرارا دقيقة، 742 والله  
سبحانه وتعالى أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ وهو الْحَكِيمُ لَهُ الْحُكْمُ سبحانه وتعالى

<sup>741</sup> لقمان 16 . 19.

<sup>742</sup> تفسير الرازي، ج 1، ص 7.

"وَالْحَكْمُ وَالْحِكْمَةُ: الْعَدْلُ وَالْحِلْمُ. وَالْخَلِيفَةُ الْحَكِيمُ يَرُدُّ نَفْسَهُ عَنْ هَوَاهَا.  
وَالْحَكِيمُ: الْمَتَّقُ" 743.

الحَكْمُ والحَكِيمُ والحَاكِمُ من صفاته ومعاني هذه الأسماء متقاربة والله أعلم بما أراد بها وعلينا الإيمان بأنها من أسماء الحَكْم والحَكِيم هما بمعنى الحَاكِم وهو القاضي، وقيل: الحَكِيم ذو الحِكْمَة. وهي مصدر الحكمة، وبالتالي هي صفة من صفاته.

والْحِكْمَةُ: عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يُحْسِنُ دَقَائِقَ الصَّنَاعَاتِ وَيُبْتَنِيهَا حَكِيمًا، قال تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} 744.

وعليه فإنّ النبي اليسع عليه الصلوة والسلام هو من الأنبياء الكرام الأخيار الذين تصدروا مراتب الفضيلة العالية، وها نحن بصدد الكتاب عن صفاته الفاضلة التي بها تميّز عن غيره كما غيره تميّز بما هو فاضل، قال تعالى: {وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ} 745، أي لم يكن هؤلاء هم الأخيار فقط، بل هؤلاء هم من الأخيار الأكارم، ولذلك نقول أن جميع الرُّسل هم أخيار ومن آمن بما جاءوا به هداية للحقّ هم أيضا من الأخيار.

والخَيْرُ من النَّاسِ من يفعل الخيرات ويكثر منها ويسارعون بها، {يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ} 746.

---

<sup>743</sup> المحيط في اللغة، ج 1، ص 175.

<sup>744</sup> البقرة 269.

<sup>745</sup> ص 48.

<sup>746</sup> آل عمران 114.



ولذا؛ فمن يجاهد بالخيرات الحسان يكتبه الله مع المفلحين الصالحين، {لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} 747.

ومن يجاهد بالخيرات في سبيل الله تُكتب له العزة وتحقق له الرفعة التي لا تُستمد إلا من الرفيع جلّ جلاله الذي يمتلك القوّة الساندة والداعمة للحقّ، والقوّة مدد خير تمتد من مصدر انبعاثها إلى حيث تكون أفعال خير وتترك أثرا موجبا على من يستغيث بمالكها بتقويته ومناصرته فيما هو حقّ، وتفاجئ الخصم بإضعافه حيثما أصابته.

ولأنّ العزة لله في ذاته وصفاته وملكوته وملكه، لذا يكون استمدادها خير لمن استمدها من القوي المتين، مصداقا لقوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} 748؛ فله العزة يقول ابن منظور في لسان العرب: "له القوّة والغلبة" 749، وقال العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي: "نزلت هذه الآية بعد أن صار بين بعض المهاجرين والأنصار بعض كلام كدّر الخواطر؛ ظهر حينئذٍ نفاق المنافقين وتبيّن ما في قلوبهم، وقال كبيرهم عبد الله بن أبي بن سلول: ما مثلنا ومثل هؤلاء . يعني: المهاجرين إلا كما قال القائل سَمِنَ كلبك يأكلك. وقال: لأن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنّ الأعزُّ منها الأذلُّ؛ بزعمه أنه هو ومن معه من المنافقين الأعزُّون، وأنّ رسول الله ومن تبعه هم الأذلُّون" 750.

---

747 التوبة 88.

748 المنافقون 8.

749 لسان العرب المحيط. ج 2، ص 764.

750 عبد الرحمن ابن ناصر السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المتّان، الرياض، دار ابن

الجوزية، 1435 هجري 1027.

لذا، جاءت العزة خير مناصر لمن هم على الحقّ وبه يهتدون، فبها يُعزّز الحقّ ويمحقّ الباطل، وفي الآية السابقة يُضرب المثل لذلك حيث عززت وظهرت الحقيقة بصدق زيد بن أرقم، وكذب من حلفوا على صدقٍ وهم كاذبون، فزيد الذي كان على حقّ جاءته العزة من الله تعالى تناصره، وعبد الله بن، أبي بن سلول جاءته الهزيمة نتاج كذبه ضعفاً.

ف(الله العزة ولسوله وللمؤمنين) عرضت مرتبة على ثلاثة أبعاد خير:

البعد الأول للخير: أنّ العزة لله، فهي تُستمد منه جلّ جلاله، فلو لم يكن هو العزيز ما كانت العزة خير، {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ} 751، من كان يريد الشرف والمكانة العالية والخير الكثير فعليه أن يتوجه إلى مصدرها عزّ وجلّ، مثل ما قال أبو الأنبياء إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم: {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّي بِالصَّالِحِينَ} 752، كل المطالبة الإبراهيمية هي لنيل العزة والإمداد بالخير الرفيع ليكون عزيزاً غير مهان في الدنيا والآخرة.

البعد الثاني للخير: العزة للرسول صلّى الله عليه وسلّم، الذي اصطفاه الله وأعزه بالكتاب مصدقاً لما بين يديه {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} 753؛ فعزة الرسول صلّى الله عليه وسلّم من عزة الله تعالى، ولذا فهو يمتلك القوة من القوي عزّ وجلّ، والقوة

751 فاطر 10.

752 الشعراء 78 . 83.

753 آل عمران 3.

حجة خير، فكان الكتاب الرسالة الخاتمة وهو مجمع الحجج الخيرة الذي يهدي للتي هي أقوم.

والبعد الثالث للخير: العزة للمؤمنين الذين آمنوا بالله وكتبه ورسله صلى الله عليهم وسلم. والمؤمنون هم الذين آمنوا، وبإيمانهم أعزوا الإسلام والرسل فأعزهم الله خيرا بالإسلام وبالرسل.

إنها عزة الخير المتبادلة فمن ينصر الله ينصره الله بالقوة التي هي المحقق للخير الكثير، {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} 754؛ فقلوه: (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ) ليعز الله من يعزه أي لا نصر بدون عزة، ومن يعزه الله تعالى ينتصر، ومن يذله يهزم؛ فالذين يراد لهم أن يُستخلفوا في الأرض يُمكنهم الله فيها، مما يجعلهم يعزون من الله بالصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليرثوا الجنة من بعد أن ورثوا الأرض خلائف طائعين مهتدين بالأفعال الخيرات الحسان.

وفي مقابل الأبعاد الثلاثة جاء الاستثناء للمنافقين حيث لا خير يأتي منهم وذلك لانعدام وجود الخيرين فيهم، بقوله تعالى: (وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) لا يعلمون العزة لله وللرسول وللمؤمنين، ذلك باعتقادهم أن العزة لهم بما يمتلكون، ولو تفكروا لعرفوا أن الملك لله تعالى، وهؤلاء ومن هم في حكمهم ليسوا بالمستخلفين في الأرض، حتى وإن توارثوا فيها وامتلكوا نصيبهم منها، فليس لهم في الآخرة من نصيب؛ فهم لم يرثوا الأرض ولن يرثوا الجنة.

ومن ثم فالنبي اليسع عليه السلام مهدي من قبل ربه تعالى الى الصراط المستقيم مصداقا لقوله عز وجل: {وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

---

754 الحج 40، 41.

ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ {755}. ولأنّ الهادي لسيدنا اليسع صلى الله عليه وسلم هو الله عزّ وجلّ (وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فكان اليسع مهدياً بهدي ربّه جلّ جلاله، على الصراط الذي من هُدي عليه كان أسوة وقدوة حسنة لغيره من المؤمنين، ولأنّ هُدى الله وفقاً لمشيئته كان اليسع مهدياً في مشيئة الله أسوة حسنة لقومه فاهتدى منهم من اهتدى وضل من ضل، {أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} {756}.

الهادي هو مغيّر الأحوال من حال إلى حال أفضل، وهو على كل شيء قدير، والهادي هو الخالق الذي خلق المهتدين، ومن يهديه الله تكون له الهداية صفة كما كانت لسيدنا اليسع الذي هداه الله إلى الصراط المستقيم فكان رسول هادياً لقومه بالتي هي أحسن، قال تعالى: {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ} {757}، ولذا فالهادي هو منزل نصوص وحكم وكلم الهداية لخلق حتى لا يضلون {وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ} {758} وإن ضل بعض منهم من بعد الاهتداء؛ فإن الهداية من ورائه تلاحقه بالفعل وتسابقه بالقول حتى بلوغها ومن ضل بعد ذلك كان من الضالين.

ولأنّ الهادي صفة الكمال، والمخلوق صفة النقص، فالمنقوص دائماً في حاجة للكمال الذي يهديه إلى ما يجب، وهو الله الهادي إلى سواء السبيل، (ليس كمثل شيء وهو السميع البصير)، وليس كهديه هُدى، فهو المنزّه عن المثلية في الذات والأفعال والصفات.

---

<sup>755</sup> الأنعام 87، 88.

<sup>756</sup> الزخرف 40.

<sup>757</sup> الإسراء 97.

<sup>758</sup> الروم 53.

ولأنّ الله خلق خلقاً من خلقه وجبلهم على الطاعة، كما جبل سيدنا اليسع وغيره من الأنبياء والرُّسل الكرام على الهداية والطاعة؛ فهداية هؤلاء هداية ذاتية لا يغفلون عن ذكر الله وينفذون ما أمرهم دون تقصير، قال تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} {759}، فيسبح لله كلّ ما في السماوات السبع، وكل ما في الأرضين من خلقه، ويعظمونه طوعاً وكرهاً، فهو (الملك القدوس) الذي له ملك الدنيا والآخرة وسلطانهما، النافذ أمره في السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، ولأنّ الهادي هو القدوس فهو الطاهر من كلّ ما يضيف إليه المشركون ويصفونه به ممّا ليس من صفاته وهو (العزیز) الشديد في انتقامه من أعدائه و(الحكيم) في تديره لأمر خلقه فيما هو أعلم به من مصالحهم، وهنا تكون الهداية من الهادي المطلق للهادي بالإضافة.

ومن هنا فالهادي هو الذي أرسل الرُّسل للهداية، ولكن أهل الضلال استحبوا العمى على الهدى. قال الله تعالى: {فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} {760}، وحب العمى على الهدى انصراف بالكلية عن طريق الرشاد إلى طريق الفساد لا محالة ومن طريق الخلافة إلى طريق الغواية، ومن ارتضى هذا المسلك أوجب على نفسه الضلال، وابتعد عن نعمة الله التي أوجبها على نفسه في هداية خلقه إلى ما فيه خيرهم وبقائهم.

ولذا جاء الدين الإسلامي العظيم للهداية والإصلاح حاكي عقول الناس بما يتناسب معها في أدوات الهداية فكانت من أساليب الهداية منها ما هو بصري يقيني وقتي ومن ذلك المعجزات البصرية التي تؤدّي بمن يراها إلى عبادة الله وسلوك مسلك الحق وهذا النوع من الهادي موجّه

---

<sup>759</sup> الجمعة، 1.

<sup>760</sup> فصلت، 17.

للأنبياء والناس على السواء، فمن هدي الأنبياء البصري الملموس المحسوس ما قال الله تعالى عن سيدنا إبراهيم: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْمِ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيُطَمِّنَ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} 761 وهذه الآية تتعلق بالحياة والموت وهما من الأحوال المشاهدة يومياً ولكي تكون مثل هذه الأشياء من الدلائل الهادية أنزلها الله في كتابه الحكيم (الرسالة الخاتمة) اقتداء بقوله تعالى: {وَدَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} 762 أي فأذكر يا محمد قصة إبراهيم يوم قال لربه: أريني بعيني كيف يكون إحياء الموتى، فقال له تعالى: أَوْمِ تُؤْمِنُ بَأَيِّ قَادِرٍ عَلَىٰ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى؟

قال: بلى، علمت وصدقت، ولكن ليزداد إيماني ويطمئن قلبي.

ولأنَّ اليسع رسول مُرسل من عند الله لهداية قومه للتي هي أحسن فقد كان مفضلاً فيهم ومفضلاً على العالمين، واجتباها الله برسالته الهادية بالحقِّ للحقِّ، ثم هداه إلى الصراط المستقيم، ثم بعد ذلك آتاه الله الكتاب رسالة تامة تبين الحقوق والواجبات والمسؤوليات التي ينبغي أن يتم حملها من قبل الذين آمنوا مع اليسع صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والإيتاء لا يكون إيتاء إلا من عند الله تعالى، ولهذا فهو الذي يؤتي ما يشاء لمن يشاء كيفما يشاء ومتى يشاء وأين يشاء، سبحانه إنه على كل شيء قدير.

ولأنَّه لا مؤتي بالملطق إلا الله المؤتي جلَّ جلاله؛ فهو الذي آتى الكتاب ليسدنا اليسع وهو الذي آتى الكتب من عنده لمن اجتبي من

<sup>761</sup> البقرة 260.

<sup>762</sup> الذاريات 55.

الرُّسُل وهو الذي يُؤتي الملك لمن يشاء، وهو الذي يؤتي الحكم لمن يشاء متى ما شاء دون تقديم ولا تأخير، فكل شيء بيده يصدر بالأمر (كن).

ولأنَّ مالك الملك هو الله فهو المؤتي للملك لمن يشاء كما شاء إيتائه لسيدنا إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال تعالى: {لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ} 763.

ولأنَّ المؤتي يؤتي الملك من يشاء؛ فقد آتاه وفق مشيئته لسيدنا إبراهيم قال تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} 764.

لقد بدأت هذه الآية الكريمة بفعل نستمد منه اسم فعل (المؤتي للحكمة) ولذلك نلاحظ أن المؤتي واحد وهو معرفة (المؤتي الله تعالى) وفي هذا المعنى جاءت الآية دالة على أن المؤتي للحكمة هو الله ومن يؤتيه الله الحكمة فقد آتاه المؤتي خيرا كثيرا، فنحن نقول (المؤتي) دليلا على أن الألف واللام من أصل الاسم ولا نقول: (مؤتي) فيكون منكرا ونحن نعلم أن الله وأسمائه الحسنی لا تُنكر بل هي معرفة على المطلق.

وعليه نتساءل:

آلا تكون الحكمة التي تؤتى معرفة؟

آلا يكون المعرف دالا على محدد بذاته أو بخاصيته أو جنسه ولا تعميم فيه؟

آلا يكون المعرف متخلصا من اللبس والغموض؟

---

<sup>763</sup> البقرة 258.

<sup>764</sup> البقرة 269.

لو كان الأمر كما سبق تبيانه في هذه التساؤلات، لكانت الحكمة واضحة وجلية، ونحن نقول:

الحكمة لا وضوح فيها، بل هي في حاجة للتوضيح، فأى حكمة هي؟

الحكمة تتعدد وليست واحدة وإن كان مفهومها دالا في ظاهره على معرّف، فمن الحكمة أن يتدبر الإنسان أمره وما يتعلق به، ولذا فإن التدبّر من الحكمة، والتفكّر من الحكمة، والصدق من الحكمة، والاستغفار من الحكمة، وحسن التصرف من الحكمة، والتزواج من الحكمة، والطلاق من الحكمة، والتعاون من الحكمة، والعدل من الحكمة، والإيمان من الحكمة، والاعتماد على الله والنفس من الحكمة، وكذلك الأخذ بالحكمة من الحكمة. ولهذا نتساءل:

ما هي الحكمة التي تؤتى؟

هل هي الأخذ بالرأي أم عدم الأخذ به؟ أم شيئا آخر غير الأخذ وعدم الأخذ؟

من الحكمة لا يمكن لنا أن نقول:

1 . الأخذ بالرأي هو الحكمة، فمن يضمن أن الرأي كان على صواب؟

2 . وإن قلنا عدم الأخذ بالرأي هو الحكمة آلا يكون من الأفضل لنا بل ومن الحكمة أن نتعرّف على مبررات من يقول لنا لا تأخذوا بما سمعتم من رأي حتى نتبيّن لكي نتمكّن من اتخاذ قرار واع وسليم ومفيد.

3 . وقد يكون من الحكمة البحث عن مخرج ثالث لا يتعلق بالأخذ وعدم الأخذ.



ولذا فلوا كانت الحكمة عدم التعميم لكانت على تخصيص واحد، ولهذا نحن نعتقد أن الحكمة مُنكَرَة المعنى وليست معرفة بدلالة وخاصة معينة ولذلك فهي أحيان تكون تحت مظلة الامتناع وتارة تحت مظلة الموافقة وأخرى تحت مظلة أخرى.

الله الذي بيد الأمر يُؤتي ما يشاء لمن يشاء كيفما يشاء، ومن آتاه الله رزقا فليصدّق ويتزكّى وينفق كل حسب استطاعته وما يملك من رزق، ولأن الرزاق الله فهو المؤتي للرزق لمن يشاء، وهنا وجب الإنفاق من الرزق الذي هو مؤتى من الرزاق المطلق تعالى، ولذا فالمؤتي هو الله تعالى والمنفق هو المؤتي من عند الله فليثق الإنسان ربه ولينفق مما آتاه من رزقه قال تعالى: {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ} 765.

وبدون شك أنّ المؤتي هو الله جلّ جلاله، ولهذا فالمؤتي أسم من أسمائه الحسنی لا ينبغي إهماله أو الإغفال عنه بحثا وكتابة وتدبرا وتعلیلا. والحمد لله رب العالمین.

### النبي داوود:

أتناول بالبحث في هذا المؤلف نبي الله تعالى داوود عليه الصلاة والسلام، مع توضيح بعض المفاهيم وتصحيح بعض الأخطاء التي علقنا من قبل الذين تناولوا قضايا عُرضت في سيرة هذا النبي الكريم من التي رسخت معانيها لدى كثير من المفكرين والقراء على مدى الأطوار المتعاقبة في الزمان والمكان، لذلك نجد بعض النتائج التي توصلت إليها دراسة بعض القضايا أصبحت كأها مسلمات فكرية وعقائدية احتاجت منا إلى إعادة تقييم، ومن ثمّ تقويم جديد بما وقفنا عليه من أدلة غيرت بعض النتائج التي لم تكن في مكانها الصائب.

إنّ الموضوعات التي تضمّنها هذا المجلّد من موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنة، كان بعضها من مفردات العقيدة، والبعض الآخر من المسائل الفكرية والعقلية، إلّا أنّ تناولها شكّل لنا رؤية أخرى بما يقبله العقل ولا يتعارض مع الشّرع، فقد كان جلّ اهتمامنا في تناول هذه القضايا أن نقدّم الدليل على صحة الفكرة بالدليل الذي يقبله العقل بما لا يعارض النقل.

ولن نبالغ إذا قلنا أنّنا كنّا نتصوّر مدى أهمية مثل هذه الموضوعات التي نعالج بها قضايا كبرى جوهرية قبل أن نقدم على النّظر في مسائلها والكتابة فيها، لما تتناوله من أشياء تتعلّق بالإنسان جوهرًا ومادّة، وتمتّ له بصلة في حياته وفيما بعد الموت، وإنّ كان الكلام في هذه الأوراق ينصبّ على أمور وقضايا منها:

قضايا جديدة لم تكن موجودة جاء بها أنبياء الله عليهم الصّلاة والسّلام.

قيم حميدة موجودة في المجتمع أقرّها الأنبياء وأكّدوا عليها.

قيم ذميمة موجودة في المجتمع رفضتها الأنبياء ورسالاتهم ونهوا عنها وبصرف النّظر عمّن آمن وأطاع، أو من كفر وعصى فإنّ الفضائل الخيرة والقيم الحميدة تبقى في المكانة العالية والمرتبة السامية أخذ بها من أخذ وترك منها من ترك.

ولذلك؛ فإنّ مثل هذه الموضوعات من القضايا الكبرى عند الأخذ من البعض والترك من البعض الآخر وكلاهما يوحد بينهما الانتماء إلى المصدر، ويفرّق بينهما الاختلاف في الالتزام والتطبيق أدى ذلك إلى نشوء عقدة فكرية، أو تشويش فكري في أذهان طائفة من المثقفين والمفكرين، على اختلاف عقائدهم الفكرية ومواردهم الثقافية في توحيد

موقفهم من خلال النفاذ من ثغرة الالتزام أو عدمه ليُجعل ذلك دليلاً على الادعاء بوجود التناقض في الفكر من خلال اختلاف التصرف الصادر عن الأفراد، فيحكم على الفكر الذي يحمل القضية من خلال فرد أخطأ في التصرف أو انحرف في السلوك، ومن ثمّ فإنّهم يتخذون ذلك مطعناً على مصدر الفكر وإن علموا أنّ الخطأ ممّن تقمّص هذا الفكر قصداً أو سهواً، ثمّ يركبون سبيل رسل الغزو الفكري المشكك في كل محامد الأمة وتاريخها وتراثها وحضارتها وثقافتها وصولاً إلى الهدف من أجل هدم عقيدتها بناءً على خطأ لم يصححه من أخطأ ولم يشر إليه من وقف عليه، بل جعلوا هذا الخطأ عماد فكر وأساس منطلق بنو عليه أدلتهم، لذلك كان من السهل علينا أن نفنّد تلك الأدلة، ونبرهن على صدق القضايا بالبراهين الداحضة لتلك الافتراءات، من أجل إظهار الحقيقة الصافية والرؤية السليمة لجوهر القضية.

وقد تقف على كثير من آراء من اتخذ مثل هذه المواقف مادّة دراسية، ليس من المستشرقين فحسب، وإنّما تجدهم يُحسبون على الإرث الثقافي الذي اتخذوه مادّة للاثهام من أجل الشهرة، ومخالفة من أجل الظهور، وينتمون إلى الفكر الذي يحرضون عليه، ساعتئذٍ يعلم المتتبع أنّ هذه الفئات التي أقبلت على دراسة هذا النوع من القضايا بالطريقة التي تناولتها بها، وبنّت على هفوات الآخرين مرتكزات فكرية انطلقت منها، أو من أخطاء البعض سلّماً تحاول أن ترتقي به إلى مصافّ المفكرين في معارضة الثوابت ومحاولة تشويه الحقائق، جهلاً أم عمداً، فإذا وقف المتتبع على هذا علم هو وعلمنا نحن أنّ هذه الفئات ليست لها في دراسة هذا النوع من البحوث تجربة سابقة. وليس عندها للإقبال عليها أيّ شغف أو تطلّع سوى أنّ المرحلة تتطلب هذا النوع الرائج من البحث.

لذلك، عندما تناولنا القضايا التي عرضت لداوود عليه الصلّاة والسلام، أو القضايا التي ثار الجدل حولها وكثر فيها الخلاف من قبل

أهل الكتاب في موضوعاتها، كان لابدّ من التوسّع في بعض نقاط البحث، وتفصيل القول في بعض مجملاته، وهذا التوسّع وهذه الزيادات لاسيما في الوقوف على أدلة جديدة تدعم آراءنا ومواقفنا في دحض الافتراءات الكثيرة التي رُمي بها داوود عليه الصلّاة والسّلام وهو منها براء، فرأينا أنّ التوسّع مع زيادة الأدلة في بعض الجوانب المهمة يوصل إلى الهدف ويحقّق الغاية مع الانسجام التام في تسلسل الأدلة النقلية والعقلية التي ابتغينا لها أيسر سبل الاقتناء وأوجز العبارات في أبسط الأساليب، حتى يتسنى لطالب الحقيقة والمعرفة، أن يفيد من موضوعات هذا البحث ولا يجد أيّ عثرة في طريق فهمها.

ونحن نقول: إنّ هذه الأنواع من الأبحاث بقطع النظر عن مدى التوفيق الذي يحالفنا في معالجتها ومستوى درجته . تترتّب على قمّة ما يحتاج إليه هذا الجيل من المعارف في توضيح المفاهيم بإظهار الحقائق عن طريق الأدلة سواء أكانت هذه الحقائق:

كونية

علمية

عقلية

ولسنا نزعم أنّ هذه المادّة البحثية بهذا الأسلوب السريع يغطي أهمية هذه البحوث تغطية كاملة، أو يشبع سائر تطلّعات الفكر حولها. ولكننا نعتقد أنّه باب يلج منه صاحب الفكر الحرّ إلى الإيمان به والالتفات إلى قيمته من خلال إظهار حقائق ما خفي على من تناول هذه الموضوعات سهواً، وإبطال ما ادعاه المفترون عمداً، حتى إذا بقيت لأحد بقية أسئلة في هذا المجال أو استيضاحات متعلقة ببعض الجوانب التي:

لم يكن في بعضها اتهام.

لم يكن في البعض الآخر خلاف.

مثل:

.الحكمة

.فصل الخطاب

.الملك الذي لا ينبغي لأحد

لذا، كان لنا من الأهمية بمتابعة البحث والشعور بالمسؤولية تجاهه ما دفعنا إلى التوسّع الذي يوضح كلّ خافية ويزيل من الطريق كلّ التباس.

وسوف يقف القارئ الكريم على رؤى جديد لموضوعات قديمة ما نظن أنّ أحدا وقف عليها من قبل، ونحن لا نقول هذا من أجل مخالفة الآخرين فيما ذهبوا إليه من فهم بعض هذه القضايا، ولكننا قدمنا الدليل وتركنا القضية على مائدة المناقشة بعقل منفتح ليدي كلّ بدلوه مقدّما دليله.

ومن هذه القضايا التي كانت لنا فيها نظرات وخرجنا منها بأحكام جديدة قائمة على الدليل:

إنّ الله تعالى أتى داوود الملك الذي لم نقف على أثر مادّي له لأسباب فصلنا فيها القول عند الكلام عن سليمان، غير أنّ الذي أشرنا إليه باستفاضة وتوضيح هو أنّ سليمان ورث داوود قال تعالى: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ} 766.

إنّ قضية القضاء وبيانه من أنّه فتنة لداوود النبي الملك أم لا، حيث كان يخصّص بعض وقته للتصرّف في شؤون الملك وللقضاء بين النّاس، ويخصّص البعض الآخر للخلوة والعبادة وترتيل أناشيده تسبيحا لله في المحراب، ومن الطبيعي وهو نبي ملك أنّه إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لا يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى النّاس، وقد بحثنا هذه القضية بالتفصيل والبيان

إنّ داوود أوتي حكما وعلما، فبالضرورة أنّه حكم بما آتاه الله تعالى من الحكم والعلم، وأوتي سليمان فهما غير منصوص عليه لخصوصية القضية التي اختص في فهمها سليمان، وليس ذلك بالحجّة القائمة أو الدليل القاطع على عدم تفهيم داوود أكثر من سليمان في قضايا أخرى.

وقد يقف النّاس حائرين أمام ما وهب داوود ممّا أوردته الآية من نبأ داوود من أنّ الجبال الجامدة تسبح معه بالعشي والإشراق حينما يخلو إلى ربّه، يرتل ترانيمه في تمجيد الله تعالى والثناء عليه ومدحه وحمده وذكره، لقد فصلّنا القول في هذه القضية في ثنايا بحثنا بما يستحقّ ذلك من استفاضة.

فداوود هو بن ايشا بن عويد بن عابر، إلى أن ينتهي النسب إلى يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. وقد جمع الله تبارك وتعالى له بين النبوة والملك وأنزل عليه الزبور. له من الصّفات الحميدة ما له، وله من التميّز ما له، وعلمه الله من الآيات المعجزات الكثير، وقد ورثه من بعده أبنه سليمان عليهما الصّلاة والسّلام. عن وهب بن منبه "كان داوود عليه السّلام، قصيرا، أزرق العينين، قليل الشّعر، طاهر القلب نقيه، وهو الذي قتل جالوت؛ فأحبّته بنو إسرائيل ومالوا إليه وإلى

ملكه عليهم، فكان من أمر طالوت ما كان وصار الملك إلى داود عليه السلام، وجمع الله له بين الملك والنبوة 767.

قال تعالى: {وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ} 768؛ فقد ذكر ابن جرير في تاريخه: أنّ جالوت لما بارز طالوت؛ فقال له: أخرج إلي أو أخرج إليك؛ فندب طالوت الناس؛ فانندب داود، فقتل جالوت؛ فمال الناس إلى داود عليه السلام، حتى لم يكن لطالوت ذكر وخلعوا طالوت وولّوا عليهم داود. وقيل: إن ذلك عن أمر شعوبيل، حتى قال بعضهم: إنّه ولاه قبل الواقعة.

قال تعالى: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخُسْفِ إِذْ تُسَوِّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا الْحِسَابَ} 769.

لقد تمّ تفسير هذه الآيات الكريمات في بداية هذا البحث، وقد أكدنا على عصمة الأنبياء عليهم الصلوة والسلام التي تقضي بعدم

<sup>767</sup> المجالسة وجواهر العلم، 1، 310.

<sup>768</sup> البقرة 251.

<sup>769</sup> ص 21 . 26.

صحة ما ورد في بعض كتب التفسير والتاريخ من قصة المرأة مع نبي الله داود عليه السلام.

وهنا يقول أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام، ولا أوتي برجل يقول: إنّ داود ارتكب الفاحشة إلاّ ضربته حدّين أحدهما للذف، والآخر لأجل النبوة، لعظم ما ارتكب وجليل ما احتقّب، يرمي من قد رفع الله محله، وأرسله من خلقه رحمة للعالمين وحجة للمجتهدين"770.

إنّ تلبس تلك التهمة لنبي كريم من أنبياء الله عليهم الصلوة والسلام لا يليق، وهو لا يزيد عن كونه مظلمة، فتدبير حيلة التخلص من الزوج وقتله، لا يمكن أن يكون صفة لنبي من أنبياء الله. وهكذا هو مثل النعجة؛ فالمعنى الحقيقي لها معروف أنّه في الغنم، وصرفه إلى المرأة معنى مجازي لم يقم عليه دليل، والقاعدة المطردة حمل الشيء على حقيقته حتى يقوم دليل على إرادة المجاز.

أمّا فرع داود عليه السلام هو مجيئهما من غير الباب، فظن أنّهما أراداه به سوء حينما تسورا المحراب. أمّا الذنب فلم يذكر الله تعالى ما هو ذنب داود عليه السلام الذي استغفر منه؛ لذلك لا داعي لتحميل الآيات ما لا تحتمل. والتوبة ليست مقصورة على التوبة من الذنب، بل التوبة قد تكون من البعد عن ذكر الله مدّة من الزمن كما يقول الخارج من الخلاء: (غفرانك)، وقد تكون التوبة في بناء بيته قبل بناء بيت الله، قال بعض المفسرين: "وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام لم يذكره الله؛ لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإمّا الفائدة ما قصّه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، وأنّه ارتفع محله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها"771.

<sup>770</sup> قصص الأنبياء (عرائس المجالس)، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري: ٢٨١.

<sup>771</sup> تفسير السعدي، ص 711.



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كَانَ دَاوُدُ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ" 772 ذلك هو داوود الذي ألان الله له الحديد، وعلمه صنعة الدروع، وكان يأكل من هذه الصنعة؛ ولهذا قالوا: إنَّ داود كان حدادا مع كونه ملكا، فهذا يدلُّ على فضل أكل الإنسان من عمل يده.

ولأنَّه العمل؛ فهو الذي يربط الحاضر تدبِّرا بالمستقبل تفكِّرا، ولذلك؛ فالإنسان ينبغي أن يعيش والأمل لا يفارقه؛ فإن فارقه الأمل فلا معنى للحياة؛ فالله خلق أبانا آدم في النِّعم ليعيش وبنيه حياة النِّعم، ولكن بأسباب الإغواء والمعصية أفسد حياته الباقية بالحياة الزائلة (الحياة المنقوصة) حيث الفقر والألم والفاقة والمرض والتعرُّض للمفاجآت والموت، ومع ذلك؛ وجب العمل، وخير العمل ما يقوم به الإنسان بذاته، ووفقا لمقدرته، ذلك لأنَّ عمل اليد يباركه الخالق.

وعلى المستوى العام؛ فالعمل يقود إلى حلِّ التآزُّمات التي تواجه الكثيرين، كونهم لا يعملون، بل يعتمدون على جهد الغير.

ولسائل أن يسأل:

أيَّ حلِّ تعني؟

أقول: حلُّ أزمة الحياة الدُّنيا، التي تتطلب العمل، بهدف النهوض، وغرض الارتقاء، وغاية بلوغ القمَّة (الحياة الباقية) حيث تُرتق الأرض في السَّماء بعد أن فُتقت منها.

فيجب الإقدام على العمل المشبع للحاجات المتطوِّرة بلا حدود، ذلك لأنَّ الحدود عوائق أمام التقدُّم تجاه بلوغ الأفضل والأعظم. ولهذا؛ فلا ينبغي أن يرتضي بنو آدم بالفقر؛ فالفقر مرض ينبغي القضاء عليه

---

772 صحيح ابن حبان، محققا، 14، 119.

بالعمل المنتج؛ فلو عمل بنو آدم جميعهم، لما وجد الفقر مكان له على الأرض، ولأنهم لا يعملون جميعاً؛ فسيظلون فقراء مهما استغنى منهم من استغنى.

ولذلك؛ فالغناء رحمة؛ والفقر أزمة ومواجه، ولأنهما كذلك، وجب على الأغنياء العمل إلى جانب ما يعملون ويجنون من مكاسب من أجل إزالة الألم عن الفقراء وتحويلهم إلى ميادين العمل المنتج ارتقاء.

فالغنى ارتقاء حق لا يكون إلا نتاج العمل المرضي، أما الفقر ليس بحق، بل الفقر أوجدته أسباب وعلل ينبغي أن تزال. أما العجزة والقصر؛ فحقوق عيشتهم المرضي على كواهل العاملين من ذويهم، ولكن إن كان ذووهم يعيشون اتكالا على الغير؛ فالعيب لا شك أنه سيلاحقهم ومن ورائهم سيلاحق المسؤولين في الدولة.

إذا؛ فالارتقاء لا يمكن أن يكون على حساب الغير، بل يكون بجهودهم المشتركة حيث لا إقصاء ولا تغييب لأحد عن ممارسة حقوقه، أو أداء واجباته، أو حمل مسؤولياته. وفي المقابل يحدث الانحدار والتزول سُفلية لمن يتخلى عما يجب التمسك به حقاً وواجباً ومسؤولية.

ولذلك، ينبغي أن يعمل الجميع بهدف الاستغناء والحياة الرّاقية، وكلّما بلغ الجميع مستوى من العيش الرّفيع الرّغد يجب أن يفكروا فيما هو أرفع وأرغد منه حتى تُرتق الأرض والسّماء بالعمل.

ولأنّ العمل ارتقاء يؤدّي إلى ما يُنقذ بني آدم من الألم، كما يؤدّي بهم إلى ما يُغرقهم فيه؛ فهم بين هذا وذاك بين ارتقاء فيه العمل يُتقن، وبين دُونية بها يُهمل وينحرف إلى ما لا يجب. ولذلك، كان الصّدق ارتقاء في مواجهة الكذب انحداراً، وكان العدل ارتقاء في مواجهة الظلم انحداراً، وهكذا كان الحقّ في مواجهة الباطل، والحريّة في مواجهة

الاستعباد، والديمقراطية في مواجهة الدكتاتورية، والاستيعاب في مواجهة الهيمنة والإقصاء، وبين هذا وذاك يجب التحدي بما يمكن من الارتقاء قمة.

ولأنّ بني آدم بين ارتقاء ودونية؛ فهم بينهما بين ما يرسخ قيمة الإنسان رفعة ونهضة ومكانة، وبين ما يؤدي إلى التخلّف والفاقة وتقليل الشأن.

ولذلك؛ فالعمل الصالح ارتقاء لا يكون إلا عملا منتجا ومتقنا ومبدعا ومرسّخا لقيمة الإنسان، وفي المقابل العمل الفاسد والرغبة الفاسدة، لا يكونان إلا على حساب القيم الحميدة، وعلى حساب مصالح الآخرين، ورغباتهم ومصائرهم وما يشبع حاجاتهم المتطورة والمتنوّعة، ومن ثمّ؛ فالعفة والأمانة والنزاهة وتحمل أعباء المسؤولية ارتقاء، ستظل قيما في مواجهة تلك القيم المؤدّية بأصحابها إلى السفلية والدونية التي تتمركز على الأنا.

وقد ضرب الرسول صلّى الله عليه وسلّم مثلا لمهفي الشعور بني الله داود عليه السلام، واختاره من بين الأنبياء مع أنّ آدم كان حراثا، ونوحا كان نجّارا، وإدريس كان خياطا، وموسى كان راعيا وهكذا لبقية الرسل عليهم الصّلات والسلام حرف متنوّعة، ولكنّ اختيار داود جاء لاقتصاره في أكله على ما يعمل بيده، وهو لم يكن لاحتياجه لأنّه كان خليفة الله في أرضه. ومع ذلك اختار الأكل من الطريق الأفضل وهو عمل يده، وفي عمل داود عظمة أخرى، وهي أنه كان يعمل الدروع من الحديد ويبيعها ويأكل من ثمنها، وقيل: "إنّه كان يعمل القفاف أو كان يعمل زرادا "حدادا" أو ضافر خوص"773.

---

773 المنهل الحديث في شرح الحديث، 2، 247.

عن ابنِ سَمْعَانَ، قَالَ: "بَلَعْنَا أَنَّ لُقْمَانَ الْحَكِيمَ، مَرَّ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ يَصْنَعُ دِرْعًا، فَوَقَّفَ عَلَيْهِ يَتَعَجَّبُ بِمَا يَصْنَعُ وَلَا يَدْرِي مَا هِيَ فَصَمَتَ عَنْ مَسْأَلَتِهِ عَنْ ذَلِكَ حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا، فَلَبَسَهَا، فَعَرَفَ لُقْمَانُ مَا هِيَ عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ، فَقَالَ لُقْمَانُ: الصَّمْتُ حِكْمَةٌ، وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ" 774.

النبى داوود منذر، فعن أبي الجلد، أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: "يا داود أنذر عبادي الصديقين فلا يعجبن بأنفسهم ولا يتكلمن على أعمالهم، فإنه ليس أحد من عبادي أنصبه للحساب وأقيم عليه عدلي إلا عدبته من غير أن أظلمه، وبشر الخطائين أنه لا يتعاطمني ذنب أن أغفره وأجاوز عنه" 775 وعن أبي الأشهب يقول: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: "يا داود حذر فإنذر أصحابك أكل الشهوات فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها محجوبة عني، قال أبو سليمان: فكتبته في رقة وارتحلت ما معي حديث غيره" 776

وهو كذلك مرسخ حب الله فيه، سمعت أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت أبا سليمان يقول: "أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: إني إنما خلقت الشهوات لضعفاء خلقي فأياك أن تعلق قلبك منها بشيء فأيسر ما أعاقبك به أن أنسخ خلاوة حبي من قلبك" 777 وعن ثنا الحسن بن عمرو، قال: سمعت بشر بن الحارث، يقول: أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود عليه السلام: يا داود لا تتخذ بيني وبينك عالما مفتونا، فيصدك بسكره عن طريق محبتي، أولئك قطاع طريق عبادي" 778، عن

774 الجامع لابن وهب ت مصطفى أبو الخير، ص، 507.

775 حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 6، 57.

776 حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 9، 260.

777 حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 10، 20.

778 المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي، ص، 335.

أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: "قَالَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: رَبِّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي وَأَهْلِي، وَمِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ" 779

ولقد اتصف داوود بصلاته مفضلة، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ، أَنَّ عَمْرُو بْنَ أَوْسٍ، أَخْبَرَهُ: "أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو بْنَ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَخْبَرَهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ لَهُ: أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللهِ صَلَاةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ، وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا" 780

ولقد تميّز صوته بالمزمارية؛ فعن ريدة بن الحُصَيْب بن عبد الله الأسلمي المروزي رضي الله عنه (قال) بريدة (قال رسول الله: "إنّ (الأشعري) أبا موسى رضي الله عنه، أعطاه الله سبحانه وتعالى (مزمارة) أي صوتًا حسنًا (من) جنس (مزامير آل داود) - عليه السلام - أي من جنس أصوات داود - عليه السلام - حين يتغنى بالزبور والأذكار، شبهه حسن صوته وحلاوة نغمه بصوت المزمارة، ثم حذف المشبّه واستعار له اسم المشبّه به على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، ثم جرّد له بذكر آل داود" 781. وعن عَبْدُ الْجُبَّارِ بْنِ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الْجُبَّارِ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: سَمِعَ النَّبِيَّ - - قِرَاءَةَ أَبِي مُوسَى، فَقَالَ: "لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ" 782.

لقد أتى الله تعالى داوود الملك فكان مالكا بالحق، وآتاه الحكمة فكان خير حكيما بالحق، وآتاه علما فكان عالما بالحق ومؤيدا به فيما

779 المستدرک علی الصحیحین للحاکم، 2، 470.

780 صحیح البخاری، 2، 50.

781 الکوکب الوهاج شرح صحیح مسلم، 10، 123.

782 سنن ابن ماجه، 1، 425.

يقول ويفعل ويعمل ويسلك، قال تعالى: {وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ} 783.

داوود نبيا من أنبياء الله تعالى عليهم الصلوة والسلام يُصلح في الأرض ولا يُفسد فيها آتاه الله زورا كتابا منه ليهدي به قومه للتي هي أحسن، ولكن قومه أضلوا السبيل ولم يؤمنوا بما آتاه الله من زبور وحكمة وعلم فكفروا فلعنهم اشد لعنة بقيت دينا عليهم إلى يوم يبعثون، قال تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ} 784.

داوود يؤل إلى إبراهيم عليهما الصلوة والسلام الذي جعل الله في ذريته وذرية نوح من قبله النبوة، لذا كان داوود نبيا من سلالة الأنبياء الكرام من إبراهيم مصداقا لقوله تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ} 785.

تميز داوود بصفات وخصائص كثيرة حميدة ومتعددة حتى أنه وصف بها، لذا كان محسنا في تعاملاته ودعوته وقيادته ومملكه وحكمته فنعم النبي

---

783 . البقرة . 51.

784 . المائة . 78 . 80.

785 . الأنعام . 83 ، 84 .

الكريم ونعم العبد الصالح الذي أحسن كل شيء عمله، فجازاه الله خير جزاء مصداقا لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُجْزِي الْمُحْسِنِينَ} 786.

داوود من الأنبياء المفضلين عليهم الصلاة والسلام، فقد فضّله الله تعالى بالملك والحكمة والعلم والكتاب (الزُّبُور) وغيرها كثير مما فضله به على غيره من الأنبياء، وفي هذا التفضيل الإلهي تميُّز بما وهبه الله من آيات ومعجزات وحرف من صناعة وغيرها وكما ميّز نوح بصناعة الفُلك كذلك ميز داوود بصفات كثيرة سيتم ذكرها تفصيلا لاحقًا، قال تعالى: {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَأَتَيْنَا دَاوُودَ زُبُورًا} 787، وقال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} 788.

ولأنّ داوود متوليه الله بالإنباء والرّسالة والرّحمة والرعاية والعناية التي خصه بها تعالى كان على الحقّ وللحقّ كان مناصرا ومقاتلا في سبيل إحقاقه وقهر كيد الطاغوت ومكره ومن تولاهم مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهَ كَمِ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} 789، كان داوود من الذين قالوا (قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهَ كَمِ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ).

وقد يتساءل البعض:

---

786 . الأنعام .84.

787 . الإسراء .55.

788 . النمل .15.

789 . البقرة .249 .251.

متى قالت القلة المؤمنة ذلك القول الكريم؟

قالته في نفس الوقت الذي قالت فيه الفئة الكثيرة لطالوت الذي اصطفاه الله لهم ملكا {لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ} 790، القائلون هم أولئك الكفرة والمشركون وضعاف النفوس والمنافقون من قوم داوود.

ولأنّ القتال في سبيل الله حقّ كان محمدا من بعد داوود عليهما الصلّاة والسّلام خير مقاتل في سبيل الله عزّ وجلّ مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} 791.

ولأنّ القتال حقّ بقي على المؤمنين كتابا حتى يُحقّق الحقّ ويُبطل الباطل مصداقا لقوله تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} 792.

وعليه: أقول أنّ القتال على احتمالين:

أ. القتال في سبيل الحقّ وإحقاقه حقّ يُتبع.

ب. القتال في سبيل الطاغوت ظلم يُجتنب.

والقتال غير الاقتتال، فالقتال على الوجهين السابقين، والاقتتال داخلي بين الأخوة والأقارب حتى ولو كان الدين واحدا، ولهذا الاقتتال بين الأخوة في غير مناصرة حقّ لله تعالى ومناصرة للمستضعفين من الرجال والنساء والولدان المسلمين وجوههم لله ربّ العالمين فهو مُحَرَّمٌ وقتل

---

790 . البقرة 249.

791 . التوبة 123.

792 . التوبة 29.



النفس فيه كمن يقتل الناس جميعا، مصداقا لقوله تعالى: مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ {793}.

وبناء على قاعدة الملك يؤتى إيتاء أتي داوود مُلكا من مالك الملك مصداقا لقوله تعالى: {وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ} {794}، ما أعظم المالك وما أجمل المملك آتاه مُلكا من مُلكه المطلق وآتاه الحكمة وعلمه مما يشاء سبحانه ما أعظم شأنه به آمنت وعليه توكلت وأوليت أمري وما نأمل وأضمر في نفسي إليه إنه السمع العليم المحيب باسمه الباقي أسأله.

الملك في الحكم البشري نسبي، فمن يقول الحقّ: ويعدل يكون ملكا، ومن يقول زورا ويهتانا فلن يكون ملكا، فعلى سبيل المثال: إذا شهدوا شهودا أمام قاضٍ بمحكمة عدل، فمن يكتّم الشهادة لن يكون ملكا ومن يقول شهادة زور لن يكون ملكا، فالمملك في ذلك الموقف هو الشاهد الحقّ. ولذا فالمملك لا يقتصر فقط على من يمتلك من الثروات، بل من يريد أن يتصف بصفة الملك الحقّ، فعليه أن يقول الحقّ، ولا يقدم إلا على فعل الحقّ، أمّا من يمتلك ثروات كثيرة، ويمتلك أمر السياسة في

793. المائة 32. 33.

794. البقرة 251.

البلاد ولا يقول الحقّ فلن ينال من الصفة إلا المسمى، أمّا من حيث الدلالة والمعنى سيظلّ فاقدًا له.

المملك في الأرض هو المواطن الحقّ، الذي لا يُسهم في تزوير الانتخابات، ولا يأكل أموال النَّاس بالباطل، ولا يشهد شهادة زور، ولا يقتل النفس التي حرّم الله، ولا يعمل الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا يزني ولا يكذب ولا يغش ولا يُفسد في الأرض ولا يحاجج بباطل، وهو الذي لا ينسى نصيبه من الدنيا، ويؤمن بأنّه المخلوق الذي من ورائه خالق يملك الخلق والأمر {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} 795.

وعليه: لا يمكن أن يكون في الأرض من يملك المطلق، فالأرض ومن عليها وما فيها والسموات وكل ما خلق مُلكا لله تعالى، ولأنّ الأمر كذلك فإن قانون النسبية كفيلا بإثبات القصور فينا، مما يجعلنا نؤمن من غير شك بأن الكمال للملك الحقّ وحده، وعندما نصل إلى هذه النتيجة الموضوعية، نعرف الحقّ ولا نقول غيره ولا نفعل غيره ما حيننا، وهذا الأمر هو الذي يُمكننا من أن نكون مُلوكا.

ولقد سخرت الجبال مع داوود وكذلك الطير، والتسخير من الله عزّ وجلّ كان إعانة ومناصرة لداوود على إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل، ولهذا سخرّ معه الجبال والطير يسبحن أي يعملن تحت أمره طاعة لأمر الله ولذا فكل عمل خير في مرضاة الله هو فعل تسبيح له عزّ وجلّ، {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ} 796، ولأنّ

795 . البقرة 258.

796 . الأنبياء 79.

أفعال هذه الآية كانت متحققة على الأرض على يدي داوود قال تعالى: (وَكُنَّا فَاعِلِينَ)، ولذلك فأمر الله متى ما شاءه أن يكون كان مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} 797.

ولأنّ التسبيح عبادة والعبادة عمل صالح كان داوود مع الجبال والطير في حالة عبادة متصلة صباحا ومساء مصداقا لقوله تعالى: {وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ} 798، أي كل الطير تتزاحم طاعة لأمره الذي ارتضاه الله وبرجوعها إليه في حركتها وتنقلها ولذا فهي لا تبح إلا بأمره وبعلمه وهي مسخرة للعمل تحت أمره وهي تسبح كما الجبال تسبح حمدا لله تعالى التي سخرها لأن تعمل مع داوود كل ما من شأنه أن يسهم في إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وقوله تعالى: (كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ) الكل طائعا لأمر داوود وذلك لعلم الأوابين من الطير بأن طاعة داوود هي طاعة لله وأمره الذي ألزمهم التأويب لداوود.

إذا التسخير لأجل العون، أي معونة الآخرين غير القادرين على إنجاز ما يجب إنجازه لأسباب الحاجة ومشبعاتها، أمّا التسخير من عند الله كما هو حال الجبال والطير المسخرات لداوود فإن أمر التسخير جاء لتذليل الصعاب التي تواجه داوود في أداء رسالته التي اصطفاه الله إليها، ولذلك كان اختيار الجبال والطير ليلتفت داوود إليها ويعرف أهميتها ويعرف كيف ومتى يسخرها وفقا للمشيئة الإلهية التي خصه الله بها لأن يعمل ما لم يعمله غيره من قبله، ولذلك فالجبال والطير بالنسبة لداوود وسائل مسخرة له وهي القوة التي تسهم في إنجاز أعماله التي تُرضي الله.

---

<sup>797</sup>. البقرة .117.

<sup>798</sup>. ص .17 .19.

وعليه: فالتسخير لأجل تذليل الصعاب المعلومة بالنسبة لله تعالى والمجهولة لداوود، وكذلك الجبال والطير مع أنّها لا تعلم الصعاب التي سُخِّرَتْ لتذليلها إلا أنّها خُلِقَتْ مهياً لتذليلها بما يحقّق النّجاح لأعمال داوود المسخّرة له من الله، لذا كانت الجبال والطير خير طاعة لتنفيذ الأمر وإنجاز العمل المهية له.

داوود عليه السّلام عبدا شكورا؛ والشكر في مفهومه اقتراب في المعنى مع (الحمد) ونحن نقول: الشكر من حيث المفهوم، هو اعتراف بالعطاء أو الإجابة أو الاستجابة أو الهبة مع فائق التقدير للمُعطي وهو الشكور المطلق، أمّا الحمد فمرتبا على بلوغ غاية أو انتهاء من عمل كانت نتائجه مُرضية مع تحقّق السلامة المطمئنة للنفس والقلب مما يجعله متجها إلى ربّه تعالى بالحمد والثناء.

الشاعر المعترف بالفضل كما اعترف داوود بحمد الله وتفضيله له وفضله عليه بالعلم الذي خصّه به والحكمة، ولذا فالشاعر هو الراجع لله في كل أمر.

ويندرج تحت الاسم الشكور الاسم الشاكر ويعني في ذات الوقت: الخالق والمخلوق؛ فالله له الشكر على وجه الكمال والعبد له الشكر على وجه المثال، فيحاول العبد بكل جوارحه أن يشكر فيكون شاكرا ثم يجتهد في الشكر فيكون شكورا، ويتجلى الله على العبد بالتوفيق فيعمل شاكرا وشكورا وينال بذلك الرضا من الله الشكور.

وأما الشُّكُورُ من عباد الله؛ فهو الذي يجتهد في شكر ربّه طاعة قال الله تعالى {اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشُّكُورُ} 799. العمل الصالح هو خير دليل على تقديم الشكر للشكور المطلق، وخير الأعمال الطاعة والهداية والعبادة لله وحده لا شريك له، ويقصد من الآية

الكريمة السابقة بقوله تعالى: (آل داود) هم الذين يعودون إلى صُلب داوود، أي أنهم الذين ينتسبون إليه دماً، ولأنهم من سلالة نبي كريم يُراد لهم أن يكونوا مسلمين وجوههم لله رب العالمين كما أسلم أبوهم داوود، ولأن في ذلك الزمن كان أكثر النَّاس على ضلال وشرك بالله تعالى جاء قوله عزّ وجلّ (وقليلٌ من عبَادِي الشَّاكِرِينَ) التي من احتمالات تحليل معانيها وما تدل عليه من عبر هو مع أن الآية نزلت في آل داوود لتحرضهم على الطاعة والهداية شكراً لله تعالى إلا أنّ القليل منهم سيكونون من الشاكرين.

فالشكور اسم وصفة لله متأصلة، وفي عباده متحصلة، بمعنى أنّ التجلي الأعلى للشكورية لله، والاعتباس والالتماس والتقيد بالاستغراق في التعبد قولاً وعملاً يورث هذه الرتبة في العبادة، وقليل من يتحصل عليها لقوله تعالى: (وقليل من عبادي الشكور). وأولئك الذين اختصهم الله بالخلافة ومن أراد أن يصل إلى منزلتهم من المؤمنين فعليه بالسير على نهجهم وطريقتهم في القول والفعل والنية الصادقة.

الشكر قيمة وفضيلة مترتبة على فعل محبب في مرضاة الله تعالى، وهو مجازاة مقابل اعتراف بأفعال التطابق مع الحقّ، ولأن الله عزّ وجلّ يريد للحقّ أن يُحقّق، ويُريد للباطل أن يُرهبق، ويُريد للكافر أن يؤمن بإرادة، فهو بطبيعة الحال شكور لمن أزهد الباطل ولمن آمن وأسلم وجهه إليه واحداً واحداً لا شريك له سبحانه.

والله هو: (الشاكر، الشكور) "الذي يشكر القليل من العمل، ويغفر الكثير من الزلل ويعفو عن كثير. ويضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب، ويشكر الشاكرين، ويذكر من ذكره" 800.

---

800. تفسير السعدي، ج 1، ص 948.

وهنا، يتضح أن الاسم الشكور يشمل الاسم الشاكر وكلاهما من نبع الشكر الإلهي الذي يفيض مغفرة وعطاء وثوابا وسترا على من يتصف بهذه الرتبة الإيمانية من العباد، ولا تتأتى هذه الرتبة إلا بالصبر المطلق والصبر المطلق كما ورد في القرآن الكريم بصيغة (صَبَّار) والشكر المطلق الذي ورد في القرآن الكريم بصيغة (شَكُور) ولم يصل إلى الدرجة العلية في هذه المنزلة إلا القليل من عباد الله الذين وصفهم بقوله تعالى: (وقليل من عبادي الشكور) وهؤلاء يتمم الله عملهم بالقبول ويزيدهم من فضله بالمغفرة والستر والشكر.

قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} 801، جاء الحمد والثناء شكرا لله تعالى على ما فضلهما به من نعم وعلم أي بما خصَّهما به من آيات ومعجزات كريمة حقًا بما نصرنا عزيزا في وقت كانت القلة القليلة هي التي آمنت بما جاء به داوود وسليمان عليهما الصلاة والسلام.

لقد تناولنا في بحثنا هذا موضوعات كثيرة غير التي قدمناها على سبيل المثال، وقد انصبَّ اهتمام كبير من الجهد على دحض الافتراءات والادعاءات على سليمان وداوود عليهما الصلاة والسلام ممَّا ابتليا به.

وقد كان القرآن الكريم المصدر الرئيس ثم السنة الكريمة التي ساهمت في إغناء البحث بالمعلومة من بعض كتب الحديث التي تعزز النتائج.

ونحن نأمل ممَّن يرى اختلافا معنا وله رأي مغاير فيما توصلنا إليه من نتائج وله حجة علينا في ذلك، فليتقدّم بالحجة المقنعة التي هي الحجّة المطلقة، حيث لا حجة مطلقة إلا ما جاء من عند الله تعالى أو رسوله.

لقد اجتهدنا في أن يخرج البحث على هذه الصورة بهذه النتائج التي توصلنا إليها، ولكل مجتهد نصيب، فمن اجتهد وأخطأ فله أجر ومن أصاب فله أجران، والله نسأل أن نكون من أصحاب الإصابة والله وليّ التوفيق وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

### النبي سليمان:

النبي سليمان عليه الصّلاة والسّلام هو بن داود بن إيشا بن عويد بن عابر حتى ينتهي نسبه إلى يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم وهو أحد أنبياء بني إسرائيل عليهم السّلام، وقد رزقه الله النبوّة والملك، وقد سأل ربّه حكما لم يكن من قبل ولا من بعد فكان له، وهو عند أهل الكتاب مجرّد ملك من ملوك بني إسرائيل وليسا نبيا من أنبيائهم الكرام، وينسب إليه الهيكل المسمّى باسمه (هيكل سليمان). وقد آتاه الله ملكا متفردا حيث سخر الله له الجن والطير والإنس والريح والاني له عين القطر ليحكم ويتحكم ويسيطر بقوة الله وعزّته عدلا بلا مظالم؛ فكان كما شاءه الله نبيا وملكاً قد ورث ملك أبيه داوود عليهما الصّلاة والسّلام؛ فسليمان كانت له النبوّة والملك إضافة إلى ما ورثه من ملك أبيه عليهما السّلام.

وقد قيل فيه ما قيل، وهذه من سنن الحياة؛ فالمخالفون والكفرة دائما يصفون الأنبياء الكرام بما لم يكن فيهم، فسليمان مع أنّه يمتلك من القوّة المسخرة له ما يمتلكه، لكنّه كان نبيا لئّن الجانب، وملكاً عادلا لا يحكم إلّا في مشيئة الله ورضوانه ولا شيء غير ذلك.

ومع أنّه نبيا لكنّه بشر يسري عليه ما يسري على بني آدم الكرام من حياة وابتلاء وموت وبعث؛ فهو ابن الملك النبي الذي ورث ملك أبيه، إنّّه من سلالة الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام؛ وهو من أطاعه الجن والطير كما سخر الله له الريح آية.

وهب الله تعالى لسليمان ملكا بعد طلب منه وهو ملك لم يكن لأحد من بعده، وقد بدأ سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل طلب الملك بطلب المغفرة، وهذا لا يعني أنه ارتكب ذنبا أو إثما وجب أن يستغفر لما بدر منه كما نقف على ذلك في الإسرائيليات ومن أخذ عنها في تفسير بعض الآيات معتمدا على نصوص توراتية يعلم أنها محرفة وأقل ما فيها الطعن على الأنبياء عليهم الصلّاة والسّلام، لذلك حملوا الاستغفار المتقدم على طلب الملك بسبب صدور الزلّة من سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحكموا بأنه لولا تقدم الذنب لما طلب المغفرة، ونحن إن شاء الله في صدد هذه الآية قبل أن نتكلّم عن الملك لن نترك شاردة ولا واردة في قوله: (اغفر لي) ممّا افتري عليه بها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا ولنحرقنّها ثم لنسفنّها في اليمّ نسفا بالدليل الواضح والحجّة المقنعة ونأتي بالبرهان الساطع والجواب القاطع بحول الله وقوته ابتغاء وجه الله ودفاعا عن نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إنّ مسألة الاستغفار أو طلب المغفرة لا يقتضي بالضرورة أن يكون استغفارا بسبب ذنب صدر من المستغفر، وإن كان هذا المعهود لدى كثير من الناس.

فالاستغفار ليس بالضرورة أن يكون تكفيرا عن ذنب، وربّما يكون كذلك، ولكن عندما تتعلّق القضية بنبي من أنبياء الله فالمسألة تستوجب التوقّف وتأمّل الأمر من جميع وجوهه، واستنباط الحكمة للوقوف على الحكم من الغاية التي جاء لأجلها الطلب.

إنّ الله سبحانه وتعالى لما اصطفى أنبياءه جعلهم على هدى وعصمهم من الزلّة والذنب والإثم والخطيئة ولكن إضافة إلى ذلك فقد أمرهم بالاستغفار والتوبة والرجوع والإنابة مع درجة الهداية التي خصهم بها، وذلك لأنهم خلفاء الله في أرضه وتتمثل فيهم القدوة والأسوة الحسنة



فهم يأمرهم بما يفعلون، لذلك قال صلى الله عليه وسلم: "إِنِّي لِأَسْتَغْفِرَ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً وَأَتُوبُ إِلَيْهِ"802، وهذه بداية الإجابة على ما يقولون، غير أنّ هناك أنواع من الاستغفار لها أسبابها تخرج عن الذنب والإثم والمعصية سنتناول منها ما استطعنا للردّ على تلك الافتراءات

سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَنَى عَلَى رَبِّهِ، فَقَالَ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَخَّرَ لِي الرِّيحَ وَسَخَّرَ لِي الشَّيَاطِينَ يَعْمَلُونَ لِي مَا شِئْتُ مِنْ مَحَارِبٍ وَمَثَائِلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ، وَعَلَّمَنِي مَنَاطِقَ الطَّيْرِ، وَأَتَانِي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَضْلًا، وَسَخَّرَ لِي جُنُودَ الشَّيَاطِينِ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ، وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَتَانِي مُلْكًا عَظِيمًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي، وَجَعَلَ لِي مَلَكًا طَيِّبًا لَيْسَ فِيهِ حِسَابٌ"803.

فمُلك سليمان لا مثيل له، ولن يكون لأحد من بعده؛ فقد خدمته الطير وسخّرت الريح له، ودانت له ملوك الإنس، وخضعت له عفاريت الجن، وورث ملك أبيه إلى جانب ما آتاه الله من ملك، {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ}804.

ومن هنا؛ فقد ورث سليمان الملك والنبوة معا، ووراثة النبوة تعبير مجازي؛ لأنّ النبوة اختيار إلهي محض، والمراد منها أنّ الله جعل النبوة له بعد أبيه؛ فكان عهده وأبيه أزهى العهود التي مرّت على بني إسرائيل على الإطلاق، وذلك لما أوتيته هذان النبيان الكريمان من العدل والحكمة مع الطاعة والعبادة لله عزّ وجلّ"805. قال تعالى: {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ

802 - مسند أحمد، ج 17، ص 42.

803 تفسير ابن كثير ط العلمية، 5، ص 32.

804 النمل 16.

805 دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، ص 53.

مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ {806، كان يستعرض جنوده من الجن والإنس، والطير من فوقهم تظلمهم 807.

وكانت الدولة في عهد سليمان تدار بأسلوب النبوة والملك الذي يستوجب تفقد أحوال الرعية مباشرة، { وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ {808، وما يترتب على التفقد يجوز أن يكون توابا أو عقابا، فالهدهد إن لم يأتي بعدر بين سيعرض نفسه للمعاقبة الشديد، وإن كان له عذرا فليبينه بلا تأخير؛ وهكذا تضبط الدولة وهكذا تحمل المسؤولية.

ومالك الملك، هو الذي تنفذ مشيئته في ملكه كيف يشاء، ومتى ما شاء فلا مرد لقضائه، ولا يكون ذلك إلا من كمال القوة والمتانة والقدرة والعزة والغنى. وقد تجلى ذلك في عقاب الأمم السابقة، إذ يقول تعالى: { فَلَمَّا ذَهَبَ عَن إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَن هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعِ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ

806 النمل 17.

807 دروس الشيخ أحمد فريد، 50، ص 4، بتقييم الشاملة آليا.

808 النمل 20، 21.

مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ {809}. هذه الآيات تعرض أمر الله تعالى النافذ في قوم لوط، فقد كانت البداية بالمرور بإبراهيم الحليم عليه الصلّاة والسّلام، فكان محاورا للملائكة من أجل تأخير أو إسقاط العقوبة عن قوم لوط لأن فيها بعض المؤمنين، فضلا عن ذلك صفة الحلم التي يتمتع بها النبي إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام، فالأمر أصبح واجب التنفيذ، لان أمره تعالى لا يرده أحد، يقول تعالى: { يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ } {810} هذا العذاب الذي صرح به هنا بأنه آت قوم لوط، لا محالة وأنه لا مرد له، إذ بينه تعالى في مواضع عديدة رسم فيها صورة العذاب المتحقّق عليهم بطريق تتلاءم مع ذنوبهم الفاحشة، يقول تعالى: { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ } {811}، وقوله تعالى: { فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ } {812}. أما قوم يونس عليه الصلّاة والسّلام فقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم لكن بصورة مغايرة عن قوم لوط، إذ يقول تعالى: { فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمْنَتْ فَفَنَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُؤْتَسَّرَ لِمَا أَمُنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ } {813} إن قوم يونس كانوا בניنوى من أرض الموصل، فلما فقدوا نبيهم عليه الصلّاة والسّلام قذف الله تعالى في قلوبهم التوبة فلبسوا المسوح، وأخرجوا المواشي، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، فعجوا إلى الله أربعين صباحا، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم، كشف عنهم

---

809 - هود 74 - 81

810 - هود 76

811 - هود 82 - 83

812 - الحجر 74 - 75

813 - يونس 98

العذاب بعد ما تدلى عليهم لم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل. 814  
فصورة العذاب المتحققة في قوم لوط تقابلها صورة العذاب غير المتحققة  
عند قوم يونس، مما يدل في كلا الأمرين أن أمر الله تعالى نافذ كما يشاء  
في تحقيق العذاب وعدمه، ولا يكون ذلك إلا له.

تستعمل لفظة (الملك) بين المستخلفين ضمن إطار حفظ الحقوق،  
ولهذا أن توزيع الميراث الذي ورد في القرآن الكريم استند إلى ما يملكه  
الميت، قال تعالى: {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ  
فَارزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا وَيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ  
ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا إِنَّ الَّذِينَ  
يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا  
يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ  
اِثْنَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ  
وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ  
أَبَوَاهُ فَلِلْأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي  
بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ  
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} 815 وقوله تعالى: {وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا  
لَمًّا} 816 إلا أن ما يملكه الميت هو من باب ما شرعه الله تعالى لكل،  
بان لهم الحق في الأملاك، إلا أن كل ما يملكونه هو ملك وقتي ولا بد له  
من زوال، إما ملك الله تعالى فهو دائم لا يزول، إذ تتضح الصورة  
العظيمة التي يرتسم فيها ملكه الدائم بعد زوال الدنيا وما فيها ولا يبقى

814 - الدر المنثور ج 5 ص 269

815 - النساء 8 - 11

816 - الفجر 19

إلا هو (مالك الملك) جل جلاله، يقول تعالى: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى  
عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} 817.

أما الحديث عن الوراثة من باب أن الله تعالى جعل الخليفة يرثه في  
الأرض، فهذا يدخل من باب الاستخلاف الذي أراده الله تعالى  
للخليفة، إذ يقول تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ  
دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا  
يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} 818. هذه  
من وعود الله تعالى لعباده الصادقين المخلصين بأن يستخلفهم في  
الأرض، فيكونون هم الخلفاء فيها ومن المتصرفين في تدبيرها، والتصرف  
يكون بإقامة شرع الله تعالى في أنفسهم وفي غيرهم، وهذا يدخل ضمن  
نطاق الأمانة التي قال عنها تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ  
ظَلُومًا جَهُولًا} 819.

أما من ناحية الحاجة فإن كل المخلوقات بحاجة إلى ملك الله تعالى،  
وهذا الملك يتمثل في كل شيء يكون السبب في دوام الحياة، من ذلك  
الهواء فهو سر من أسرار استمرار الحياة وبدونه لا يمكن للكائنات أن  
تعيش، فضلا عن ذلك فهو يعد سببا رئيسيا للحركة والتنقل، فالطائرات  
لا يمكنها الطيران بدون الهواء وكذلك الطيور بكل أنواعها لا يمكن لها  
التحليق دون وجود الهواء، أما الماء فهذا سر عجيب، فهو أصل الحياة،  
إذ يقول تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا  
فَفَقَطْنَا هُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ

---

817 - غافر 16

818 - النور 55

819 - الأحزاب 72

رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ {820} وبالماء يحيي الله تعالى الأرض، فيسوق إليها المطر، يقول تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ نَسُوقَ الْمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ} {821}. فضلا عن ذلك أن كثير من الحيوانات لا تستطيع أن تعيش خارج الماء، فهو المكان الوحيد الذي تعيش فيه، فهي بحاجة له من اجل الاستمرار في الحياة.

مالك الملك، يملك مالكي الملك والمملك، ويتضح الأمر هذا من خلال عملية الخلق، إذ يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسِ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} {822}، وقوله: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَرْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} {823} والخلق يستدل به على المالك، فالله تعالى هو الخالق ومن يكن الخالق يكن المالك، فالأنفس كلها هي ملك لله تعالى، فضلا عن ذلك أن الله تعالى يملك ما تملكه هذه الأنفس سواء أكان الملك ماديا أم معنويا، لان أصل ما يملكونه هو من عند الله تعالى (مالك الملك)، وبذلك يتأطر هذا الأمر وفق صورة الجلال والعظمة التي رسمتها صفة (مالك الملك) بكل أبعادها وحيثياتها. إذ يتمثل ذلك بالفرضية التي وردت في قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} {824} هنا الحديث للكافرين في بيان العذاب الذي ينتظرهم

820 - الأنبياء 30 - 31

821 - السجدة 27

822 - البقرة 21

823 - فطر 11

824 - الزمر 47 - 48

بما فيه من شدة وهول، فالخطاب هنا على سبيل الفرض والتقدير، لو كان لهم ما في الأرض جميعاً، أي لو تحققت الملكية الحقيقية الكاملة لهم في الدنيا بما في الأرض من ذهب وفضة ولؤلؤ وحيوانات وأشجار وقصور وغير ذلك من أملاك الأرض، ثم بذلوه يوم القيامة ليفتدوا به من العذاب، ما قبل منهم، يقول تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} 825 فهذا المعادلة المفترضة لم تتحقق، يملك في الدنيا ولا يملك في الآخرة، والله تعالى يملكهم ويملك ما يملكونه ويملك مالا يملكون، وهنا نرجع إلى قوله تعالى: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} 826 الذي يرسم صورة واضحة المعالم لا تحيل إلى أي مرجعيات، إلا إلى مرجعية واحدة هي أن ملك الله تعالى ليس له حدود وليس له إطار إنما هو مطلق يشمل الدنيا والآخرة.

إن لفظة (المملك) التي بينى عليها اسم (مالك المملك) تتسم بالإطلاق غير المقيد، فهي تحيل إلى رسم صورة عظيمة، يجمع ما يدور فيها من ملك الله تعالى بحسب ما يمليه التفكير البشري القاصر عن إدراك حجم وعظمة ملك الله تعالى، فهي لم تقتصر على الجانب المادي بل كان للجانب المعنوي المكانة الواضحة في هذا المملك.

ارسل سليمان رسالة إلى ملكة سبأ يدعوها وقومها إلى التخلي عن عبادة الشمس من دون الله وأن يعبدوا الله واحد أحد ولا شريك له، فقال: {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} 827، وحمل الهدهد بهذه المهمة؛ فطار بها إلى ملكة سبأ، قال مقاتل: "حمل الهدهد الكتاب بمنقاره فطار حتى وقف على رأس المرأة، وحوها القادة والجنود، فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت المرأة

825 - الشعراء 88 - 89

826 - الفاتحة 4

827 النمل 30، 31.

رأسها فألقى الكتاب في حجرها. وقال ابن منبّه وابن زيد: كانت لها كوة مستقبلة الشمس، تقع الشمس فيها حين تطلع، فإذا نظرت إليها سجدت لها، فجاء الهدهد تلك الكوة فسدها بجناحه فارتفعت الشمس ولم تعلم، فلما استبطأت الشمس قامت تنظر فرمى بالصحيفة إليها؛ فأخذت بلقيس الكتاب وكانت كاتبة قارئة عربيّة من قوم تبع بن شراحيل الحميري، فلما رأت الخاتم على الرسالة ارتعدت وخضعت لأنّ ملك سليمان (عليه السلام) كان في خاتمه، وعرفت أنّ الذي أرسل هذا الكتاب هو أعظم ملكا منها، ذلك لأنّ ملكا ورسوله الطير لا شكّ إنّه عظيم، فقرأت الكتاب وتأخّر الهدهد غير بعيد فجاءت حتى قعدت على سرير ملكها وجمعت الملاء من قومها؛ فجاءوا وأخذوا مجالسهم؛ فقالت لهم بلقيس: يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُنُوبِي مُسْلِمِينَ)"<sup>828</sup>. فاستجابت بلقيس مع قومها لطلب سليمان بعد أن أفنعتهم بألا طاقة لهم بمواجهة جنود سليمان، وآثرت بكمال عقلها وفطنتها السلم والمصالحة والمسالمة والمودعة على الحرب والقتال، بالرغم من توافر قوّة عسكرية كبيرة عندها (نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْسِ شَدِيدٍ)؛ فشيّد لها سليمان صرحا عظيما ومرد أرضه بالزجاج، وهذا فنّ مستحدث لا عهد لأهل اليمن به، ثم لما دخلته حسبته ماء، فكشفت عن ساقها لخوض الماء لئلا تبتل ثيابها بالماء، ثم أحضر لها عرشها من بلاد اليمن إلى بلاد الشام، ليكون دليلا على صدق نبوته، ومعجزة على صحة رسالته، وآية على قدرة الله العجيبة في خرق العادات وتجاوز المحسوسات، ممّا لم يكتشف العلم سره ونواميسه إلى الآن، فما كان من

<sup>828</sup> تفسير الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 7، ص 205.



بلقىس إلا أن أسلمت وأمنت برسالة سليمان، {قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ  
نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} 829.

عُلم سليمان منطوق الطير، وهذا الأمر ليس هينا، أي أن يتعلم المرء  
لغة من اللغات فهذا الأمر ميسرا، ولكن أن يتعلم الإنسان منطوق الطير؛  
فالأمر هنا معجز، أي أن سليمان عليه الصلاة والسلام لم يتعلم لغة  
الطير فقط، بل تعداها إلى معرفة منطوق الطير، وهنا تكمن المعجزة التي  
خص الله بها سليمان عليه السلام.

وعليه فالمنطق لغة يعني: مستويات التفكير، ومن هنا يتضح الفرق  
بينه وبين اللغة ككلام ونطق وحركة، فالمنطق محاجة موضوعية بين  
المتحاورين يعتمد على مبررات وحقائق وليس على جملة من التعبير  
والخطابات البلاغية والبيانية والكلمات المأخوذة من القواميس، وفي  
المفهوم العربي المنطق حجة مقنعة لاعتماده على إظهار الحقائق، والحوار  
المنطقي هو المعتمد على الموضوعية المستندة على مبررات ومعطيات  
ومقدمات تحمل في أحشائها النتيجة المتوصل إليها.

قد عرّف عبد الرحمن بدوي المنطق في الموسوعة الفلسفية بأنه "العلم  
الباحث في المبادئ العامة للتفكير الصحيح. وموضوعه البحث في  
خواص الأحكام، لا بوصفها ظواهر نفسية، بل من حيث دلالتها على  
معارفنا ومعتقداتنا" 830. وقد عرّفه أما نويل كنت بأنه "علم القوانين  
الضرورية للدّهن والعقل" 831. لقد أرتبط المنطق بالتفكير وملكات  
العقل ومستوياته، وقد تميّز عن اللغة الناقلة له، ومع ذلك كاد البعض لا

---

829 النمل 44.

830 عبد الرحمن بدوي، الموسوعة الفلسفية الجزء الثاني. بيروت: المؤسسة العربيّة للنشر والتوزيع،

الطبعة الأولى، 1984، ص 474

831 المصدر السابق، ص 474.

يفصل بين المنطق واللغة، وهنا يكمن المشكل الذي يواجه المتحاورين، والذي نسعى لكشفه في هذا المؤلف.

منطق الحوار أسلوب عقلي ومعرفي يدرك الحقيقة ويعمل بها، ولأنه عقلي؛ فهو يرتبط بمستويات التفكير الإنساني، حيث يتميز تفكير الصبي والطفل عن تفكير الرجل والشيخ، ويتميز تفكير المتعلم عن تفكير الجاهل، وتفكير السياسي والاقتصادي عن غيرهما ممن لا يعرفون شيء عن السياسة والاقتصاد؛ فمنطق الحوار ليس لغة كما يعتقد البعض، بل هو الحجّة التي يستند عليها المتحاورون أو البرهان الذي له الإثبات على أرض الواقع، وما اللغة إلا وسيلة لنقل المنطق وليس مصدرا لتوليدته، وفي هذا اللبس وقع الكثيرون من الساسة والمفكرين ورواد الفكر الإنساني حيث أتهم حلّوا اللغة محل المنطق في حواراتهم السياسية والدينية والحضارية والاقتصادية والاجتماعية، ممّا جعل استمرار اختلافهم وكأنّه الحلّ الذي تنتظره أطراف الحوار.

الحوار المنطقي يُمكن عقل الإنسان وتفكيره من التنقل من المعلوم إلى المجهول، ومن المتوقّع إلى غير المتوقّع، فتزداد المعارف وتتسع دائرتها بما يمكن استيعاب البعض للبعض الذي تعجز عن تحقيقه اللغة الخالية من المنطق. فالمتوقّع كلّ الناس تدركه، وتسعى إلى الوصول إليه أو تفاديه حسب كلّ حالة وظرف، أمّا غير المتوقّع؛ فهو الذي لا يدرك مباشرة ولكنّه يدرك بالاستنباط والاستدلال بما هو مدرك في ذاته، فالجهاد على سبيل المثال: لا يدركه إلا المؤمن، أمّا سواه فلا يدركه إلا قتالا، والمؤمن يعرف أنّ لكلّ شيء تمن معلوم، ويعرف أنّ في الحياة الدنيا لا ثمن للروح التي علمها عند ربّي، ويعرف أنّ قيمة الأشياء ليس دائما في ذاتها، بل بما يعود منها من خير؛ فالموت كلّ الناس سيموتون دون أن يدفع الناس ثمنا مقابل موتهم، ولكن المؤمن يعرف أنّ ما يقوم به من خير سيجاز عليه في الحياة الآخرة، أمّا غير المؤمن فقد لا يقع في حسابات عقله ما يتوقّعه

المؤمن، ولذا ما هو متوقَّع عند المؤمن قد يكون في حيز غير المتوقَّع بالنسبة لغيره.

وعليه؛ فالمنطق لا يُسلِّم بأنَّ حدوده تنتهي عند حدود المتوقَّع فقط، بل يدرك أنَّ في مستويات التفكير الإنساني مسافات لاستيعاب المتوقَّع وغير المتوقَّع، ومن يحاول أن يقصر تفكيره على المتوقَّع فقط فقد يفاجئه غير المتوقَّع بما لا يحمد عقباه. فالجَنَّة غير المتوقَّعة عند البعض هي في دائرة المتوقَّع بالنسبة للمؤمن، وبالتالي تُعدُّ في دائرة المدركات العقلية التي لا يشوبها الشكُّ، والسعي لأجل الوصول إليها هدف وضرورة رئيسة في الحياة الدُّنيا، ودخول اللجَّة لا يقتصر تحقُّقه بالجهاد والاستشهاد، بل بفعل الخير كلِّ الخير، من الكلمة الحسنة إلى الفعل الحسن.

ولذا فالجهاد ليس غاية في ذاته، بل الغاية من ورائه حجز بطاقة دخول الجَنَّة، والثمن الذي يدفع لأجل نيل شهادة الاستشهاد هو قبول الموت المباشر لكسر حاجز الخوف الذي يعيق البعض من دخول الجَنَّة، هذه السلسلة من التفكير المنطقي لا تقع في دائرة المتوقَّع بالنسبة لغير المؤمن بالله تعالى، وفي الوقت ذاته لا تخرج عن دائرة المتوقَّع بالنسبة للمؤمن، ولأجل التفاهم والتفهّم والوصول إلى الحلِّ المرضي لأطراف الحوار لا ينبغي قصور التفكير على المتوقَّع فقط.

ولأنَّ سليمان صلوات الله وسلامه عليه كان مُفهِمًا لما يجب في مرضاة الله فقد وهب الله عزَّ وجلَّ له حكما وملكا، وفهَّمه كيف يملك ويحكم مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخُكِّمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا أَتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ 832.

832. الأنبياء 78، 79.

التفهّم تقدير للظروف التي قد تؤثر على الملك والظروف التي قد تؤثر على سلوك الأفراد والجماعات، ولهذا التفهّم دراية بما ينبغي أن يتم حيال كلّ أمر من أمور الحكم وكيف ومتى وأين يتم؟

وعليه فسليمان مسخّر له، والتسخير إعطاء ما يجب لمن يستحقّ، ولذا فمن يُسخر له الأمر يتمكّن من توجيه المسخّر إلى ما سُخّر إليه. وعليه لقد سخّر الله تعالى إلى سليمان صلّى الله عليه وسلّم كلّ من التسخير المورث والتسخير الموهوب أو المؤتي وتوضيح ذلك وتبيانه أقول:

أ. التسخير المورث: هو الذي ورثه سليمان من أبيه داوود صلّى الله عليه وسلّم مصداقا لقوله تعالى: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ} 833. أي أنّ سليمان قد ورث أبيه في الآتي:

\* الملك، قال تعالى: {وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ} 834.

\* الحكم، قال تعالى: {فَفَقَّهُمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا} 835.

\* العلم، قال تعالى: {وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ} 836.

\* الحكمة، قال تعالى: {وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ} 837.

\* الزبور، قال تعالى: {وَأَتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} 838.

---

833 . النمل . 16 .

834 . البقرة . 251 .

835 . الأنبياء . 79 .

836 . البقرة . 251 .

837 . البقرة . 251 .

838 . النساء . 163 .

\* الجبال المسخرة، قال تعالى: {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ} 839، وقال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ} 840.

\* الطير، قال تعالى: {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ} 841.

\* صنعة لبوس، قال تعالى: {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ} 842.

\* فصل الخطاب، {وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَلَ الْخِطَابِ} 843.

\* أبواب، قال تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ} 844.

\* عمل السابغات، قال تعالى: {أَنْ اِعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ} 845.

\* التقدير في السرد، {وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ} 846.

\* إلانة الحديد، {وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ} 847.

---

839 . الأنبياء 79.

840 . سبأ 10.

841 . الأنبياء 79.

842 . الأنبياء 80.

843 . ص 20.

844 . ص 17.

845 . سبأ 11.

846 . سبأ 11.

847 . سبأ 10.

\* الاستخلاف في الأرض، { يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ } 848.

ب . التسخير الموهوب: وهو الذي أضيف للتسخير المورث، أي أنه التسخير الموهوب لسليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يكن موهوبا من قبل إلى أبيه، حتى وإن كان ذات النوع أو الصفة، أي لو كان الموهوب له الحكمة وأن الحكمة قد وُهِبَت من قبله لأبيه الذي ورث منه تلك الحكمة فإن الحكمة التي وُهِبَت له لا يمكن أن تكون هي الحكمة التي وُهِبَت من قبل لأبيه داوود صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال تعالى: { فَفَقَّهَمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا } 849.

أما قوله تعالى (لَأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا) دليل إثبات إمكانية استخدام القوّة في محلّها وهو بأسباب الغياب التي قد يكون من بينها عدم طاعة الهدهد من الطير المسخّر لسليمان ليتصرّف فيه وبه متى ما يشاء في مرضاة الله تعالى، أي بما أن أمر الحشر قد صدر من سليمان ليكون الحضور من الجميع دون استثناء فكيف لا يكون الهدهد من الحاضرين؟

هل هو عاصٍ؟

هل هو متمرّد؟

أم أنّه غير معترف بالأمر؟

أم أنّه غير مقدّر للقوّة والقدرة الموهوبة لسليمان من الله تعالى؟

---

848 . ص 26.

849 . الأنبياء، 79.

وتزداد الشدة وفقا للصلاحيات الممنوحة لسليمان حتى بلوغ تنفيذ أمر القتل في الهدهد إذا لم يكن له عذر في غيابه أو تأخره عن الحضور المحشور فيه من الإنس والجن والطير، مصداقا لقوله تعالى: (أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ).

وكذلك قوله تعالى: (أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) فيه شدة وتهديد باستخدام القوة والقدرة المتاحة من الله تعالى، أي إذا لم يكن هناك مبررات مقنعة من الهدهد تُرضي سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن القوة المستخدمة ستكون شديدة جدا من العذاب إلى الذبح أو البديل الثالث وهو المبرر المنطقي الذي به يُحقِّق الحقّ ويزهق الباطل.

وبما أنّ سليمان قد ورث داوود، وداوود صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعله الله خليفة في الأرض مصداقا لوله تعالى: { يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ } 850.

إذن ألا يكون سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خليفة وارث من الخليفة المورث؟ وكذلك كما سبق أن برهنا على أن جميع الصديقين والأنبياء والمرسلين والصالحين هم خلفاء الله في الأرض، إذا بما أنّ سليمان نبيا ورسولا فهو خليفة في الأرض.

إنّ الله تعالى اختار أنبياءه وهداهم وجعلهم ذرية بعضهم من بعض ليكونوا مبشرين ومنذرين وآتاهم الحجّة من أجل إلزام الناس بها وإرشادهم إلى الصراط المستقيم الذي يؤدّي إلى الاستدلال على وحدانية الله تعالى: { وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كَلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ

نَجْرِي الْمُحْسِنِينَ وَرَكَرِيًا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِيلَاسَ كُلِّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ  
وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ { 851.

وسليمان صَلَّى الله عليه وسلّم نبي من أعلام النبوة الذين اصطفاهم  
الله تعالى، وخصه بملك دون غيره من الأنبياء.

وعليه نتساءل؟! !

لماذا اختص الله تعالى سليمان صَلَّى الله عليه وسلّم بالملك؟

ما علاقة الملك بالنبوة؟

أليس هناك نبوة دون ملك؟

ألم يكن ممكنا تأدية رسالة سليمان كبقية الأنبياء دون هذا الملك؟

نحن سوف نحاول الوقوف على إجابات مقنعة لهذه التساؤلات  
ولابدّ أنها موجودة، إذ أن إجاباتها لو لم تكن موجودة لانتفى التساؤل  
أصلا.

ووجود التساؤل وضعها ضمن دائرة الممكن.

والممكن هو: تأدية رسالة النبوة بملك، أو تأديتها دون ملك.

وطالما الأمر كذلك فإن للملك خصوصية في نبوة سليمان.

فهذه الخصوصية استدعتها أسباب لا يمكن تأدية رسالته دون هذا  
الملك، لأن وجود أي شيء ناتج عن سبب استدعى وجوده، وخاصة أنّ  
النبوة قائمة على الحقّ وسبق علم الله تعالى به في تقديره ومشيئته.



إذن ليس شيء في النبوة من قبيل المصادفات، أو أنه يطرأ في حياة النبي أمر جديد يستدعي معطيات جديدة تواجه حدثاً لم يكن في الحسبان.

ولذا؛ فإنّ كلّ شيء يؤتاه النبي هو جزء من رسالته لا ينفك عنها بحال من الأحوال سواء أكان:

على سبيل الدّعوة

أم على سبيل الابتلاء

أم أنّه جزء من معجزته.

تميّز ملك سليمان بأسلوب منهجي في مخاطبة الملوك في زمانه؛ فمع أنّ سليمان ملك ومعلوم أنّ رسائل الملوك تفتتح بأسمائها في مستهل الكتب، إلا أنّ كتاب سليمان لملكة سبأ قد خالف العرف بالاستهلال، ممّا أوقع في خلد ملكة سبأ أنّ هذا الاسم الذي استُهل به الكتاب لا بدّ أنّه أعظم من سليمان ومن ملكه، ومضمون الكتاب أيضاً لا يعبر عمّا تبتغيه الملوك من بعضها سواءً في حالة الرضا أم في حالة السخط، لذلك فإنّ أموراً كثيرة قد أثارها هذا الكتاب لدى ملكة سبأ منها:

أنّ الكتاب أُلقي إليها إلقاءً فهو مغاير لرسائل الملوك.

ثم وصفت الكتاب الذي أُلقي إليها بأنه كريم وهي غاية الوصف، فلم تقل كتاب خطير لأسباب كثيرة منها:

. أنّه مفتتح باسم الله الرّحمن الرّحيم.

. هو غاية اللطف والسلام لما فيه من الرّحمة.

. أنّه من عند عظيم في نفسها ونفوسهم فعظّمته إجلالاً لسليمان

عليه السلام.

. أنّها أشارت إلى أنّه مطبوع عليه بالخاتم، فكرامة الكتاب ختمه.

. أنّه جاء بطريقة غير معهودة إذ كان الرسول طيرا.

. ألقى إليها إلقاءً.

. كتاب كريم أي كتاب جيد حسن كما قال تعالى: {وَمَقَامٌ

كريم} 852.

. أنّه تضمن لين القول والموعظة في الدعاء إلى عبادة الله عزّ وجلّ.

. حسن الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سبًا ولا لعنا.

. لم يتدئ باسم المرسل لأنّ العظماء إذا كتبوا لمن هو أدنى منهم

يتدئون بأنفسهم.

ودليلنا على أن الكتاب لم يتدئ باسم سليمان صلّى الله عليه  
وسلمّ كما ذهب البعض، يوضحه سياق الآية ويقبله المنطق السليم، لأنها  
بداية عندما أعلمت الملاء من قومها فقد وصفت لهم طريقة وصول  
الكتاب بدقة فقالت:

ألقى إليّ كتاب.

وهنا يجب أن نقف على الأسلوب الذي خاطبت به الملاء من  
قومها، فقد بُني الفعل للمجهول ولم يُصرح بالفاعل لسببين:

الأوّل: إظهار الطريقة الغريبة التي وصل بها الكتاب وهي الإلقاء.

الثاني: عدم التصريح بالفاعل حتى لا تتهم بعقلها أن طائرا ألقى

إليها الكتاب.

وهنا، ينصرف ذهن المتلقي إلى استفسارات واستيضاحات تنصبّ على الكتاب ومرسله يُستبعد منها الرّسول وخاصة أنّها لم تلتفت إليه.

وعلى هذا فإنّ الكتاب مفتتح باسم الله تعالى، وليس باسم سليمان صلّى الله عليه وسلّم، ولكن طبيعة الحوار يجب أن تكون على هذه الصورة لتوضيح طبيعة الأمر، لأنّ أوّل ما يسأل بهذا الصدد عن:

مرسل الكتاب

مضمون الكتاب

الجواب على الكتاب

ومن ناحية أخرى ما كان لسليمان صلّى الله عليه وسلّم أن يقدم اسمه وهو يدعو إلى الله تبارك وتعالى، وعلى هذا فقد جاء اسم سليمان أولاً حكاية عن الملكة وهو جواب السائل في التسلسل المنطقي لاستفهام تتبع الأحداث التي ينطوي عليها أي كتاب، إذ ليس من المعقول أن يُسأل عن مضمون الكتاب قبل السؤال عن مرسل الكتاب، وهذا سبب ذكر سليمان قبل اسم الله تعالى من قبل الملكة وليس في نص الكتاب، وعليه كان تقديم سليمان حكاية عن لسانها لا نصاً في الكتاب الذي وصفته.

يترتب على هذه الوصف:

التفاؤل باستقراء الخير.

الافتتاح الاستهلاكي الغريب لهذا للكتاب.

الأمر بعدم التكبير.

لم يطلب صلحاً أو معاهدة.

اقتصر على الأمر دون التهديد.

إذن هي ثقة عالية.

فيه دعوة إلى الإسلام.

ما هو الإسلام؟

إذن، هناك أمر هام أسمى من الماديات يدعو إليه سليمان في تقديم اسم الله بكتابه وعدم التكبر لمن أرسل إليهم بالكتاب ودعوتهم إلى الإسلام، وهنا يكمن الهدف من علاقة النبي بالبشر التي تتمثل بين الإنسان والإنسان من أجل غاية أسمى كونه يحمل رسالة وإن كان من البشر.

إنّ هذا التواصل صحيح أنّه قائم على علاقة إنسان بآخر ولكنّه يسمو بدور النبي إلى غاية جليّة تخفى على كثير من الخلق في معالجة مشاكل البشر في كلّ عصر وحين.

كذلك سخر الله تعالى الشياطين لسليمان صلّى الله عليه وسلّم لتبني له ما يشاء، وتغوص له في البحر والأرض في طلب ما يشاء، وأعطاه السلطة عليهم لعقاب المخالفين والمفسدين ممن سخرهم له، وتكبيّلهم بالأصفاد يكون بطرق منها:

مقرونة أيديهم إلى أرجلهم.

أو مقرونين اثنين اثنين.

أو أكثر في القيود عند الاقتضاء.

وهذا معناه إذا قرنت الشيء بالشيء أو وصلته به وشددته إليه.

فقد سخر الله تعالى له شياطين آخرين لا يبنون ولا يغوصون، وكأنه عليه الصلاة والسلام قسم الشياطين إلى أقسام:

قسم استعملهم في أعمال البناء

قسم مختص بالغوص

قسم مقترنون بالأصفاد (الآخرون)

فلما كان البناء والغوص طلقاء فهذا يعني أنهم مطيعون لأنهم ليسوا من (الآخرين) المقترنين بالأصفاد، فمعنى ذلك أنّ المقترنين بالأصفاد هم من العصاة المردة، لذلك قرن بعضهم مع بعض في السلاسل وأوثقهم بالحديد لكفّهم عن الشر والفساد.

هذا المعنى الظاهر من تسخير الشياطين لسليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع القدرة عليهم وتقريين بعضهم بالأصفاد.

فإن قيل إن هذه الآية تدل على أن الشياطين لها قوة عظيمة قدروا بها على ما يأتي:

بناء الأبنية العظيمة التي لا يقدر عليها البشر

الغوص في الأرض والبحار

استخراج كل ما يحتاجونه للبناء والزينة

وعليه: كيف يمكن تقييدهم بالأغلال والأصفاد؟

والذي يراوده هذا السؤال هو محقّ لاختلاف ماهيات الخلق بين الجنّ والإنس، إذ أنّه كيف يجري القيد والتصفيد على مخلوقات لطيفة؟

وهذا السؤال يبني عليه تساؤلات.

أليست هذه المخلوقات متجسدة؟

أيمكن أن نقيّد الرّيح ونصفدّها؟

أيمكن أن يقيّد أو يصفد المخلوق من النّار؟

إذا كان هذا ممكناً فبأيّ نوع من القيود كان سليمان يقرن الشياطين ويصفدّها؟

من أجل الوقوف على إجابات مقنعة لهذه التساؤلات نقول: إن هذه الشياطين أمّا أن تكون أجسادهم كثيفة أو لطيفة.

فإن كانت أجسادهم كثيفة وجب أن يراهم من كانت حواسّه سليمة صحيحة.

فلو جاز أن لا يراهم صاحب الحواس السليمة مع كثافة أجسادهم لجاز أن يشاركنا في الوجود مخلوقات عظيمة وأصوات هائلة لا نراها ولا نسمعها.

ذلك أنّ وجودهم بهذه الطريقة في الكثافة، يجب أن يشغل حيزاً، ونحن لم نقف على حيزٍ مشغول بشيء لا نعلمه.

وإن كانت أجسادهم لطيفة، واللطافة تنافي الكثافة فمثل هذا يمتنع أن يكون موصوفاً بالقوّة الشديدة بحيث يقدر بها على ما لا يقدر عليه الإنسان، لأنّ الجسم اللطيف بطبيعة تكوينه وصفات خلقه يكون ضعيف القوام تتمزق أجزاؤه بأدنى المدافعة فلا يطيق تحمل الأشياء الثقيلة ومزاولة الأعمال الشاقة، ولذا لا يمكن تقييده بالأصفاة والأغلال.

ولكن نحن نذهب إلى ما قال الله تعالى: {وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ} 853.

ومن هذا الدليل نعلم أنّ:

أجسادهم لطيفة وشفافة.

لطاقفتها لا تنافى صلابتها

تتحمل الأشياء الثقيلة

تزاوّل الأعمال الشاقة

تمتنع من التفرّق والتجزئة

فلكونها لطيفة لا ترى!

ولكونها صلبة يمكن تقييدها

فلو سلمنا أنّ اللطافة تنافى الكثافة، إلا أنّنا لا نسلم أنّ اللطيف الذي لا كثافة له يمتنع أن يتحمل الأشياء الثقيلة ويقدر على الأعمال الشاقة، وخير دليل على ذلك ما سخره الله تعالى من الريح لسليمان قال تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ} 854.

فهذا الجسم اللطيف الشفاف كان يحمل سليمان وجنوده وما يحتاجونه من مؤونة وعدة وعتاد ومتاع غدوها شهر ورواحها شهر.

---

853 - الرحمن 15.

854 - الأنبياء 81.

وكذلك فإنّ هذا الجسم اللطيف من الرّيح يكون مهلكا وتفعل ما لا تقدر عليه الأجسام الكثيفة قال تعالى: {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ} 855.

وكذلك فإنّ الرياح التي هي جسم لطيف شفاف يقدم من المنافع ما لا يقدر عليه الإنسان، أو من الكوارث ما يقف الإنسان أمامها حائرا.

وكذلك الملائكة فإنّها أجسام لطيفة شفافة لم يكلف الله خلقا أعظم ممّا كلف به الملائكة لأنّه ليس أحد من خلقه يقدر على القيام بما اختاره الله لهم سواهم:

فمنهم الذين يحملون عرش الرّحمن قال تعالى: {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} 856.

ومنهم خزنة جهنم قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} 857.

ونرى أن هذا الكلام يحمل على وجهين:

الأول حقيقي:

فهذا الوجه لا يمتنع من أن الأجسام اللطيفة الشفافة تقوى على ما لا تقوى عليه الأجسام الصلبة المتلاصقة لما بيناه من الأدلة. وبذلك يمكن تصفيدهم.

---

855 - الحاقة 6.

856 - الحاقة 17.

857 - التحريم 6.



## الثاني مجازي:

وقد يراد من ذلك أيضا أن تمثيل كفهم عن الشرور بالتقرين في الأصفاد، لا يمكن تقييده بالأصفاد والأغلال حقيقة مسلّم بها، ويمكن أن يحمل الكلام على حقيقته لأنهم لما كانوا مسخرين مذللين لطاعته عليه الصلاة والسلام بتسخير الله إياهم له، كان قادرا على كفهم عن الإضرار بالخلق، فشبّه كفهم عن ذلك بالتقرين في الأصفاد فأطلق على الكفّ المذكور لفظ التقرين استعارة أصلية ثم اشتق من التقرين (المعنى المجازي) وأصبح اللفظ مقرّنين بقدرته عليهم بما سُخّروا له فأصبحوا ممنوعين عن الشر والأذى.

ولأنّ لكلّ بداية نهاية ولا باقٍ إلّا الله الباقي جلّ جلاله؛ فقد قضى الله الموت على سليمان، وهذه من سنن الوجود (حياة موت) ثم (موت الموت) ثمّ (البعث) قال تعالى: { فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ } 858.

إنّ كان ينجو أحد من الموت فسليمان صلّى الله عليه وسلّم أولى خلق الله بذلك لما أتاه الله من الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده ممّا سخره له من:

الجنّ

الإنس

الطير

الريّح

إسالة عين القطر

ما ورثه عن أبيه

ومع ذلك؛ فإنّ الله تعالى قضى عليه الموت وجرت سنة الله تعالى على عبده سليمان صلّى الله عليه وسلّم فيما يجري على الخلق أجمعين.

قضى الله الموت على سليمان صلّى الله عليه وسلّم وفارق الحياة والجنّ ماضية تعمل بأمره فيما كلّفها من عمل وهي لا تعلم نبأ موته حتى جاءت معجزة أخرى من الله تعالى، فلم تعلم الجنّ نبأ موت سليمان صلّى الله عليه وسلّم حتى جاءت حشرة الأرضة تأكلّ عصاه التي كان مرتكزا عليها.

فمن خلال النص القرآني في هذه الآية نستنتج براهين كثيرة في اتجاهين

الأول: القدرة الإلهية فيما جرت به مشيئته بعلمه تعالى منها:

. أنّ لله في خلقه شؤون

. أنّ هذه الحشرة أعلنت موت سليمان

. أعلنت نهاية رسالة سليمان

. صدقت رسالة محمّد

. أنّ الغيب لا يعلمه إلا الله

الثاني: الدلالة الاستنتاجية من السياق والمعنى وهي:

. العذاب المهين لا يتحقّق إلا بطول المدة

. الجنّ لبثت في العذاب المهين مدة طويلة بعد موته

. العذاب المهين دليل على أنهم مجبرون قهرا

. طول المدة دليل على أن أجساد الأنبياء لا تبلى

{ فَلَمَّا فَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَهَمَهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ  
مِنْسَاتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي  
الْعَذَابِ الْمُهِينِ } 859.

ومن الآية نعلم أنه كان متكئا على عصاه حين وافاه أجله، والجنّ  
تروح وتجيء مسخرة فيما كلفها إياه من عمل شاق شديد فلم تدرك أنه  
مات حتى جاءت دابة الأرض وهي الأرضة التي تتغذى بالأخشاب،  
وهي تلتهم أسقف المنازل وأبوابها وقوائمها بشراسة في الأماكن التي تعيش  
فيها فلا تبقي على المادة الخشبية، فلما نخرت عصا سليمان لم تحمله  
وتداعت العصا فخرّ سليمان صلى الله عليه وسلم على الأرض فعلمت  
الجنّ موته وعندئذٍ: (تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي  
الْعَذَابِ الْمُهِينِ).

### الني زكريا:

الني زكريا عليه السلام من أنبياء بني إسرائيل، وهو من دخل  
المنافسة مع غيره من أجل كفالة مريم؛ فكانت الاستجابة والحظ أن  
يكون زكريا عليه السلام كفيلا؛ أي بعد أن لجأ المتنافسون إلى أجري  
القرعة، كانت كفالتها من حظ زكريا.

نشأت مريم كما سبق وأن بينا نشأة دينية، وتفرغت للعبادة، فكان  
زكريا يجد عندها رزقا من رزق الله لم يأتمها به، وفي غير وقته، وهذا من  
إكرام الله لها.

كان زكريا عليه السّلام يخشى على دين الله من المفسدين والمارقين، وهذه الخشية جعلته يدعوا ربّه سائلا أن يرزقه ولدا لتكون سلالة آل يعقوب وارثة لذلك في بني إسرائيل؛ فاستجاب الله له وبشّرته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أنّ الله يبشرك بيحيى، وأنّه سيكون من الأنبياء الصّالحين، وأنّه خير أهل زمانه.

توالت على زكريا عليه السّلام في زمانه كثير من الشدائد الثقال، ومع ذلك كان صبورا، وبالزّمن وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا، وفي كلّ أعوامه الناضجة كان من الصّالحين الرّبّانيين الذين يخدمون الهيكل، حتى أنبأه الله تعالى واصطفاه نبيا كريما. فقام عليه السّلام يدعو قومه إلى دين الله الإسلام وعبادة الله وحده، ويجذّره عذابه، وذلك بما هم عليه من فسوق وفجور ومفاسد، إلى جانب تسلط الملوك على الحكم وكذلك تسلطهم على الأنبياء والصّالحين وسفك دمائهم.

كانت زوجة عمران من الصّالحات العابدات قد كبرت وعجزت ولم تلد ولدا؛ فدعت الله تعالى أن يهبها ولدا، ونذرت إن رزقها الله تعالى ولدا أن تجعله من سدنة بيت المقدس وخدمه، وحررت ما في بطنها، ولم تكن تعلم ما الحمل، وكان النذر المحرر عندهم هو أن يصبح الولد لله يقوم بخدمة المسجد ولا يبرح منه حتى يبلغ الحلم؛ فإذا بلغ خيرا، فإن أحب أن يقيم فيه أقام وإن أحب أن يذهب ذهب حيث شاء.

وقبل الولادة مات الرّجل الصّالح (عمران) أبو مريم في حملها؛ فلما وضعت أمّ مريم حملها إذا هو أنثى، فقالت: {رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} 860 أي أنّها تعتذر لربّها لأنّها لم تنجب

---

860 آل عمران 36.

الذِّكر الذي نذرته لخدمة الله تعالى، كون الأنثى لا تصلح لما يصلح له الذِّكر من خدمة المسجد والإقامة فيه.

وضعت أمّ مريم ابنتها عند الأحبار العلماء أبناء هارون، وقالت لهم: "هذه المنذورة" فتنافسوا فيها لأنّها كانت بنت إمامهم وسيدهم عمران الذي كان من علماء بني إسرائيل الصّالحين، وكانوا يقتربون على الذين يؤتون بهم إلى المسجد لخدمته، فقال زكريا عليه السّلام وكان نبهم يومئذ: أنا أحقّ بها لأنّ خالتها عندي، وذلك أنّ الخالة تعد بمنزلة الأم، فأبوا وطلبوا الاقتراع عليها وقالوا: نطرح أقلامنا في النّهر الجار، قيل هو نهر الأردن فمن صعد قلمه فوق الماء فهو أحقّ بها؛ فذهبوا إلى ذلك النّهر وألقوا فيه أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة؛ فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم، فأخذها زكريا عليه السّلام وكفلها وضمناها إلى خالتها "أمّ يحيى" واسترضع لها حتى كبرت ووضعتها في غرفة في المسجد لا يرقى إليها إلا بسلم ولا يصعد إليها غيره. وكان يغلق عليها الباب ومعه المفتاح لا يأمن عليه أحدًا، وكان بين الحين والحين يخرجها لخالتها مؤقّتا.

كان نبي الله زكريا عليه السّلام يرى من عجائب قدرة الله تعالى من الكرامات في حفظ هذه السيدة الطاهرة العفيفة ما يبهر العقول، يقول الله تعالى: { فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } 861.

كان نبي الله زكريا عليه السّلام إذا دخل على مريم عليها السّلام في المحراب وهو معبدها الذي تعبد فيه الله تعالى يجد عندها من الرزق ما لم يكن يتوقّعه، إنّها رعاية الله عزّ وجلّ وكفالة زكريا عليه الصّلاة والسّلام.

---

861 آل عمران 37.

في ذلك المعبد الربّاني كانت الفتاة الصّالحة الشّريفة (مريم) تتعبّد  
توحيداً لله تعالى ليلها ونهارها.

كان نبي الله زكريا عليه السّلام وقد تقدمت به السنّ وانتشر الشيب  
في رأسه وبلغ من الكبر عتياً، وكانت امرأته عاقراً لا تلد، ولكنّه لما رأى  
فضل الله الرّزاق على مريم المكفولة من قبله، تبيّن له أنّه لا شيء  
مستحيل على الله تعالى فدعاه بالرّغم من أنّ زوجته عاقراً وقد تجاوزت  
عمر الإنجاب؛ وكانت لزكريا رغبة (أن يرزق بولد)؛ فطلب ربّه أن يرزقه  
غلاماً تقياً يرثه في العلم والنبوة ويكون رحمة بين النّاس؛ {هُنَالِكَ دَعَا  
زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} {862

والذي يجب التوقّف عنده هنا، هو: أنّ العاقر لا يمكن أن تلد،  
وذلك لأنّها عاقر. أي لم تخلق فيها أنوثة الإنجاب، بمعنى: أنّها لم تعد خلقاً  
لتكون منجبة، وهذه مشيئة الخالق {يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ  
يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ  
قَدِيرٌ} {863، وقد يقول البعض: أنّ الطبّ الحديث قد بلغ من العلم ما  
بلغ مقدرة ومعرفة تمكّن من أن تجعل العاقر منجبة.

أقول:

الطبّ بلغ من المعرفة العلمية مبلغ عظيمًا، ولكنّه لا يعالج إلا من  
هي لم تحرم خلقاً من معطيات الإنجاب، ولهذا وجب التمييز بين المرأة  
التي لم تحمل بعلة يمكن علاجها، وبين امرأة عاقر (لا إمكانية لأن  
تنجب) ولهذا؛ فالمرض علاج (المرض الذي يعيق أن تحمل الأنثى) أمّ  
العقم فلا علاج له لأنّه خلقي.

862862 آل عمران 38.

863 الشورى 49، 50.

وعليه؛ فإنّ حمل زوجة زكريا معجزة، لأنّ زوجته عاقر، وهذا الأمر لا يكون خاضعا إلّا للأمر (كن) الذي لا يكون إلّا أمرا من عند الله تعالى.

وحتى لا يتعصّب البعض لأقوالهم أنّ للعقم علاج ودواء أقول:  
عليكم أن تميّزوا بين أربعة حُجج:

الحجّة الأولى: إنّ العمل المستحيل لا يكون إلّا بيد الله تعالى. ومن هنا كان إنجاب العاقر بإذن الله

الحجّة الثانية: إنّ العمل المعجز لا يكون إلّا على أيدي أنبياء الله ورسله، وهنا تعدّد معجزات الأنبياء والرّسل عليهم الصّلاة والسّلام.

الحجّة الثالثة: إنّ عمل الخوارق لا يكون إلّا على أيدي النوابغ بإذن الله. وهنا تمّ غزو الفضاء ولا يزال يغزى علما ومعرفة من قبل النوابغ الكرام.

الحجّة الرابعة: إنّ عمل الممكن لا يكون إلّا على حالتين:

الأولى: الممكن المتوقّع، وهو الذي يكون على أيدي عموم النّاس بإذن الله. ومن هنا، كان علاج من لا تلد طبّا ولا استغراب.

الثانية: الممكن غير المتوقّع، وهو الذي لا يكون إلّا على أيدي متحدّي الصّعاب بإذن الله. وهنا كان بلوغ الحلّ والاستغراب يصاحبه.

ولأنّ للأنبياء خصوصية ربّانية؛ فاعتقد أنّ نداء الملائكة كان مسموعا لزكريا، وذلك لأنّ الملائكة مكلفة بالتبليغ وهو على كلّ ما ورد في القرآن الكريم تبليغ مسموع (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ)، وهو خلاف قدرة الشيطان على الوصول إلى البشر حيث يكون بالإلقاء مصداقا لقوله

تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَتَّى أَلْقَى الشَّيْطَانَ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَحُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} 864، وبالوسوسة، {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ} 865.

عليه فإن زكريا سمع قول الملائكة وعرف أن مصدر قولها هو أمر الله بلغته الملائكة، لذلك توجه بالخطاب نحو الملك جل في علاه هو الذي أمر فنفذت الملائكة، ومن المؤكد سماع زكريا لنداء الملائكة لان زكريا كان في الصلّاة حيث هي عنده خشوع تام مطلق لم يكن للوسوسة أو الهاجس أثر في تلقيه لهذه البشرى التي كان ينتظر.

ومن عبر هذه الإجابة إنها تقدم صورة لما يجب أن يكون العبد لله في الصلّاة حيث الإخلاص والخشوع والتواصل في الطاعة واليقين بالإجابة.

والله سبحانه وتعالى إذ أجاب زكريا فإنه أجاب زكريا بعلم منه فكانت الإجابة أكبر من الطلب لان الله أرحم بعباده واعلم بهم فقد وهبه الابن ومعه أصلح له زوجه (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ).

وأصلحها بمعنى: "أنه سبحانه جعلها مصلحة في الدين، فإن صلاحها في الدين من أكبر أعوانه في كونه داعيا إلى الله تعالى فكأنه عليه السلام سأل ربه المعونة على الدين والدنيا بالولد والأهل جميعا.

864 الحج 52-53.

865 الناس 1-5.



وهذا كأنه أقرب إلى الظاهر لأنه إذا قيل: أصلح الله فلانا فالأظهر فيه ما يتصل بالدين، واعلم أن قوله: (وَوَهَبْنَا لَهُ يُحْيِي وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ) يدل على أن الواو لا تفيد الترتيب لأن إصلاح الزوج مقدم على هبة الولد مع أنه تعالى أخره في اللفظ وبين تعالى مصداق ما ذكرناه فقال: (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ) وأراد بذلك زكريا وولده وأهله فبين أنه آتاهم ما طلبوه وعضد بعضهم ببعض من حيث كانت طريقتهم أنهم يسارعون في الخيرات، والمسارعة في طاعة الله تعالى من أكبر ما يمدح المرء به لأنه يدل على حرص عظيم على الطاعة.

أما قوله تعالى: (وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا) قرئ رغباً ورهباً وهو كقوله: (يَخْذِرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ) والمعنى أنهم ضموا إلى فعل الطاعات والمسارعة فيها أمرين: أحدهما: الفزع إلى الله تعالى لمكان الرغبة في ثوابه والرغبة في عقابه. والثاني: الخشوع وهو المخافة الثابتة في القلب، فيكون الخاشع هو الحذر الذي لا ينبسط في الأمور خوفاً من الإثم"866.

نناقش الآن كون زكريا من الأخيار، لاشك أن النبوة توجب أن يكون النبي من الأخيار، ذلك أن النص القرآني ربط بين الاصطفاء وخيرية الأنبياء فقال عز من قائل: {وَأَيُّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ}867.

لكن التمايز التفضيلي (تِلْكَ الرَّسُلِ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) يمكن أن يُلاحظ في وصف زكريا حيث إنه كان يسارع في الخيرات أي أن تفضيلاً في عمل الخير واضح جلي في الآية، والمسارعة في الخيرات تبعاً في الآية وصف مهم مبين لطبيعة هذه المسارعة هو قوله تعالى (وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا)

---

866 - تفسير الرازي، ج 11، ص 68.

867 - ص 47.

قال تعالى: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ} 868

فقوله تعالى: (قائما يصلي في المحراب) يدلّ على قيومية زكريا التي لا تكون إلا مستمدة من القيوم جلّ جلاله، القيوم "القائم على كلّ نفس بما كسبت، وقيل القائم بذاته المقيم لغيره، وقيل القائم بتدبير خلقه وحفظه، وقيل هو الذي لا ينام وقيل الذي لا يبدّل له" 869.

وهنا فالقيوم من أسمائه الحسنی جلّ جلاله، والتي جاء ذكرها مقترنا مع اسمه الحي؛ لاقتران القيام بالحياة وهي رمزها ودلالاتها؛ فكيف تعرف الحياة إذا لم يعرف ويظهر قيامه على الأشياء، وجاء اسم القيوم بهذه الصيغة البلاغية لما تحمله من معنى دقيق في قيامه على الأشياء الدقيقة وبما تحمله من معنى واسع لاشتماله على كلّ الأكوان من السماوات والأرضين وما بينهما، فهي التي يتضح بها معنى الأسماء الأخرى بما لها من ارتباط وثيق وأساسي، فنعرف الحياة بالقيام، وبها نعرف الثواب والانتقام، ولهذا جاء قوله تعالى: (قائما يصلي في المحراب) والقيام هنا تعبّد للحي القيوم؛ فزكريا عليه السّلام كان قيّميان أي متعبّدا وحريصا على تعبّده لله تعالى، ومن ثمّ فالقيوم هو الذي تظهر علامات قيامه على خلقه كما ظهرت على زكريا عليه الصّلاة والسّلام، وكما تظهر فيما حولنا من الأمور والأشياء جليلة وخفية، ومنها:

-قيامه على كلّ نفس: قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَتَنَسَّرِ

---

868 آل عمران 38، 39.

869 المصدر السابق، ص 236.

الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ {870}. والخليفة القيوم هو الذي يرمى النفوس من الهلاك الجسدي والمعنوي، فيقوم برعاية الأجساد عن أسباب الهلاك بالنصيحة السليمة ويدعوهم إلى الطريق القويم وينهاهم عن الرذائل والموبقات التي بعدت بهم عن الطريق المستقيم.

. قيامه على استجابة الدعاء: قال تعالى: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} {871}. والخليفة دوره أن يدعو العباد المستخلفين في الأرض إلى العمل الناجح والصلاح والفلاح في الدين والدنيا؛ إن إعمار الأرض والحكم بما انزل الله تعالى هو صفة من صفات القيوم بالإضافة الذي استمد صفاته من صفات القيوم المطلق، وبذلك فإن تعليم العباد القيم الخيرة التي بها تعمر الأرض وتقوى العلاقات بين الناس هو خير وسيلة

870 الرعد 31-34.

871 النمل 59. 62.

لاستجابة الدعاء، مصداقا لقوله تعالى: { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ  
وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أَلَمْ يَعْلَمُوا  
أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ  
الرَّحِيمُ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى  
عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } 872 فعلى الخليفة أن  
يحث الناس ويحرضهم على الإكثار من أفعال الخيرات، ويعلمهم بأن لهم  
ربّ قيوم يقوم ويرى حوائجهم ليلا ونهارا، ويعلمهم أنه تعالى قريب  
مجيب، ولكون الخليفة قيوم بالإضافة فلا بدّ أن يرى للناس أمرهم وأن  
يستجيب لمطالبهم، وأن يرعى حقوقهم، بالمتابعة عينا وأثرا، وأن يشجعهم  
على أداء واجباتهم وحمل مسؤولياتهم وأن يتقوا الله وهم مدركون بأنه لا  
قيوم عليهم بالمطلق سواه.

نبداً بالحديث عن وصف إخلاص زكريا كما ورد في القرآن الكريم،  
وهو وصف خص الله به بعضا من عباده، وهو تنزيه مطلق من الله عزّ  
وجلّ لإخلاص هؤلاء العباد المخصوصين، وذلك يتمثل في نسبة العبودية  
للله عزّ وجلّ في كلام الله بلفظ عبده، أو عبدنا أو عبدي، يقول الحقّ  
جلّ وعلا عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم:

{ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا  
شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } 873.

وكذلك عن نوح صلى الله عليه وسلّم: { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ  
فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ } 874، كذلك أيوب وداود صلى الله  
عليهما وسلّم.

872 التوبة 103 . 105.

873 البقرة 23.

874 القمر 9.

إنّ هذه الألفاظ لها دلالات غاية في المباشرة والإيجاء معاً، إذ أنّ الله عزّ وجلّ اختار لهؤلاء هذه الصفة المخصوصة ونص عليها في كتبه تنزيها وتشريفا لهؤلاء وإيجاءً لغيرهم من العباد بما يجب عليهم أن يسلكوا من سلوك ليكونوا عباداً لله، وقد يتساءل متسائل:

ألسنا جميعاً عباد الله؟

نقول: إنّ هذه صفتنا التي ندّعي لأنفسنا ولغيرنا ولكن العبودية الحقّة المخلصة لا تكون بالادعاء بل تكون بالإيمان والعمل؟

أيّ عمل؟ فقد يجهل البعض نوع العمل الواجب للعبودية!

نقول إنّها سنن الصالحين الذين نقرأ عنهم ونتدارس أمرهم وكان هذا من أهم دوافعنا للتأليف في هذا الباب من الموضوعات، غايتنا تقديم المنهاج الذي نهجه هؤلاء من الصالحين للائتماء به، ومن الطالحين لتجنب ما جاؤوا به.

على ذلك فإنّ وصف الله سبحانه وتعالى لذكرياً بـ (عبده) هو نوع من التشريف والتنزيه من جهة وكذلك فإنّ سلوك ذكرياً التعبدي المتمثل بالعبادات لاسيما منها صلاة القيام لأنّ الله خصّها بالذكر من عباداته فقال: (وهو قائم يصلي في المحراب) هو من إيجاءات استحقاق ذكرياً لهذه الصفة.

أمّا عن كون ذكرياً رحمة، فقد أشارت أغلب كتب التفسير إلى هذه الرّحمة على أنّها رحمة الهداية، حيث يرجح الرازي ذلك قائلاً: يكون المراد من قوله رحمة ربّك أعني عبده ذكرياً ثم في كونه رحمة أن يكون رحمة على أمته لأنّه هداهم إلى الإيمان والطاعات 875.

والى ذلك ذهبت التفاسير التي قالت بأن السياق (ذَكَرُ رَحْمَةَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِيَّا) يدل على أن الرحمة هي زكريا، ويمكن لنا أن نضيف أمرا مهما لتفسير هذه الرحمة هو أن زكريا كان رحمة للعموم أي عموم المؤمنين وللخصوص لمريم وعيسى، فدور زكريا في ما جرى لمريم وابنها عيسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ لم يكن دورا هينا، بل إنّ حالة مريم بعد أن أنجبت عيسى ابن مريم أكثر ما كانت تحتاج إليه هو الرحمة بكلّ أشكالها، وقد خصها الله برحمة منه هو زكريا النبي الذي كفّلها ثم صدّقها من قبل وهو يرى الرزق يأتي مريم معجزا من الله عزّ وجلّ، ثم هو يراها تحمل ابنها من غير أب (عيسى ابن مريم) وتتجه به نحو محراب التعبد لله الواحد الأحد، إنّ رحمة الله عزّ وجلّ للناس الذين اتبعوه وصدقوه عموما وهو رحمة لمريم وابنها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ.

هنا يكمن الودّ في نفس زكريا تجاه مريم وابنها، ولهذا فهو ودود طيب النفس، قلبه على مريم حريصا حفيظا راعيا، ولهذا فهو الودود الذي له من الودود ودّا حيث ودّه بابنه يحيى الذي سماه الله وبشره به.

وعليه فالودود هو الشهيد الذي شهد حال مريم وما هي عليه من تعبد (توحد الله) الذي رزقها من حيث لا تحتسب، ولا يحتسب الغير، ولهذا فزكريا شاهدا على زرق الله لمريم مصداقا لقوله تعالى: {كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا} 876.

ولهذا فالشهادة هي شهادة زكريا على مريم، وهنا يوصف زكريا بالشهيد كونه قد تمكّن بعزّة الشهيد المطلق جلّ جلاله أن يكون شاهدا على ما لدى مريم من رزق، وهو الرزق الذي لم يكن إلّا من الرزاق عزّ وجلّ، وهنا تعدّ الشهادة صفة لزكريا.

ومع أنّه شهيد، ولكنّه بلا مطلقيّة، ذلك لأنّه لا إطلاق إلّا للشهيد المطلق جلّ وعلا الذي وحده يرى ويسمع ويلاحظ ويحكم ويحيب ويقدر ويهيمن وهو بكلّ شيء محيط وعليم، والشهيد بالإضافة هو من يستمد صفات الشهادة الحميدة حتى تكون شهادته الحقّ والعدل.

فالشهيد دليل إثبات الشهادة، فلو لم يكن ما كانت، ولأنه الشهيد بالمطلق فهو يُشاهد ولا يُشاهد {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ} 877، وفي غير ذلك يكون الشهيد بالإضافة تحت المشاهدة والملاحظة، ولذا فالشاهد المطلق يشهد الظاهر والباطن ويعلم بالمطلق علم اليقين، والشهيد بالإضافة لا يشهد ولا يعلم إلا ظاهرا وفي دائرة الممكن يستنبط ويستقرأ.

الشهيد المطلق الله جلّ جلاله، وشهادة الله لا تقابلها غيبة، فلا غيب لديه، وعالم الغيب والشهادة بمعنى إنه يعلم ما يغيب عنا وما نشهده، وعلمه يسع ما يعلمه جميع الخلق وما يغيب عنهم، من علم ملائكي وجنّي وبشري وكائناتي، وغير ذلك من علم معلوم ومجهول، ومشهود ومحجوب، وغائب ومعيب قال الله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} 878، ويقول الله تعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} 879 ويقول الله تعالى:

---

877 الأنعام 103.

878 البقرة 255.

879 طه 110.

{اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ يَعْلَمُ مَا  
بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} 880

فالشهيد: هو الذي لا يغيب عنه شيء وقيل: هو العالم الرائي  
فيرجع معناه إلى صفة العلم وصفة الرؤية 881.

وهو سبحانه وتعالى - كما قلنا - عنده الشهادة المطلقة فلا يوجد  
عنده غيب فالغيب ما غاب عنا، ولا ينبغي أن نقول: إن عند الله غيب،  
فالغيب خلق من خلقه فكيف يغيب المخلوق عن خالقه، ولا أن نقول  
إن الشهيد مشتق من الشهادة، بل هو سبحانه وتعالى خالق الشهادة  
التي لغيره أما شهادته غير مخلوقة وهي ذاتية سرمدية بلا أولية ولا انتهاء  
لأنه الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية.

كما لا نقول: إنَّ الشهيد مبالغة في الشهادة بل نؤكد: إنَّ الشهيد  
جلَّ جلاله له العلم المطلق الذي يليق به وبالكيفية التي يعلمها هو ولا  
نعلمها نحن على مر الآجال والأجيال.

والشاهد الحاضر يقال شهدت الشيء وشهدت به وأصل قولهم  
شهدت به من الشهادة التي هي الحضور، واليوم المشهود يوم القيامة لأنه  
معلوم كونه لا محالة فكان معنى الشهيد العالم 882.

والشهادة لا تقتصر على فرد واحد بل تتعداه لجماعة وتتعداها لأمة  
بأكملها، فقد يكون الفرد شهيدا كقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ  
ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا فَكَيْفَ إِذَا  
جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا يَوْمَئِذٍ يَوْمَ الَّذِينَ

---

880 الحج 75، 76.

881 الاعتقاد، ج 1، ص 60

882 تفسير أسماء الله الحسنى ج 1، ص 53.



كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ نُسِئَ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا {883، فالرسول عليه الصلاة والسلام شهيدٌ.

أو الجماعة تكون شهيدة، لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُنَّ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} {884، فالشهادة هنا كي تكون مقبولة لا بد أن يجتمع فيها أربعة شهداء كي يُعترف بها، إذا فالشهادة في هذه الحالة تعدت الفرد الواحد إلى جماعة، لأنها أصبحت من شروط الإدانة في هذه الحالة اجتماع أربعة شهداء، ولا يُقبل شاهد واحد فقط.

أو الأمة بأسرها قد تكون شهيدة كقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} {885، فالأمة هنا في هذه الآية ستكون شاهدة على نفسها، ومن المعروف أن الأمة تشمل الكثير من الأفراد، فلا يمكن أن تدخل في إطار الجماعة.

### النبي يحيى:

النبي يحيى عليه السلام هو ابن الرسول الكريم زكريا عليه السلام، الذي رزقه الله به بعد مناجاة في المحراب وتضرع إلى الرب الرزاق، وكان ليحيى عليه السلام مزايا وقد اختص بها كما ورد في كتاب الله تعالى، وذلك كاختصاصه بالاسم من عند الله عز وجل وانفراده به أول اسم، وكذلك وصفه بالسيّد، وأنه حصورٌ، وأنه زكاة من الله وحنانا وكان تقياً، وكان باراً ولم يكن جباراً عصياً، وقد آتاه الله الحكمة والنبوة وسلّم عليه يوم ولادته ويوم موته ويوم يبعثه حياً.

---

883 النساء 40: 42.

884 النور 4.

885 البقرة 143.

هو يحيى بن زكريا الذي ينتهي نسبه إلى يعقوب عليه السلام، وهو من أنبياء بني إسرائيل كأبيه زكريا عليهما الصلاة والسلام الذين بلّغوا الناس ما أمرهم الله بتبليغه وجاهدوا في الله حق جهاده. وقد علّمه الله تبارك وتعالى الكتاب (التوراة) وآتاه الحكم والنبوة والعلم صبياً.

كان ميلاده استحالة فقد جاء لأبيه زكريا بعد عمر طال حتى يئس الشيخ من الذرية فقد جاء بعد دعوة نقية تحرك بها قلب النبي زكريا عليه الصلاة والسلام. إنّه الغلام الذي سماه الله (يحيى) أي سمّاه الله تعالى قبل دُخُولِهِ فِي الْوُجُودِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِثْلٌ وَشَبِيهٌ فِي هَذِهِ الْخَاصِيَّةِ.

ويقال أنّ يَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَصَدَّقَهُ، وَكَانَ يَحْيَى أَكْبَرَ مِنْ عِيسَى وَهُوَ ابْنُ خَالَتِهِ 886

ونحن نقول:

أنّ اسم يحيى له علاقة بالحياة، فهو اسم يطمئن القلب، وكأنّ الله تعالى يريد أن يقول: اطمئني يا أمّ يحيى؛ فهو سيعيش حياته شاباً ونضجاً ونبياً ورسولاً؛ فلا خوف عليه، فالله ضامن له الحياة طوال عمره الذي كتب له كما تكتب جميع الأعمار لأصحابها من الخالق تعالى.

قال تعالى: { يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى } 887

فقوله تعالى: (اسمه يحيى) يعني أنّه اسم يبقى، ولن يزول أبداً، أي أنّ صاحب هذا الاسم (يحيى) عليه السلام سيكون اسمه من بعده باقياً، ولأنّه سيظل باقياً، فهو مع أنّه سمي في زمن الرّسالتين المنسوختين (التوراة والإنجيل) ولكنّه لم ينسخ؛ فكان الاسم باقياً وسيظل كذلك مع بقاء القرآن إلى يوم الدين؛ ذلك لأنّ الله تعالى قد أخذ اسم يحيى من صفته

<sup>886</sup> تفسير البغوي، إحياء التراث، 1، ص 436.

<sup>887</sup> م ريم 7.

جلّ جلاله (الحي) الذي خلق الحياة والموت، قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} 888.

وعليه؛ فالحي المطلق هو الذي خلق الحياة وهو الذي جعل اسم (يحيى منها)، والحي: "يعني، الذي له الحياة الدائمة، والبقاء الذي لا أول له بحدّ، ولا آخر له بأمد" 889.

والحي الدائم، دائم الحياة المطلقة، والحي بالإضافة هو: كما هو حال يحيى عليه السلام؛ الذي يستمدّ حياته من الحي المطلق بالقول والعمل الذي لا يزول، ولهذا يكون متبعا لما أمر به الحي المطلق جلّ جلاله، ولذا الحي بالإضافة هو من يكون حيا بأقواله وأعماله وأفعاله التي تُحتسب مصداقا لقوله تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} 890، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} 891

الحي هو خالق الحياة، ولأن كلّ مخلوق يفنى، وخالق المخلوق لا يفنى فجاء اتصافه بالحي جلّ جلاله. ولذا فمن يخلق الحياة لا بدّ وأن يتصف بها.

ولأنّ الحي خلق الموت ليكون باقيا حيا أمام امتثال الموت للموت بعد ممّاته للحياة غير الباقية. قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ

---

888 الملك 2.

889 تفسير الطبري - ج 5، ص 386.

890 آل عمران، 169.

891 البقرة، 264.

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ  
 عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ  
 الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ  
 يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِنًا وَهُوَ حَسِيرٌ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ  
 وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ  
 عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ  
 تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ  
 قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا  
 فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ  
 السَّعِيرِ {892}.

اسم الحي من أسماء الصفات التي اتصف بها في علياه، قال تعالى:  
 {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي  
 السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ  
 أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ  
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} {893}. ففي  
 قوله تعالى: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) تقدم الحياة على القيومية، إذ  
 لو لم تكن هناك حياة لم تكن هناك قيومية على أي أمر من أموره، فالله  
 هو الحي بلا ابتداء، أي من ظلمات الأزل إلى ظلمات الابد.

نأتي إلى مسألة أولية التسمية، الآية تقول: (لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ  
 سَمِيًّا)، أي: أن الله عز وجل لم يجعل من قبله أحد بهذا الاسم، لكنه سمي  
 آخرين بأسمائهم، فالأسماء من الله ولا يعلمها إلا هو وقد سمي الله

892 الملك 10.1.

893 البقرة، 255.

المخلوقات من الجنّ وملائكة قبل تسمية الإنسان (آدم) الذي سماه الله بعد التسوية، وهناك أمر يلح علينا في كل حين تطرحه التساؤلات الآتية:

لماذا سبّحت الملائكة بعد أنباء آدم بالأسماء (الأسرار)؟

هل كانت الأسماء سرّية مقصورة على المخلوق؟

أم هل كانت الأسماء بواطن وليست ظواهر؟

نعتقد إنّ الملائكة تعلم ممّا علمها الله عزّ وجلّ أن أسماءها من الله عزّ وجلّ وهي قديمة على المحدث (آدم) فعندما تحصل المحدث على العلم القديم سبّحت لله عزّ وجلّ، وهكذا فعل زكريا بعد أن قالت له الملائكة بشارة من الله أنّه سيرزق بولد اسمه يحيى؛ فقد سبّح ودعا من حوله للتسبيح لله عزّ وجلّ (فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا).

فالمخلوقات قبل آدم كلها سماها الله عزّ وجلّ وذلك لأنّها عاجزة في حضرة الخطاب عن اختيار الاسم الذي يناب ذلك مقام حيث العرش العظيم، فمن له القدرة على أن يتسمى باسم هناك؟

أمّا إذا جاء الاسم من العزيز الجبّار فإنّ التمام والكمال فيه وفي مضامينه، هنا يمكن أن نتلمس قاعدة هي:

إنّ الأسماء المصطفاة من الله لخلقه هي أسماء مطلقة الدلالة عن المضمون.

وإنّ الأسماء المسماة من البشر هي نسبية في الدلالة عن المضمون.

لذلك فإنّ البحث في الأسماء يجب أن ينطلق من هذه القاعدة التي تضع العقل على أعتاب التحليل فاسم (آدم) لم يكن اسما اعتباطيا أو انتقاء مجردا عن جوهر مكنون علينا أن نبحث فيه وكذلك مع اسم

عيسى وهذا ما سنفعل في البحث عن دلالة اسم يحيى إن شاء الله بعد  
برهنة.

وعليه فإنّ النبي يحيى نبيا حصورا حيث ساد يحيى نفسه ونوازعها  
وحفظها من طيش الشهوات بأنّ حصر السالب منها في حاجز الطاعة  
وترك الموجب منها تأتي نعم الله الحلال بإرادة ووعي لتتحقق صفة  
الحصور، وليس كما يدعى المدعون في تفسير الحصور، وهي أمور لا  
يمكن قبولها في الحديث عن حصورية يحيى من كونه حصورا لانعدام  
وسائل الاتصال لا لعفته وخلقه، وقد تصدى الرازي إلى الرد على ذلك  
بعد أن أجمل آراء المفسرين في هذه الصفة فيقول: "فلهم قولان أحدهما:  
أنّه كان عاجزا عن إتيان النساء، ثم منهم من قال كان ذلك لصغر الآلة،  
ومنهم من قال: كان ذلك لتعذر الإنزال، ومنهم من قال: كان ذلك  
لعدم القدرة، فعلى هذا الحصور فعول بمعنى مفعول، كأنه قال محصور  
عنهن، أي محبوس،، وهذا القول عندنا فاسد لأنّ هذا من صفات  
النقصان وذكر صفة النقصان في معرض المدح لا يجوز، ولأنّ على هذا  
التقدير لا يستحقّ به ثوبا ولا تعظيما.

والقول الثاني: وهو اختيار المحقّقين أنّه الذي لا يأتي النساء لا  
للعجز، بل للعفة والزهد، وذلك لأنّ الحصور هو الذي يكثر منه حصر  
النفس، والمنع إنما يحصل أن لو كان المقتضي قائما، فلولا أن القدرة  
والداعية كانتا موجودتين، وإلا لما كان حاصرا لنفسه فضلا عن أن يكون  
حصورا، لأنّ الحاجة إلى تكثير الحصر والدفع إنما تحصل عند قوّة الرغبة  
والداعية والقدرة، وعلى هذا الحصور بمعنى الحاصر فعول بمعنى  
فاعل 894.

قبل أن نضيف شيء نتساءل:

---

894 - تفسير الرازي، ج 4، ص 195.

أليس يجي بشرى من الله؟

أتكون البشرى الموهوبة ناقصة أو معيوبة؟

أليس يجي نبيا؟

أيمكن النبي بهذه الصورة المهينة حاشا لله من نقص الرجولة؟

إنَّهَا تَسْأَلَاتٌ تَحْمَلُ فِي مَضْمُونِهَا كُلِّ الرَّدُودِ عَلَى هَذِهِ الآرَاءِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي تَرِيدُ النَّبِيلَ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَرَسَلِهِ الَّذِينَ نَوَّعْنَا بَيْنَهُمْ وَلَا نَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَصْدَقًا وَطَاعَةً لِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: { أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْ كُفُوبَهُمْ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } 895.

ولنا أن نضيف شيء في تفسير ذلك يعتمد القاعدة اللغوية والميزان المنطقي، نقول إن الله عز وجل وصف يجي بصفة بصيغة التنكير الذي يفيد العموم فقال (حضورا) وذلك يشير إلى أمور كثيرة منها:

- إن الحصر يكون عاما عن كل ما يخالف الله من شهوات ونوازع ومحرمات.

- ليس بالضرورة النساء على وجه التحديد.

- أن ربط المسألة بالحصر عن النساء أمر فيه تحديد واللفظ عام.

- إن قصر الموضوع على جنس الناس معناه تحريم حلال مما أحل الله وهذا مستحيل على الله ونبيه يجي.

وبالفعل احتج البعض بهذه الآية على أن ترك النكاح أفضل وذلك لأنه تعالى مدحه بترك النكاح، وذلك يدل على أن ترك النكاح أفضل في

تلك الشريعة، وإذا ثبت أن الترك في تلك الشريعة أفضل، وجب أن يكون الأمر كذلك في هذه الشريعة بالنص والمعقول، أما النص فقوله تعالى: {أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده} 896، وأما المعقول فهو أن الأصل في الثابت بقاؤه على ما كان والنسخ على خلاف الأصل 897.

ومعلوم أن الزواج أصل فلا يمكن تحريمه في شريعة ثم حله في أخرى لأنه من أصول الخلق مصداقا لقوله تعالى: {يا أيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} 898.

وبعد أن ناقشنا في بحثنا هذا أن يجي كتابيا نقول: إن النص صريح بكون يجي أخذ الكتاب بقوة (خذ الكتاب بقوة)، هنا السياق يوحى بجدية الأمر وحتميته وأهميته ويجي في هذا الأمر غير مخير على اعتبار طاعته ونبوته واصطفائه، لأن أمر الله أكد عليه أمر الكتاب بأن جعله أمرا صريحا بالفعل خذ، ثم قرن ذلك الأخذ بالقوة وهي إشارة إلى طبيعة التكليف وجدية المسألة المكلف بها يجي.

ولفظه قوّة جاءت منكراً، وهذا التنكير الذي يكشف عن عموم غايته التنوع وسعة الدلالة عن القوّة حتى لنكاد نعجز عن حصر أنواع القوّة المقصودة التي يحث الله عزّ وجلّ نبيه يجي ليعمل بها، لكن يبقى تلمسنا لبعض أنواعها وهي:

ليست قوّة واحدة، فقد تكون قوّة من الله.

---

896 - الأنعام 90.

897 - تفسير الرازي، ج 4، ص 195.

898 - النساء 1.



أو قوّة الكتاب وحجته.

أو قوّة عقيدة يحيى.

أو القوّة المادية ليحيى.

الأمر الآخر هو أنّ عيسى لم يكن الرّسول الخاتم فمن الممكن أن تكون رسالة فيها بقية يتممها رسول أو نبي هو يحيى على هذا الاحتمال، أما محمّد صلوات الله وسلامه عليه فإنه الخاتم الذي كمل الدين برسالته (اليوم أكملت لكم دينكم) لذلك تنتفي كلّ الاحتمالات معه فيما يخص رسالة الكاملة.

وإذا كانت القوّة منكرة فإنّ الكتاب معرف (الكتاب) وهو كما نعتقد الإنجيل ولا يجوز القول بأنّه التوراة لأنّ ذلك يخالف النص القرآني الذي نسخ التوراة بالإنجيل، مصداقا لقوله تعالى: {قَالَتْ رَبِّ أُنَّى يُكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يُقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ} 899.

فالكاتب الذي تعلمه عيسى هو التوراة، لأنّ الإنجيل لم يزل في طور النزول، أمّا وقد نزل الإنجيل كاملا فقد نسخ التوراة لذلك كان أخذ يحيى للكتاب مقصود به الإنجيل.

هنا نتساءل:

ما هي علاقة يحيى بالكتاب؟

لماذا الأخذ بقوّة؟

وكيف يكون ذلك؟

نقول: إنّ المسألة الاحتمالية هي ليست قطعية حتما لذا فإنّ الاحتمال الآخر قائم لا محالة، وبما انه احتمال أيضا فهو ليس الأخير بل يبقى باب الاحتمال مفتوحا وهكذا حتى لو افترضت لمسألة احتمالين فانه يبقى هناك احتمال ثالث فلو قلت:

(أن يحيى مات قبل عيسى).

فانّ الاحتمال الآخر:

هو (إنّ عيسى رفع قبل موت يحيى).

ويبقى الاحتمال الآخر:

وهو أنّ الرفع ووفاة يحيى تزامنا حتى لا تكاد تجد فاصلا زمنيا حقيقيا بينهما.

ثم يحضر احتمال آخر هو غير كلّ هذه الاحتمالات وهكذا، ومن هنا نقول: إنّ النبوة كانت في زكريا قبل عيسى فلما جاء عيسى كانت الرسالة والنبوة عنده ولما رفعه الله إليه استمر التكليف بالرسالة ليحيى (خذ الكتاب).

الكتب تقترن بالرسول ويحيى لم يكن رسولا لأنه نبي بالنص (ونبيا) لكن مهمته كانت في رسالة عيسى هي أخذ الكتاب (الإنجيل) والعمل به بقوة والحرص على أن يعمل المؤمنون بهذا الكتاب ولذلك يحيى كان سيدا ليستطيع التوافق مع اخذ الكتاب بقوة.

لذلك وعلى الاحتمال المنطقي أن يكون أخذ الكتاب كان لمرحلة ما بعد رفع عيسى، والدلائل التي تؤيد ذلك كثيرة من أهمها إن عيسى رُفِعَ ولما يؤمن له إلا قليل (فلما أحس عيس منهم الكفر) عليه فإن العمل بالكتاب والتبليغ بمضامينه هي مهمة يحيى بعد زكريا.

وتقدم لنا خذ الكتاب بقوة أمورا منها:

- حتمية المهمة.

- أهمية هذا الكتاب.

- طبيعة مهمة يحيى فيه (التبليغ والعمل بقوة).

أن صيغة الأسلوب المتمثل بالممازجة بين الأمر (خذ) والصفة (قوة) يؤكد أن التكليف بالمهمة أمر فيه إصرار المواصلة وضرورة الإنجاز، وكأن الله عز وجل يخبر يحيى ويخبرنا أن الكتاب لازال فيه ما لم يصل إلى الناس ويريد من يحيى أخذه بقوة وتبليغ المستهدفين به.

فالكتاب مهم على هذا، هنا نسأل:

. هل هناك أهم من الإنجيل في ذلك العصر (رسالة عيسى ونبوة

يحيى)؟

والغريب الذي نريد أن نقف عنده هو إجماع المفسرين وإصرارهم على أن الكتاب هو التوراة، ولم يذكروا الإنجيل مطلقا مع إن أغلبهم ذكر احتمالا مفاده أن يكون كتابا آخر غير التوراة والإنجيل خص الله به يحيى كسائر الأنبياء والرسل؟

نقول: إن في ذلك تغافل عن حقيقة هي أن يحيى عاصر الإنجيل وسمع كلماته من رسول عاصره وصدق به، فهل الأولى أن يأخذ التوراة أم يأخذ الإنجيل المعاصر له آنذاك؟

يحيى عليه السلام مؤتى الحكم وهو صبياء، (وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) اعلم أن في الحكم أقوالا. الأول: أنه الحكمة. ومنه قول الشاعر:

واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت..... إلى حمام سراع وارد التمد

وهو الفهم في التوراة والفقہ في الدين.

الثاني: وهو قول معمر: أنه العقل روي أنه قال ما للعب خلقنا.

الثالث: أنه النبوة، وذلك لأن الله تعالى أحكم عقله في صباه وأوحى إليه وذلك لأن الله تعالى بعث يحيى وعيسى عليهما السلام وهما صبيان لا كما بعث موسى ومحمد عليهما السلام، وقد بلغا الأشد والأقرب حمله على النبوة لوجهين:

أن الله تعالى ذكر في هذه الآية صفات شرفه ومنقبته ومعلوم أن النبوة أشرف صفات الإنسان فذكرها في معرض المدح أولى من ذكر غيرها فوجب أن تكون نبوته مذكورة في هذه الآية ولا لفظ يصلح للدلالة على النبوة إلا هذه اللفظة فوجب حملها عليها.

أن الحكم هو ما يصلح لأن يحكم به على غيره ولغيره على الإطلاق وذلك لا يكون إلا بالنبوة فإن قيل كيف يعقل حصول العقل والفتنة والنبوة حال الصبا؟ قلنا: هذا السائل، إما أن يمنع من خرق العادة أو لا يمنع منه، فإن منع منه فقد سد باب النبوات لأن بناء الأمر فيها على المعجزات ولا معنى لها إلا خرق العادات، وإن لم يمنع فقد زال هذا الاستبعاد فإنه ليس استبعاد صيرورة الصبي عاقلا أشد من استبعاد انشقاق القمر وانفلاق البحر<sup>900</sup>.

وهذا ما اجمع عليه بقية المفسرين، ولكن اللفظ (الحكم) أوسع من ذلك دلالة أو اثنين، حيث تقول المعاجم اللغوية:

(حكم) والحكم العلم والفقہ قال الله تعالى وآتيناه الحكم صبيا أي علما وفقها هذا ليحيى بن زكريا وكذلك قوله الصمت حكم وقليل فاعله.

<sup>900</sup> تفسير الرازي، ج 10، ص 276.

ولا حُكْمَ إِلَّا لَكَ وَقِيلَ بِكَ خَاصِمْتُ فِي طَلْبِ الْحُكْمِ وَإِبْطَالِ مِنْ نَازِعِنِي فِي الدِّينِ وَهِيَ مَفَاعَلَةٌ مِنْ الْحُكْمِ وَحَكَّمُوهُ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُ أَنْ يَحْكُمَ وَيُقَالُ حَكَّمْنَا فَلَانًا فِيمَا بَيْنَنَا أَيْ: أَجْزْنَا حُكْمَهُ بَيْنَنَا وَحَكَّمَهُ فِي الْأَمْرِ فَاحْتَكَمَ جَازَ فِيهِ حُكْمُهُ 901.

فإذا كان اللفظ يحتتمل أن يكون الحكم بمعنى العلم ويحتتمل أن يكون بمعنى الحكومة، فلماذا يتم إغفال جانب دلالي مهم من دلالة اللفظ؟

لا شك أنّ الاحتمالين قائمان، ونعتقد أنّهما في الدلالة في الاحتمال، لأنّ الحكم الديني متحقّق لأكثر من نبي ورسول فقد كان يوسف حاكماً مالياً على مصر، وحكم داوود وسليمان في أمور الدنيا مصداقاً لقوله تعالى: {وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتِ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ} 902.

حناناً: (وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً)

يقال الحنان: الشفقة. ومن صفات الله تعالى الحنان. ومن كلام العرب: حنانيك، أي حناناً منك بعد حنان. وجعل حنان يحيى من لدن الله إشارة إلى أنه متجاوز المعتاد بين الناس.

والزكاة: زكاة النفس ونقاؤها من الخبائث، كما في قوله تعالى: (فقل هل لك إلى أن تزكى)

المسألة التي نريد أن نقف عليها هنا هي:

لماذا الوصف بهذه الصفات، هل هي غير موجودة عند احد سوى

يحيى؟

<sup>901</sup> لسان العرب مادة حكم، ج 12، ص 140.

<sup>902</sup> - الأنبياء 78.

ألم يتصف بهذه الصفات غيره؟

هل هي من العام أم من الخاص؟

نعتقد أنّ هذه التساؤلات تنطبق على أغلب صفات الأنبياء والرسل، من حيث أنّها تتوفر فيهم وفي غيرهم من العباد الصالحين، ومع ذلك فإننا نعتقد أنّ هناك مميزات يفاير بين حنان يحيى وغيره؟

ونعود إلى نص الآية لنلاحظ أن اللفظ المستخدم في التعبير هو (حنانا) أي بصيغة المصدر ومعلوم أن المصدر هو أصل تشتق منه المشتقات، هنا يمكن القول أنّ حنان يحيى هو مصدر لغيره فهو القدوة والأسوة والمثال، ونعتقد أنّ يحيى اتتسى بصفة الله عزّ وجلّ (حنان) على أكمل وجه حتى صار على درجة من التمام التي تؤهل حنانه ليكون مصدرا يستمد منه ويقتدى به، والأمر كذلك مع (زكاة) حيث كان يحيى على الدرجة المثلى من نقاء السريرة والإخلاص في العقيدة. وهذا يفسره سياق آية أخرى مصداقا لقوله تعالى: {وَأَمَّا الْعُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا} {903}.

لقد وصف الله عزّ وجلّ يحيى بأنه بر بوالديه لكن ذلك لا يعني أن بره يقتصر على الوالدين فقط بل هي صفة لازمة ليحيى في كلّ علاقاته الإنسانية القائمة على التواصل.

وصفة البرّ ليحيى جاءت في سياق تعداد الصفات الإنسانية المثلى في هذا النبي ومنها البرّ الذي يقابل الرحمة عند أبيه زكريا (رحمة ربّك عبده زكريا).

ويجى يستمد صفة البرّ من اسم الله البرّ وهو من الأسماء الحسنى لله تعالى، ولا نملك إلا أن نقف أمام الاسم الذي يفيض بكلّ معاني الجمال التي يمكن أن ترد على الخاطر أو تخرج حروفا على لسان أكثر أهل الأرض لنا ورافة ورحمة فكلّ هذا وغيره مشمول في حرفين يسبقهما (ال) التعريف اللذان يحويان لذي القلب الرقيق أن كلّ رحمة وعطف ولين ومحبة قد جمعت في (بر)، و(ال) السابقة التي تفيد الاستغراق والتخصيص فلا (بارّ) ينتهي ببه إلى برّ (البرّ).

البرّ: هو الذي يلتجئ إليه عند كلّ حاجة أو شدة، وهو الذي يمد بالعون والمنفعة، فيكرم ويغني ويرحم ويعز من يشاء ويدل من يشاء، وهو على كلّ شيء قدير.

والبرّ هو المتسع بملكه وهيمنته وبواسع رحمته، وهو الذي يملك الملك بالمطلق فلا ينقص من به شيء، وهو الرّحمن الرّحيم.

البرّ الرّحيم: هو الذي يرحم كلّما تم الالتجاء إليه، ولذا كلّما التجأ إليه أحد حفظه من كلّ سوء وعطش وجوع وفاقة. فالبرّ هو الذي يستوعب الكلّ دون أن يستثني أحد من به، ولذا فهو البرّ الكامل بالحسنات ولا نقيصة فيه.

البرّ مصدر وليس مشتقا، أي انه مصدر للاشتقاق، ولذا تستمد الحسنات منه.

فالطائر الذي يحمل الطعام في منقاره الصغير لأفراخ له أعجزها البرّ والصغر والضعف، ممن استمد هذا الحنان؟

استمده من الله البرّ.

والحيوان الذي يحنو على صغيره بالرغم من كونه وحشا غير أليف،  
من الذي دفعه لتلك الرحمة الحانية على صغير مجهول المستقبل في علاقته  
بأبويه؟

دفعه لهذه الرحمة الله البرّ الرحيم.

على ذلك فإنّ يحيى النبي العارف بمصدر استمداد الصفات نهل من  
معاني الاسم الكريم وعمل بها سلوكا تاما. أي أنّ البرّ الذي خُلق عليه  
يحيى هو المحتوي لصفة البرّ المنعم بها على يحيى من البرّ العظيم.

ولأنّ البرّ فضيلة خيرة ولا تستمد إلا من البرّ الرحيم فعلينا أن  
نتوسّع في تبيان برّ الله تعالى.

البرّ من الأسماء الحسنى لله تعالى، ولا نملك إلا أن نقف أمام الاسم  
الذي يفيض بكلّ معاني الجمال التي يمكن أن ترد على الخاطر أو تخرج  
حروفا على لسان أكثر أهل الأرض لينا ورأفة ورحمة فكلّ هذا وغيره  
مشمول في حرفين يسبقهما (ال) التعريف اللذان يحويان لذي القلب  
الرقيق أن كلّ رحمة وعطف ولين ومحبة قد جمعت في (بر)، و(ال)  
السابقة التي هي للتعريف تفيد الاستغراق والتخصيص فلا (بارّ) ينتهي  
ببره إلي برّ (البرّ).

هو المحسن والبرّ المطلق هو الذي منه كلّ مبرة وإحسان والعبد إنّما  
يكون برا بقدر ما يتعاطاه من البرّ ولا سيما بوالديه وأستاذته  
وشيوخه<sup>904</sup>.

البرّ فاعل البرّ والإحسان<sup>905</sup>.

<sup>904</sup> الغزالي المقصد الأسنى، ص 139.

<sup>905</sup> الإيجي كتاب المواقيف، ج 3، 323.



البرّ من أسماء الله تعالى وتقدس "العَطُوفُ الرَّحِيمُ اللطيف الكريم"  
قال ابن الأثير: في أسماء الله تعالى البرّ دون البارّ وهو العَطُوف على  
عباده بِبِرِّهٍ ولطفه، والبرّ والبارّ بمعنًى وإنما جاء في أسماء الله تعالى البرّ دون  
البارّ 906.

البرّ: هو الذي يلتجئ إليه عند كلّ حاجة أو شدة، وهو الذي يمد  
بالعون والمنفعة، فيكرم ويغني ويرحم ويعز من يشاء ويذل من يشاء، وهو  
على كلّ شيء قدير.

والبرّ هو المتسع بملكه وهيمنته وبواسع رحمته، وهو الذي يملك  
الملك بالمطلق فلا ينقص من بره شيء، وهو الرّحمن الرّحيم.

البرّ الرّحيم: هو الذي يرحم كلّما تم الالتجاء إليه، ولذا كلّما التجاء  
إليه أحد حفظه من كلّ سوء وعطش وجوع وفاقة. قال تعالى: {وَاتْلُ  
عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ  
لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ قَالُوا  
بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ قَالَ أفرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ  
الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي  
هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ  
وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّي  
بِالصَّالِحِينَ} 907.

البرّ الرّحيم هو الذي يستوعب الكلّ دون أن يستثني أحد من بره،  
ولذا فهو البرّ الكامل بالحسنات ولا نقيصة فيه.

<sup>906</sup> لسان العرب، ج 4، ص 54.

<sup>907</sup> الشعراء 69 - 83.

البرّ مصدر وليس مشتقا، أي انه مصدر للاشتقاق، ولذا تستمد الحسنات منه.

فالطائر الذي يحمل الطعام في منقاره الصغير لأفراخ له أعجزها البرّد والصغر والضعف، ممن استمد هذا الحنان؟  
استمده من الله البرّ.

والحيوان الذي يحنو على صغيره بالرغم من كونه وحشا غير أليف، من الذي دفعه لتلك الرحمة الحانية على صغير مجهول المستقبل في علاقته بأبويه؟

دفعه لهذه الرحمة الله البرّ الرحيم.

ومع أنّ يحيى جبّار مطيعا؛ فيحیی لم يكن جبارا عصيا أي متكبرا متعاليا عن قبول الحقّ والإذعان له أو متطاولا على الخلق؛ وقيل: الجبار هو الذي لا يرى لأحد عليه حقّا.

وقال الرّاعب: هو في صفة الإنسان يقال لمن يجبر نقيصته بادعاء منزلة من التعالي لا يستحقّها.

وعصيّّا مخالفا أمر مولاه عزّ وجلّ، وقيل: عاقا لأبويه وهو فعول وقيل: فعيل، والمراد المبالغة في النفي لا نفي المبالغة.

فهل هذا يعني أنّه لم جبارا؟

لقد كان يحيى جبارا متّقيا لله عزّ وجلّ يستمد صفته من اسم العزيز الجبار الذي يجبر بين الناس فلا ينقطع بينهم الوصل وهو فيهم وهذا هو دور الأنبياء والرّسل أن يكونوا واصلين لا قاطعين وهم كذلك والحمد لله من قبل ومن بعد.

وعليه فالجبار هو الذي يجبر العلاقات بعد انقطاعها، ويجبر العظم بعد كسره، ويجبر الشفاء بعد مرضٍ، وهذه القدرة لا تكون إلا صفة الجبار الأعظم، ومن هنا، كان جبر الخواطر صفة من صفات يحيى عليه السلام، وجبر الضرر مع العفو والتسامح، وهذه جميعها لا تستمد إلا من الجبار جلّ جلاله؛ فمع أنّ الأنفس تتنوع وتتعدد بالشح والاطمئنان واللوم والأمر بالسوء والأمر بالمعروف، إلا أن منها ما يتألف بعضه مع البعض، ومنها ما يرفض بعضه بعضا، وبالإجبار تتم الموائمة طوعا وكرها، قال تعالى: {وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} 908 وفي كلتا الحالتين (الطوع والكره) هناك إجبار:

الإجبار الإرادي بالقبول والاستحسان والتألف وهو القبول الطوعي الذي تترتب عليه صلة وعلاقة برغبة، وهذا الأمر يجعل العلاقة بين الأنفس تمتد وتربط بقبول مع فائق التقدير والاحترام المتبادل.

الإجبار بالقوة المسيطرة التي تجعل الليل يأتي في مواعيده والنهار كذلك مع انعدام الاستطاعة والتدخل في التقديم أو التأخير أو التعديل.

وقاعدة جبر النفس، تعني أن النفس كمفردة لا تُجبر إلا مع نفس الآخر قال تعالى: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} 909، وزواج الأنفس يتم أولا بدخولها البناء البدني للإنسان والاندماج فيه والاصطباق بخصوصيته. وثانيا بقبول الآخر والاستئناس له. فهناك من يقبل البعض ولا يقبل البعض الآخر، أي كما يقولون هناك من يوصف بثقل ملائكته، وهناك من يوصف بخفتها، بمرحها وانبساطها بالبشاشة والمحبة، وهذه تؤدّي إلى القبول والميل إلى المشاركة والتحاب للأنفس الأخرى وتؤدّي إلى جذبها

---

<sup>908</sup> آل عمران 83.

<sup>909</sup> التكوير 7.

والتعلق بها. وبالتعلق يحدث إجبار النفس مع النفس، الذي لولاه لكانت كل نفس هائمة في بعدها واستقلاليتها عن الأخرى.

ومع أنّ الدين مصدر للعقيدة، إلا أنّ الدين من عند الله تعالى، أمّا العقيدة فهي رابطة قيمية وأخلاقية توثق بين الناس وبين ما يعتقدون فيه أو يؤمنون به. ولذا لولا الإجبار ما كانت العلاقة بين الدين وبين البشر، فالبشر مادة لهم من العواطف والمشاعر والأحاسيس. أمّا الدين فكلمّ وحرّج ومواعظ تُنظّم حياة الأفراد والجماعات والمجتمعات الإنسانية، وارتباط البشر إيماناً بالكلم الحق لا يتم إلا بقوة الجبار الحكيم، وإلا كيف يمكن لها أن تتم لولا مشيئة من يريد لها أن تتم بيسر ومحبة وشوق. وهذا الأمر لا يجعل الإكراه فعلاً قاسياً، بل أنه الفعل المتمشي مع طبيعة الخلق. وفي مقابل ذلك عندما يظهر فعل الرفض للدين أو المعتقد يظل في فعل أمره غير متمشي مع الطبيعة الخلقية.

ودائرة الدين أو العقيدة تمتد لتتجاوز دائرة الأبوة والأخوة وذوي القرى وبنى الوطن أو العرق لتحتوي جبراً من يؤمن بالمعتقد الواحد حتى يندمج أصحابها في إحساس ومشاعر مشتركة تستوجب التقدير والاعتراف بالمساندة والمؤازرة والفداء المتبادل بحاسة الدين والمشاعر التي أنتجتها وجعلتها في حالة مدد بين الذين يدينون بالدين الواحد أو المعتقد الواحد.

إنّ الناس بطبعهم يحبون ويكرهون، يغضبون وينبسطون، وبهذا تكون عليهم ولهم مأخذ، ممّا يجعل الأخوة وذوي الحقوق يحتجون على بعضهم في كلّ تقصير أو ارتكاب خطأ، ويجعل الكبير يأخذ بيد الصغير، ويجعل الصغير في حالة أدب يعتذر لمن هو أكبر منه سناً، ويجعل المؤمن يستغفر من كلّ ذنب ويتسامح، فبهذه المواعظ والعبارات الإصلاحية تُجبر الخواطر، وبها تكون اللّحمة، وتعود المياه كما يقولون لمجاريها، {قَالُوا

يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ {910} وقوله تعالى: {وَهُوَ  
الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا  
تَفْعَلُونَ} {911}. الذي يقبل التوبة ويعفو عن السيئات هو الجبار جلّ  
جلاله الذي يأمر بالتسامح في كتابه العزيز بين الناس المستخلفين في  
الأرض.

ومن يريد أن يكون خليفة عليه بالتسامح الذي به تُجبر الخواطر بين  
الناس وخاصة ذوي العلاقة، ولهذا فالاعتراف بالخطيئة فضيلة بين الناس  
في كثير من الأحيان يترتب عليها أفعال التسامح لا أفعال الإدانة التي  
تصدر في دوائر المحاكم التي تُجرّم كلّ من يعترف بذنب أو عملٍ يقترفه،  
ومع ذلك بالتسامح يتم الإعفاء وبالاستغفار تزداد التوبة.

وعليه ينبغي أن تكون الأحكام قيمية تستمد قوتها وحجّتها من  
مصادر التشريع، لتؤيد عقابا، أو لتنصف مظلوما، أو لتبرئ متهما، أو  
لتعفو عن سيئة. ولهذا فإن جبر الخواطر لا يتم إلا بجبارٍ ماهرٍ في معرفة  
تناول المواضيع والقضايا بين الناس، وفي هذا المقام يُعد الجبر مصدر  
للإصلاح وعودة للعلاقات إلى ما يجب أن تكون عليه، وهو ما يرضي  
الله تعالى.

إنّ جبر الخواطر يعيد الاتصال بالآخر والتواصل معه ويفتح آفاق  
التعايش والسّلام من أجل علاقات مشتركة ومستقبل أفضل.

وعليه: إنّ أساس حَلِقِنَا حُلِقِنَا فرادى، وفي أساس وجودنا وتكاثرنا  
جُبرْنَا أزواجا مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ  
أَوَّلَ مَرَّةٍ} {912} هذا من حيث الخلق كلّ فرد لا يمكن أن يتطابق مع

---

<sup>910</sup> يوسف 97.

<sup>911</sup> الشورى 25.

<sup>912</sup> الأنعام 94.

الآخر، والدليل الشاهد على ذلك البصمة التي بها يتميز كل فرد عن غيره، ولهذا لا يشتهه اثنان في البصمة الواحدة مما جعل الفروق بين الخلق من حيث الخلق لكل مفردة خصوصية تتميز بها عن غيرها من الخصوصيات الأخرى التي هي الأخرى تتميز بما تمتاز به من خلق الرحمن. وإلى جانب التميُّز الخُلقي كذلك يتميز الأفراد خُلُقًا بما يقولون وبما يعملون من أعمال تدخل بعضهم الجنة وتدخل غيرهم النار. قال تعالى: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} 913.

ومع أن أساس الخلق فرادى، إلا أن أساس البقاء والاستمرارية هو الزوجية، مصداقا لقوله تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} 914. وقوله عز وجل: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} 915، فالجعل في الأرض هو الاستخلاف فيها، والاستخلاف لا يتم إلا بالإجبار الزوجي، ولأجل ذلك خلق الله تعالى الكائنات أزواجا أي من كل نوع خلق الذكر والأنثى، فتضاعفت الأنواع جميعها جبرا حتى أصبحت على ما هي عليه طوعا وكرها.

ومع أن الأنثى نوع مستقل بذاته والذكر كذلك، إلا أن التقائهما لا يتم إلا جبرا، سواء كان غريزة أو وفق شرعة ومنهاج، ولهذا يعد الزواج جبرا لعلاقة تستوجب الاستمرار والاتصال والتواصل، والجبر هنا يعني

<sup>913</sup> الإسراء 13 . 15.

<sup>914</sup> الذاريات 49.

<sup>915</sup> فاطر 11.

وجود رابطة تُوجِّد علاقة طيبة بين اثنين كان كلٌّ منهما منفصل أو مستقل عن الآخر، والحاجة تتطلب التقائهما بمودة، والشريعة والسنن تؤسس لها القواعد التي تُرضي الخالق والمخلوق دون أن تترك ذنبا وإثما.

وهكذا الأبوة عاطفة يستمدّها الأبناء من الآباء، والأمومة عاطفة يستمدّها الأبناء من الأمهات، أي بالالتقاء الشرعي بين الزوجين جبرا، يكون الجنين نتاج الاثنين المشترك هو الثالث جبرا، أي لولا جبر الزوجين ما كان الثالث مولدا يجمع خاصيتين في واحد عدد.

### النبي عيسى:

لا يزال الحديث عن السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلّاة والسّلام يتجدد كلّ يوم، ولا تزال الأفكار يخدم جدلها ما بين باحث عن حقّ يقين وآخر مدافع عن ضلال مبین، وفي هذا الوسط وعلى درجة من التّأني والروية وبمستويات الاعتراف والتقدير والاحترام للآخر ارتأينا البحث في سيرة سيدنا عيسى ابن مريم وقضايا رسالته الفكرية والعقدية وما أثارته من جدل في مسائلها بين الباحثين، وكذلك قضايا من معه من الأنبياء والصديقين والحواريين.

ولا نغالي إذا قلنا إنّنا نُهجننا منهجا تحليليا شموليا في النظر بكل القضايا، فما تركنا شيئا في موثوقيتنا المعرفية إلا وتناولناه بالعرض والتحليل.

وقد يسألنا سائل ما هي موثوقيتكم المعرفية؟

نقول:

إنّ البحث الجاد عن الحقيقة أولى له أن يترك كل ما لا يُعقل أو يُدحض أو ما يُنفي بما هو أقوى منه إلى ما يحصل معه التسليم.

فكان القرآن الكريم المصدر الرئيس لموضوع بحثنا، وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أن اعتمادنا النصّ القرآني لما فيه من قوّة الحجّة ورسوخها، كما أنّ أصحاب العقول المنصفة لم يجدوا في القرآن ما يخالف المنطق أو يجافي الحقائق.

عليه: فاعتمادنا على النصّ القرآني مدعم من جوانب كثير جدا، ولا نعتقد أن في ذلك تعفسا للفكر المحاور أو مصادرة لقناعاته لأننا ندعوه للحوار الفكري المستند على النصوص الموثوقة.

كما أنّ من موثوقيتنا المهمة في عرض الأفكار والقضايا والموازنة بينها وترجيح أحدها كانت الحجّة والمنطق.

إنّ منطق العقل المجرد المحايد يستند على إيمانه وصدق عقيدته وإخلاصه للبحث عن الحقيقة ولا شيء غيرها، ساعين إلى تلمس عراها في كل ما يدل عليها.

ولا يخفي على من يقرأ عن عيسى صلّى الله عليه وسلّم أهمية البحث في سيرته صلّى الله عليه وسلّم، ذلك أن متغيرات رئيسة حدثت معه في البدء والانتهاء، ففي الخلق حدث أن حُلق مغايرة لجميع البشر من أم ومن غير أب فغايرت آية خلقه حتى خلق آدم الذي خلق من غير أم ومن غير أب، وفي الانتهاء رُفع عيسى إلى السماء، وكانت نهاية أراد الله أن تكون مغايرة لنهايات جميع خلقه فيما نعرف، ذلك أدى إلى أن تتوه الأفكار التائهة التي لا تستند في معارفها على موطئ صلب، وفي مقابل ذلك ازداد المؤمنون إيمانا برّبهم وزادهم من عنده هدى.

وتناول هذا البحث عددا من القضايا المهمة منها خلق عيسى الذي كان من أكثر القضايا المختلف عليها بين الباحثين، وذلك لعدم قدرة بعض الباحثين من الماديين على قبول حقيقة أن عيسى ولد من أم



ومن غير أب بأمر الله عزّ وجلّ متناسين أن آدم وهو أب للبشرية كلها خلق من غير أم وأب، وهذا هو المنطق الفكري الذي انطلقا منه في عرض هذا الموضوع.

كما فصلنا في رسالة عيسى، وكتابه (الإنجيل)، وميثاقه، ووصية الله له، وخصوصية الجعل في عيسى، وادعاءات الثلاث والبنوة والشرك، وتمت مناقشة هذه القضايا مناقشة مستفيضة بكل ما نعتقد من حجة ومنهج، وذلك لأن هذه القضايا من الخطورة والأهمية بمكان يلزمنا البحث فيها.

ومن جانب آخر فإنّ رسالة عيسى عاصرها عدد من الأنبياء هم زكريا ويحيى والصدّيقة مريم والحواريين أخلصوا ما أوحى الله لهم فنصروا دين الله ورسوله عيسى صلّى الله عليه وسلّم فكان لكل هؤلاء مكان في هذا الكتاب.

أمّا عن خلق عيسى فهو يشابه خلق آدم دون أن يكون ذاته، ويتبيّن ذلك من خلال حقائق التناظر والتباين الآتية:

أولاً: حقائق التناظر:

- آدم وعيسى خلقا إعجازا بدون اتصال جنسي.

- خلق آدم وعيسى بالأمر (كن).

- روحهما من الله مباشرة.

- سمّى الله ادم وعيسى بأسمائهما.

- تعلم الاثنان من علم الله.

ثانياً: حقائق التباين:

1 . آدم أصل وعيسى فرع.

2 . آدم لم يكن له أم وعيسى أمه مريم.

. ادم خلق بكلّ المراحل في السماء، وعيسى خلقه مشترك فالأمر سماوي والخلق ارضي.

. آدم خلق مكتملا جسدا وعقلا في برهنة الأمر (كن) بينما خضع عيسى في نموه لقوانين الأرض.

تعلم آدم أصول الأشياء، وتعلم عيسى دقائق الأشياء.

أولا: حقائق التناظر.

الخلق من التراب

يرتكز الإيمان بهذه الحقيقة على طبيعة المتعاطي لها، فإذا كان من أصحاب اتجاه الإيمان بالغيب فيكفيه أن يقرأ قول الله تعالى (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ)، فيوقن بما فيه دون الحاجة إلى إثبات آخر، أمّا أصحاب الاتجاه المادّي فلن يكون بالإمكان محاورتهم إلا بما يؤمنوا به من مادية بحتة وبأدلة مادية صرفة، وهذا أمر يمكن أن نقدمه لهم لإيماننا أن القول الإلهي هو حقيقة يقينية صادقة تدل عليها آيات الله ومنها الآيات المادية، فلو نظر أحدهم إلى أحد إسلافه وقد كُتِبَ عليه الله الموت من قبل أترى يستطيع أن يميز اللحم من التراب فيعرف الأصل عن غيره؟

ثمّ أتراه يستطيع أن يستخرج أي شيء من أعضاء جسد الميت أو أن يعرف أين صارت؟ ثم هنا، نأتيه بما يؤمن، حيث أنّ العلم المادّي يقول: أنّ المادة تتحلل إلى عناصرها الأولية، وما في القبر إلا التراب! صار لزاما عليه أن يؤمن أن الجسد البشري مخلوق من تراب بهذه الأدلة

المادية. وهكذا آدم وعيسى صلى الله عليهما وسلّم خُلقا من تراب  
لأُمَّهما بشر.

## 2- الخلق الإعجازي بدون اتصال جنسي.

هذه القضية يقينية بالنسبة لنا سواء أكانت لآدم أم كانت لعيسى،  
ونشك أنّ هناك من يقول غير ذلك عن آدم، ولكن الشك في خلاف  
هذا القول يأتي مع عيسى صلى الله عليه وسلّم ومن المهم مناقشة الأمر  
للووصول إلى مقارنّة لفهم الحقيقة.

نقول إن الأمر لا يعدو عند المشككين إلا انصرافا كاملا للبحث  
عن:

النطفة!

من أين جاءت؟

كيف جاءت؟

والإجابة عن هذه التساؤلات تنحصر في القول الآتي: إن انصراف  
هؤلاء للبحث عن النطفة ومحاولة إيجاد علاقة نسبية لعيسى صلى الله  
عليه وسلّم على أساس البحث عن مصدر النطفة هو محض جهل يتمثل  
في البحث عن الشيء في غير موضعه، وهم في ذلك بين محب مغالٍ  
يقول: إنّ عيسى صلى الله عليه وسلّم هو ابن الله { وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ  
ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ  
قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } 916، وبين مبغضٍ  
قال يقول إنه ابن يوسف النجار كما قالت طائفة من اليهود 917، وهذا

---

916 - البقرة 30.

917 - الفصل في الملل، ابن حزم، ج 2، ص 11.

في الحقيقة بهتان عظيم كما وصفه الحق سبحانه وتعالى فقال عن فعلهم وقولهم: { وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا } 918.

أما نحن فنقول مؤمنين:

إنَّ خلق عيسى كمثل خلق آدم ولا نطفة على الإطلاق في خلق عيسى صلى الله عليه وسلّم لأنه في خلق آدم لم تُذكر النطفة في كل الآيات التي جاء الحديث بها عن خلق آدم بل ذكر الصلصال المسنون مصداقا لقوله تعالى: { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ } 919، عليه يتبين أنَّ الصلصال سوي ثم نفخت فيه الروح دون نطفة، وعيسى كذلك لم تدخل النطفة في خلقه وإنما هو أمر الله (كن) فكان عيسى في لحظته جنينا متكامل النمو خلقا معجزا من الله ليكون آية مصداقا لقوله تعالى: { قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَمَا بَمَسِّنِي بَشَرًا وَمَا أَكُّ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا } 920.

هنا نتساءل:

هل تقتصر قدرة الله على خلق آدم من دون نطفة؟

بالتأكيد الجواب يحمله التساؤل لان الله القادر على كل شيء خلق آدم من غير نطفة وكذلك خلق عيسى ابن مريم من غير نطفة.

أما الآيات التي يأتي فيها ارتباط خلق الإنسان بالنطفة كما في قوله تعالى: { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ

---

918 - النساء 156.

919 - الحجر 28-29.

920 - مريم 20-21.

مَكِينِ {921، فهذا من الثوابت الأساسية للخلق من دون إعجاز أي بقية البشر، وهي من القوانين الإلهية التي وضعها ثوابت في كون متحرك متغير كالزمن والضوء، فهي من الثوابت التي تُسيّر الكون المتحرك.

### 3- الخلق بالأمر كن.

خلق آدم وعيسى صلى الله عليهما وسلّم بالأمر الله (كن)، وكن هذه ليس كلمة من حرفين كما قد يتوهم البعض، بل هي حالة الاكتمال المطلق في لحظة المشيئة مع بقاء الثوابت في موازينها، فكما مرّ آدم بمراحل مرّ عيسى بمراحل، إذ لم يُخلق بكن على هيئة الاكتمال الخلقى بل مرّ بالطفولة ثم الفتوة إلى الكهولة، لكن الأمر (كن) قضى بأن يكون آدم ليُجعل خليفة، ويكون عيسى نبيا ورسولا. أما المراحل فهي من محصلات الأمر (كن) مشاركة مطيعة في تنفيذه.

وهنا فإنّ عيسى عليه السّلام آية من آيات الله في خلقه؛ فقد خلقه في بطن أمّه العذراء بروح منه جلّ جلاله. حيث جاء الملك جبريل إلى السيدة مريم وهي تتعبّد، حيث بشرها بأنّها ستلد ابنا له قدسية، وأنّه سيكون رسولا من رسل الله ونبيا من أنبيائه دون أن يكون له والد، وهذه هي الآية المعجزة؛ فعيسى عليه والصّلاة والسّلام كان حمله استثنائيا، وكلامه استثنائيا.

كانت لدى عيسى عليه السّلام القدرة على فعل بعض المعجزات كسائر المرسلين والأنبياء مع الاختصاص بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله.

ويقال أنّ في زمان عيسى عليه السّلام كان علم الطب متقدّما، فلما رأى أهل ذلك الزمان إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص علموا

أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ حَدِّ صِنَاعَةِ الطَّبِّ، وَإِنَّهَا مَعْجِزَةٌ لِعِيسَى مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛  
لِيُؤْمِنُوا بِرِسَالَتِهِ وَيَتَّبِعُوهُ 922.

عَلَّمَ اللَّهُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ  
وَجَعَلَهُ رَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَيْ، بَعْدَ أَنْ انْحَرَفَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَنِ  
الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَتَجَاوَزُوا حُدُودَ اللَّهِ؛ فَأَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ وَأَنْكَرَ فَرِيقٌ  
مِنْهُمْ الْبَعْثَ وَالْحِسَابَ وَالْعِقَابَ، وَانْغَمَسُوا فِي الشَّهَوَاتِ وَالْمَلذَّاتِ حِينَئِذٍ  
بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولًا مُنْقِذًا.

قَامَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِدَعْوَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ،  
وَالْعَمَلِ بِأَحْكَامِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ. وَأَخَذَ يُجَادِلُهُمْ وَيُبَيِّنُ لَهُمْ فَسَادَ مَسْلِكِهِمْ،  
وَلَكِنْ لَمَّا رَأَى عِنَادَهُمْ وَظَهَرَتْ بُوَادِرُ الْكُفْرِ فِيهِمْ وَقَفَ فِي قَوْمِهِ قَائِلًا:  
مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ فَأَمَّنَ بِهِ الْخَوَارِيُّونَ وَعَدَدَهُمْ اثْنَا عَشَرَ قَالَ تَعَالَى:  
{ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ  
نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا  
الرَّسُولَ فَكَتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ } 923

وَمِنْ آيَاتِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ يَعْلَمُ بِمَجْمَدٍ عَلَيْهِ وَالصَّلَاةَ  
وَالسَّلَامَ رَسُولًا مِنْ بَعْدِهِ، أَيْ أَنَّهُ قَدْ بُشِّرَ بِهِ، وَبِهِ بُشِّرَ مِنْ بَعْدِهِ. { وَإِذْ  
قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ  
يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ  
بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ } 924.

وَمَعَ أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَلَكِنَّ  
أَهْلَ الْكِتَابِ قَالُوا عَنْهُ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ، وَفِيهِ قَدْ اخْتَلَفُوا؛ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ:

<sup>922</sup> مختصر إظهار الحق، ص 161.

<sup>923</sup> آل عمران 52، 53.

<sup>924</sup> الصفات 6.

هو ابن الله، ومنهم من قال: هو ثالث ثلاثة، ومنهم من قال: هو الله،  
ومنهم من قال: هو عبد الله ورسوله. ونحن نقول بلا تعصب والحق بيّنة  
من الله، أنّه عبد الله ورسوله. {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ  
مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} 925.

ومع ذلك قد جعل الله في أتباع عيسى والمؤمنين به رافة ورحمة،  
ولذا؛ فهم أقرب مودة لأتباع محمد عليه والصلاة والسلام، مصداقا لقوله  
تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا  
وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ  
قِسِّيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} 926.

وسمي عيسى عليه السلام بالمسيح "لأنّه كان لا يمسح بيده ذا عاهة  
إلا وقد شفي، وهناك من يقول: إنّه خرج من بطن أمه ممسوحا بالدهن،  
أو كان يمسح الأرض أي يقطعها" 927. وهذه من صفاته. وكذلك  
الحكمة من صفاته حيث قال: "من علم وَعَمِلَ فَذَلِكَ يَدْعَى عَظِيمًا فِي  
مَلَكُوتِ السَّمَاءِ" 928.

كان عيسى عليه السلام نبيا متواضعا يلبس الشعر ويأكل مما يتوفّر  
لديه، وفي هذا الأمر قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: "كَانَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ  
يَلْبَسُ الشَّعْرَ وَيَأْكُلُ مِنَ الشَّجَرَةِ وَيَبِيتُ حَيْثُ أَمْسَى. وَكَانَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَلْبَسُ الصُّوفَ" 929.

---

925 النساء 159.

926 النساء 82.

927 كنز العمال، 3، ص 342.

928 المقصد الأسنى، ص 110.

929 التعرف لمذهب أهل التصوف، ص 22.

عيسى ابن مريم المسيح الكريم عليه والصلاة والسلام لا يقبل الكذب من أفواه الناس ولا يقبله سلوكا؛ فذات مرة يروى أن "عيسى عليه السلام رأى رجلا يسرق، فقال له: أسرقت؟ قال لا والذي لا إله إلا هو. فقال عيسى: آمنت بالله وكذّبت بصري" 930.

وعليه: نحن نعتقد أنّ صفات الله المطلقة بالسمع والإجابة هي أقرب إلينا من جبل الوريد، ونحن نعتقد يقينا أنه السميع لنا والمجيب لنا، أمّا الرّسل صلّى الله عليهم وسلّم فهو السميع لهم والمجيب عليهم، وعلينا أن نتبيّن المعنى الدلالي للكلمات ونفرق بين (السميع لنا والمجيب لنا) وبين (السميع لهم والمجيب عليهم)، ففي الحالتين نستوي أنه السميع لهم ولنا، ويكون الاختلاف بين (المجيب لهم) التي تدلّ على الإجابة المباشرة وبين (المجيب لنا) التي تدلّ على الإجابة غير المباشرة، فالأولى تفتح آفاق الكلام المباشر، والثانية تقفله وتفتح باب الإجابة دون الاستماع إلى الكلام المباشر كما هو الحال مع الرّسل في كثير من الأحيان، قال تعالى: {أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} 931.

عيسى صلّى الله عليه وسلّم هو مؤتى البينات والمؤيد بروح القدس، قال تعالى: {وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ} 932، ولذلك فهو وجيها في الدنيا والآخرة وهو من الصالحين والمقربين.

إنّه مكلمّ الناس في المهدي وهذه لم تؤت إلا له ولآدم الذي خلق من قبله على التمام إنسانا راشدا، ولذلك لم يكن عيسى صلّى الله عليه

---

<sup>930</sup> كشف الخفاء ط القدسي، 2، ص 292.

<sup>931</sup> محمد 14.

<sup>932</sup> البقرة 87.



وسلم ثالث ثلاثة كما يظن بعضهم، الذين يريدون أن يشركوا بالله في خلقه وملكه، ومن المستغرب في الوقت الواحد يؤمن الناس بأن أمر كن لا يكون إلا بيد الله وهو الحق، وهو الذي به كان عيسى ابن مريم مسيحا مرسلا، وفي الوقت ذاته يؤمن البعض بأن عيسى ابن الله! فكيف يؤمنوا بذلك وهم يؤمنون بأن الله لا يتجسد في المادة بالمطلق؟ أي أنّ مريم روح ومادة وكلاهما من المخلوقات بالأمر كن، وأن عيسى روح ومادة (جسد) وفقا لقاعدة (كن فيكون) وأن الله ليس بروح ولا مادة وهو يخلق ولا يُخلق، قال تعالى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} 933.

أقول نعم، لا مجال للمقارنة، المخلوق لا يمكن له أن يقارن بالخالق جلّ جلاله.

بُعث عيسى صلى الله عليه وسلم بمعجزاته رسولا إلى بني إسرائيل يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله، {أَيُّ أَحْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ} 934، يُفهم من هذه الآية الكريمة أنّ عيسى لم يخلق طيرا، بل خلق هيئة له، (شبيهة بالمشبه) والذي يُعظم هذه المعجزة هو نفخه للروح فيه بإذن الله ليكون طيرا، ولذا فكلما تحقّق النفخ تحققت معجزة عيسى صلى الله عليه وسلم التي إذن له الله بها، ولأنّ الأذن من الله يخلق المعجزات؛ فالله الباقي باقي إذا أعطى معجزة لعبده لا بدّ أن تتحقّق ولا استغراب في ذلك، ولذلك من لا يؤذن له من الله لن يخلق معجزة.

<sup>933</sup> النحل 17.

<sup>934</sup> آل عمران 49.

عيسى صلى الله عليه وسلم صاحب المعجزات بإذنه تعالى يرى  
الأكمه والأبرص ويحيي الموتى وهو منبئ ومصدق لما بين يديه من التوراة  
ومحل لبعض ما حُرم ومبشر للخير وداع إليه.

بُعث عيسى صلى الله عليه وسلم إلى بني إسرائيل مصدقا لمن قبله  
من الرسل ومبشرا بخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم مصدقا لقوله  
تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ  
مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ  
أَحْمَدُ} 935.

المسيح عيسى ابن مريم على المستوى البشري هو الوحيد الذي  
أعلمنا الله برفعه إليه وبقائه حيا، فهو لم يُقتل ولم يُصلب ولم يمّت بعد  
ولكن شُبّه لهم، والشبيه كما يعلم الكل ليس بالمتطابق مع المشبه قال  
تعالى: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ  
وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ  
مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا  
حَكِيمًا} 936.

وعليه أذن الله لعيسى صلى الله عليه وسلم أن يخلق من الطين  
كهية الطير فخلقه طيرا بأذنه عز وجل، قال تعالى: {أَبِّي قَدْ جِئْتُكُمْ  
بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَبِي أَحَلِّقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ  
طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ} 937. إنها معجزة من المعجزات التي وهبها الله الخلاق  
لعيسى عليه والصلاة والسلام، أي أنّ الله تعالى قد هيا عيسى بمقدرة  
تمكّنه من خلق ما يشبه الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرا، وذلك بالإذن

935 الصف 6.

936 النساء 157، 158.

937 آل عمران 49.

الذي منحه الله لعيسى، أي أنّ الله الخلاق قد أذن لعيسى أن يظهر مقدرة الخلق. وهذا يعني: أنّ عيسى عليه السلام قد أصبحت لديه صفة الخلاق في أن يخلق وفقا للإذن الذي منحه الله إليه.

وهنا؛ نلاحظ أنّ الله المقتدر قد مدّ عيسى بمقدرة الخلق، وبعض من المقدرات الإعجازية الأخرى؛ ذلك لأنّ المقتدر قادر على إظهار قدرته بفعل الاقتدار، ولذا فالمقتدر المطلق هو كامل المقدرة، والمقتدر بالإضافة هو تام القدرة، والفرق كبير بين كامل المقدرة بالمعطيات الاطلاقية حيث لا نقيصة فيه، وبين تام المقدرة وهو الذي لم يبلغ الكمال استحالة، ويملك معطيات الاقتدار في دائرة النسبية.

ولذا فالأقتدار أبلغ بكماله المطلق، والقدرة قد يدخلها نوع من التضمين بالمقدور عليه ومنها الملك والمليك في معناه، قال تعالى: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} 938 وقوله تعالى: {فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ} 939.

والقَدِيرُ فَعِيلٌ، والمُقْتَدِرُ مُفْتَعِلٌ من اُقْتَدِر وهو أبلغ. والقَدِيرُ: هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقضي الحكمة لا زائدا عليه ولا ناقصا عنه، ولذلك لا يصح أن يوصف به إلا الله ومن استمد صفاته منه كما هو حال عيسى عليه والصلاة والسلام.

ولهذا؛ فالمُقْتَدِرُ هو الله تعالى، فهو الذي ينتفي عنه العجز من كلّ وجهٍ تعالى شأنه. 940 ووصف الخليفة فيه وارد، إذ يقول أحد هذا مقتدر، ويقصد بذلك من ناحية المال أو من ناحية المنصب أو الوجاهة أو العطاء في القول وأداء الأفعال الحسان وهذه من صفات الخليفة الذي

---

938 - المؤمنون، 116

939 - القمر 55

940 - تاج العروس، ج 1 ص 377.

استمد اقتداره من المقتدر الأعظم، أي أنه المتمكن من التصرف في الأمور التي هو قادر على أن يفعلها نتيجة ما يملكه من قوة اقتدار، إذ يقول تعالى { وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } 941 والمراد من التمكين هنا أن الله جلّ وعلا جعله ملكا يتصرف في الأرض يأمر وينهي.

المقتدر: هو من يملك الأمر ويحسن التصرف دون غفلة فلا يفوته شيء، ولا شيء إلا منه، ومتى ما أراد له مشيئة يقول له كن فيكون.

نفخ الروح:

وهذا حقّ لأنّ الإنسان مركب من جسد ونفس وروح. وقوله تعالى: (ونفخت فيه من روحي) في حقّ آدم، وقال في حقّ عيسى: { وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتُ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِذْ وَقَّتْ وَكَانَتْ مِنَ الْمُقَاتِلِينَ } 942، وهذا يدفع إلى تساؤلات منها:

ما الروح المنفوخة؟

وما نفخت؟ ونفخنا؟

ولماذا استخدم اللفظ نفخ؟

وما دلالة كلمة نفخ؟

وما دلالتهما في صيغة الماضي؟

---

941 - يوسف 21

942

ألا يعني في صيغة الماضي الدليل على حدوث الفعل في المستقبل وهذا من قدرة الخالق جل في علاه، ودلالة على حصول ما لم يحصل بعد، وهنا أنزل الله الفعل الماضي بدل المضارع لأنه في زمن الله كل الزمان سواء لأنه سبحانه خالق الزمن.

ثم نتساءل عن نفخت، ونفخنا؟

وماذا يشير اقترانها بتاء الفاعل مع آدم؟ ونا الفاعلين مع عيسى؟

أيعني امتلاء شيء قابل للامتلاء؟

أيعني استعداد لقبول النفخ؟

ألا تعني الإعداد (التسوية) لأدم من البدء لقبول النفخ؟ والكلمة المبشرة لمريم {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} 943.

وعلى ماذا يدل (من روحي) وليس (روحي) مع آدم و(من روحنا) وليس روحنا مع عيسى؟

فنقول: نفخت كانت في خطاب الحضور، لأنّ الحضور مصدقون مؤمنون من جن وملائكة.

(ونفخنا فيه) فخطاب الغياب لأنّ المخاطبين ليسوا في حضرة النفخ، ونفخنا في عالم البشر لوجود كافرين يؤكد أنّه كما كان النفخ في غيره كان النفخ فيه.

ونتساءل:

هل النفخ خروج ودخول؟

---

<sup>943</sup> آل عمران 45.

وما المنفوخ؟

وما طبيعته؟

هل النفخ حلول الروح واتحادها؟

هل الروح جزء في جزء؟

هل الروح مخلوق من الله ليكون الإنسان حيًا بها؟

أهي خلق مثل آدم وعيسى؟

أم ماذا تكون؟

بالطبع قد تكون واحدة من السوابق وقد تكون غير ذلك.

وستتناول كل تساؤل في حينه ولكن علينا أن نرنو بدقة وتبصر في معنى (نفخ) التي جاءت نفخت ونفخنا.

وفي معنى الروح لغة، وفي علاقة نفخ بكلمات قريبة المعنى منها مثل بث، نفث.

مع التأكيد بأن علماء اللغة تناولوا معاني الكلمات بالمستوى الإنساني، قياسا ووصفا على البشر، وسياق الكلمة في الآية سياق إلهي، ولا يمكن بأية حال من الأحوال أن نسوي بين البشري والإلهي، لذا فعلى أن نستشرف اللغة لنستبين ما قيل فيها.

ونؤكد أنّ النفخ الإلهي لا علاقة له بالفم مطلقا، لكنّه نتعلق بأمر الكينونة، ولا يمكن تجسيد الأمر الإلهي، لذا فعلماء اللغة ربطوا بين النفخ وبين الفم والشفيتين وهذا نحن نرفضه.

ونؤكد أنّ النفخ من الروح ليس فيه أداة وليس له وسيلة بل فيه غاية وهي جعل آدم في مرحلة جديدة ليكون خليفة في الأرض، وجعل عيسى في رحم مريم.

النفخ لغة:

النفخ: بفتح فسكون مصدر نفخ، (إخراج الهواء من الفم بقوة).

والنفخ في الصور: من مشاهد الآخرة، {ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد} 944، وستكون ثلاث نفخات: الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة البعث 945.

يقول صاحب اللسان في معنى النفخ " (نفخ) النَّفْخُ معروف نَفَخَ فيه فانتَفَخَ، نَفَخَ بفمه يَنْفُخُ نَفْخًا إذا أخرج منه الريح يكون ذلك في الاستراحة والمعالجة ونحوهما وفي الخبر فإذا هو مُعْتَاطٌ يَنْفُخُ، ونَفَخَ النَّارَ وغيرها يَنْفُخُهَا نَفْخًا وَنَفِيخًا" 946.

وفي التنزيل: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ} 947.

وفي التنزيل: {فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ} 948.

والسؤال:

كيف وصلت الكلمة إلى مريم؟

---

<sup>944</sup> ق 20.

<sup>945</sup> معجم لغة الفقهاء، ج 1، ص 484.

<sup>946</sup> لسان العرب، ج 3، ص 62.

<sup>947</sup> الحاققة 13.

<sup>948</sup> آل عمران 94.

نقول: إنّ النصّ القرآني اختار لفظة غاية في الإعجاز للتعبير عن طريقة تبليغ الكلمة فقال عز من قائل (وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ) هنا نقف مع ألقاها وقفة الباحث عن بعض ملامح الإعجاز فيها.

تنص المعاجم اللغوية على أن جذر هذه الكلمة له عدة دلالات منها:

1- دلالة نصها: (وتلقت المرأة وهي متلقية علفت) 949، هذا الدلالة فيها تأكيد على طبيعة خلق عيسى من جهة، وفيها تنزيه للعدراء مريم، فقد حُلق عيسى بكلمة الله وأمره من غير واسطة ولا نطفة كما قال سبحانه: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)، هنا يظهر إعجاز اختيار سياق بكلمة منه، ولو لم يأت ذكر الكلمة وجاءت البشرية فقط لتوهم البعض في خلق عيسى ولبحث عن سبب للحمل به من قبل مريم، ولكن إلقاء الكلمة على مريم دفع عنها وعن ابنها أية شبهة حيث أصبحت هناك وسيلة واحدة حُلق بها عيسى هي الكلمة الملقاة على مريم.

ومن الضروري أن نقف مع إعجاز أن تكون الكلمة معرفة بالإضافة ولم تكن معرفة بغيرها، نقول إن اختيار أن تكون الكلمة معرفة بالإضافة من الأسرار الدقيقة في الأسلوب القرآني من جهة، وحصراً دلالياً من جهة أخرى، فقد كانت الإضافة إلى الله عزّ وجلّ لتأكيد انعدام القدرة لأيّ سواه في هذا الفعل، كما في هذا دلالة على حصر إلقاء الكلمة بالله عزّ وجلّ وبهذا نصل إلى دلالة تنزيه مريم عليها والصلاة والسلام إذ حددت الآية ما تلقته مريم بأمر واحد فقط هو الكلمة المخصوصة بكونها مولود نبي اسمه عيسى، الكلمة فقط ولم تتلق ما تتلقاه النساء ليتكون في رحمها ما يشاء الله، هذا هو قمة التنزيه لمن اصطفاها



الله وطهرها وعجبا لمن يقولون غير ذلك من مفترياتهم الباهتة على السيدة الصديقة.

2- اللقاء "والأُلُقِيَّةُ ما أُلْقِيَ وقد تَلَاقُوا بها" 950، اللقاء كان من طرف مريم حيث كانت فيها ملكات التلقي لكلمة الله عز وجل، ولو لم تكن مريم على درجة من الطاعة وقوة الإيمان والعقيدة ما يمكنها من تلقي ما ألقاه الله عز وجل عليها لما استطاعت مريم أن تستوعب الكلمة وتقوم بحمّها.

واللقاء يدور في فلك المتوقع الممكن لأن مريم في سيرتها كانت في رحم أمها تهيأت لهذا اللقاء، حيث جعلت أمها امرأة عمران الصلة الإيمانية في هذه البذرة المباركة منذ الحمل مصداقا لقوله تعالى: {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةٌ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِنَاءٍ حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} 951.

فتقبل الله نذر امرأة عمران وهي مريم وكانت لا تزال في مرحلة الرحم، وسنفضل الحديث عن ذلك في ترجمة مريم عليها والصلاة والسلام لإنشاء الله، عليه نقول إنّ مريم التي ذكر الله أنها من ذرية النبوة كانت مهياة لاستقبال حدث عظيم، وقد يسأل سائل عن خوفها ودعائها على نفسها بالموت فهل هو مناقض لما نقول، الإجابة بالنفي قطعاً لان مريم

950 - لسان العرب، ج 2، ص 253.

951 - آل عمران 34-37.

تصرفت من واقع بشريتها، فهي امرأة طاهرة جاءها أمر قد يحدث لها ما تكره لذلك قالت في مرحلة الخوف (يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا)، أما وقد سمعت الاطمئنان القلبي بحديث ابنها المولود معها فقد تحول هذا الخوف إلى قوة حقيقة تمثلت في حملها للمولود ومواجهة كل من حولها به دون خوف أو تردد، إنها قوة الإيمان الذي لا يمكن له أن يحدث فجأة وإنما هو مما يُبنى في النفس ويُؤسس في القلب، لذلك نقول إن مريم تلقت الكلمة جسدا وروحا.

3- الوصل، يقول الألويسي: "وأوضحه بقوله سبحانه: (ألقاها إلى مريم) أي أوصلها إليها وحصلها فيها"952، والوصل هنا يفسره قوله تعالى (ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)، فهذه الذرية هي ذرية متصلة كما أراد الله عز وجل لها أن تكون، وبما أن مريم لم يحدث لها أن تواصلت مع مخلوق من ذرية النبوة يمكن له أن يحدث التواصل كان أمر الله بإيصال الكلمة إلى مريم منه لتتواصل كلمة الله عز وجل فيما بعد من عيسى إلى محمد صلى الله عليهما وسلم.

وبقي أن نعرف عن سلوك عيسى الإنسان الرسول لتوضح ملامح بشريته أكثر وصولا إلى مناقشة ادعاء بنوته أو ألوهيته فيما بعد.

نعتقد من المهم القول أننا ومع عيسى بالخصوص نواجه انحسارا معرفيا عند البعض يخص كينونته على وجه التحديد، حيث ذهب هؤلاء إلى وصف عيسى بما ليس فيه، فوصفوه بابن الله، ثم قالوا هو وأمه إلهين بالمشاركة، وهذه الادعاءات كلها إنما هي محض جهل وضعف في آن واحد، يتمثل الجهل بانعدام المعرفة الحقة بالكينونة الإلهية وهذا مهم جدا لان المدعين يعرفون عيسى لكنهم لا يعرفون الله حق معرفته، يقول الحق سبحانه مبينا ومعرفا العباد ببعض صفاته: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ

---

952 - تفسير الألويسي، ج 4، ص 326.

عَلَى عِبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا الَّذِي لَهُ مَلَكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ  
يَتَّخِذْ وَلَدًا وَمَنْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ  
تَقْدِيرًا {953، ثم بعد ذلك تأتي تعليقات مبينه لعللة الانعدام منها:

. انعدام الإرادة: {لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا  
يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} {954، لو هنا حرف امتناع لامتناع  
أي أنّ الله لم يتخذ ولد ولم يرد اتخاذ الولد، والسياق على ذلك يبين  
انعدام الإرادة وذلك يرجع إلى حكمة لا نعرفها وأخرى يدلنا الله عليها  
بما دلنا عليه، فالله سبحانه وتعالى غني عن العالمين أي أن حاجته إلى  
الولد منعدمة بكل الصور ومع كل الاحتمالات، كما أنّ مطلق القدرة  
للذات يرفض افتراض الولد لأن مطلقية القدرة تعني: أنّ تحديد هذا الولد  
محال لاستحالة وجود مطلق آخر يرث المطلق الأول والأوحد لا في  
القدرة ولا في القوّة ولا في أي شيء آخر.

. انعدام التكافؤ، لا بدّ لحصول البنوة تبنيًا لا ولادة، لأنّ ذلك محال  
في حقّ الخالق الذي خلق كل شيء ثم هدى، لا بدّ من حصول التكافؤ  
بين طرفي العلاقة وذلك محال في أصل الوضع، فالله الباقي جلّ وعلا  
تتضاءل أمام عظمتة المخلوقات فأنتى لمخلوق أن يتعاضم عظمته، أو أن  
يرزق رزقه؟ أو أن يعدل عدله؟ أو أن ييطش بطشه؟

قال تعالى: {وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُنْ مِنْ فِي  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا أَتَى الرَّحْمَنُ عَبْدًا مَرِيمَ} {955، أي هو محال، أمّا  
الولادة المعروفة فلا مقال في امتناعها، وأمّا التبني فلأن الولد لا بدّ وأن  
يكون شبيها بالوالد ولا مشبهه لله تعالى ولأنّ اتخاذ الولد إنّما يكون

---

<sup>953</sup> الفرقان 1-2.

<sup>954</sup> الزمر 4.

<sup>955</sup> مريم 92-93.

لأغراض لا تصح في الله من سروره به واستعانته به وذكر جميل، وكل ذلك لا يليق به، والمراد أنه ما من معبود لهم في السموات والأرض من الملائكة والناس إلا وهو يأتي الرحمن أي يأوي إليه ويلتجئ إلى ربوبيته عبدا منقادا مطيعا خاشعا راجيا كما يفعل العبيد<sup>956</sup>.

3 . الامتناع للأحادية، الله الواحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، صفات الكينونة لله عز وجل، واتخاذ الولد هو بالضد منها لان اتخاذ الولد يعني فيما يعني الاشتراك، والتعدد لان اتخاذ ولد يوجب أن يكون ولد آخر ثم آخر ثم آخر ولا مانع إذا تحققت الحالة الواحدة من تكرارها، وهذا يعني أن يكون ولد أول أكبر ثم من هو أصغر اقل وهكذا من تباين المستويات الذي يوجب ولا شك تعالى بعض على بعض؟

عيسى عليه الصلاة والسلام نبيا مناصرا من أصحاب الحق على إحقاقه، وتأيد دون تردد مع تحمّل ما يترتب على كل قول أو فعل أو عمل من مسؤوليات جسام، ولذا فللمناصرة ثمن من يستطيع دفعه يوصف بأنه نصير ومن لم يستطع فلا يوصف بذلك.

والمناصرة لا تكون إلا بالآتي:

أ . مناصرة المطلق الذي بيده الأمر (كن) متى ما أراد أن يكون كان وفقا لما تستدعيه الضرورة للمُنَاصِر الذي غايته مناصرة الله عز وجل، {وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} 957، وقال تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أُيِّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ

<sup>956</sup> تفسير الرازي، ج 10، ص 345.

<sup>957</sup> الحج 40.

بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ {958.

ب . مناصرة النسبي في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع تنوع وتتعدد وفقا للآتي:

\* مناصرة بالكلمة.

\* مناصرة بالوسيلة.

\* مناصرة بالعمل والفعل.

ج . مناصرة تضرع ودعاء لله رب العالمين كما جاء في دعاء نوح صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنَّمَا تَذَرُهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِرًا كَفَّارًا رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا} {959.

ومع ذلك؛ فالمناصرة يمكن أن تكون على حق ويمكن أن تكون على باطل، فمن ناصر الأنبياء والرسل ناصر الحق، ومن ناصر أعدائهم ناصر الباطل.

وعليه: المَنَاصِرُ هو المعان من قبل الآخرين على ما يقول ويعمل، فمن ناصرته على الحق أسهم في إحقاقه وشاركه نيل الجزاء والتواب، كما هو حال عيسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي ناصرته الحواريون المحبون للحق وإحقاقه، قال تعالى: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي

<sup>958</sup> المائدة 110.

<sup>959</sup> نوح 27، 28.

إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِنَانًا  
مُسْلِمُونَ {960.

عيسى كلیم الله:

الكلام خاصة بشرية بين الناس لأجل التواصل والتفاهم والترابط والتعلم والتعرف والتخاطب، والكلام في دائرة الممكن لا يكون إلا على موضوع أو أمر ولا يكون إلا بين مكلم ومكلم (مرسل ومستقبل)، ولذلك كان الكلام نعمة على الألسن والأذان الصاغية للحق بين المتكلمين الذين به عرفوا الحلال والحرام، والإيمان والكفر، والأمر والنهي، والأخذ والاجتناب.

ومع أنّ الكلام خاصة بشرية بين الناس إلا أن مصادر التكليم متنوعة ومتعددة منها:

أ . هناك من يكلمه الله، كما هو حال الأنبياء صلّى الله عليهم وسلم، {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ} 961.

ب . هناك من يكلم الله، الذين يكلمهم الله يكلمونه ولهذا الرسل كلّمهم الله وكلّموه بالطاعة والهداية قال تعالى: {قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ هُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} 962.

<sup>960</sup> آل عمران 52.

<sup>961</sup> المائدة 116.

<sup>962</sup> المائدة 116، 117.

ج . الكلام بين الأنواع الثلاثة الرئيسية، (الملائكة، الجن، آدم) كلام الله إليهم وطاعتهم إليه، وكلام بعضهم للبعض مع السجود لآدم والعصيان من بعض النوع (إبليس).

د . هناك من يكلمه ملك، الرسل والأنبياء علاقاتهم مباشرة مع الله في كل ما يتعلق بالنبأ العظيم والرّسالة العظيمة، ولذلك يكلمهم الله مباشرة من وراء حجاب (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)، أو يكلمهم برسول ملك كما هو حال جبريل المكلف معهم عليه السلام لنقل ما يوحى إليهم صلى الله عليهم وسلّم.

هـ . هناك من يُكَلِّم الجن، كما هو حال سليمان صلى الله عليه وسلّم.

و . هناك من يتكلّم مع الأبالسة والشياطين، بحق ليطل ما يسحرون به أعين النَّاس وما يفسدون به في الأرض، وهناك من يخاطبهم ليشاركهم في زيادة الإفساد في الأرض والإفساد بين العباد قال تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} 963، وقال تعالى: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} 964.

ع . هناك الكلام بين النَّاس ومعهم، وينقسم الكلام إلى ثلاثة مستويات:

\* مستوى آدم صلى الله عليه وسلّم الذي تكلم لحظة خلقه مع ربه تعالى ومع الملائكة والجن.

<sup>963</sup> الجن 6.

<sup>964</sup> الحشر 16.

\* مستوى عيسى صلى الله عليه وسلم الذي تكلم من تحت أمه بصوت اسمعها، ثم تكلم في مهده مع أهله وبني قومه، إنه الكلام المعجزة تنفيذاً للأمر (كن)، قال تعالى: {فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزِنِي قَدْ جَعَلَ رَبِّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهَزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا} 965، وقال تعالى: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنَّي عَبْدُ اللَّهِ أَتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} 966.

وعليه فإن عيسى كليم أي أنه مُكلم ومُكلم، مكلم من الله، وطلاق اللسان في الصغر بالحق مع وضوح وبيان وإعجاز كلماته، وهي تصدر من وعي وإدراك، ففي كلماته طمأنينة لأمه الخائفة التي دعت على نفسها بالخوف فجاء كلامه أية سلاماً وأمناً لها، أي أن كلامه في المهدي كان معجزة خاصة به أتاه الله إياها، ثم أن كلامه في المهدي كان كلاماً واعياً بلسانٍ راشدٍ، ثم أنه في رَشده كان لسانه لساناً مبلِّغاً بالرسالة والنبأ العظيم الذي كلفه الله به ليشير به العباد من بني قومه للتي هي أحسن وأقوم.

وقد يتساءل البعض: هل يجوز القول عن الإنجيل إنه كتاب عيسى؟ الإجابة هي نعم يجوز لأن المولى الحق عز وجل نسب مثل ذلك لأنبيائه فقال صحف إبراهيم وموسى.

965 مريم 23 . 25.

966 مريم 30 . 35.



والأمر الذي يوجب البحث ويثير التساؤلات هو الإنجيل نفسه من حيث أنّ من أرسل به إلى الناس وهو عيسى صلّى الله عليه وسلّم كان من أصحاب المعجزات المادية العينية مثل الطب والإحياء والخلق بإذن الله وكذلك علم الأسرار.

فهل كان الإنجيل من معجزاته؟

ولماذا أرسل بالكتاب وهو معه معجزات وخوارق عظيمة تجعل كل من يشاهد يقترب من الإيمان ثم اليقين بالحقّ من الله عزّ وجلّ؟

كما يثير زمن الإنجيل رغبة البحث فقد جاء بعد التوراة وبعد الزبور، فلماذا؟

وهل كان كتابا لمرحلة محددة وقوم مخصوصين؟

ثم ماذا حمل هذا الإنجيل من مضامين؟

لا شك أنّ عيسى المخلوق نبيا ورسولا لبني إسرائيل جاء بمعجزات تقصر العقول عن استيعاب حقيقتها إلا بالإيمان بالله الخالق عزّ وجلّ، فهو قبل ذلك أي عيسى نفسه كان معجزة لبني الإنسان خلقا وإفصاحا، خلقا في الخلق المعجز لكل قدرة على الإتيان بمثل هذا الخلق وقد سبق تفصيل القول في خلقه صلّى الله عليه وسلّم، وإفصاحا من حيث الكلام في المهد والإفصاح بالدور الذي كلف به.

ومع ذلك أرسل الله عيسى بالمعجزات وهي مجموعة من المستعصيات الطبية وصولا إلى قمة ما استعصى كمعالجة الأبرص وشفاء الأكمة ثم بعد ذلك إحياء الموتى بإذن الله، وختمها بعلم الأسرار.

ولأنّ عيسى معجزة وله معجزات فقد تكلم يوم ولادته، وهذا بلغة العصر ومنطقه قد لا يصدّق من البعض، ولكن بمنطق المعجزات فهو

الممكن بعينه، وهذه هي الأخرى قد لا تكون ميسرة الفهم لدى البعض، ولكنّها لدى المؤمنين فالخالق قادر على كلّ شيء، وهذه لا تكون إلاّ بأمره، الذي إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون.

وإلا كيف يقبل العقل أنّ الخلق الأوّل من طين، والكلام يوم الخلق؟ أي: الم يكن آدم من طين؟

الم يكن آدم من غير أب ومن غير أم؟

وأيهما أقرب للعقل أن تُخلق جنينا في بطن أمك ثمّ تلدك وتتكلم يوم ميلادك، أم أنّك تخلق من تراب وتتكلم لغة أنت مصدرها بعد الإلهام الربّاني؟

معجزة التكلم في المهد هي من معجزات عيسى عليه السّلام الذي حملته السيدة العذراء وأنجبتّه ثمّ جاءت به إلى قومها؛ فتعجب النّاس من هذا الابن، وبدأوا باتّهامها بأنّها لمست رجلا غريبا عنها، إلاّ أنّ الله تعالى أنطق رسوله وهو في المهد؛ فتكلم بكلام عجيب؛ فأسكت كلّ من سمع صوته.

وفوق كلّ ذلك فقد رفع الله عيسى، والرّافع "هو الذي يرفع من استحقّ الرّفْع من رسله وأوليائه، يرفع منزلتهم في الدنيا بإعزاز كلمته ويرفعهم في الآخرة بارتفاع درجاتهم" 967. وهو الذي رفع عيسى على الخصوص حافظا ومنزّلا له حينما يأتي الموعد الذي لا يعلمه إلاّ هو جلّ جلاله.

ولذا؛ فالرّافع هو الذي بيده القوّة الممكّنة من تحقّق الرّفعة وإحداث النقلة إلى ما هو أفضل وأجود وانفع وأفيد. والرّافع في القرآن الكريم هو الاسم الدال على الله تعالى مصداقا لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ

<sup>967</sup> تفسير أسماء الله الحسنى، ج 1، ص 41.

خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ  
إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ {968.

وفي لسان العرب المحيط: الرَّافِع هو "الذي يرفع المؤمن بالإسعاد  
وأولياءه بالتقريب، والرفع ضد الوضع، رفعته فارتفع فهو نقيض الخفض  
في كل شيء" 969.

ولو عُدنا للآية السابقة (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع  
بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ  
وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) لعرفنا أَنَّ الرَّافِعَ جَلَّ جلاله هو الذي جعل الخلائف  
تتوالى من ولادة سابقة إلى موت يلاحقها، ومن ولادة جديدة إلى موت  
متجدد، حتى النهاية بالولادة التي لا يلاحقها الموت أبدا (البعث).

وبما أَنَّ الله جعلنا خلائف الأرض، إذن الأرض لا يمكن أن تكون  
بدون خلائف عليها. وبما أَنَّ الأرض لا يمكن أن تكون بدون خلائف  
عليها. إذن الرزق في الأرض والعيش عليها لن ينتهي مادام الموت لم يمت  
بعد. والموت بطبيعة الحياة لن يموت إلا بقيام الساعة، وحينها تصبح  
الأرض مطوية مثل طي السماوات.

والخلائف: جمع خليفة، وهم الذين يأتون من بعد سابق عليهم من  
بني جنسهم، وهم من ترتبط صفات اللحوق بهم، ممَّا يجعل الموت يلاحق  
كل ولادة ويجعل الاتصال لا ينقطع بالرغم ممَّا يفعله الموت، ولذلك فله  
في خلقه شؤون.

وقوله: (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) أي مع أَنَّهُ خلقكم في  
أحسن تقويم، إلا أن مصائركم على الأرض تعتمد على ما تقدمه أيديكم

---

<sup>968</sup> الأنعام، 165.

<sup>969</sup> لسان العرب، ج 1، ص 1197.

من عملٍ، فمن يُصلح في الأرض لا يتساوى مع من يُفسد فيها. ومن هنا تتفاوت الدرجات بالإيجاب وبالسلب، فالذين استجابوا لرَبِّهم الذي جعلهم خلائف الأرض، سينالون جزاءهم حسنات، والذين لم يستجيبوا لرَبِّهم الذي يُريدهم أن يكونوا خلائف الأرض سينالون أجورهم من العذاب مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾<sup>970</sup>. ولذلك فالعلو في الدرجات الحسان رفعة مقام، وتميُّز عن الذين لم يتمكنوا بأعمالهم من بلوغ الرِّفعة الحسنة. فرفع الله بعض من الخلائف درجات ولم يرفع البعض الآخر بالأسباب، أي بما تقدم الأيدي، ولذا فأسباب تحقِّق الرِّفعة لم تكن محجوبة عن العباد، أو مقصورة على فئة منهم، بل هي متاحة في دائرة الممكن لمن يعمل صالحا يرضاه الله، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وما ربك بظلام للعبيد. ولهذا فالخليفة في الأرض هو الذي يعمل فيها صالحا، ويعمل على إصلاحها بإصلاحه لِمَا يفسده المفسدون فيها.

الرَّافِع: هو الممكِّن من إحداث النقلة، من مستويات دنيا إلى مستويات عُليا، والرَّافِع هو الذي لا يَرَفَع إلا بعد تقديرٍ لِمَا يُرَفَع، والذي لو حاول الإنسان القيام به لدرس الشيء المستهدف بالرفع قبل أن يقدِّم على رفعه. ولكن لأن الرَّافِع في هذه الآية الكريمة هو الله عزَّ وجلَّ، لذا فهو الرَّافِع بقوة علمه لعلم الغيب.

ولأنَّ وراء فعل الرفع هدف وغاية، لذا أظهر الله الهدف من الرفع وهو (ليبلوكم في ما آتاكم) وهذه الآية تعني ليمتحنكم فيما رزقكم به وما أعطاكم من نعم، فمن يُسر له البصر والسمع والعقل والفؤاد وما يملك من مُلك من مُلكه تعالى في طاعته وإجلاله، يتفوق في ما يُبتلى به من امتحانٍ، ويفوز بالجنت، ومن لم يطع الله ويشرك به أو يفسد في الأرض

<sup>970</sup> الأنعام، 132.

فيخسر المستوى الذي خلقه الله تعالى عليه وهو (أحسن التقويم) ويخفضه على كفة الميزان إلى أسفل السافلين كمقياس سالب في مواجهة مقياس أعلى العليين على الكفة الممثلة للميزان العدل.

ولذلك فإنَّ الله سريع العقاب (إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ) أي أنَّه في الوقت الذي يحدث فيه السلوك الانحرافي يُكتب في ذات الوقت الفعل العقابي المناسب للفعل الانحرافي، الذي لا يُمحي إلا بالاستغفار والتوبة والرحمة من الله تعالى. ولذلك، مع أنَّ ما يُقدِّم عليه الإنسان ويراه سريعاً من أفعال خارجة عن الطاعة التامة لله تعالى، إلا أنَّ الله خالق العباد والأعمال يرى الأعمال والأفعال قبل حدوثها وحدوث السرعة التي يرى بها المخلوق ما يرى، وفقاً لقاعدة: (يعلم ما لا نعلم) مصداقاً لقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} 971، وقوله جلَّ جلاله: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} 972. ولهذا فالله سريع العقاب لمن عصاه فيما أمر، وهو سريع في إحداث المغفرة مصداقاً لقوله تعالى: (وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)، فالله القادر بكل سرعة على رفع الأعمال بالحسنات، قادر بالسرعة ذاتها على إحداث المغفرة والرحمة لمن يتعظ ويهتدي للتي هي أحسن وأقوم. ولذا فإنَّ الرحمة فعل استجابة للطاعة، فمن أطاع الله فقد فاز بالرحمة فوزاً عظيماً، ومن عصى الله فقد خسر بخسران الرحمة خسرانا كثيراً، وما ربك بظلامٍ للعبيد.

---

971 الأنعام 73.

972 النعام، 59.

## النبي محمد:

ولد محمد عليه الصلاة والسلام في مكة المكرمة يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول عام 571 م، ويعرف عام مولده بعام الفيل، وهو العام الذي حاول فيه أبرهة الحبشي أن يهدم الكعبة.

كان ميلاد محمد بشري إنسانية وربانية، ومع ذلك فقد ضاقت بعض الأنفس من ميلاده كونه نبيا ولا نبي من بعده، رسولا ولا رسول من بعده، وأنّ رسالته الإسلام ناسخة لكلّ الرّسالات السابقة، وهي حافظة لما ترشد إليه من مواعظ وعبر وحلول. فعن حسان بن ثابت، قال والله إنّي لغلام يفعة ابن ثمان سنين أعقل كلّ ما سمعت، إذ سمعت يهوديا يصرخ بأعلى صوته: يا معشر اليهود حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له: ويلك ما لك؟ قال طلع الليلة نجم أحمد.

ولما وُلِدَ محمد صلّى الله عليه وسلّم، في ذلك اليوم، قالت أمّه آمنة، لقد أضاء نور إلى السّماء رأيت في ذلك النّور قصور الشام، إنّه نور من نور الله.

والنّور اسم ضياء وجمال تستبشر به الخلائق وترضى، تشدّ إليه ولا تطمأن إلا به سبحانه ينير الأنفس كما ينير الدروب، من نوره تشرق الشمس وتتألأ السّماء بنوره وتضيء القمر، وبالنّور يهتدي العباد إلى التي هي أحسن.

ولهذا؛ فالنّور حُسن يستمدّ من الكلمة التي تنير القلوب، ومن الآيات العظام للنور المطلق، والنّور المطلق لا يُرى في ذاته، ولكن يستمد من آياته، فالنّور ليس كمثله شيء، ولهذا فالله الذي ليس كمثله شيء هو نور السماوات والأرض {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} 973.

وعليه "فالتّور يُظهِر ما يُنسب إليه وهو يُخْتَلِف بِحَسَبِهِ، فَنُور السَّمْعِ  
مُظْهِرٌ لِلْمَسْمُوعَاتِ، وَنُورُ البَصَرِ كَاشِفٌ لِلْمُبْصِرَاتِ، وَنُورُ القَلْبِ  
كَاشِفٌ عَنِ المَعْلُومَاتِ، وَنُورُ الجَوَارِحِ ما يَبْدُو عَلَيَّهَا مِنْ أَعْمَالِ  
الطَّاعَاتِ" 974

ومن فضائل ونعم الله على عباده نعمة الإيمان والمعرفة، ولا وسيلة  
للتحلّي بهذه النعمة إلا بانسراح الصدر بنور البصيرة، ولا نعمة أعظم من  
الكفر والجهل والمعصية، لذا يتأتى عمى القلب بظلمة الجهالة، فالعقلاء  
وأرباب البصائر قلوبهم، { كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحُ المِصْبَاحِ فِي رُجَاجَةٍ  
الرُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا  
عَرَبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ } 975. ولأن  
الله هو النور وهو الذي جعل في الأرض خليفة؛ فهو الذي بث نوره في  
المستخلفين فيها ليصلحوا ولا يفسدوا ولا يسفكوا الدماء بغير حق.

وهؤلاء هم خلفاء النور بالنسبية لا على الإطلاق، فالعلم نور  
بصائرهم التي بها عرفوا الحق بالحق؛ فأشرق نور الله بعلمه فيهم، مصداقا  
لقوله تعالى: { الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ  
الْقُلُوبُ } 976.

وفي مقابل الذين اطمأنت قلوبهم بذكر الله، الكافرون الجاهلون  
الذين اسودت قلوبهم بما يكفرون ويجهلون، { كَظَلَمَاتٍ فِي بَحْرِ الجُحِيِّ  
يَعِشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ  
إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ  
نُورٍ } 977. فأصحاب العقول الواعية والقلوب البصيرة هم الذين أراد الله

---

974 عون المعبود، ج 3، ص 292.

975 النور، 35

976 الرعد 28.

977 النور، 40

أن يهديهم فشرح صدورهم لنور الإسلام، والكافرون الجاهلون بحقيقة الإيمان هم الذين أراد الله أن يضلهم؛ فجعل صدرهم ضيقا حرجا كما يصعد في السماء، فالجاهل كما هو حال ذلك اليهودي الذي ضاقت نفسه عليه بعد ما علم أنّ نور من النور الأعظم قد ولد رحمة، وهو الذي جاء ذكرة في التورات والانجيل وبشروا الأنبياء به (محمد رسول الله) صلى الله عليه وسلم، فذلك اليهودي كان مظلم القلب؛ فلم تفتح بصيرته وبقي في العمى فاتخذ الهوى قائدا والشيطان دليلا ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾{978، وعليه فالجهل أصل الظلمة والكفر والبعد عن مصدر النور.

وحتى نتدرج في الرقي لنقتبس من النور المحض علينا أن ننظر في اللغة لنرى ما النور؟

إنّ (الله نور، وله نور) نور ذاتي مهلك لا سبيل للوصول إليه، ونور مخلوق كنور الشمس والقمر، وكالذي سيتحلى به على عباده ليريه من جماله يوم القيامة وفي الجنة، وهذا النور من وراء حجاب الصورة.

ومن ثمّ؛ فالنور: هو الحقّ، الذي يتجلى في سماه، وهو الذي يُدرك بذاته وهو ينير البصر والبصيرة، يُهتدى به ويُهتدى إليه، به يرشد الضال سبيله إذا اهتدى، وبدونه يضلّ ضالا، ولذا فيه تراح الظلمة والغمة وتُثار الدروب.

وعليه الله هو النور، وهو الفؤة الحارقة لكل فؤة، وهو القدرة النافذة لأيّ ظلمة، وبه يتم التبين دون زيف. ولأنّ النور هو الله، فالنور هو الفؤة والقدرة التي تنير الإبصار والبصائر، كما تنير الدروب والسبل، ولأنّ النور هو الله؛ فهو لا يُرى مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ



فَإِنْ اسْتَفَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ  
مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ  
الْمُؤْمِنِينَ {979}. موسى عليه الصلاة والسلام يرى الجبل كما نحن نراه،  
أي بأمهات عينيه يرى الجبل جبلا، ولكن هل العينان لوحدهما كافيتان  
لرؤية الجبل؟ بالطبع لا. أي لو لم يكن النور الذي هو من نور الله ماثوثا  
ومنتشرا بين السماوات والأرض، ما كان للعينين من نور، وإذا فقدت  
العينان نور الله فيهما فقدت الرؤية حتى وإن كانت العينان سليمتين.  
ولننظر، إذا أغلقت عليك غرفة بالتمام ومعك في الغرفة فأر أو جمل هل  
لك أن ترى الفأر أو الجمل إذا لم ينفذ فيها نور؟ بالتأكيد لا. ولهذا علينا  
بإدراك الله بنوره الذي به رأينا الجبل، ونحن على سبيل المثال: إذا نظرنا  
إلى الشمس لزمان قصير قد نفقد بصرنا، ولهذا ينهانا الطبيب عن النظر  
إلى مصادر النور، فهي قوة خارقة للبصر، ولذا فما بالكم بالنور المطلق.  
أي إذا كانت مصادر النور المخلوقة قوة لا يطاق النظر إليها فما بالكم  
بقوة خالقها؟ ولهذا عندما تركزت قوة نور الله على الجبل جعلته دكا،  
وهكذا لو تركزت قوة نور الله على الأرض والسماوات لجعلتها كما  
جعلت الجبل؛ وهكذا كان نور الله في محمد سراجا منيرا.

وعليه فمن يدرك نور الله لا يشك في وجوده، ومن له في نفسه بعد  
ذلك ظن فإن بعض الظن إثم، ولذا فمن أدرك نور الله أدركه يقينا، ولهذا  
قال موسى عليه الصلاة والسلام: { فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ  
وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ }.

إن الله نور في ذاته، ونور في خلقه، ونور في علمه، ونور في بصره  
وسمعه، ونور في الحركة والسكون. ولذا في الشروق ضياء وفي الغروب نور،  
ضياء الشمس في النهار، وضوؤها في كبد السماء ليلا نجوما تتلألأ وقمرا

منيرا، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ  
مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ  
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ} 980.

وهكذا محمد رسول الله وكلّ الأنبياء عليهم الصلّاة والسلام نور،  
ولهم نور، فهم نور المنير في أرضه، وكتبه معهم نورا تنير الأرض التي  
استخلفهم فيها مبشرين ومنذرين ومحرضين على الحق وإحقاقه، قال  
تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ  
بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا } 981.

و(للمؤمنين نور) يسعون به في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {يَوْمَ  
تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ  
جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ يَوْمَ  
يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ  
ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ  
وظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ} 982، وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا  
إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ  
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ  
نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ  
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } 983.

---

980 يونس 5، 6.

981 الأحزاب 45، 46.

982 الحديد 12، 13.

983 التحريم 8.

والتّور في اللغة: في أسماء الله تعالى التّور "هو الذي يُبصِرُ بنوره ذو  
العَمَاية وَيُرشِدُ بهداه ذو العَوَاية" 984

وهذا المعنى فيه الهداية التي تستمدّ من نوره، بمعنى إرشاده للطريق  
الصحيح للوصول إلى الحقيقة ولا بأس من هذا المعنى؛ فاللغة قد أحالتنا  
إلى معنى مستفاد من التّور لا إلى معنى التّور في حدّ ذاته، مع التأكيد في  
الوقت نفسه أنّ الأثر المعنوي للتّور وهو الهداية لاشكّ مطلب من أعزّ  
المطالب التي يريجوها الخليفة الذي يسعى ليصلح في الأرض ولا إصلاح  
إلا بنور الهداية قال الله تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ  
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُوهُمْ مِنَ النُّورِ  
إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} 985

نعم (الله ولي الذين آمنوا) فهو سبحانه محبهم ومعينهم ومتولي  
أمورهم لا يكلهم إلى غيره، فالولي يكون بالمحبّة والنصرة؛ فيقال للمحبّ  
ولي لأنّه يتقرّب من حبيبه بالنصرة والمعونة ولا يفارقه، والولي الناصح  
المحب يكون بحسن ونفع التدبير، وبصحة الأمر، وبنفع النهى، لذلك الله  
ولي الذين أراد أن يهديهم للإيمان ويخرجهم بالهداية من الظلمات، وهي  
ظلمات الكفر والمعاصي وظلمات الشبه والشكّ في قدرة الله (إلى التّور)  
نور الإيمان، فيخرج الله سبحانه وتعالى بهدايته وتوفيقه كلّ مؤمن من  
الظلمة التي وقع فيها إلى ما يقابلها من التّور، والظلمات جمع تدل على  
أنواع الضلالة المتعددة من أنواع الكفر على جميع ملله، والتّور مفرد فيدل  
على أنّ الإسلام دين واحد وسمى الكفر ظلمة لالتباس طريقه وسمى  
الإسلام نورا لوضوح طريقه (والذين كفروا) الذين ثبت في علمه الأزلي  
كفرهم هؤلاء (أولياؤهم الطاغوت) الشيطان وأعدائه من المضلين عن

---

984 لسان العرب، ج 5، ص 240.

985 البقرة 258

طريق الحقّ من الكهنة والسحرة وقادة الشر والمفسدين في الأرض ومن يقفون عائقا أمام تحقّق الخلافة المثلى في الأرض الذين يعتقدون في الأصنام التي هي جماد لا ينفع ولا يضر، فالولاية هنا ولاية اعتقاد لأنّ المفسدين الضالين المضلين أهل الظلمات يعتقدون ويتوجهون إليهم من دون الله فهم بذلك تنحوا عن طريق النور إلى طريق الظلمات. والطاغوت وأعوان الظلام يخرجونهم من نور الإيمان الفطري الذي خلقهم الله عليه إلى ظلمات الكفر والفساد والانهماك في الشهوات، والخروج من نور اليقين إلى ظلمات الشك والشبهات، وإسناد القدرة المطلقة إلى الطاغوت مع أنّ الله مخرج العباد إلى الوجود ومرشدهم لطريق النور.

فالله (النور) وبنور هدايته يخرج المؤمنون من ظلمة المعصية إلى نور الطاعة والهداية لأنّه يصلي على الذين آمنوا به وصلاته رحمة لأنّ صلّاته لنا لا تعني أنّ فيها ركوع أو سجود أو قيام حاشا لله ولكنها كما قلنا إرادة رحمة، واستجابة للملائكة الذين يستغفرون للمؤمنين، قال الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا } 986 فالله هو الذي يصلي عليكم ويرحمكم وأنتم لا تذكرونه فذكر صلّاته تحريضا للمؤمنين على الذكر والتسبيح (ليُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) يعني يهديكم برحمته، والصلاة من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار، واللفظ المشترك يجوز استعماله في معنيين معا وكذلك الجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظ جائز وينسب هذا القول إلى الشافعي رضي الله عنه وهو غير بعيد فإن أريد تقريبه بحيث يصير في غاية القرب فالرحمة والاستغفار يشتركان في العناية بحال المرحوم والمستغفر له والمراد هو القدر المشترك فتكون الدلالة تضمينية لكون العناية جزءا منهما (وكان بالمؤمنين رحيما).

ولد محمد نورا من نور الله (النور الأعظم) فكفله جدّه عبد المطلب  
رعاية وعناية مع حبّ رفيع، ولما بلغ محمد السادسة من عمره ذهبت به  
أمّه إلى يثرب لزيارة أخواله من بني النجار ومعها حاضنته أمّ أيمن، وفي  
طريق العودة ماتت أمّه رضي الله عنها في مكان يسمى (الأبواء) بين  
مكة ويثرب؛ فرجعت به أمّ أيمن إلى مكة فكان الكفيل كفيلا (جدّه عبد  
المطل).

بقي في كفالة عبد المطلب حتى وفاته، وقد أوصى عبد المطب من  
بعده ولده أبا طالب بحفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فكفله أبو  
طالب وقام برعايته أحسن قيام، وكان يحبه حبّا لطيفا.

أنزل الله تعالى الحقّ على محمد عليه الصلّاة والسّلام فكان حاقا  
للحقّ، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا  
نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ  
بَاهُمْ﴾ {987}.

ومع أنّه مع الذين آمنوا ليّن البال والقلب ورحيم النفس إلا أنّه على  
الكافرين والمنافقين شديد غليظ، قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ  
مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ  
اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ  
وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ  
يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ {988}.

بعث محمد أذن خير يستمع إلى النَّاس (الكافة) ليجيبهم بما أمر الله  
تعالى به، لعلهم يهتدون ويكونوا على الحقّ أخوة متحابين في الله، فكان  
لهم أسوة حسنة فاقتدى به المؤمنون قولاً وفعلاً وعملاً وسلوكاً، فكان

---

987 - محمد 2.

988 - الفتح 29.

الصالحون منهم خليفة يرثون الأرض وهم مصلحون لا مفسدون ولا سافكي دماء فيها بغير حق، وامتنحن الله قلوبهم وهم يغضون أصواتهم عنده للتقوى فجازهم مغفرة وأجرا عظيما، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَعْفَرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} 989.

والأمي هو الصافي الذي لا تشوبه شائبة من أثر قراءة أو كتابة مُسَوِّقة لخدمة غرض من الأغراض الدينية أو الدنيوية، وهو من لا تلتصق به التهم فيما لا يعلم وإن نُعت بها.

الأمية حالة غير دائمة وهي قابلة للإزالة من الجميع في دائرة النسبية ودائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع، فمن يكن أميًّا يصبح في دائرة الممكن عالما فلا استغراب في هذا الأمر، ولهذا بالعلم تستنير العقول وتطمئن الأنفس والقلوب.

ولأنّ الأمية في دائرة النسبية؛ فهي غير مطلقة فما يكون به الإنسان عليما أو عالما يكون به غيره جاهلا، والجهل بالشيء عدم معرفته، وعدم المعرفة بالشيء أمية، والأمية البعد بالتمام عن معرفة الموضوع محور الاهتمام فلا يكون له علم به.

وبما أنّ الأمية في دائرة النسبية إذا الذي لا يعلم بالشيء المراد التحدث عنه يكون بالنسبة له أميًّا، وحتى المتعلمون هم بما يجهلون أميون، فالذي لا يتكلم اللغة الفرنسية بالنسبة للمتحدثين بها هو أميٌّ، والذي لا يعرف لغة الحاسوب واستخداماته فهو بالنسبة لهذا الأمر أميٌّ حتى وإن كان من المتحصّلين على الشهادات العالية والدقيقة أو كان

عالمًا في علوم الفقه والدين، وهكذا في المقابل بالنسبة لمن يجيد اللغة الفرنسية أو أي لغة وهو لا يعلم أو لا يعرف شيئًا عن علوم الفقه والدين أو الأديان، فهو لا يخرج عن دائرة الأمية النسبية، ولذلك كل العلماء والمتعلمين هم في دائرة الأمية النسبية. والرسول الكريم عليه الصلاة والسلام لا يخرج عن دائرة الأمية النسبية، فهو بالنسبة لعلم القرآن قبل نزوله كان أميًا قراءة وكتابة ومصداقًا لقوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} 990 إنه قول الله لمحمد صلوات الله وسلامه عليه على لسان جبريل عليه السلام، إنه الأمر الأول الصادر للنبي الأمي (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ) ولأن محمد عليه الصلاة والسلام أمي فقال ما أنا بقارئ فقال له: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) فقرأ ما قيل له فأصبح بما قرأ غير أمي.

الأمية: كما يقول البعض: هي "الغفلة والجهالة، فالأمي منه، وذلك هو قلة المعرفة" 991، قال تعالى: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} 992 ف (منهم أميون) للتبعيض وهي عائدة على بعض ممن يجهلوا ما جاء في الكتاب المبين ويقصد اليهود الذين هم أميون بالنسبة لمن عُلِّمَ أو تعلَّم الكتاب المبين أو آمن به. وهناك من يرى أن الأميين هم العرب وغير العرب ممن لا يعلمون بالقرآن وأمر الرسالة الخاتمة للناس كافة، فقال: "ويجوز أن تطلق الأمية على جميع أهل الأرض لأن بَعَثَهُ عليه الصلاة والسلام كان حين ذهب العلم من الناس" 993.

990 - العلق 1. 5.

991 - مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ج 1، ص 42.

992 - البقرة 78.

993 - نظم الدرر للبقاعي، ج 9، ص 6.

وهناك من يقول: " (ومنهم أميون)، أناس من يهود" 994.

قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} 995 العرب الأميون والذين آمنوا معهم هم المعنيون بقوله (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ) ولأنه الرسول فهو صاحب الرسالة الخاتمة، ولأنه النبي فهو الذي أنبأه الله بـ{النَّبِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ} 996، ولأنه الأمي، فهو لم يكن له سابق علم بما أعلم به وكلف.

أمّا قوله: (الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ) فهم أصحاب التوراة والإنجيل الذين يعلمون بأن رسولا خاتما ودينا للكافة سيكون على لسان الأمي أحمد صلوات الله وسلامه عليه.

وعليه:

كيف يقبل أن يكون محمد أميا وهو الذي يأمر بالمعروف؟

وكيف يقبل أن يكون أميا وهو الذي ينهى عن المنكر؟

وكيف يقبل أن يكون أميا وهو الذي بيده أمر تحليل الطيبات؟

وكيف يُقبل أن يكون أميا وهو الذي يُحرّم الخبائث؟

وكيف يقبل أن يكون أميا وهو الذي يضع عن الناس إصْرهم؟

---

994 - تفسير الطبري، ج 2، ص 257.

995 - الأعراف 157.

996 - النبأ 2 3.



وكيف يكون أمياً وهو الذي جاء بما تُفك به الأغلال؟

وكيف يكون أمياً ويؤمن به نبيا ورسولا ويأمر الله بطاعته والأخذ بما يأمر به نبأ ورسالة مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ 997.

ولأنّ الرسول عليه الصلّاة والسّلام لم يعد أمياً بعد الرّسالة الخاتمة، فقوله حقّ يستوجب الإتيان ولهذا قال تعالى: (يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ) ولأنّ هذا الأمر من الله أعطاه لمحمّد حقّ في سبيل إحقاق الحقّ، فإتباعه واجب، ومن يعصي أمر محمّد صلوات الله وسلامه عليه بالمعروف يعصي أمر الذي أصدر له الأمر وهو الله. ولذا لا يعتقد في أن الله تعالى يعطي أمره لمن يجهل أمره (أمي) ولهذا لا يعد محمّد أمياً وبين يديه أمر الله مكلف به.

ولأنّ محمّدا لم يعد أمياً بأسباب امتلاكه المعرفة الواعية والكاملة بعد أن قرأ دون سابق قراءة، فيجوز له حقّ النهي عن المنكر وتحليل الطيبات وتحريم الخبائث مصداقا لقوله تعالى: (وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ) ولذا عندما كان محمّد أمياً لم يُعط له هذا الحقّ أو هذه الصلاحيات كما تسمى لدى البعض تحت مظلة لغة العصر، وإلا هل يُقبل أن يكون أمر التصرف بأمر الطاعة بيد من لا يعلم الأمر ومعجزاته؟ وهل يقبل التحليل والتحريم والنهي ممن لا يعلم بما يأمر أو ينهى أو يُحلّل أو يُحرّم؟

بالطبع لا.

ولهذا فمحمّد عليه الصلّاة والسّلام بعد أن قرأ بأمرٍ من الله تعالى فهو القارئ وليس الأمي ولهذا لم يعد حاله كما كان قبل الرّسالة. وعليه

فالكلام أو الحديث عن محمد قبل الرسالة كلام أو حديث عن أمي، والكلام أو الحديث عن محمد بعد الرسالة عليه الصلاة والسلام حديث أو كلام عن نبي رسول عالم. ولذلك على المسلمين أن يفرقوا بين الحديثين والشخصيتين (شخصية محمد الأمي وشخصية محمد الرسول النبي العالم) وإلا هل يُقبل أن يوصف النبي الكريم بالأمي ويوصف الذين آمنوا وتعلموا على يديه بالعلماء والحكماء الأجلاء؟

وكيف يُقبل أن يكون محمد هو صاحب الرسالة الخاتمة للناس كافة وهو المرجعية للرسالة ونقبل أن يوصف بالأمي؟

وكيف لا نكتشف التناقض في الأمرين:

الأمر الأول: أمر محمد الأمي.

الأمر الثاني: أمر الذين تعلموا مما علمهم به علماء وحكماء؟

وعليه هل يقبل أن يكون للرسالة مرجعية ورسولها أميًا؟

ولأنّ محمدًا رسول للناس كافة قال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} 998 أي أنّ محمدًا رسول الله عليه الصلاة والسلام لم يكن رسولًا خاصًا بالعرب بل هو للكافة (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 999.

إذا كيف يُقبل أن يكون رسول الكافة أمي والناس يعلمون؟

---

998 - الأعراف 158.

999 - سبأ 28.

أقول: رسول الكافة ليس بأمي، بل هو بما أُعْلِمَ عَلَّمَ وبشَّرَ وأنذر  
وحرَّضَ وحلَّلَ وحرَّم، وهو قبل الرِّسالة محمَّد الأمي وبعدها محمَّد رسول  
ونبي، ولذا فالفرق كبير بين محمَّد الأمي الذي لا صلاة ولا تسليم عليه  
وبين محمَّد الرِّسول النبي الذي يصلَّى الله وملائكته عليه ومن بعده يصلي  
عليه ويسلم المؤمنون الذين أسلموا وجوههم لله رب العالمين.

وعليه فالقول بـ (الصَّلَاة والسَّلَام على سيدنا محمَّد) هو إقرار بأنه لم  
يعد ذلك الأمي، ولهذا قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} 1000 قال (يُصَلُّونَ  
عَلَى النَّبِيِّ) أي الذي أصبح يعلم بالأمر بعد أن كان يجهله فكان خير  
رسول وخير نبي فله الحقُّ بأن نصلي ونسلم عليه تسليمًا، وهكذا الملائكة  
تصلي وتسلم عليه، وهكذا يكون حال المؤمنين من بعده الذين يقروَن  
بالحقِّ ويتبعونه قولًا وفعلاً وسلوكًا. ولأننا من الذين أسلموا وجوههم لله  
ربِّ العالمين وآمنوا به واحداً واحداً لا شريك له، وبمحمَّد رسولا خاتماً  
فإننا نصلي ونسلم عليه مباركة وإقراراً بأنَّ ما جاء به هو الحقُّ من الحقِّ  
المطلق، ولذا فالصَّلَاة والسَّلَام على محمَّد هي اعتراف وإعِ بانه الرِّسول  
الذي اصطفاه الله للناس كافة بالرِّسالة الخاتمة، ولأنه يعلم بأمر الرِّسالة  
أكثر من الذين آمنوا بها على يديه أو آمنوا بها من بعده لذا فالصَّلَاة  
والسَّلَام إعلان تسليم بالحقِّ والرِّسول الحقِّ المصطفى من الحقِّ المطلق.

قال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ  
آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ  
مُبِينٍ} 1001. الأميون في هذه الآية الكريمة لا تعني الذين لا يقرءون  
ولا يكتبون بل تدل وتعني أن الأمية هي في دائرة النسبية وليس في دائرة

---

1000 - الأحزاب 56.

1001 - الجمعة 2.

المطلق، وإلا هل كان جميع العرب لا يقرؤون ولا يكتبون وكأنهم قوم جهالة بالمطلق؟ هذا القول لا يستقيم إلا بعدم علمهم بالقرآن قبل نزوله على رسولهم الكريم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا مع أنهم حقّ أميون إلا أن البعض منهم يقرؤون ويكتبون، ولذا فهم بالنسبة للدين الجديد (القرآن) فهم جميعهم أميون، وإنّ أوّل من أُعلِمَ هو رسولهم النبي محمّد صلوات الله وسلامه عليه، الذي كان أمياً قبل نزول القرآن، ولأنّه أوّل من أُعلِمَ كان مكلفاً بتلاوة القرآن عليهم وبتزكيتهم وبتعليمهم الكتاب والحكمة باعتبارهم كانوا أميين بما أنزل.

وعليه فالرسول الكريم عليه الصّلاة والسّلام كما جاء في الآيات السابقة يتلوا القرآن، ولأنّه كذلك فكيف يحقّ لنا أن نصفه أمياً؟ أي هل يحقّ لنا أن نصف من يتلو القرآن بأنه أميٌّ؟ وكذلك كيف نصف من يزكي ويُعلّم المسلمين والمؤمنين الكتاب والحكمة بأنه أميٌّ؟ أي كيف نقبل بأن يوصف المعلم بالأمي ويوصف المتعلم منه بالعالم؟

ولأنّ الله عزّ وجلّ هو الذي تولى محمّد صلّى الله عليه والسّلام بالرعاية والعناية فقد تولاه رسولا بالتعلّم فعلمه القراءة بعد إن كان غير قارئ، قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} 1002.

تُعتبر هذه السورة الكريمة أول سورة أنزلت على سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ولذا تُعد هذه السورة هي الدليل الإثباتي على أن محمّداً كان من قبلها أمياً، وهي الدليل الإثباتي بأن محمّداً من بعدها أصبح نبياً ورسولاً عالماً بما علّمه الله تعالى به.

فقد اصطفاه الله تعالى في أميّته ليكون نبياً رسولاً، ثمّ علّمه وبعثه نبياً رسولاً، فقال له: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) فقرأ باسمه تعالى ما قرأ

أمراً، فأصبح من القارئين العالمين بما علّمه تعالى به من نبأ وحكمة  
ورسالة خالدة.

وقوله: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ) أمر  
عظيم، وكأنه يقول له لا تستغرب أن أقول لك اقرأ وأنت لست بقارئ،  
فإن استغربت هذا الأمر، فهناك ما هو أعظم منه، ألا وهو أمر الخلق،  
فأي أمر أصعب: أن يُخلق الإنسان من لا شيء، أم أن يعلم بعد أن  
أصبح شيئاً؟

ومع ذلك فأمر القراءة لم يكن شورياً، بل أنه المنفذ بالقوة (كن)  
فكان محمد رسولاً قارئاً وكتابياً، مصداقاً لقوله تعالى: (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ  
الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)، هذه الآية الكريمة تحمل في  
مضمونها أنّ قراءة محمد التي علّمه الله إياها تُمكنه من قراءة المكتوب أو  
ما يُكتب، وهي تنص على أنّ ما علّمه الله لمحمد من قراءة هي قراءة ما  
يُكتب (عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) أي بالقلم (حروفاً تُكتب)  
لقد علّم الله تعالى محمد (الإنسان) ما لم يكن يعلمه من قبل (عندما كان  
محمد أمياً).

هكذا بدأت رسالة محمد بالأمر (كن) قراءة وكتابة، وتأكيداً على  
هذا المبدأ نزل قوله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ  
بِمَجْنُونٍ﴾ {1003، هاتان الآيتان موجهتان لمحمد رسول الله صلى الله عليه  
وسلم، الذي أصبح يعلم لغة القلم التي بها علّمه الله تعالى، فجاءت (ن)  
حرفاً مستقلاً يحمل سرا لا يعلمه يقينا إلا الله تعالى ومحمد الذي أنزل الله  
عليه الوحي وعلّمه قراءة ما يُكتب، فنحن من بعد محمد لا نعلم يقينا  
ماذا تعني (ن) فاتحة الآية الكريمة السابقة لا نعلمها إلا حرفاً من الحروف  
التي يكتبها القلم.

ولأنّ حروف فواتح بعض السور القرآنية نزلت حروفاً، فهذا الأمر فيه الإعجاز الذي لا يعلمه إلا من علّمه الله تعالى مباشرة، وهذا العلم لا يزال مجهولاً وفي اعتقادنا سيظل في علمه لا يعلمه إلا من كُلف به رسالة كاملة للناس كافة، وهنا تكمن الحقيقة التي مفادها أن محمّداً لقد مات وهو عالم بما لن يعلم أحد ممّا علّمه الله به من بعده، أي أن محمّداً قد علّم الناس ما يشاء الله أن يتعلموه من القرآن الكريم، وما لا يشاء بقي آيات إعجازية تدل على أنّ القرآن معجزة باقية، أسراها المطلقة لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى.

ولأنّ محمّداً عليه الصلّاة والسّلام أصبح عالماً بما علّمه الله عزّ وجلّ به، فكان بالكتاب الذي أنزله الله عليه خير مُخرَج للناس من الظلمات إلى النور مصداقاً لقوله تعالى: {الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} 1004.

جاءت الأحرف (الر) لإظهار ما يعلمه محمّد تفصيلاً، وإثبات قصورنا عن فهمه يقيناً مع تسليمنا المطلق بأنّه من إعجاز القرآن الكريم، ثم جاء (الكتاب) الذي يعلمه محمّد حروفاً وكلمات وجمل تامة ومضمونا تاماً، أي أنه النبي الرّسول الذي يعلم من ربّه ما لم نعلم، ولأنّه كذلك فكيف لا يتصف بأنه معلّم؟

ولأنّه المعلّم فكان تالياً للقرآن تلاوة كما دعا بها الله تعالى الذي استجاب لدعوة الداعيين (سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل) عليهما الصلّاة والسّلام مصداقاً لقوله تعالى: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} 1005، ترشد هذه الآية الكريمة إلى أنّ بعثة سيدنا محمّد عندما

---

1004 - إبراهيم 1.

1005 - البقرة 129.

يحين وقتها ستخرجه من الأمية (المقصورة على عدم القراءة والكتابة) إلى تعلم القراءة والكتابة، ولهذا كان محمد أول من تلا آيات الكتاب الحكيم وأول من علم الكتاب للآخرين من بعده ثم بعث المتعلمين مُرسلين لهداية الشعوب وأهل المدن والقرى إلى رسالة الكافة.

ولأنّ محمد عليه الصلّاة والسّلام مُعلّم بتلاوة الآيات الكريمة فهو الذي بُعث ليتلو صحفا مطهّرة من الباطل، فالذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين هم على ضلالهم لا يثين إلى أن بُعث رسول الله بالبيّنة التي تفكهم عن الكفر والشرك وتدعوهم إلى عبادة الله الواحد القهار، قال تعالى: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ} 1006.

ولأنّ الله عزّ وجلّ قد علم محمد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال في كتابه الحكيم: {وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} 1007.

وعليه فالإعلام بالقرآن لا يتمّ إلا مع من يجله، ومن يجله (أمي) وتعليم القرآن يتم مع راغب أو أمي، ولهذا كان محمد قبل نزول القرآن أميًا به، أي لا يعلمه ولا يعلم عنه شيء بخلاف سيدنا عيسى والذين آمنوا برسالته فهم يعلمون أن رسولا سيصطفيه الله برسالته اسمه أحمد مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} 1008 ولأنّ محمد عليه الصلّاة والسّلام كان أميًا بالرسالات

---

1006 - البينة 1. 3.

1007 - النساء 113.

1008 - الصف 6.

السابقة للرسالة الخاتمة فهو لم يعلم بالرسالة الآتية التي يعلم بها موسى وأتباعه قبل إعلامه وعلمه بالقرآن مصداقا لقوله تعالى: { وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ يَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ } 1009. إنه القول الحق فلو كان يعلم بالأمر مسبقا ما كان أميا بأمر الرسالة، وهو أيضا لم يكن يعرف الكتابة التي تخط بأيدي الكتاب ولذا فلو كان قارئاً لكان كاتباً لما يقرأ ولكان في دائرة الموصوفين بالتعلم بدلا من دائرة الموصوفين بالأمية.

ب . أن يركبهم، وتركبتهم بإتباع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتجنب ما نهى الله عنه واتباع ما أمر بإتباعه والأخذ به، وتحليل ما أحله الله لهم، وقول الحق وفعل الحق والإصلاح في الأرض وعدم الإفساد فيها أو سفك الدماء بغير حق، فمن يتبع ذلك يعد مركزيا حيث لا ذنب عليه في شيء، ولذا فالمزكون هم المطهرون.

ج . أن يعلمهم الكتاب والحكمة، وهذه خطوة مترتبة على الخطوة الأولى (العلم بالقرآن) والعلم بالقرآن يعني عدم الجهل به، ولذا فالعالم به هو من لا يجهله.

فكلمة يُعَلِّمُهُمْ تدل على أنه متعلم بعلم الكتاب وعلوم الحكمة، أي أنه بالعلم كان سابقا على الأميين في تعلمه، وإلا ماذا سيعلمهم لو لم يكن متعلما؟ وبما أنه المتعلم بما علمه الله به لذا لا يحق أن يوصف بالأمي مصداقا لقوله تعالى: (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ).

قال تعالى: { وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ } 1010. (ومنهم) جاءت للتبعيض وذلك لإظهار الجزء من

---

1009 - العنكبوت 48.

1010 - البقرة 98.



الكل، وهذا يدل على أن البعض الآخر غير أمي، فالذين يعلمون بالكتب والرسل ورسالاتهم هم غير أميين، والذين لا يعلمون شيئاً من هذا هم الأميون، ولذلك فبعض من اليهود وبعض من النصارى وبعض من العرب أميون لا يعلمون الكتاب.

ولذلك "الأُمَّة الَّتِي بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَيْهَا فِيهِمْ مَنْ يَقْرَأُ وَيَكْتُبُ كَثِيرًا كَمَا كَانَ فِي أَصْحَابِهِ وَفِيهِمْ مَنْ يَحْسُبُ وَقَدْ بُعِثَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْفَرَائِضِ الَّتِي فِيهَا مِنَ الْحِسَابِ مَا فِيهَا وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَ عَامِلُهُ عَلَى الصَّدَقَةِ ابْنِ اللَّتْبِيَةِ حَاسِبَهُ. وَكَانَ لَهُ كِتَابٌ عِدَّةٌ - كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَزَيْدٌ وَمُعَاوِيَةُ - يَكْتُبُونَ الْوَحْيَ وَيَكْتُبُونَ الْعُهُودَ وَيَكْتُبُونَ كُتُبَهُ إِلَى النَّاسِ إِلَى مَنْ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ مِنْ مُلُوكِ الْأَرْضِ وَرُؤُوسِ الطَّوَائِفِ، وَإِلَى عُمَّالِهِ وَوُلَاتِهِ وَسُعَاتِهِ وَعَبِيدِهِ ذَلِكَ" 1011.

وعليه كان الرسول محمد عليه الصلاة والسلام أمياً قبل نزول الرسالة عليه أي أنه أمي قبل الرسالة مصداقاً لقوله تعالى: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} 1012 أما بعد نزول الرسالة عليه فهو ليس بأمي، وذلك لأنه أول من قرأ القرآن، وأول من أعلم به الناس، وأول من علمه لهم، وأول من صلى بهم قارئاً، قال تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مِمَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} 1013.

ولأن البعض أمي قال تعالى: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِيَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ

---

1011 - مجموع فتاوى ابن تيمية، ج 6، ص 71.

1012 - العنكبوت 48.

1013 - البقرة 151.

عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ {1014} ولأنه قرآن كريم نزل ليحقق الحق ويبطل الباطل ويدمغه حتى يزهد، لهذا قال: (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) أي بعض من أهل الكتاب وليس كلهم، فلا تعميم حيث البعض يؤمن جانبه والبعض لا يؤمن جانبه، ومن لا يؤمن جانبه إذا دابنته بدين لا يرده إليك فهؤلاء هم مثل الذين يأكلون الربا مصداقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَتُوبُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} {1015}، ومثل الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} {1016}.

ولأنه أسوة حسنة كان عفوا يجب العفو وهو مستغفر لهم في كل أمر لعلهم يتقون، ومشاورا لهم في كل أمر يتعلق بهم لعلهم يرشدون، وعند العزم يتوكل على الله فهو وليه وإليه المصير، فكانت طاعتهم إليه من طاعة الله تعالى {مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} {1017}.

رسول مسلم يجنح للسلم كلما جنح الجانحون إليه، ولا يُكره أحدا على الإيمان حيث لا إكراه في الدين بعد أن تبين الرشد من الغي، إنه نبي الإنس والجن كافة ومعجزته القرآن الكريم، قال تعالى: {قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} {1018}.

1014 - آل عمران 75.

1015 - البقرة 275.

1016 - النساء 10.

1017 - النساء 80.

1018 - الجن 1، 2.

كُلِّفَ مُحَمَّدٌ بِالنَّبَأِ الْعَظِيمِ دَاعِيًا وَمُبَشِّرًا وَمَحْرَضًا وَمَنْذِرًا وَأَمْرًا  
بِالْمَعْرُوفِ وَنَاهِيًا عَنِ الْمُنْكَرِ وَفَاعِلًا لِلْخَيْرَاتِ الْحَسَنَاتِ وَمَكْتَرًا مِنْ أَعْمَالِهَا،  
قَالَ تَعَالَى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى  
اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرْجًا مُنِيرًا وَبَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا وَلَا تُطِيعِ  
الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ  
وَكِيلًا } 1019.

ولذلك فالنبي هو المصلّي والمسلّم عليه، قال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ  
وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا  
تَسْلِيمًا } 1020، يُفْهَمُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَمْرَانِ:  
الأمر الأول: أَنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ.

الأمر الثاني: جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى النَّبِيِّ  
الْكَرِيمِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيُفْهَمُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ  
يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ، أَمَّا أَمْرُ التَّسْلِيمِ فَلَا يَلْحَقُ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِالنَّبِيِّ الْكَرِيمِ،  
بِمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ وَلَكِنَّهُمْ لَا يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ  
لَأَنَّ أَمْرَ التَّسْلِيمِ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ مُؤْمِنٍ بِهِ وَمَتَّبِعٍ لَهُ نَبِيًّا لِيَكُونَ مِنَ  
الطَّائِعِينَ لِأَمْرِ اللَّهِ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا).

فصلاة الله على النبي بأسباب اصطفاؤه له نبيا كريما، وصلاة  
الملائكة عليه بأسباب الطاعة لله تعالى، ولهذا فأمر التسليم لا يلحق  
الملائكة لأنّ النبي محمد عليه الصلاة والسلام لم يكن رسولا للملائكة  
لتسلم عليه تسليما، بل أنه النبي المرسل للإنس والجن، ولهذا يستوجب  
على الإنس والجن الصلاة والسلام على النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

---

1019 - الأحزاب 44 . 48.

1020 - الأحزاب 56.

وبناء على ما تقدم نقول:

حال النبي كحال الرسول من حيث الاصطفاء، فلا نبياً إلا من عند الله، ولا رسولا يصلى ويسلم عليه إلا من عند الله، ولهذا كان لمحمد صفة النبوة التي خصه الله بها كما خصه رسولا للإنس والجن جميعا.

انه المصطفى الذي له من الصفات الحسان ما جعله خير رسول وخير نبي وخير خليفة في الأرض، وجعله خير وارث في الدارين؛ فكان مبشرا ومحرضا ومجاهدا وشاهدا ونذيرا وداعيا للخير وسرجا منيرا، فصلّى الله عليه والملائكة والمؤمنون وسلّموا تسليما إنه الرسول النبي محمد الخالد في الجنة والأنهار من تحتها تجري.

كان أميا لا يعلم بأمر الرسالة إلى أن بلغ بها من ربه ليلبغ الناس بالحق الذي تهدي إليه، إنه المؤيد من عند الله تعالى بجنود تفعل ما تؤمر وهي لا ترى من إلا قبل من يقع الفعل عليهم.

تميّز بالقدوة الحسنة فاتّصف بالخلق العظيم مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} 1021 أي أنه الخلق الذي لا يقارن بأي خلق، نبيا لقد تاب الله عليه وعلى من هاجر معه وناصره واتبعه في ساعة العسرة، {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} 1022. وهو النبي المتبع لما يوحى إليه، علّمه الله القراءة فكان خير قارئ بما أوحى إليه من ربه، قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي

---

1021 - القلم 4.

1022 - التوبة 117.

عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ {1023، فكان خير شاكرا وخير  
محدثا بنعمة ربّه تعالى.

محمد عليه الصلّاة والسّلام رسول مُسرى به ليلا فأراه الله آيات  
عظيمة من آياته الكبرى فسبحان الذي أسرى بعبده ليلا، {سُبْحَانَ  
الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي  
بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} {1024.

محمد عليه الصلّاة والسّلام هو الرّسول الخاتم الذي لا رسول يأتي  
من بعده وهو رسول الكافة مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً  
لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} {1025، وهو لم يكن  
أبا أحد حيث لا آل يؤل إليه، قال تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ  
رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ  
عَلِيمًا} {1026.

وعليه لقد كان محمد ضالا عن الذي يتبعه العرب في زمانه قبل  
الرّسالة، فهم على الكفر وهو محاط برعاية الله وعنايته وحفظه من  
الضلال الذي عليه أمته، ومن بعد الرّسالة كانت الهداية بالحقّ نورا  
للكافة إلا من استغلظ عن الحقّ بغير حقّ.

ولأنّ محمّدا مهدي من الله فقد أصبح هو الهادي لهم إلى ما يهديهم  
التي هي أحسن وأقوم ليكونوا من بعده أمرين بالمعروف وناهين عن  
المنكر والبغي مصلحين في الأرض التي أمر الله تعالى بإصلاحها وغير

---

1023 - العلق 1 . 5.

1024 - الإسراء 1.

1025 - سبأ 28.

1026 - الأحزاب 40.

مفسدين فيها ولا سافكي دماء بغير حقّ، يؤمنون بكل الرّسل ولا يفرّقون بين أحدا منهم فيصلون ويسلمون عليهم كما أمر الله تعالى.

ومع أنّ محمّدا عليه الصّلاة والسّلام هو الذي يعمل على الهداية لله إلا أنّه لا يكره النّاس إلى الهداية، قال تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} {1027}، ولأنّ الهادي بالمطلق هو الله، فأمر الهداية لا يكون مطلقا إلا بيده أمّا من غيره فلا تُعد الهداية إلا جهدا لطاعة ومحبة في وجه الله تعالى.

الهادي مالك الحقّ، والمرشد إليه، ومالك الفوّة والمرشد بها، ومالك القدرة والتسيير بها؛ ولأنه الهادي فلا يهدي إلا للتي هي أحسن وأنفع وأفيد وأجود وأقوم.

الهادي هو الذي يعلم بالمطلق ما لم يعلمه من يُهدى إلى ما يُهدى إليه، ويعلم بصلاحه قبل بلوغه منه، وبعد الهداية إليه وبلوغه تكون الهداية حقّ بالفعل الحقّ بالفوّة والقدرة الحقّ كما كان تعالى هاديا لرسول الله عليه الصّلاة والسّلام بالنبوّة والرّسالة الخاتمة.

الهادي هو مغير الأحوال من حال إلى حال أفضل، وهو على كل شيء قدير، والهادي هو الخالق الذي خلق المهتدين، {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ} {1028}. وهو منزل نصوص وحكم وكلم الهداية إليهم حتى لا يضلون وإن ضل بعضهم فإن الهداية من ورائه تلاحقه بالفعل وتسبقه بالقول حتى بلوغها ومن ضل بعد ذلك كان من الضالين.

ولأنّ الهادي صفته الكمال، والمخلوق صفته النقص، فالمنقوص دائما في حاجة للكمال الذي يهديه إلى ما يجب محبة كاملة.

---

1027 - البقرة 272.

1028 - الإسراء 97.

والهادي هو الذي أرسل الرّسل للهداية، ولكن أهل الضلال استحبوا العمى على الهدى، قال الله تعالى: {فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} 1029 وحبُّ العمى على الهدى انصراف بالكلية عن طريق الرشاد إلى طريق الفساد لا محالة ومن طريق الخلافة إلى طريق الغواية، ومن ارتضى هذا المسلك أوجب على نفسه الضلال، وابتعد عن نعمة الله التي أوجبها على نفسه في هداية خلقه إلى ما فيه خيرهم وبقائهم.

وللهداية أنواع كثيرة منها:

أ . هداية دلالة.

ب . هداية معونة:

ج . هداية تسديد:

د . هداية تأييد:

أ . هداية الدلالة: بمعنى أن الله الهادي قد وضع طرق الهداية لجميع الخلق ليهدوا وأعطاهم من الوسائل التي تعينهم على تقبل الهداية من عقل يربط بين الأشياء قياسا ومنطقا واستدلالا ونتيجة واقتناعا وسلوكا واقتداء وتأثيرا وتأثرا، فمن قبل وعمل استحق النوع الثاني من الهداية وهو هداية المعونة.

ب . هداية المعونة بأن يعينه الله ويثبتته على الهداية.

ج . هداية تسديد للمهتدي الذي يريد أن ينشر الهدى الصحيح ويدخل في ذلك النوع الخليفة.

د . هداية تأييد للأنبياء بالمعجزات والوحي وليس لسواهم.

ولأنّهُ لا هداية تُستمد إلا من الهادي عزّ وجلّ لذا كانت هداية رسول الله كاملة على هذه الصفة التي ارتضاها الهادي تعالى له، فالهادي "هو الذي بصّر عباده وعرفهم طريق معرفته حتى أقروا برّبوبيته وهدى كل مخلوق إلى ما لا بدّ له منه في بقائه ودوام وجوده.

ولأنّ أمر الهداية بيد الهادي المطلق لذا لا يهدي أحد إلا في مشيئته عزّ وجلّ، قال تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} 1030 القول القرآني في هذه الآية الكريمة موجه إلى الرسول الكريم محمد عليه الصلّاة والسّلام أي وإن كنت يا محمد شديد الحرص على هداية أحد تحبه، فإنك لا تستطيع أن تُدخل الهدى إلى عقله أو الإيمان إلى قلبه، ولكن الله يهدي للإيمان من علم فيه قبول الهداية واختيارها، وهو الذي يعلم علما ليس فوقه علم من سيدخل في صفوف المهتدين، فالبعيدون عن الهدى يتأولون ذلك بأنّ الله تعالى وهو الهادي إلى سبيل الرشاد لم يرد لهم الهداية وأن الضلال والغي مكتوب عليهم، والأمر هنا من وجهين:

الوجه الأوّل: فإنّ الله سبحانه وتعالى ما أراد شرا بالعباد وحاشا لله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا، ذلك أن الخالق عزّ وجلّ أعطى الإنسان عقلا مميزا، وبين له الخير والشر والهدى والضلال، وبين كذلك المسالك والمعابر والطرق والدروب التي تؤدّي إلى كل واحد ممّا ذكرنا، وبهذا فإنّ الله تعالى أقام الحجّة على الخلق وتبرأ من الظلم حيث قال تعالى: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} 1031 ومن هذه الآية يتضح لنا الوجه الثاني.

---

1030 - القصص 56.

1031 - آل عمران 182.



والوجه الثاني: هو المتعلق بأمر العلم، فبعض من لإنسان مع عقله ووضوح رؤيته وتمييزه بين الصالح والطالح فقد ترك طريق الهدى واتخذ الغي سبيلا، والبعض الآخر فبعقله وتمييزه ووضوح رؤيته أيضا اختار الهدى واتخذ سبيلا، وبعلم الله المسبق لما سيقع قبل وقوعه كتب الشقاوة والضلال للبعض الأول والهداية للبعض الثاني، وعلى هذا فالعلم سابق على القدر بما ستكسب أيدي الناس، وبما أن الله تعالى هو خالق الخلق، فهو أعلم بهم وبما سيفعلون وبما سيعملون قبل أن يفعلوه وقبل أن يعملوه؛ ولأن علم الله بهم سبق أفعالهم وأعمالهم لذلك سبق على خلق كل واحد منهم كتابه الذي كتبه عليه، ولكن لا يعلم الغيب إلا الله تعالى فنعم المولى الهادي ونعم النصير الهادي الذي وجد محمدا ضالا فهدى.

فالله سبحانه وتعالى لم يرد ظلما بالعباد، ولذلك بث آياته الدالة على وجوده ليهتدي إليها الخلق ومن خلالها يهتدون إلى الخالق، وهي الحجج والبراهين الساطعة التي يوضح الله بها الحق، ويدفع بها الباطل من بعثه الأنبياء والمرسلين، فالله سبحانه وتعالى آمن ضرورات الهداية لخلقه من الأسباب التي عن طريقها تتم معرفة الهدى وصولا إلى الهادي، وضرورة الخلق إلى معرفة الحق عن طريق الهدى ودين الحق فوق كل ضرورة، وحاجتهم إليه فوق كل حاجة، فإنه لا سبيل إلى معرفة الطيب من الخبيث، والصحيح من السقيم، من الاعتقادات والأقوال والأفعال والأحوال على التفصيل إلا من جهة الهداية، ولا سبيل إلى الفوز بالسعادة في المعاش والمعاد إلا من النبوة والرسالات وما جاء به الأنبياء والرسل من الكتب التي تحمل الهداية.

وبالإضافة إلى آيات الهادي الماثورة في هذا الكون التي تهدي الخلق إلى الصراط المستقيم، فقد أرسل الله الأنبياء والرسل دعاء إلى سبيل رشاده وهداه مبينا لهم بما أتى أنبياءه من الكتب، وهي الحجج والبراهين الدامغة للباطل والمحقة للحق، فأنزل مع الرسول الخاتم الكتاب الذي فيه

البيان والهدى والإيضاح، وأنزل معه الميزان، وهو العدل الذي ينصف به المظلوم من الظالم، ويقام به الحقّ وينشر به الهدى ويعامل الناس على ضوئه بالحقّ والقسطاس المستقيم، وبهذا فإن الله تعالى قد أوجد ضرورات الهدى لخلقه عن طريق الرّسالة الخاتمة والرّسول الكافة، إضافة إلى آيات الكون المبتوثة أمام أعين الخلق، ذلك أن ضرورة الخلق إلى معرفة ما جاء به الرّسول الذي هداه الله بهداه ليكون نبيا رسولا للحقّ وللناس كافة، فإنه لا سبيل إلى معرفة الطيب من الخبيث، والصحيح من السقيم من الاعتقادات والأقوال والأفعال والأحوال على التفصيل إلا من هذه الرّسالة والرّسول الذي هداه وأرسله للكافة.

وأما مسألة الهداية عن طريق الإبصار فلها شأن آخر يختلف كلّ الاختلاف عن قضية السمع، حيث جاء في محكم التنزيل قوله تعالى: {وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} 1032 فإنّك يا محمّد إن تسألهم الهداية أو تطلب منهم أن يهتدوا إلى ما فيه خيرهم لا يسمعون سؤالك ولا يجيبون طلبك فضلا عن إرشادك إياهم، وإنك لتراهم كأنّما ينظرون إليك، وهم في الحقيقة لا يرون شيئا، فالرؤية هنا بصرية والخطاب للجميع، فهم غير قادرين على الإبصار وهو بيان عجزهم عن الإبصار بعد بيان عجزهم عن السمع، ونعني أن قدرة الإنسان المخلوق إنّما تكون بهذه الجوارح، فإنّها أدوات يستعين بها الإنسان في جميع أمورهِ ويسيرها العقل المدرك، والمخلوقات الأخرى وإن امتلكت هذه الأعضاء والجوارح فهي تفتقد إلى العقل المدبر للاختيار، فالإنسان له الفضل عليها بامتلاكه العقل المسيطر على هذه الأعضاء؛ لأن الرجل المشية أفضل من الرجل العاجزة عن المشي وكذلك اليد الباطشة أفضل من اليد العاجزة عن البطش والعين الباصرة أفضل من العين العاجزة عن الإدراك والأذن السامعة أفضل من الأذن العاجزة

عن السمع فظهر بهذا البيان أن الإنسان أفضل من هذه المخلوقات  
بكثير، ومن هنا تأتي أهمية البصر في اختيار طريق الهدى.

محمد رسول الله بعث للكافة برسالة خاتمة، ولا رسول من بعده،  
إنه خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليهم وسلم.

نحن لا نقول هذا تعصبا لنبينا صلى الله عليه وسلم، ولا تعصبا  
لديننا الذي ارتضاه الله لنا ملة أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي  
سئمنا مسلمين، ولكنّه إحقاق للحق، لأنّ محمد عليه الصلاة والسلام نبي  
الكافة ورسولا للكافة.

ذلك أنّه عندما يقف المتتبع على صفات النبي محمد التي تتمثل في  
أخلاقه وسيرته صلى الله عليه وسلم، تمتلئ نفسه روعة واضطراباً، وعقله  
ذهولاً ورجاءً، وفؤاده خوفاً وأملاً، ذلك أنّه إمام مصطفى، ونبي مرسل  
من الله تعالى، وإنسان عظيم، لن تأتي كمثلته البتون.

فإن كانت العظمة تهزّ القلوب، وتثير الأفئدة، وتخلب الألباب، فما  
بالك بالعظمة التي انتظمت مع النبوة، والتي عززتها الرسالة، وما بالك  
بالخلق العظيم الذي ارتقى به محمد عليه الصلاة والسلام بالتضحية من  
أجل إعلاء كلمة الله، وخدمة في سبيل الإنسانية وخير البشرية.

إنّ صفات محمد عليه الصلاة والسلام التي استمدّها من الصفات  
المطلقة لله تعالى، كانت المنهج الذي تسير به الدعوة لنشر الرسالة التي  
أدت إلى نتائج عظيمة أهمها:

. إخراج النَّاسِ مِنَ الظُّلَامِ إِلَى النُّورِ مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {الرَّكِتَابُ  
أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ  
الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} 1033.

. إنذار قومهم من أجل نجاتهم مصداقا لقوله تعالى: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ  
الْأَقْرَبِينَ} 1034.

. رسول إلى الكافة تبشيرا وإنذارا مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا  
أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا  
يَعْلَمُونَ} 1035.

ولكونها رسالة الكافة بالنبي الخاتم، فكان أن عمَّ خيرها البشرية  
جمعا، وقدمت الحلول المنطقية لخلاص الأمم من مشاكلها الروحية  
والاجتماعية والاقتصادية.

لقد كانت أخلاق محمد عليه الصلوة والسلام صفاته، وصفاته  
أخلاقه، وكان خلقه القرآن، فإن كان عليه الصلوة والسلام جمع القرآن  
الكريم في أخلاقه، فقد استمدَّ جميع صفات خالقه التي جاء بها الذكر  
الحكيم.

وكتابتنا هذا تناولنا فيه بعضا من صفات نبينا محمد عليه الصلوة  
والسلام وبعضا من خصائصه، وفق المنهج الذي اعتمدناه في استخلاص  
هذه الصفات والخصائص من آيات الذكر الحكيم، كان الهدف من ذلك  
محاولة الوقوف على بعض المعاني التي لا نقول أنه لم يقف عليها أهل  
التفاسير والسير والأخبار، وإنما إسهاما منا في رقد هذا الإرث العظيم من

---

1033 - إبراهيم 1.

1034 - الشعراء 214.

1035 - سبأ 28.

توضيح بعض المفاهيم بطريقة ربّما تختلف عمّن تناول هذا النوع من البحث.

ومع العلم والتسليم أن كثيرا من العلماء والمفكرين من أهل العقائد والفقهِ والعبادات والمحدّثين والإخباريين وما إلى ذلك، جمعوا شيئا عظيما من خصائصه عليه الصّلاة والسّلام في:

. كتب السّير .

. كتب المغازي .

. كتب الهدى .

. كتب الشمائل .

. كتب الخصائص .

. كتب الأذكار .

إلا أنه يبقى عليه الصّلاة والسّلام ذاك المنهل الذي لا يُردّ وارده، ولا يُملُّ بارده.

وإن أردنا أن نجمل مجموع الصفات يكفي أن نذكر منها ما مدحه بها ربّه بقوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} 1036. ويكفي من (خلق عظيم) ألا نحصي ما لا يُحصى، فهو صلّى الله عليه وسلّم، ذكره الله بهذه الصفة وأثنى عليه ومدحه بصفات كثيرة في القرآن الكريم من المنقبات والمكرّمات والمحامد ما لم يُمدّح به نبي ولا رسول.

لقد عمدنا في منهجيتنا في هذا البحث، من خلال الدراسة التي انصبت على صفات محمّد عليه الصّلاة والسّلام وخصائصه إلى الوقوف

على ثلاثة أسس رئيسة في التعامل مع البحث في استخلاص ما استطعنا من صفات من النصوص القرآنية تمثلت في الآتي:

1 . كان كثير منها ممّا تناوله من سبقنا، إلا أنّنا في منهجنا انطلقنا من رؤية أخرى بما فتح الله علينا من مفهوم بعض الصفات والخصائص، ربّما لم يقف عليها أحد، من خلال المعاني وظلال تلك المعاني في سياق الآيات بما تحمل من رؤية تشابكية في سياق السوابق واللواحق، بما تلقي من ظلال معانيها على الصفة أو الخصيصة.

2 . بعض منها نفذنا من خلالها إلى مسائل فكرية يحتملها المعنى بما لا يخالف العقل.

وإنّ تناولنا لها بالطريقة التي اعتمدناها، شكّل لنا رؤية أخرى بما يقبله العقل ولا يتعارض مع النص القرآني، فقد كان جلّ اهتمامنا في تناول هذه الصفات والخصائص أن نقف جهد الإمكان على معنى جديد أو امتدادٍ لمعنى مطروق سابقا بالبرهان على صحة الفكرة والدليل الذي يقبله العقل بما لا يتعارض مع النقل.

3 . البعض الآخر، فإنّنا نشكّ أنّ أحدا وقف عليها بالطريقة التي بيناها في بحثنا، أو أنّه غاص في أعماق معانيها علما أنه على علاقة دائمة بها قولاً وعملاً، وذلك مثل اسمه عليه الصلّاة والسّلام (محمّد). فمحمّد هو اسمه صلّى الله عليه وسلّم، وأسم محمّد موصوف بما حمّد به ممّا جعل الاسم محمّدا في حالة تطابق تام مع الصفة في الموصوف، وهذه من صفات اسم النبي صلّى الله عليه وسلّم، فصار الاسم هو عين الصفة والصفة هي عين الموصوف.

ومحمّد تدل على أنّه محمّد في خلقه وحُلقه وذاته، فهو على ما هو عليه موصوف بما يُحمّد ويُخلّد.

وجاءت صفة التّحميد لسيدنا محمّد معظّمة للموصوف بما يُحمد به  
ويُحمد عليه، ولهذا كان التطابق بين الصّفة والموصوف في اسمه محمّد  
الذي يدلّ على أنّه المحمّد من الله تعالى تحميّدا.

وكذلك لأنّه عليه الصّلاة والسّلام لما كان هو:

. نبي ورسول الكافة.

. النبي الخاتم.

. رسول الثقلين.

فترتّب على ذلك أمور لمحمّد عليه الصّلاة والسّلام لم تكن للأنبياء  
الذين سبقوه صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين، ومن هنا وصف الله تعالى  
نبيّه محمّد عليه الصّلاة والسّلام بما لم يصف به أحدا من الأنبياء من  
قبله، فكان النبي الخاتم، حيث ختم الله تعالى بمحمّد عليه الصّلاة  
والسّلام الرّسالات السماوية قال تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ  
رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ  
عَلِيمًا} 1037.

ولأنّ الله عزّ وجلّ يعطي من يشاء بما يشاء لمن يشاء، فقد اصطفى  
محمّد عليه الصّلاة والسّلام نبيا للكافة، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا  
كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 1038.

لقد وصف الله تعالى محمّدا عليه الصّلاة والسّلام بصفات وخصّبه  
بخصائص كما وصف وخصّ غيره من الأنبياء والمرسلين.

---

1037 - الأحزاب 40.

1038 - سبأ 28.

وهكذا يشترك محمّد عليه الصلّاة والسّلام مع الأنبياء في جميع صفاتهم ولا يشتركون معه في بعض صفاته التي تفرّد بها، ولذا فقد عمدنا في تناول البحث إلى أن فصلنا بعض الخصائص عن بعض الصفات التي لم تذكر لأيّ نبي أو رسول سواه عليه الصلّاة والسّلام كما ذُكرت له.

ولن نبالغ إذا قلنا أنّنا على وعي تام فيما نقول ونبحث، لأنّنا نتصور مدى أهمية مثل هذه الموضوعات التي تعالج قضايا كبرى جوهرية قبل أن نقدم على النظر في مسائلها والكتابة فيها من خلال صفاته وخصائصه صلّى الله عليه وسلّم، لما تضمّن من فضائل وقيم تتعلق بالإنسان جوهرًا وعرضًا، وتمتّ له بصلة في حياته العقديّة والاجتماعية والفكرية.

ولما كان عليه الصلّاة والسّلام مُستميذ صفاته وخصائصه من الصفات والخصائص المطلقة التي وصف الله تعالى بها نفسه، فكان استمداده النسبي لها بشريا في مرتبة النبوة، ولما كانت النبوة هي أعلى درجات البشرية في إنسانيتها ورقبها، فقد وصلت إلى درجة التمام في تمثل الصفات والخصائص المستمدة من الكمال المطلق، ولما اجتمعت النبوة وتمازج الصفات والخصائص وكلاهما من الكمال المطلق، فكانت الرّسالة الخاتمة للناس كافة.

ولذا؛ فإنّ صفات محمّد عليه الصلّاة والسّلام مثبتة في القرآن الكريم بدقة بالغة فوق ما نجد في أيّ مصدر آخر، والسيرة النبوية التي سار عليها عليه الصلّاة والسّلام في دعوته بنشر الرّسالة بالطريقة والأسلوب المعبر عن الخلق الذي يحمل هذه الصفات والمعاهدات التي عاهد عليها والتعامل مع الأتباع والخصوم في:

. الأمر والنهي



. والرّحمة والرّأفة

. والصفح والعفو

. والصدق والعدل

وما إلى ذلك من الصّفات التي مارسها واقعا تطبيقيا، والأعمال التي قام بها وأمر بها لا تترك مجالاً للريب في الشخصية الكاملة على المستوى البشري، والإيمان الوطيد والإخلاص البالغ، وغير ذلك من الصفات التي خلقت الرجال القادة في التاريخ عندما تمثلوها وعملوا بها واتخذوها لهم منهجا.

لقد كان عليه الصّلاة والسّلام القدوة الحسنة لأُمَّته، والأُنموذج البشري الكامل قال جلّ ذكره: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة).

ثمّ إن هناك مسألة مهمة في قضية الصفات التي اتصف محمد عليه الصّلاة والسّلام والصفات التي اتصف بها الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين وهي:

أنا ذكرنا في بحثنا عن صفات الأنبياء، أنّ صفة ما في نبي أظهر منها في نبي آخر، وذلك لخصوصية الرّسالة في القوم المبعوث فيهم وإن كانوا جميعاً يحملون جميع خلال الخير، إلّا أنّ العوامل والظروف هي التي تستدعي ذكر صفة دون صفة بسبب من الزّمان والمكان والإنسان، ولما كان محمد عليه الصّلاة والسّلام هو نبي الكافة وحامل الرّسالة الخاتمة فقد كان له من ذكر الصفات في القرآن الكريم النصيب الأوفى، وهذا من مطلّقة الرّسالة الخاتمة وكونه رسول الكافة، فوجب ذكر صفات تناسب الكافة، وتكافئ الختام.

وعود على بدء نقول: إنّ صفات الأنبياء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ متساوية لدى الجميع، لأنّها من القرآن الكريم خاصّة، وأنّ صفاتهم آيات، وأنّ كلّ صفة وقفنا عليها وأظهرناها في الآية القرآنية الإعجازية، هي صفة إعجازية من صفات الأنبياء ترتبط بالإعجاز، ولذا يشترك الأنبياء مع البشر في جميع صفاتهم الحميدة، ولا يمكن أن يشترك البشر مع الأنبياء في جميع صفاتهم.

إنّ صفات محمّد عليه الصّلاة والسّلام وخصائصه بعد كتاب الله تعالى هي القدوة التي يؤتسى بها، لأنّ الصّفات الحميدة والخصائص السامية، والفضائل الكريمة والقيم الرفيعة هي صفات محمّد وخصائصه التي تبقى منهلا ثرا وموردا مقصودا للمؤمن والكافر.

ومّا تجدر الإشارة إليه في هذا الموضوع أنّ بعض الصفات التي اختصّ الله تعالى بها نبيّه محمّدا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتي أوردناها في بحثنا أنّ هذه الصفات لا يشترك بها معه أي نبي آخر، مثل مطابقة صفته لاسمه، والنبي الخاتم ورسول الكافّة.

قال تعالى: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ} 1039 وقال تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} 1040

مات محمّد كما مات من قبله الأنبياء عليه وعليهم الصّلاة والسّلام إلا عيسى عليه السّلام فقد رفعه الله إليه رفعا إعجازيا؛ فكان رفعة أية من آيات الله الباقيات.

1039 النساء 78.

1040 الرّحمن 26 . 28.

ومن آيات الله الباقيات توجد علاقة بين الرسالة النسخة والرسالات والصّحف والكتب والألواح المنسوخة (كون الرسالات تنسخ بعضها بعضاً) ولهذا لا وجود لأيّ منها (هي كما هي) مُنزلة من الله تعالى، ولهذا تتعدّد روايات الرواة عنها دون اتفاق، ولم تبق رسالة باقية (هي كما هي) إلا الرسالة النسخة (الباقية) القرآن الكريم الذي لا اختلاف على تنزيله بالمطلق، قال تعالى: {هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ} 1041، وقال تعالى: {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} 1042

ومن الآيات الباقيات وهي ذات علاقة مباشرة بالآية السابقة أنّ مقام محمد عليه الصّلاة والسّلام بالمدينة المنورة قد نسخ كلّ مقامات الأنبياء إذ لا وجود لمقام واحدٍ على الأرض متقف عليه، وهذه آية كونها تظهر العلاقة بين رسالة الكافة التي نسخت كلّ ما سبقها من الرسالات وبين الرسول الخاتم الذي بالصّلاة والسّلام عليه يكون الصّلاة والسّلام قد لحقت جميع الأنبياء والرّسل، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} 1043 وقال تعالى: {لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} 1044، وقال تعالى: {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} 1045

1041 البروج 21، 22.

1042 فصلت 41، 42.

1043 سبأ 28.

1044 البقرة 285.

1045 آل عمران 84، 85.

وحتى لا يظن البعض أنّ بحثنا قد عمّم قوله بانعدام وجود مقام لأبيّ نبي في الوقت الذي فيه المقامات تزار في دول من دول العلم نقول: وجب علينا استعراض تلك المقامات المشار إليها:

1 . النبي آدم: يقال إنّّه دفن في الهند، وله مزارات هناك. وقيل إنّّه في مكة. وقيل إنّّه في بيت المقدس، وقيل إنّ مدفن النبي آدم بالعراق في مدينة النجف.

2 . النبي إدريس: قيل إنّ مقامه في الموصل بالعراق ومع ذلك هناك من يقول رفعه الله إليه رفعا.

3 . النبي نوح: قيل إنّّه دفن في مسجد الكوفة. وقيل في الجبل الأحمر. وقيل في المسجد الحرام، وقيل دفن في مدينة كرك اللبانية التابعة لمنطقة البقاع، والتي سميت تيمنا باسمه كرك نوح، وقيل في مدينة جزرة الكردية التركية التي تشترك في حدودها الشمالية مع جبل جودي الذي رست عليه سفينة نوح كما هو معتقد لدى البعض، وجاءت تسمية هذه المدينة بالجزرة؛ لأنّها كانت جزيرة على شكل هلال تقع في منتصف مياه نهر دجلة قبل أن يجف قسم كبير منه، وتمّ تحويل كلمة جزيرة إلى جزرة في العهد العثماني.

4 . هود: اختلفت الآراء في مكان دفن سيدنا هود عليه السّلام، فقد قيل أنّه دُفن في مسجدٍ موجود في محافظة حضرموت في اليمن، ويقع هذا المسجد في قرية مهجورة، وقد وجدت الكثير من الآثار القريبة من المسجد بالإضافة إلى النقوش القديمة حول القبر والتي اعتُقد أنّها تخصّ قوم عاد. هناك اعتقاد آخر يقول إنّ قبر النبي هود عليه السّلام يقع بالقرب من بئر زمزم في السعودية، وهناك اعتقاد يفيد أنّ قبر هو عليه السّلام يقع في سورية في محافظة دمشق تحديدا في مسجدٍ موجود

في دمشق وقيل أيضا أنه يوجد نقش في هذا المسجد يقول: (هذا هو قبر هود).

ومن الآراء الأخرى التي قيلت في هذه المسألة أنّ قبر هود عليه السلام يقع في العراق في مدينة النجف بجوار قبور أنبياء آخرين وهم نوح وصالح وادم عليهم السلام. وفي رأي آخر قيل إنه يقع في مدينة جرش في قرية تسمى (قرية النبي هود) نسبة إليه.

5. النبي صالح: هناك من يزعم أنّ قبره في حضرموت (اليمن). وقيل: إنّ قبره يقع بوادي سر في شمال الكسر وهو وادٍ واسع تصب إليه اودية وجبال كثيرة وفي سفح الجبل الذي باعلاه مكان يقال له (عسنب)، وقول آخر يقول: مقام النبي صالح يقع في المقبرة الإسلامية جنوب مدينة عكا الفلسطينية، وآخرون يقولون: يوجد مقام النبي صالح في جنوب العراق. وكلاهما لا دليل عليه، وأما هي من المواقع التي يخترعها بعض الناس لجذب الناس.

6. النبي لوط: يقال أنّ للنبي لوط عليه السلام قبرا في قرية (صوعر) التي لجأ إليها بعد هلاك قومه. قع مقام النبي لوط (عليه السلام) في الغور الصافي وهو عبارة عن كهف على سفح جبل يطل على البحر الميت. وهناك من يقول إنه دفن في مدينة الخليل بفلسطين.

7. النبي إبراهيم الخليل: يقال إنه دفن في الخليل (فلسطين). والبعض يقول: ثبت مكان موته ولكن لا تُعرف عين البقعة التي دفن فيها.

8. النبي إسماعيل: يقال إنه دفن بجوار والدته هاجر في مكة، وتحدّث بعض الروايات أنّ إسماعيل عليه السلام دفن في الحجر

المعروف بحجر إسماعيل بين الركن والمقام، والحقيقة أنه لم تصح تلك الروايات.

9 . النبي إسحاق: يقال: إنه دفن مع أبيه إبراهيم في الخليل (فلسطين)، ولكن لا دليل قاطع أبدا.

10 . النبي يعقوب: يقال توفي في مصر. وتنفيذا لوصيته نقله ابنه يوسف إلى الخليل بفلسطين، وهنا لا يقين في هذا الأمر، مع العلم أنّ الأنبياء الذين قد حدّدت أوطان مدافنهم ولكن لا يقين بأعينها أين هي يقينا.

11. النبي يوسف: مات في مصر، ونقله إخوته تنفيذًا لوصيته ودفن في نابلس بفلسطين، وهناك روايات تشير إلى أنه مات ودفن في مصر في مكان غير معلوم.

12 . النبي شعيب: يقال: إنّ قبر النبي شعيب عليه السلام بالقرب من قرية بليدا جنوب لبنان، وقول آخر إنه يقع في منطقة وادي شعيب جنوب مدينة السلط في الأردن، وهو عبارة عن مسجد حديث فيه قبرٌ يُنسب للنبي شعيب، ويُعد من المواقع الأثرية المهمّة في الأردن، وأحد أشهر المقامات استقطابًا للزوّار في الأردن<sup>1046</sup>.

13 . النبي أيوب: يقال إنه دفن بجوار زوجته بقرية الشيخ سعد القريبة من دمشق، ويقال: دفن في جنوب سلطنة عمان في محافظة ظفار

---

<sup>1046</sup> جريدة الغد. اطّلع عليه بتاريخ 22 يونيو 2015. وجريدة الدستور. اطّلع عليه بتاريخ 22

يونيو 2015.

في أعلى منطقة أتين، وله مقام في الأردن في منطقة بطنا في محافظة السلط في المنطقة التي أطلق عليها اسم خربة أيوب 1047

14 . النبي ذو الكفل: يقال: إنّه ولد في مصر، وتوفي في سيناء أيام التيه. وقيل دفن بجوار والده في أرض الشام، كما يقال أنّ قبره يتواجد في قرية كفل حارس في مدينة نابلس في فلسطين.

15 . النبي يونس: لا توجد أدلة تاريخية أكيدة على المكان الذي توفي فيه النبي يونس عليه السّلام، ولهذا هناك مقامان له، الأوّل موجود في كفرا القديمة في لبنان، محاطا بالآثار، والأعمدة المزركشة، وبعض الحجارة المنقوشة برموز تاريخيّة، أمّا المقام الثاني، فموجود في شمال شرق نهر دجلة فوق تلة النبي يونس أو ما يسمّى بتلة التوبة، في الموصل، في العراق، وهي المكان الذي عاش فيه النبي يونس، وتمّ بناء مسجد هناك باسم جامع النبي يونس.

16 . النبي موسى: يقال: إنّه توفي في سيناء ودفن هناك. ويقول البعض الآخر إنّه دفن في جبل نيبو الواقع في المملكة الأردنية الهاشمية إلى الجهة الغربية من مدينة مادبا الأردنية.

17 . النبي هارون: توفي في سيناء ودفن هناك، كما ورد ذكر قبره عليه السّلام على قمة جبل في مدينة البتراء الأردنية.

18 . النبي الياس: قيل قبره في بعلبك (لبنان) ولا تود وثيقة تثبت ذلك.

19 . النبي اليسع: هناك من يزعم أنّ قرية الأوجام بالقطيف تحتوي على قبر النبي اليسع لذلك جعلوا له مصلى. وقال آخرا قبره في قرافة

---

<sup>1047</sup> وكالة الأنباء الأردنية - الملك يفتتح مسجد مقام النبي أيوب ويشارك جموع المصلين أداء

مصر في تربة أليسع ويقال أنّها سُمّيت بتربة اليسع لاحتوائها على قبره، وقد أكد ذلك ياقوت الحموي عندما ذكر في رسم (مصر) أن بها قبر النبي.

20 . النبي داود: مقام النبي داود من الأماكن الإسلامية التي يجوبها المسلمون في مدينة القدس. ويتألف المقام من ضريح النبي ويقع المقام على ربوة مرتفع جبل صهيون، أمّا حقيقة كونه مدفوناً في هذا الموقع فما هي إلا قصة خيالية لا تمت إلى الواقع بصلة، وقد كشفت الآثار عن مجمع كنيسة لليهود المنتصرين ونعلم من شهادة أيفانيو ان كنيسة مسيحية كانت في المكان وعليه فإنّ قبر داود المزعوم ليس إلا كنيسة مسيحية<sup>1048</sup>.

21 . النبي سليمان: توفّي وهو متكأي على عكازه، ولم يلاحظ أيُّ أحدٍ بأنّه قد مات حتى انتهوا من البناء، ظانّين بأنّه يصلي ويتذكّر، وبعد أن سقطت عصاه أرضاً لاحظوا بأنّه قد مات. ومنهم من قال إنّّه في لبنان أو العراق، والديانة اليهوديّة تعتقد بأنّه في فلسطين، ولكن لا توجد أدلة تثبت مكان القبر بالتحديد. كما ورد ذكر قبره عليه السّلام في جنوب سلطنة عُمان في محافظة ظفار.

22 . النبي زكريا: يقع مقام النبي زكريا عليه السّلام في الجهة الشماليّة من قرية ابو سنان ويؤدّي اليه الشارع الجديد الموصل الى قرية جث الجليل.

23 . النبي يحيى: يقال ذُبح وهو في المحراب تنفيذاً لرغبة امرأة فاجرة من قبل ملك ظالم. ذكر أن رأسه مدفون في الجامع الاموي (دمشق).

---

<sup>1048</sup> موسوعة تاريخ أقباط مصر - Coptic history بقلم المؤرخ عزت اندراوس.



24 . النبي عيسى: رفعه الله بعد بعثته بثلاث سنوات. ويقال القبر المقدس في المسيحية يقع القبر المقدس في كنيسة القيامة أو كما تسمى كنيسة القبر المقدس، وهذه الكنيسة تقع في البلدة القديمة في مدينة القدس العاصمة الفلسطينية. تم بناء كنيسة القيامة فوق الجلجلة، والجلجلة هي تلك الصخرة التي يسود اعتقاد أن السيد المسيح كان قد صلب فوقها.

25 . النبي محمد: هو النبي الذي لا اختلاف على مقامه في المدينة المنورة وهو النبي الخاتم صاحب المقام الخاتم.

فصلاة ربّي وسلامه عليك يا سيدي يا رسول الله، وجزاك الله عنا خير ما جرى به نبي عن أمته، ونسأل الله أن تكون شفيعنا يوم القيامة، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

وختاماً: لم نترك قضية اهتدينا إلى أهميتها إلا وأخذناها بالنقاش والحوار والبحث التفصيلي ساعين إلى تقديم عمل مفيد وعلى درجة من الأهمية دون أن ننسى أن الكمال لله وحده فإذا وقعنا من دون قصد فيما يخالف عقيدة صحيحة (ولا نظنّ فعلنا)؛ فما ذلك إلا من سهوة أو غفلة والله المستعان.

إنّنا نقدم اليوم كتاباً نعتقد أنّه يختلف في طريقة العرض والمناقشة عما سبق أن قرأنا واطلعنا ممّا كتب عن عيسى صلّى الله عليه وسلّم، فقد تجرد البحث عن المؤثرات الفكرية خلا يقيننا بأنه عبد الله ورسوله أرسل برسالة إلى بني إسرائيل يُصدق بما لديهم من التوراة ويُحل لهم ما حُرم عليهم مدعماً بآيات الله المعجزات.

كذلك نأى البحث عن المباحكات والصراعات والسجلات لأثما لم تكن من غاياته ولا هدفاً من أهدافه، وقلنا إن الموضوعية هي هدفنا

الذي نصبو إليه لذلك تركنا كل المخاصمات خلف ستار الاحترام والتقدير وذهبنا نلتمس النور في غير هذه الساحات المفخخة.

كما نعتقد أنه من الواجب القول أنّ عملنا هو محاولة في الطريق ليست هي الأخيرة ولن تكون، ولكنها يد مدت تدعو إلى المشاركة للنهوض بالبحث بهذه القضايا المهمة من قضايا القصص في القرآن الكريم.

نقول: إنّ الكمال لله، وأنّ الله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا، وندعوه مخلصين أن يكون هذا العمل من أحسن أعمالنا، أنه نعم المولى ونعم النصير.

وختاما:

لقد أنجزت هذا العمل الموسوعي بعد جهدٍ متواصل بدأته قبل ثماني سنوات وأنجزته في هذه الليلة المباركة (ليلة القدر) الموافق 26 من رمضان الكريم، 2017/6/21م، اللهم باسمك الغفور استغفرك، وباسمك التواب اتوب إليك، وباسمك الحميد احمدك، وباسمك الشكور اشكرك على فضلك الذي مدّني حيويّة ومقدرة على البحث والانجاز مع نعمة البصر والصبر وكثير من النعم التي انعمت بها عليّ.

اللهم تقبل هذا العمل الموسوعي صدقة لوجهك الكريم، وانفعني به شفاء من الألم والداء، ومكّني به سلامة وامنا وحفظا ورعاية ومكانة ونقاء، واجعل لي عندك قدرا بجلالك الذي جعل هذه الليلة (فيها يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ)، واجعلني من عبادك الصّالحين الوارثين، واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا، وارحم والديّا جنّة النعيم، واحفظ أسرتي وما نملك من الفساد والضياع والهلاك، وافتح علينا يا الفتح مُلكا واسعا، ومكانة رفيعة، ورزقا بلا حساب، وبارك في زوجتي وبنائي واصلح احوالهم وارضاء

عنهم وعن أخوتي وأخواتي ومن يدعو لي وادعوا له صلاحاً وعلماً  
وحكمة ورحمة ورزقاً حلالاً. اللهم أني أركع وأسجد اليك طاعة فلا  
تجعلني تحت أيّ ظرف أركع وأسجد لسواك، اللهم إنك عفوا تحب العف  
فأعفو عني، اللهم أني توكلت على ذاتك العلياً واسمائك الحسنى وأوليت  
أمري وأمر أسرتي وأمر ما املك إليك ولا حول ولا قوة إلا بك، والحمد  
لله رب العالمين.

26 من رمضان الكريم الموافق 2017/6/21م

أ.د. عقيل حسين عقيل

القاهرة